

روضۃ المحمّدين وسرخۃ المشناقین

تألیف
العلامة سحرّ الدین محمد بنه ابی بکر بن قیّم الجوزیّة

الناشر
دار النبلاء
بیروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رب بسر يا كريم

الحمد لله الذى جعل المحبة إلى الظفر بالحبيب سبيلا ، ونصب طاعته ،
والخضوع له على صدق المحبة دليلا ، وحرك بها النفوس إلى أنواع الكمالات
إيثارا لطلبها وتحصيلها ، وأودعها العالم العلوى والسفلى لإخراج كماله من القوة
إلى الفعل إيماداً وإمداداً وقبولا ، وأثار بها الهمم السامية والعزمات العالية إلى
أشرف غاياتها تخصيصاً لها وتأهيلا ، فسبحان من صرف عليها القلوب كما يشاء
ولما يشاء بقدرته ، واستخرج بها ما خلق له كل حي بمكنته ، وصرفها أنواعاً
وأقساماً بين بريته ، وفصلها تفصيلا ، فجعل كل محبوب لمحبه نصيباً ، مخطئاً كان
فى محبته أو مصيباً ، وجعله بمحبه منعماً أو قتيلاً . قسمها بين محب الرحمن ،
ومحب الأوثان ، ومحب النيران ، ومحب الصُّلبان ، ومحب الأوطان ، ومحب
الإخوان ، ومحب النسوان ، ومحب الصبيان ، ومحب الأثمان^(١) ، ومحب الإيمان ،
ومحب الألمان ، ومحب القرآن . وفضل أهل محبته ومحبة كتابه ورسوله على
سائر المحبين تفضيلاً ، فبالحبة والمحبة وُجِدَت الأرض والسموات ، وغلبت قُطِرَت
الخلوقات ، ولما تحركت الأفلاك الدائرات ، وبها وصلت الحركات إلى غاياتها ،
وأتصلت بداياتها بنهاياتها ، وبها ظفرت النفوس بمطالبها ، وحصلت على نيل
مآربها ، وتخلصت من معاطبها^(٢) ، واتخذت إلى ربها سبيلا ، وكان لها دون غيره
مأمولاً وسُؤلاً ، وبها نالت الحياة الطيبة وذائق طعم الإيمان لما رضيت بالله رباً

(١) الأثمان : الأموال .

(٢) المعاطب : المهالك ، واحدها معطب كذهب .

وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مقرّ برؤيته ، شاهد بوحدانيته ، منقاد إليه لمحبتة ، مدعٍ ببطاعته ، معترفٍ بنعمته ، فارٌّ إليه من ذنبه وخطيئته ، مؤملٍ لعفوه ورجته ، طامعٍ في مغفرته ، برىءٍ إليه من خوله وقوّته ، لا يبتغي سواه ربّاً ولا يتخذ من دونه وليّاً ولا وكيلاً ، عائذٌ به ، مانعٌ إليه ، لا يروم عن عبوديته انتقالاً ولا تحويلاً ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه ، وأمينه على وحيه ، وسفيره بينه وبين عباده ، أقرب الخلق إليه وسيلة ، وأعظمهم عنده جاهاً ، وأسمعهم لديه شفاعاً ، وأحبهم إليه ، وأكرمهم عليه ، أرسله للإيمان منادياً ، وإلى الجنة داعياً ، وإلى صراطه المستقيم هادياً ، وفي مرضاته ومحبّته ساعياً ، وبكل معروفٍ آمراً ، وعن كل منكرٍ ناهياً ، رفع له ذكره ، وشرح له صدره ، ووضع عنه وزره ، وجعل الذلّة والصغار على من خالف أمره ، وأقسم بحياته في كتابه المبين^(١) ، وقرن اسمه باسمه ، فإذا ذكر الله ذكر معه ، كما في الخطب والتشهد والتأذين ، فلا يصح لأحدٍ خطبة ولا تشهد ولا أذان حتى يشهد أنه عبده ورسوله شهادة اليقين :

أشهرُّ عليه للنبوّة خاتمٌ من الله ميمونٌ يلوح ويشهد
وضمَّ الإله اسمَ النبي إلى اسمه إذ قال في الخمس المؤذن أشهد
وشقَّ له من اسمه ليحمله فذو العرش محمودٌ وهذا محمد

أرسله على حين فترةٍ من الرسل ، فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل ، وافترض على العباد محبّته وطاعته ، وتوقيره والقيام بحقوقه ، وسدَّ إلى الجنة جميع الطرق فلم يفتح لأحدٍ إلا من طريقه . فلا مطعم في الفوز بجزيل الثواب ،

(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الحجر : (لعمرك إنهم لني سكرتهم يعمهون) وأكثر المفسرين على أن القسم مفعول به النبي صلى الله عليه وسلم .

والنجاة من وبل^(١) العقاب ، إلا لمن كان خافه من السالكين ، ولا يؤمن عبد حتى يكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين ، فصلّى الله وملائكته وأنبيأوه ورسله وجميع عباده المؤمنين عليه ، كما وحد الله وعرف أمته به ودعا إليه ، صلاة لا تروم عنه انتقالا ولا تحويلا ، وعلى آله الطيبين ، وصحبه الطاهرين ، وسلم تسلياً كثيراً .

أما بعد : فإن الله جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، جعل هذه القلوب أوعية ، فخبرها أوعاها للخير وإرشاد ، وشرها أوعاها للغي والفساد ، وسلط عليها الهوى ، وامتنحها بمخالفته لتتنال بمخالفته جنة الأوى ، ويستحق من لا يصالح للجنة بمتابعته نارا تلظى ، وجعله مركب النفس الأمارة بالسوء وقوتها وغذاها ، وداء النفس المظمنة ومخالفته دواها ، ثم أوجب سبحانه وتعالى على العبد في هذه المدة القصيرة التي هي بالإضافة إلى الآخرة كساعة من نهار ، أو كبال ينال الإصبع حين يدخلها في بحر من البحار^(٢) ، عصيان النفس الأمارة ومجانبة هواها ، وردعها عن شهواتها التي في نيلها رداها ، ومنعها من الركون إلى لذاتها ، ومطالبة ما استدعته العيون الطامحة بلحظاتها ، لتتنال بصيبتها من كرامته وثوابه موفراً كاملاً ، وتلتذّ آجلاً بأضعاف ما تركته لله عاجلاً ، وأمرها بالصيام عن محارمه ليكون فطرها عنده يوم لقائه ، وأخبرها أن معظم نهار الصيام قد ذهب ، وأن عيد اللقاء قد اقترب . فلا يطول عليها الأمد باستبطائه . كما قيل :

فما هي إلا ساعة ثم تنقضي ويذهب هذا كله ويزول

(١) وبيل العقاب : شديده . قال تعالى في سورة المزمل (فأخذناه أخذاً مبيناً) .
(٢) هذا المعنى مأخوذ من حديث رواه مسلم وغيره عن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم لصبعه في اليم فليتنظر بهم ترجع .

هيأها لأمرٍ عظيم ، وأعدّها للطبِّ جسيم ، وادّخر لها مالا عينٌ رأت ،
ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطرٌ على قلب بشرٍ من النعيم المقيم ، واقتضت حكمته
البالغة أنها لا تصل إليه إلا من طريق المسكاره والنصب ، ولا تغزُّ إليه إلا على
جسر المشقة والتعب ، لحجبه بالمكروهات ضيافةً له عن الأنفس الدنيئات ،
للمؤثرة للردائل والسفليات ، وشمرت إليه النفوس العلويات ، والهمم العليات ،
امتطت في السير إليه ظهور العزمات ، فسارت في ظهورها إلى أشرف النايات .

وركب سرّوا والليل مرّخه رواقه على كل مفجبرٍ الموارد قائم
حدوا^(١) عزمات ضاعت الأرض بينها فصار سرام في ظهور العزائم
أرثهم نجوم الليل ما يطلبونه على عاتق الشعري وهام النعائم^(٢)
فأمّوا حتى لا ينبغى لسوامهم وما أخذتهم فيه لومة لائم

أجابوا منادى الحبيب لما أذن لهم حتى على الفلاج ، وبذلوا نفوسهم في
مرضاته بذل الحب بالرضا والسماح ، وواصلوا السير إليه بالغدو والرواح . فحيدوا
عند الوصول مسراهم وإنما يحمدُ القوم السرى^(٣) عند الصباح ، تعبوا قليلا ،
فاستراحوا طويلا ، وتركوا حقيرا ، واعتاضوا عظيما . وضعوا اللذة الباجلة
والعاقبة الحيدة في ميزان العقل فظهر لهم التفاوت ، فرأوا من أعظم السفه بيع
الحياة الطيبة الدائمة في النعيم المقيم بلذة ساعة تذهب شهرتها ، وتبقى شقوتها .

(١) حدا الإبل وبها : ساقها وحشها على السير بالحداء .

(٢) الشعري : كوكب نير يطلع عند شدة الحر . قال تعالى في سورة النجم :

(وأنه هو رب الشعري) وهما شمران العبور والعشميصاء .

(٣) السرى : سيرة ليلة . يؤتى ويذكر . وهذا المثل يضرب لمن يحتمل

المشقة رجاء الراحة ، وفي الحديث على مزاوله الأمر ، والصبر ، وتوطين النفس حتى
يحمد عاقبته .

هذا وإن من أيام اللذات لو صفت للعبد من أول عمره إلى آخره لكانت كسحابة صيفٍ تنقشع عن قليل ، وخیال طيفٍ ما استتم الزيارة حتى آتت بالرحيل . قال الله تعالى : (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)^(١) ومن ظفر بمأمله من ثواب الله ، فكأنه لم يُوترَ^(٢) من دهره بما كان يحاذره ويخشاه ، وكان صرير الخطاب رضى الله عنه يتمثل بهذا البيت من الشعر :

كانك لم تُوترَ من الدهر مرةً إذا أنت أدركت الذى أنت طالبه

فصل

وهذا ثمرة العقل الذى به عُرِفَ الله سبحانه وتعالى وأسماءه وصفاته كاله ونعوتُ جلاله ، وبه آمَنَ الْمُؤْمِنُونَ بكتبه ورسله ولقائه وملائكته ، وبه عُرِفَتِ آياتُ ربوبيته وأدلةُ وحدانيته ومعجزاتُ رسله ، وبه امْتَثَلَتِ أوامره واجْتَنِبَتِ نواهيه ، وهو الذى كَلَّحَ العواقبَ فراقبها ، وعملَ بمقتضى مصالحها ، وقاومَ الهوى فردَّ جيشه مغلولاً ، وساعدَ الصبرَ حتى ظفرَ به بعد أن كان يسهماه مقتولا ، وحَثَّ عَلَى الفضائل ، ونهى عن الرذائل ، وقتق للعانى وأدرك الغوامض ، وشَدَّ أزرَ العزم فاستوى عَلَى سُوْقِهِ ، وَقَوَّى أزرَ الحزم حتى حظى من الله بتوقيفه ، فاستجلب ما يزين ، ونفى ما يشين ، فإذا نَزَلَ وسلطانه أسر جنود الهوى فحصرها فى حبس من ترك لله شيئاً عَوَّضَهُ اللهُ خيراً منه ، ونهض بصاحبه إلى منازل الملوك ، إذا صير الهوى الملكَ بمنزلة العبد للملوك ، فهى شجرة

(١) الآيات ٢٠٥ و ٢٠٦ و ٢٠٧ . سورة الشعراء .

(٢) وتر الرجل : أفرغه وأدركه بمكرهه ، وتره أيضاً إذا أصابه وتر وهو الذحل ، أى الثأر عامة أو الظلم فيه .

عزَّمتها الفسك في العواقب ، وساقها الصبر ، وأغصانها العلم ، وورقها حسن الخلق ، وثمرها الحكمة ، ومادتها توفيق مَنْ أزمته الأمور بيديه ، وابتدأها منه وانتهأها إليه . وإذا كان هذا وصفه ، فتبيح أن يدال^(١) عليه عدوه فيمزله عن مملكته ، ويحطه عن رتبته ، ويستنزله عن درجته ، فيصير أسيراً بحد أن كان أميراً ، ويحكموا بهد أن كان حاكماً ، وتابعا بهد أن كان متبوعاً ، ومن صبر على حكمه أرنمة^(٢) في رياض الأمان والمنى ، ومن خرج عن حكمه أوردته حياض الملاك والردى ، قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : لقد سبق إلى جنات عدن أقوامٌ ما كانوا بأكثر الناس صلاة ولا صياماً ولا حجباً ولا اعتقاراً ، لكنهم عقلوا عن الله مواعظه فوجلت منه قلوبهم ، واطمأنَّت إليه نفوسهم ، وخشعت له جوارحهم ، ففاقوا الناس بغييب المنزلة وعلو الدرجة عند الناس في الدنيا وعند الله في الآخرة . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشر ، ولكن الذى يعرف خير الشرين . وقالت عائشة رضى الله عنها : قد أفلح من جعل الله له عقلاً . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ولد لكسرى مولودٌ فأحضر بعض المؤدِّين ووضع الصبي بين يديه وقال : ما خير ما أوتى هذا المولود ؟ قال : عقلٌ يولد معه . قال : فإن لم يكن ؟ قال : فأدبٌ حسنٌ يعيش به فى الناس . قال : فإن لم يكن ؟ قال : فصاعقةٌ تحرقه . وقال بعض أهل العلم : لما أهبَّ الله تبارك وتعالى آدم إلى الأرض أتاه جبريل عليه السلام بثلاثة أشياء : الدين ، والخلق ، والعقل ، فقال : إن الله يخيِّرك بين هذه الثلاثة ، فقال : يا جبريل ما رأيت أحسن من هؤلاء إلا فى

(١) يدال عليه : يغلِبُه وينتصر عليه .

(٢) أرنمة : نعمه ، والرتع : التثمم ، ورتع : أكل وشرب ما شاء فى خمب وسمه . قال تعالى فى سورة يوسف (أرسله ممنا غدا يرتع ويلعب) .

الجنسة ، ومدَّ يده إلى العقل فضمه إلى نفسه فقال للأفريين : اصعدا . فقالا :
أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان . فصارت الثلاثة إلى آدم عليه السلام .
وهذه الثلاثة أعظم كرامة أكرم الله بها عبده ، وأجل عطية أعطاه إياها .
وجعل لها ثلاثة أعداء : الهوى ، والشيطان ، والنفس الأمارة . والحرب بينهما
دُولٌ وسِجال^(١) ، (وَمَا النَّجْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَعَزِّيزُ الْحَكِيمِ)^(٢) وقال
وهب بن منبه : قرأت في بعض ما أنزل الله تعالى : إن الشيطان لم يكابد شيئاً
أشدَّ عليه من مؤمنٍ عاقل ، وإنه ليسوق مائة جاهلٍ فيستجرهم حتى يركب
رقابهم فينقادون له حيث شاء ، ويكابد المؤمن العاقل فيضرب عليه حتى ينال
منه شيئاً من حاجته ، قال : وإزالة الجبل صخرة صخرة أهون على الشيطان
من مكابدة المؤمن العاقل ، فإذا لم يقدر عليه تحول إلى الجاهل فيستأسره ،
ويتمكن من قياده حتى يسلمه إلى الفضاخ التي يتعجل بها في الدنيا الجلد والرجم
والقطع والصاب والفضيحة ، وفي الآخرة العار والنار والشنار^(٣) . وإن الرجلين
ليستويان في البرِّ ويكون بينهما في الفضل كما بين المشرق والمغرب بالعقل ، وما
عبد الله بشيء أفضل من العقل . وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : لو أن العاقل
أصبح وأمسى وله ذنوبٌ بعدد الرمل كان وشيكاً بالنجاة والتخلص منها ، ولو
أن الجاهل أصبح وأمسى وله من الحسنات وأعمال البرِّ عدد الرمل لكان وشيكاً
أن لا يسلم له منها مثقال ذرة . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : إن العاقل إذا زلَّ
تدارك ذلك بالتوبة والعقل الذي رُزقه ، والجاهل بمنزلة الذي يبني ويهدم ،
فيأتيه من جهله ما يفسد صالح عمله ، وقال الحسن : لا يَسِمَ دين الرجل حتى

(١) الحرب بينهم سِجال : يعني أنها مرة لهم ومرة عليهم .

(٢) الآية ١٢٦ : سورة آل عمران .

(٣) الشنار : أقبح العيب ، العار ، الأمر المشهور بالشنعة .

يتمّ عقله ، وما أودع الله امرأ عقلاً إلا استنفذه به يوماً . وقال بعض الحكماء : من لم يكن عقله أغلب الأشياء عليه كان حقه (١) وهلاكه في أحب الأشياء إليه . وقال يوسف بن أسباط : العقل سراج ما بطن ، وزينة ما ظهر ، وسائس الجسد ، وملاك أمر العبد ، ولا تصالح الحياة إلا به ، ولا تدور الأمور إلا عليه . وقيل لعبد الله بن المبارك : ما أفضل ما أعطى الرجل بعد الإسلام ؟ قال : غريزة عقل ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : أدب حسن ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : آخ صالح يستشير ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : صمت طويل ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : موت عاجل . وفي ذلك قيل :

ما وهب الله لأمرئ هبةً أحسن من عقله ومن أدبه
ها جمال الفتي فإن فقدنا ففقدناه للحياة أجل به

فصل

وإذا كانت الدولة للعتل سالمة الهوى ، وكان من خدمه وأتباعه ، كما أن الدولة إذا كانت للهوى ، صار العقل أسيراً في يديه ، محكوماً عليه . ولما كان العبد لا ينفك عن الهوى مادام حياً - فإن هواه لازم له - كان له الأمر بخروجه عن الهوى ، بالسكينة كالمبتنع ، ولكن المقدور له والأمور به أن يصرف هواه عن مراتع الملسكة إلى مواطن الأمن والسلامة ، مثاله : أن الله سبحانه وتعالى لم يأمره بصرف قلبه عن هوى النساء جملة ، بل أمره بصرف ذلك الهوى إلى نكاح ما طاب له منهن من واحدٍ إلى أربع ، ومن الإماء ما شاء ، فانصرف مجرى الهوى من محل إلى محل ، وكانت الريح دهوراً (٢) فاستحالت صباً ، وكذلك هو الظفر والغلبة والقهر ، لم يأمر بالخروج عنه ، بل أمر بصرفه إلى الظفر والقهر والغلبة للباطل وحزبه ، وشرع له من أنواع المغالبات بالسباق وغيره

(١) الخلف : الموت .

(٢) الدور : ريح تهب من المغرب وتقابل القبول وهي الصبا .

بما يُمرّنه ويَعُدُّه للظفر ، وكذلك هوى الكبر والفخر والخيلاء مأذونٌ فيه ، بل مستحبٌّ في محاربة أعداء الله . وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم أبا دُجَانَةَ سِمَاك بن خَرِشَةَ الأنصاري يتبختر بين الصفين فقال : « إنها لَمِشِيَّةٌ يَبْغِضُها اللهُ إلا في مثل هذا الموطن » . وقال : إن من الخيلاء ما يحبها الله ومنها ما يبغض الله ، فالتى يحبها اختيال الرجل في الحرب وعند الصدقة وذكر الحديث ^(١) . فما حرّم الله على عباده شيئاً إلا عوّضهم خيراً منه ، كما حرّم عليهم الاستقسام بالأزلام ^(٢) وعوّضهم منة دعاء الاستغارة ، وحرّم عليهم الربا وعوّضهم منة التجارة الربحية ، وحرّم عليهم القمار وأعاضهم منه أكل المال بالمسابقة النافعة في الدين بالخيل والإبل والسهام ، وحرّم عليهم الحرير وأعاضهم منه أنواع الملابس الفاخرة من الصوف والكتان والقطن ، وحرّم عليهم الزنا واللواط وأعاضهم منهما بالنكاح والتسرى بصنوف النساء الحسان ، وحرّم عليهم شرب المسكر وأعاضهم عنه بالأشربة اللذيذة النافعة للروح والبدن ، وحرّم عليهم سماع آلات اللهو من المعازف والمثاني ، وأعاضهم عنها بسماع القرآن والسبع المثاني ، وحرّم عليهم الخبائث من المطاعم ، وأعاضهم عنها بالمطاعم الطيبات . ومن تلمّح

(١) في مسند الإمام أحمد عن جابر بن عتيك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . « إن من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يبغض الله ، وإن من الخيلاء ما يحب الله ومنها ما يبغض الله . فأما الغيرة التي يحب الله فالغيرة في الريّة . وأما الغيرة التي يبغض الله فالغيرة في غير ريّة . وأما الخيلاء التي يحب الله فاختيال الرجل بنفسه عند القتال واختياله عند الصدقة ، والخيلاء التي يبغض الله فاختيال الرجل في الفخر والبغي » .

(٢) جمع زلم : السهم الذي لا ريش له . وكانوا في الجاهلية يستقسمون بالأزلام ، كانوا يكتبون عليها الأمر والنهي ويضعونها في وعاء فإذا أراد أحدهم أمراً أدخل يده فيه وأخرج سهماً فإن خرج مافيه الأمر مضى لقصد . وإن خرج مافيه النهي كف .

هذا وتأمله هان عليه ترك الهوى المزدى ، واعتاض عنه بالنافع المجدى ، وعرف
حكمة الله ورحمته وتماّم نعمته بحلى عباده فيما أمرهم به ونهاهم عنه وفيما أباحه لهم ،
وأنّه لم يأمرهم بما أمرهم به حاجة منه إليهم ، ولأنهاهم عنه بخلاّ منه تعالى عليهم ،
بل أمرهم بما أمرهم إحساناً منه ورحمة ، ونهاهم عما نهاهم عنه صيانة لهم وحمية^(١) .
فلذلك وضعنا هذا الكتاب وضع عقد الصلح بين الهوى والعقل ، وإذا تم عقد
الصلح بينهما سهل على العبد محاربة النفس والشیطان ، والله سبحانه المستعان ،
وعليه التكلان ، فما كان فيه من صواب فمن الله فهو الموفق له واليعين عليه ،
وما كان فيه من خطأ ففنى ومن الشيطان . والله ورسوله من ذلك بريثان .
وقد جعلته تسعة وعشرين باباً :

الباب الأوّل : فى أسماء المحبة .

الباب الثانى : فى اشتقاق هذه الأسماء ومعانيها .

الباب الثالث : فى نسبة هذه الأسماء بعضها إلى بعض .

الباب الرابع : فى أن العالم العلوى والسفلى إنما وجد بالمحبة ولأجلها .

الباب الخامس : فى دواعى المحبة ومتعلّقها .

الباب السادس : فى أحكام النظر وغائلته وما يجنى على صاحبه .

الباب السابع : فى ذكر مناظرة بين القلب والعين .

الباب الثامن : فى ذكر الشبهة التى احتجّ بها من أباح النظر إلى من
لا يحل له الاستمتاع به وأباح عشقه .

الباب التاسع : فى الجواب عما احتجّت به هذه الطائفة وما لها وما عليها
فى هذا الاحتجاج .

الباب العاشر : فى ذكر حقيقة العشق وأوصافه وكلام الناس فيه .

(١) الحمية : الامتناع عما يضر والوقاية منه .

الباب الحادى عشر : فى العشق وهل هو اضطرارى خارج عن الاختيار ، أو أمر اختياري ، واختلاف الناس فى ذلك وذكر الصواب فيه .

الباب الثانى عشر : فى سكرة العشاق .

الباب الثالث عشر : فى أن اللذة تابعة للمحبة فى السكال والنقصان .

الباب الرابع عشر : فى من مدح العشق ومناه ، وغبط صاحبه على ما أوتيّه من مناه .

الباب الخامس عشر : فى من ذمّ العشق وتبرّم به ، وما احتجّ به كل فريق على مذهبه .

الباب السادس عشر : فى الحكم بين الفريقين ، وفصل النزاع بين الطائفتين .

الباب السابع عشر : فى استحباب تحيّر الصور الجميلة للوصال الذى يحبه الله ورسوله .

الباب الثامن عشر : فى أن دواء المحبين ، فى كمال الوصال الذى أباحه رب العالمين .

الباب التاسع عشر : فى ذكر فضيلة الجمال ، وميل النفوس إليه على كل حال .

الباب العشرون : فى علامات المحبة وشواهدا .

الباب الحادى والعشرون : فى اقتضاء المحبة أفراد الحبيب بالمحب ، وعدم التشريك بينه وبين غيره فيه .

الباب الثانى والعشرون : فى غيرة المحبين على أحبائهم .

الباب الثالث والعشرون : فى عفاف المحبين مع أحبائهم .

الباب الرابع والعشرون : فى ارتكاب سبل الحرام ، وما يفضى إليه من المفسد والآلام .

الباب الخامس والعشرون : في رجة المحبين ، والشفاعة لهم . إلى أجيابهم في الوصال الذي يُدَيِّحُه الدين .

الباب السادس والعشرون : في ترك المحبين أدنى المحبوتين رغبة في أعلامها .
الباب السابع والعشرون : فيمن ترك محبوبه حراماً فبذل له حلالاً ، أو أعاضه الله خيراً منه .

الباب الثامن والعشرون : فيمن آثر عاجل المقوبة والآلام ، كلى لذّة الوصال الحرام .

الباب التاسع والعشرون : في ذمّ الهوى ، وما في مخالفته من نيل المني .
وسميته :

(روضة المحبين ، وثرثرة المشنقين)

والرغوب إلى من يقف قلبه هذا الكتاب أن يعذر صاحبه ، فإنه علقه في حال بعده عن وطنه ، وغيبته عن كتبه ، فما عسى أن يبلغ خاطرهُ المكدود ، وسعيه المجهود ، مع بضاعته المزجاة^(١) ، التي حقيقٌ بناملها أن يقال فيه « تسمع بالمعدي خيرٌ من أن تراه » وها هو قد نصب نفسه هدفاً لسهام الراشقين ، وغرضاً لأسيئة الطاعنين ، فقاريه غنمه ، وعلى مؤلفه غرمه ، وهذه بضاعته تعرض عليك ، وموليتته^(٢) تهدي إليك ، فإن صادفت كفوّاً كريماً لها لن تعدم منه إمساكاً بمعروفٍ أو تسريحاً بإحسان ، وإن صادفت غيره فالله تعالى للمستعان ، وعليه التكالان . وقد رضى من مهرها بدعوة خالصة إن وافقت قبولاً واستحساناً ، وبركّ جميلٍ إن كان حظها احتقاراً واستهجاناً . والنصف يهب

(١) مزجاة : رديئة ومردودة . والمزجي الشيء القليل . قال تعالى في سورة يوسف « وجئنا ببضاعة مزجاة » .

(٢) موليتته : من له ولاية عليها .

خطأ المخطيء لإصابته ، وضيئاته لحسناته . فهذه منة الله في عباده جزاء وثواباً .
ومن ذا الذي يكون قوله كله شديداً وعمله كله صواباً ؟ وهل ذلك إلا المعصوم
الذي لا ينطق عن الهوى ، ونطقه وحىٌ يوحى ، فما صح عنه فهو نقلٌ مصدقٌ
عن قائلٍ معصوم ، وما جاء عن غيره فتبوت الأمرين فيه معدوم ، فإن صح
النقل لم يكن القائل معصوماً ، وإن لم يصح لم يكن وصوله إليه معلوماً .

فصل

وهذا الكتاب يصلح لسائر طبقات الناس . فإنه يصلح عوناً على الدين
وعلى الدنيا ، ومراقبة للذة العاجلة ولذة العقبى ، وفيه من ذكر أقسام المحبة وأحكامها
وإمتلقاتها ، ومحييها وفاندها ، وآفاتهما وغوائها ^(١) ، وأسبابها وموانعها ، وما يناسب
ذلك من نكث تفسيرية ، وأحاديث نبوية ، ومسائل قهية ، وآثار سلفية ،
وشواهد شعرية ، ووقائع كونية ، ما يكون ممتعاً لقاريه ، مُرتِّقاً للناظر فيه ،
فإن شاء أوسعته جداً وأعطاها ترغيباً وترهيباً ، وإن شاء أخذ من هزله ومُلَحَّه
نصيباً ، فتارة يضحكه وتارة يبكيه ، وطوراً يبعده من أسباب اللذة الفانية ، وطوراً
يرغبه فيها ويدنيه . فإن شئت وجدته واعظاً ناصحاً ، وإن شئت وجدته بنصيبك
من اللذة والشهوة ووصل الحبيب مسامحاً . وهذا حين الشروع في الأبواب ،
والله سبحانه الفاتح من الخير كل باب ، وهو المسؤول سبحانه أن يجعله خالصاً
لوجهه الكريم ، مدنياً من رضاه والفوز بجنات النعيم ، والله متولى سريرة العبد
وكسبه ، وهو سبحانه عند لسان كل قائل وقلبه ، (وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ
عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) ^(٢) .

(١) جمع غائلة : الفساد ، والشر ، والداهية .

(٢) الآية ١٠٦ : سورة التوبة .

الباب الأول

في أسماء المحبة

لما كان الفهم لهذا اللفظ أشدّ ، وهو بقلوبهم أعلق ، كانت أسماؤه لديهم أكثر . وهذا عادتهم في كل ما اشتدّ الفهم له ، أو كثر خطوره على قلوبهم ، تعظيماً له ، أو اهتماماً به ، أو محبةً له . فالأول كالأسد والسيف ، والثاني كالدهية ، والثالث كالخمر . وقد اجتمعت هذه المعاني الثلاثة في الحب ، فوضعوا له قريباً من ستين^(١) اسماً وهي : المَحَبَّة ، والعَلاقَة ، والمَوى ، والصَّبوة ، والصَّبابة ، والشَّغَف ، والمِقة ، والوجد ، والكَلَف ، والتَّئيم ، والعِشق ، والجوى ، والدَّنف ، والشَّجو ، والشَّوق ، والخِلافة ، والبلايل ، والتَّباريح ، والسَّدَم ، والغَمَرَات ، والوَهَل ، والشَّجَن ، واللاعِج ، والاكتِئاب ، والوصَب ، والحزن ، والكَمَد ، واللَّذع ، والحرق ، والشَّند ، والأرق ، والألم ، والحنين ، والاستكانة ، والتَّبالَة ، واللَّوعة ، والفتون ، والجنون ، والألم ، والخبل ، والرَّسيس ، والداء المخاير ، والود ، والخلة ، والخلم ، والنَّرام ، والميام ، والتَّذليّة ، والولة ، والتَّعبُد . وقد ذُكر له أسماء غير هذه وليست من أسمائه ، وإنما هي من موجباته وأحكامه فتركنا ذكرها^(٢) .

(١) كذا . ولم يذكر المؤلف منها غير خمسين .

(٢) أكثر ما ذكره هو من صفات الحب وآثاره كما يتضح ذلك في الباب الثاني .

الباب الثاني

في استنقاص هذه الأسماء ومما انبهرها

فأما المحبة فقليل : أصلها الصفاء لأن العرب تقول اصفاء بياض الأسنان ونضارتها حبب الأسنان ، وقيل : مأخوذة من الحباب وهو ما يعلو الماء عند المطر الشديد ، فعلى هذا المحبة غليان القلب وثورانه عند الاحتياج إلى لقاء المحبوب ، وقيل : مشتقة من اللزوم والثبات ، ومنه أحب البعير إذا برك فلم يهتّم ، قال الشاعر (١) :

حُلت عليه بالقلادة ضرباً (٢) ضربَ بعير السوء إذ أجبا

فكان الحب قد لزم قلبه محبوبه فلم يرم عنه انتقالا ، وقيل : بل هي مأخوذة من القلق والاضطراب ، ومنه سمي القرط حبا لقلقه في الأذن واضطرابه ، قال الشاعر (٣) :

تبيت الحية النضناض (٤) منه مكان الحب تستمع السرارا
وقيل : بل هي مأخوذة من الحب جمع حبة ، وهو لباب الشيء وخالصة وأصله ، فإن الحب أصل النبات والشجر ، وقيل : بل هي مأخوذة من الحب الذي هو إنكلا واسع يوضع فيه الشيء فيمتلئ به بحيث لا يسمع غيره ،

(١) هو أبو محمد الفقعسي ، كما قال ياقوت في حاشيته على الصحاح .

(٢) هكذا : والذي في الكشف وكتب اللعة حلت عليه بالتفصيل ضرباً أي

بالسوط .

(٣) هو الراعي

(٤) النضناض من الحيات : الذي لا يثبت في مكانه لثورته ونشاطه أو الذي

يخرج لسانه ويحركه .

وكذلك قلب المحب ليس فيه سعة لغير محبوبة ، وقيل : مأخوذة من الحب وهو الخشب الأربع التي يستقر عليها ما يوضع عليها من جرّة أو غيرها فسمى الحب بذلك لأن الحب يتحمل لأجل محبوبة الأتمثال ، كما تتحمل الخشب ثقل ما يوضع عليها ، وقيل : بل هي مأخوذة من حبة القلب وهي سويداؤه ، ويقال : ثمرته ، فسميت الحبة بذلك لوصولها إلى حبة القلب ، وذلك قريب من قولهم : ظهره إذا أصاب ظهره ، ورأسه إذا أصاب رأسه ، وراه إذا أصاب رثته ، وبطنه إذا أصاب بطنه ، ولكن في هذه الأفعال وصل أثر الفاعل إلى المفعول ، وأما في الحبة فالأثر إنما وصل إلى المحب . وبعد ففيه لغتان حبّ وأحبّ قال الشاعر^(١) :

أحبُّ أبا مروان من أجل ثمرة^(٢) وأعلم أن الرفق بالمرء أرفق
والله لولا ثمرة ما حببته^(٣) ولا كان أدنى من عبدي ومُشرقي
كذلك أنشده الجوهري بالإقواء^(٤) لجمع بين اللتين ، ولكن في جانب الفعل واسم الناعل غلبوا رباعى فقالوا : أحبة يحبّه فهو مُحِب ، وفي المفعول غلبوا فَعَلَ فقالوا في الأكثر محبوبٌ ولم يقولوا : مُحَبٌّ إلا نادراً : قال الشاعر^(٥) :

ولقد نزلت فلا تظنني غيره منى بمنزلة المحبّ المكرم

-
- (١) هو غيلان بن شجاع النهشل كما قال ياقوت في حاشيته على الصحاح .
(٢) في الصحاح : ثمرة ، والتمر : المال المشمر يخفف ويثقل ، وقرأ أبو عمرو : وكان له ثمر بنم فسكون وفسره بأنواع الأموال .
(٣) الإقواء : اختلاف حركة الروى ، ورواية الجوهري : أحب بفتح الألف وكسر الحاء وقال : هذا شاذ . وعلى هذا لم يجمع فيه بين اللتين بل جمع فيه بين الماضي والمبتدأ من حب .
(٤) هو عنبرة بن شداد .

فهذا من أفعال ، وأما حبيب فأكثر استعمالهم له بمعنى المحبوب :
قال الشاعر :

وما زرت لى أن تكون حبيبة إلى ولا دين لها أنا طالبه
وقد استعملوه بمعنى الحب ، قال الشاعر :

وما هجرتك النفس أنك عندها قائل ولا أن قل منك نصيها
ولكنهم يا أحسن الناس أولعوا يقول إذا ما جئت هذا حبيبها

فهذا يحتمل أن يكون بمعنى المحبوب وأن يكون بمعنى المُحِبِّ ، وأما الحبُّ
بكسر الحاء فلفظة في الحبِّ وغالب استعماله بمعنى المحبوب قال في الصحاح : الحبُّ
المحبة وكذلك الحب بالكسر . والحبُّ أيضاً الحبيب مثل خذني وخذيني .
قلت : وهذا نظير ذبح بمعنى مذبوح ، ونهب بمعنى منهوب ، ورشق بمعنى
مرشوق ، ومنه السَّبَّ ويشترك فيه الفاعل والمفعول ، قال أبو عبيد : السَّبُّ
بالكسر الكثير السَّباب ، قال الجوهري : وسبك الذي يسأبك ، قال حسان :
لا تسببني فلت يسبي إن سبي من الرجال الكريم
والصواب أنه عبد الرحمن بن حسان . وقد يشترك فيه المصدر والمفعول نحو
رزق . وفي إعطائهم ضمة الحاء للمصدر سر طيف ، فإن الكسرة أخف
من الضمة ، والمحسوب أخف على قلوبهم من نفس الحب ، فأعطوا الحركة
الخفيفة للأخف ، والثقيلة للأثقل ، ويقال : أحبة حبا ومحبة والمحبة أم باب
هذه الأسماء .

فصل

وأما كلام الناس في حداثها فكثير ، قليل : هي الميل الدائم ، بالقلب الهائم .
وقيل : إيثار المحبوب ، على جميع المصحوب ، وقيل : موافقة الحبيب ،

فى المشهد والمغيب . وقيل : اتَّحَادُ مُرَادِ الْحُبِّ ومراد المحبوب . وقيل : إِيْثَارُ مراد المحبوب على مُرَادِ الْحُبِّ . وقيل : إِقَامَةُ الْخِدْمَةِ مع القيام بِالْحُرْمَةِ . وقيل : استغلال الكثير منك للمحبوب ، واستكثار القليل منه إليك . وقيل : استيلاء ذكر المحبوب على قلب الحب . وقيل : حَقِيقَتُهَا أَنْ تَهَبَ كُلَّكَ لِمَنْ أَحْبَبْتَهُ ، فلا يبقى لك منك شيء . وقيل : هِىَ أَنْ تَمَحُوَ مِنْ قَلْبِكَ مَا سِوَى المحبوب ، وقيل : هِىَ الْغَيْرَةُ لِلْمَحْبُوبِ أَنْ تُذْتَقَصَ حُرْمَتُهُ ، وَالْغَيْرَةُ عَلَى الْقَلْبِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ سِوَاهُ . وقيل : هِىَ الْإِرَادَةُ الَّتِي لَا تَنْقُصُ بِالْجَفَاءِ ، وَلَا تَزِيدُ بِالْبِرِّ . وقيل : هِىَ حِفْظُ الْحُدُودِ ، فَلَيْسَ بِصَادِقٍ مَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ مَنْ لَمْ يَحْفَظْ حُدُودَهُ . وقيل : هِىَ قِيَامُكَ لِلْمَحْبُوبِ بِكُلِّ مَا يَحِبُّهُ مِنْكَ . وقيل : هِىَ مُجَانِبَةُ السُّلُوكِ عَلَى كُلِّ حَالٍ كَمَا قِيلَ :

وَمَنْ كَانَ مِنْ يَطْلُولِ الْهَوَى ذَاقَ سَلَوَةً فَإِنِّى مِنْ أَيْلَى لَهَا غَيْرُ ذَائِقِ
وَأَكْثَرُ شَيْءٍ نِلْتُهُ مِنْ وَصَالِهَا أَمَانِي لَمْ تَصْدُقْ كَلِمَةً بَارِقِ
وقيل : نَارٌ تَحْرِقُ مِنَ الْقَلْبِ مَا سِوَى مُرَادِ الْمَحْبُوبِ . وقيل : ذِكْرُ المحبوب على عدد الأنفاس كما قيل (١) :

يُرَادُ مِنَ الْقَلْبِ نَسْيَانُكُمْ وَتَأْبَى الطَّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ

وقيل : عَمَى الْقَلْبُ عَنْ رُؤْيَا غَيْرِ الْمَحْبُوبِ ، وَجَمَعَهُ عَنْ سَمَاعِ الْعَذْلِ فِيهِ ، وَفِي الْحَدِيثِ : « حُبُّكَ لِلشَّيْءِ يُعْنِي وَيُصِمُّ » (٢) رواه الإمام أحمد . وقيل : مِيلُكَ إِلَى الْمَحْبُوبِ بِكُلِّ يَتِّكَ ، ثُمَّ إِيْثَارُكَ لَهُ عَلَى نَفْسِكَ وَرُوحِكَ

(١) الْبَيْتُ لِلْبُتْنِيِّ .

(٢) فِي مُسَدِّ الْإِمَامِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « حُبُّكَ

الشَّيْءَ يُصِمُّ وَيُعْمَى » .

ومالك ، ثم موافقتك له سرّاً وجهراً ، ثم علمك بتقصيرك في حبه ، وقيل :
 هي بذالك الجهد فيما يرضى الحبيب . وقيل : هي سكون بلا اضطراب ،
 واضطراب بلا سكون ، فيضطرب القلب فلا يسكن إلا إلى محبوبه ، فيضطرب
 شوقاً إليه ويسكن عنده . وهذا معنى قول بعضهم : هي حركة القلب على
 الدوام إلى المحبوب وسكونه عنده ، وقيل : هي مصاحبة المحبوب على الدوام
 كما قيل :

ومن عَجَبٍ أَنِي أَجِنُّ إِلَيْهِمْ وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مِنْ لَقِيْتُ وَهُمْ مَعِي
 وَتَطْلُبُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا وَيَشْتَاقُهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلَعِي
 وقيل : هي أن يكون المحبوب أقرب إلى الحب من رُوحه كما قيل :
 يَأْمُقِيًّا فِي خَاطِرِي وَجَنَانِي وَبَعِيدًا عَنِ نَظَرِي وَعِيَانِي
 أَنْتَ رُوحِي إِنْ كُنْتُ لَسْتُ أَرَاهَا فَهِيَ أَذْنِي إِلَىَّ مِنْ كُلِّ دَانِي
 وقيل : هي حضور المحبوب عند الحب دائماً كما قيل :

خِيَالُكَ فِي عَيْنِي وَذِكْرُكَ فِي فَمِي وَمِثْوَالُكَ فِي قَلْبِي فَأَيْنَ تَغِيْبُ ؟
 وقيل : هي أن يستوى قرب دار المحبوب وبعدها عند الحب كما قيل :
 يَا نَاوِيًّا بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَالْحَشَى ^(١) مَنِي وَإِنْ بَعُدَتْ عَلَيَّ دِيَارُهُ
 عَقْلًا عَلَى صَبٍّ يَمْحُكُ هَائِمُهُ إِنْ لَمْ تَصِلْهُ تَصَدَّعَتْ أَعْشَارُهُ ^(٢)
 لَا يَسْتَفِيْقُ مِنَ الْغَوَامِ وَكَلِمَا حُجْبُوكَ عَنْهُ تَهْتَكُ أَسْتَارُهُ

(١) الجوانح جمع جانحة : الأضلاع تحت الترائب مما يلي الصدر كالضلع
 مما يلي الظهر والحشى : مادون الحجاب مما في البطن . والحشا : ما انضمت
 عليه الضروع .

(٢) جمع عشر : القطعة من كل شيء .

وقيل : هي ثبات القلب على أحكام النمرام واستلذاذ العذل فيه والملام كما قيل (١) :

وقف الهوى بى حيث أنتِ فليس لى متأخر عنه ولا متقدم
وأهنتى فأهنتُ نفسى جاهداً ما من يهون عايلك ممن يُكرم
أشبهت أعدائى فصرتُ أحبهم إذ كان حظى منك حظى منهم
أجدُ اللامة فى هوائك لذية حباً لذكرك فليكنى الأوم

فصل

وأما العلاقة وتسمى العلق بوزن الفائق فهي من أسمائها قال الجوهري : والعلق أيضاً الهوى يقال : نظارة من ذى علق ، قال الشاعر (٢) :

ولقد أردتُ الصبرَ عنك فعاقنى علقٌ بقلبي من هوائك قديم
وقد علقها بالكسر وعلق حبها بقلبه ، أى هوىها وعلق بها علوقاً ،
وسميت علاقةً لتعلق القلب بال محبوب ، قال الشاعر (٣) :
أعلاقة أم الوليد بعدما أفنان رأسك كالثغام المغلس (٤)

فصل

وأما الهوى فهو ميل النفس إلى الشيء ، وفعله هوى يهوى هوىً ، مثل
عمى يعمى عمى . وأما هوى يهوى بالفتح فهو السقوط ، ومصدره الهوى

(١) هو لابی الشیص .

(٢) هو ابن الدمينة كما قال ياقوت .

(٣) هو المرار الفقمسى كما قال ياقوت .

(٤) الثغام بالفتح : نبت يكون فى الجبل يبيض إذا يبس ويشبه به الشيب .
والمغلس : الذى خالط سواده البياض .

بالضم ، ويقال الهوى أيضاً على نفس المحبوب ، قال الشاعر :

إن التي زعمت فؤادك مآها خلقت هواك كما خلقت هوى لها

ويقال : هذا هوى فلان^(١) وفلانة هواه ، أى مهوىته ومحبوبته ، وأكثر ما يستعمل في الحب للذموم كما قال الله تعالى : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)^(٢) ويقال : إنما سى هوى لأنه يهوى بصاحبه . وقد يستعمل في الحب المدح استعمالاً مقيداً . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ »^(٣) وفي الصحيحين عن عروة قال : كانت خولة بنت حكيم من اللاتى وهبن أنفسهن للنبي صلى الله عليه وسلم فقالت عائشة رضى الله عنها : أمانتجى المرأة أن تهب نفسها للرجل ؟ فلما نزلت (تُرْجَىٰ مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمْ)^(٤) قلت يا رسول الله ما أرى ربك إلا يسارع فى هواك . وفى قصة أسارى بدر قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر رضى الله عنه ولم يهتو ما قلت ، وذكر الحديث^(٥) . وفى السنن أن أعرابياً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : جئت أسألك عن الهوى فقال : « اللزء مع من أحب » .

(١) كذا . . ولعل الصواب : هوى فلانة .

(٢) الآيتان ٤٠ و ٤١ . سورة النازعات .

(٣) فى الأربعين للنزوى قال : هو حديث صحيح روينا فى كتاب الحجج

بإسناد صحيح .

(٤) الآية ٥١ . سورة الأحزاب .

(٥) فى صحيح مسلم . رواه أيضاً الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى

كما قال السيوطى .

فصل

وأما الصَّبُوة والصَّبَا فن أسماءها أيضاً قال في الصحاح : والصَّبَا من الشوق يقال منه : تصابا وصبا يَصْبُو صَبُوءً وَصُبُوءًا ، أى مال إلى الجهل ، وَأَصْبَتْهُ الجارية وَصَبَى صَبَاءً مثل سَمِعَ سَمَاعًا ، أى لعب مع الصبيان . قلت : أصل الكلمة من الميل يقال : صبا إلى كذا ، أى مال إليه ، وَصَبَّتِ الصَّبُوة بذلك لميل صاحبها إلى المرأة الصبيَّة والجمع صبايا مثل مَطَيَّة وَمَطَايَا ، والتصابي هو تعاطى الصَّبُوة مثل التمايل وبإير . والفرق بين الصَّبَا والصَّبُوة والتصابي أن التصابي هو تعاطى الصَّبَا وأن تعمل فعل ذى الصَّبُوة . وأما الصَّبَا فهو نفس الميل . وأما الصَّبُوة فالمرَّة من ذلك مثل النَّشُوءة والكَبُوءة ، وقد يقال على الصفة اللازمة مثل القَسُوءة . وقد قال يوسف الصديق عليه السلام : (وَأَلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنِ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) ^(١)

فصل

وأما الصَّبَابَةُ فقال في الصحاح : هي رقة الشوق وحرارته ، يقال : رجل صَبٌّ عاشقٌ مشتاق ، وقد صَبَّبتَ يا رجلُ بالكسر ، قال الشاعر ^(٢) :
ولستَ تَصَبُّ إلى الطاعنين إذا ما صديقك لم يَصْبَبْ
قلت : والصَّبَابَةُ من المضاعف من صَبَّ يَصْبَبُّ ، وَالصَّبَا وَالصَّبُوءَةُ من المعتل . وهم كثيرٌ ما يماقبون بينهما ، فينبغي تناسبٌ لفظي ومعنوي ، قال الشاعر :

تَشْكِيَّ الحُبُّونَ الصَّبَابَةَ لَيْتَنِي تَحَمَّلْتُ مَا يَلْقَوْنَ مِنْ يَنْهَمٍ وَحْدِي

(١) الآية ٣٣ : سورة يوسف . (٢) هو الكميته كما قال ياقوت

ويقال : رجلٌ صَبَّ وَامْرَأَةٌ صَبَّتْ كما يقال : رجلٌ عَدَلُ وامْرَأَةٌ عَدَلَتْ .

فصل

وأما الشَّغَفُ فمن أَسْمَائِهَا أيضاً : قال الله تعالى : (قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا)^(١)
قال الجوهري وغيره : والشَّغَفُ غلاف القلب وهو جلدة دونه كاللحجاب يقال :
شَغَفَهُ الحب ، أى بلغ شغافه ، وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما (قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا)
ثم قال : دخل حُبُّهُ تحت الشَّغَفِ .

فصل

وأما الشَّعْفُ بالعين المهملة في الصحاح شَعَفَهُ الحُبُّ ، أى أحرق قلبه ، وقال
أبو زيد : أَمْرَضَهُ ، وقد شُعِفَ بكذا فهو مشعوفٌ ، وقرأ الحسن (قَدْ شَعَفَهَا
حُبًّا) قال : بطنها حُبًّا .

فصل

وأما المَقَّةُ فهي فعلة من وَمَقَّ يَمَقُّ ، وَالْمَقَّةُ المحبة والماء عوضٌ من الواو
كالعِظَّة والعِدَّة والزينة ، فإن أصلها فعل فخذفوا المقاء فعوضوا منها تاء التأنيث
جبراً للكلمة وتعويضاً لما سقط منها ، والفعل وَمَقَّ يَمَقُّ بالكسر فيها ، أى
أَحَبَّهُ فهو وامق .

فصل

وأما الْوَجْدُ فهو الحب الذى يتبعه الحزن ، وأكثر ما يُسْتَعْمَلُ الْوَجْدُ
في الحزن ، يقال منه : وَجَدَ وَجْدًا بالفتح ، ونحن نذكر هذه المادة وتصاريفها ،
يقال : وَجَدَ مطلوبه يَجِدُهُ وَجُودًا ، فإن تعلق ذلك بالضالِّ سَمَوْهُ وَجْدَانًا ،

(١) الآية ٣٠ . سورة يوسف .

وَوَجَدَ عَلَيْهِ فِي الْغَضَبِ مَوْجِدَةً ، وَوَجَدَ فِي الْحُزْنِ وَجْداً بِالْفَتْحِ ، وَوَجَدَ فِي الْمَالِ ، أَيْ صَارَ وَاجِداً وَجْداً وَوُجْداً وَوَجْداً بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ وَالْكَسْرِ وَجِدَةً إِذَا اسْتَغْنَى ، وَأَمَّا إِطْلَاقُ اسْمِ الْوَجْدِ عَلَى مَجْرَدِ مَطْلَقِ الْمَحَبَّةِ فَغَيْرُ مَعْرُوفٍ ، وَإِنَّمَا يُطْلَقُ عَلَى مَحَبَّةٍ مَعَهَا فَقَدْ يُوجِبُ الْحُزْنَ .

فصل

وَأَمَّا الْكَأَفُ فَهُوَ مِنْ أَسْمَاءِ الْحُبِّ أَيْضاً ، يُقَالُ : كَلِفْتُ بِهِذَا الْأَمْرَ أَيْ أَوَلَمْتُ بِهِ فَأَنَا كَلِفْتُ بِهِ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

فَتَعَلَّمِي أَنْ قَدْ كَلِفْتُ بِكُمْ ثُمَّ اصْنَعِي مَا شِئْتِ عَنْ عِلْمِ
وَأَصْلُ اللَّفْظَةِ مِنَ الْكُلْفَةِ وَالْمَشَقَّةِ ، يُقَالُ : كَلَّفَهُ تَكْلِيفاً إِذَا أَمَرَهُ بِمَا يَشُقُّ .
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) ^(١) وَمِنْهُ تَكَلَّفْتُ الْأَمْرَ تَجَشُّمَتُهُ ، وَالْكُلْفَةُ مَا يُتَكَدَّنُ مِنْ نَائِبَةٍ أَوْ حَقٍّ . وَالتَّكَلُّفُ الْمُتَعَرِّضُ لِمَا لَا يَمْنِيهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) ^(٢) وَقِيلَ : هُوَ مَا خُوِذَ مِنَ الْأَثَرِ وَهُوَ شَيْءٌ يَعْلُو الْوَجْهَ كَالسَّمْسِمِ .
وَالْكَأَفُ أَيْضاً : لَوْنٌ بَيْنَ السَّوَادِ وَالْحُمْرَةِ وَهِيَ حُمْرَةٌ كَدِرَةٌ تَعْلُو الْوَجْهَ ،
وَالْأَسْمُ الْكُلْفَةُ .

فصل

وَأَمَّا التَّيِّمُ ^(٣) فَهُوَ التَّعَبُّدُ ، قَالَ فِي الصَّحَاحِ : تَيِّمُ اللَّهُ أَيْ عَبْدَ اللَّهِ ، وَأَصْلُهُ

(١) الْآيَةُ ٢٨٦ . سُورَةُ الْبَقَرَةِ (٢) الْآيَةُ ٨٦ . سُورَةُ ص .
(٣) لَعَلَّ الصَّوَابَ هُوَ التَّيِّمُ : أَنْ يَسْتَعْبِدَ ، الْهَوَى ، وَهُوَ ذَهَابُ الْعَقْلِ مِنَ الْهَوَى .

من قولهم : تيممه الحب إذا عبده وذلك فهو متيم ، ويقال : تامته المرأة ، قال
لقيط بن زرارة :

تامت فؤادك لو يحزنك ما صنعت إحدى نساء بني ذهل بن شيبان

فصل

وأما العشق فهو أمر هذه الأسماء وأخبثها ، وقل ما ولبت به العرب ،
وكانهم ستروا اسمه وكنوا عنه بهذه الأسماء فلم يكادوا يفضحوا به ، ولا تسكاد
تجده في شعرهم القديم ، وإنما أولع به المتأخرون ، ولم يقع هذا اللفظ في القرآن
ولا في السنة إلا في حديث سويد بن سعيد^(١) وسنتكم عليه إن شاء الله تعالى .
وبعد فقد استعملوه في كلامهم ، قال الشاعر :

وماذا عسى الراشون أن يتحدثوا سوى أن يقولوا إني لك عاشق
نعم صدق الراشون أنت حبيبة إلى وإن لم تصف منك الخلائق

قال في الصحاح : العشق فرط الحب ، وقد عشقها عشقا مثل علم عِلْمًا وعشقا
أيضا عن الفراء ، قال رؤبة :

* ولم يضعها بين فرك^(٢) وعشق *

قال ابن السراج : إنما حرته ضرورة وإنما لم يحركه بالكسر إتباعا
للعين كأنه كره الجمع بين كسرتين فإن هذا عزيز في الأسماء ، ورجل عشيق
مثل فسيق ، أي كثير العشق ، والتعشق تكلف العشق قال الفراء : يقولون
امرأة محبة لزوجها وعاشق . وقال ابن سيده : العشق محبة المحب بالمجبور
يكون في عفاف الحب ودعارته ، يعني في العفة والفجور . وقيل : العشق الاسم

(١) هو حديث : د من عشق ففكتم فمات فهو شهيد .

(٢) فرك : يفضض وكره .

والعشق المصدر ، وقيل : هو مأخوذ من شجرة يقال لها : عاشقة^(١) تخضر ثم تدرك وتصفّر ، قال الزّجاج واشتقاق العاشق من ذلك ، وقال الفراء : عشق عشقاً وعشقاً إذا أفرط في الحب ، والعاشق الفاعل ، والمعشوق المفعول ، والعشيق يقال لهذا ولهذا ، وامرأة عاشق وعاشقة قال^(٢) :

وَلَدَّ كَطَعْمِ الصَّرْحَدِيِّ طَرَحْتُهُ عَشِيَّةَ خُسِ القوم والعينُ عاشقة^(٣)
وقال الفراء : العشق نبتٌ لزجٌ ، وُسِّمِيَ العشق الذي يكون من الإنسان للصوفة بالقلب وقال ابن الأعرابي : العَشَقَةُ اللبابة تخضر وتصفّر وتعلق بالذي يليها من الأشجار ، فاشتق من ذلك العاشق . وقد اختلف الناس هل يُطلق هذا الاسم في حق الله تعالى ؟ فقالت طائفة من الصوفية : لا بأس بإطلاقه ، وذكروا فيه أثراً لا يثبت ، وفيه : فإذا فعل ذلك عشقني وعشقتني ، وقال جمهور الناس : لا يُطلق ذلك في حقه سبحانه وتعالى ، فلا يقال إنه يعشق ، ولا يقال عشقه عبده . ثم اختلفوا في سبب المنع على ثلاثة أقوال ، أحدها : عدم التوقيف^(٤) بخلاف المحبة . الثاني : أن العشق إفراط المحبة ، ولا يمكن ذلك في حق الرب تعالى ، فإن الله تعالى لا يوصف بالإفراط في الشيء ، ولا يبلغ عبده ما يستحقه من حبه فضلاً أن يقال أفرط في حبه . الثالث : أنه مأخوذ من التغرير

(١) كذا . . والذي في كتب اللغة عشقة بفتح الحين وستأتي قريباً .

(٢) هو الراعي .

(٣) في اللسان : صرخد : موضع نسب إليه الشراب في قول الراعي . والخس : من أظاء الإبل أن ترد الإبل الماء في اليوم الخامس من ورودها السابق . وقوله : ولد ، يريد نوم لذيذ ، والهاء في عاشقة تعود على النوم وذكر العين على معنى الطرف .

(٤) التوقيف في الشرع كالتص .

كما يقال للشجرة المذكورة عاشقة^(١) ، ولا يطلق ذلك على الله سبحانه وتعالى .

فصل

وأما الْجَوَى في الصحاح : الجوى : الحُرقة وشدة الوجد من عشق أو حزن ، تقول منه : جَوَى الرجل بالكسر فهو جَوٍ مثل دَوٍ ، ومنه قيل للماء المتغير المُنْتِن : جَوٍ ، قال الشاعر^(٢) :

ثم كان المزاجُ ماءً سحابٍ لا جَوٍ آجن^(٣) ولا مطروقُ

فصل

وأما الدَّنْفُ فلا تكاد تستعمله العرب في الحب ، وإنما وَلِعَ به المتأخرون ، وإنما استعملته العرب في المرض . قال في الصحاح : الدَّنْفُ بالتحريك المرض الملازم ، رَجُلٌ دَنَفٌ أَيضاً يعنى بفتح النون وامرأةٌ دَنَفٌ وقومٌ دَنَفٌ ، يستوى فيه المذكر والمؤنث والثنية والجمع ، فإن قلت : رجلٌ دَنَفٌ بكسر النون قلت : امرأةٌ دَنَفَةٌ أنثى وثنيته وجمعت ، وقد دَنَفَ المريضُ بالكسر قُتِلَ وأدَنَفَ بالألأب مثله ، وأدنفه المرضُ يتعدى ولا يتعدى فهو مُدَنَفٌ ومُدَنَفٌ . قلت : وكأنهم استعاروا هذا الاسم للحب اللازم تشبيهاً له به والله أعلم .

فصل

وأما الشَّجْوُ فهو حبٌ يتبعه همٌّ وحزن . قال في الصحاح : الشَّجْوُ : الهمُّ والحزن ، يقال : شَجَّاهُ يَشْجُوهُ شَجْوًا : إذا أحزنه ، وأشجَّاه يُشْجِيهِ إشْجَاءً :

(١) الصواب عاشقه ، أنظر صفحة (٢٨) .

(٢) هو عدى بن زيد .

(٣) آجن الماء : تغير طعمه ولونه ورائحته .

إذا أُغْصَهُ . تقول منها جميعاً : شَجِيَّ بالكسر يَشْجِي شَجِيَّ قال الشاعر^(١) :
لا تنكروا القتل وقد سُيِّنا في حلقكم عظمٌ وقد شَجِينا
أراد حلوقكم ، والشَّجِيَّ ما يَنْشَبُ في الخلق من عظمٍ أو غيره ، ورجلٌ
شَجِيٌّ ، أى حزينٌ وامرأةٌ شَجِيَّةٌ على فِعْلَةٍ . فأطلق هذا الاسم على الحب للزومة
كالشَّجِي الذي يعاق بالخلق وينشَبُ فيه .

فصل

وأما الشوق فهو سفر القلب إلى المحبوب ، وقد وقع هذا الاسم في السنة ،
في المسند من حديث عمار بن ياسر أنه صلى صلاةً فأوجز فيها ، فقيل له :
أوجزت يا أبا اليقظان ، فقال : لقد دعوت فيها بدعوات سمعتن من رسول الله
صلى الله عليه وسلم يدعو بهن : اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ؛
أَحْيِنِي إذا كانت الحياة خيراً لى ، وتوفَّنِي إذا كانت الوفاة خيراً لى . وأسألك
خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا ، وأسألك
القصد في الفقر والغنى ، وأسألك نعيماً لا ينفدُ ، وأسألك قرة عينٍ لا تنقطع .
وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك بَرَدَ العيش بعد الموت ، وأسألك لذة
النظر إلى وجهك ، والشوقَ إلى لقائك ، في غير ضراءٍ مضرة ، ولا فتنةٍ مضلة
اللهم زيناً بزيينة الإيمان ، واجعلنا هداةً مهتدين^(٢) . وجاء في أثرٍ إسرائيلي
طال شوق الأبرار إلى لقاءى ، وأنا إلى لقاءهم أشوق . وقد قال الله تعالى
(مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاقِيَهُ) ^(٣) . قال بعض العارفين

(١) هو المسيب بن زيد مناة.

(٢) هكذا .. وفي بعض النسخ اختلاف عما في المسند وجامع السيوطي

(٣) الآية ٥٠ سورة العنكبوت .

لما علم الله شوق المحبين إلى لقائه ضرب لهم موعداً للقائه تسكن به قلوبهم . وبعد
فهذه اللغزلة من أسماء الحب ، قال في المصباح : الشوق والاشتياق : نزاع النفس
إلى الشيء ، يقال : شاقني الشيء يشوقني فـ... شائق وأنا مشوق وشوقني
فتشوقت : إذا هيج شوقك ، قال الرابض :
يا داراً مية بالدكاديك البرق^(١) سقيماً لقد هيجت شوق المشتاق
يريد المشتاق قال سيويو : كمنز ما ليس بمهوز ضرورة .

فصل

واختلف في الفرق بين الشوق والاشتياق أيهما أقوى ، فقالت طائفة :
الشوق أقوى فإنه سنة لازمة ، والاشتياق فيه نوع انفعال كما يدل عليه بناؤه
كلا لاكتساب ونحوه ، وقالت فرقة : الاشتياق أقوى لكثرته حروفه ، وكلما
قوى المعنى وزاد زادوا حروفه ، وحكمت فرقة ثالثة بين القواين . وقالت :
الاشتياق يكون إلى غائب ، وأما الشوق فإنه يكون للحاضر والغائب . والصواب
أن يقال : الشوق مصدر شاقه يشوقه إذا دعاه إلى الاشتياق إليه ، فالشوق داعية
الاشتياق ومبداء ، والاشتياق موجه ونائيه ، فإنه يقال : شاقني فاشتقت ،
فالاشتياق فعل مطارع لشاقني . واختلف أرباب الشوق هل يزول الشوق
بالوصال أو يزيد ؟ فقالت طائفة : يزول ، فإن الشوق سفر القلب إلى المحبوب ،
فإذا وصل إليه انتهى السفر .

وأقلت عصاها واستقر بها النوى كذا قر عينا بالإياب المسافر^(٢)

(١) في المصباح ياداري قال : والد كذاك من الرمل : ما تبد منه بالأرض
ولم يرتفع والجمع الدكادك والدكاديك . والبرقة بالنم : خلط فيه حجارة ورمل
وملين مختلطة والجمع برق .
(٢) البيت لمقر بن حمار .

قالوا : ولأن الشوق إنما يكون لغائب فلا معنى له مع الحضور ، ولهذا إنما يقال للغائب : أها إليك مشتاق : وأما من لم يزل حاضراً مع المحب فلا يوصف بالشوق إليه . وقالت طائفة : بل يزيد بالقرب واللقاء واستدلوا بقول الشاعر :

وأعظم ما يكونُ الشوق يوماً إذا دنتِ الخيامُ من الخيامِ
قالوا : ولأن الشوق هو حُرقة للمحبة والتهابُ نارها في قلب المحب ، وذلك مما يزيد به التقرب والمواصله . والصواب أن الشوق الحادث عند اللقاء والمواصله غير النوع الذي كان عند الغيبة عن المحب ، قال ابن اثيري :

أعاقبها والنفسُ بعدُ مشوَّقةٌ إليها وهل بعد العناق تداني
وألم فها كي تزولَ صبايتي فيشدُّ ما ألقى من الهيمان
ولم يك مقدارُ الذي بي من الجوى ليشفيه ما ترشَّفُ الشفان
كأن فؤادي ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين تترجان

فصل

وأما الخِلابة فهي الحب الخادع ، وهو الحب الذي وصل إلى الخَلْب وهو الحجاب الذي بين القلب وسراد البطن . وسمى الحب خِلابةً لأنه يخدع ألباب أربابه ، والخِلابة : الخديمة باللسان ، يقال : خَلَبَهُ يَخْلُبُهُ بالضم واختابه مثله . وفي المثل : إذا لم تَغْلِبْ فَاخْلُبْ ، أي فَاخْدَعْ . والخَلِبة : الخِداعة من النساء قال الشاعر (١) :

أودى الشبابُ وحُبُّ الخالة (٢) الخِلابةُ وقد برئتُ فما بالقلب من قلبه (٣)

(١) في الصحاح : قال الفر .

(٢) في الصحاح : امرأة خالة ، أي بخالة ، وتقوم بخالة ، أي بختالون ، ويروى الخلبة أيضاً بفتح اللام على أنه جمع وهم الذين يخدعون النساء .

(٣) أي برئت من داء الحب ولم يعد بالقلب علة .

قال ابن السكيت : رجلٌ خلابٌ ، أى خداعٌ كذابٌ ، ومنه البرق الخلاب الذى لا غيث فيه كأنه خادع ، ومنه قيل لمن يعد ولا يُنجز : إنما أنت برق خلب . والخلاب أيضاً : السحاب الذى لا مطر فيه ، ومنه الحديث : « إِذَا بَايَعْتَ قَوْمًا لَا خِلَابَةَ » (١) أى لا خديعة . والحب أحق ما يُسمى بهذا الاسم ، لأنه يُعمى ويُعمى ، ويخدع أبَّ المحب وقلبه .

فصل

وأما البلايل فجمع بَلَابِلَةٍ ، يقال : بلايل الحب وبلايل الشوق ، وهى وساوسه وهمه . قال فى الصحاح : البَلَابِلَةُ والبَلْبَالُ : الهمَّ وَوَسْوَاسُ الصدر .

فصل

وأما التباريح فيقال : تباريح الحب ، وتباريح الشوق ، وتباريح التجوى . وبرّح به الحب والشوق : إذا أصابه منه التبرح وهو الشدة . قال فى الصحاح : لقيت منه برّحاً بارحاً ، أى شدةً وأذى ، قال الشاعر :

أَجِدُّ هَذَا عَمَرَكَ اللَّهُ كَمَا دَعَاكَ الْهَوَى بَرِّحْ لَعَيْنِكَ بَارِحُ

ولقيت منه بنات برّح وبنى برّح ، ولقيت منه البرّحين والبرّحين ، بكسر الباء وضمها ، أى الشدائد والدوامى .

فصل

وأما السدّم بالتحريك فهو الحامب الذى يتبعه ندمٌ ومحزن . قال فى الصحاح : السدّم بالتحريك : الندم والحزن وقد سدّم بالسكر ، ورجلٌ نادى سداماً وندماناً سداماً ، وهو إتباعٌ ، وما له همٌّ ولا سدمٌ إلا ذاك .

(١) الكتب الستة وغيرها .

فصل

وأما الغمرات فهي جمع غمرة ، والغمرة ما يغمر القلب من حب أو شكر أو غفلة . قال الله تعالى : (قَتَلَ آدَمُ أَخَاهُ هَابِلَ . الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ)^(١) أى في غفلة قد غمرت قلوبهم . وقال تعالى : (فَذَرْنَاهُمْ فِي غُرَّتِهِمْ حَتَّى حِينٍ)^(٢) ومنه الماء الغمر الكثير الذى يغطى من دخل فيه ، ومنه غمرات الموت ، أى شدائده ، وكذلك غمرات الحب ، وهو ما يغطى قلب المحب فيغمره ، ومنه قولهم : رجل غمر الرداء ، كناية عن السخاء ، لأنه يغمر العيوب ، أى يغطيها فلا يظهر مع السخاء عيب . قال كثير :

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكاً غلقت لصحبته رقاب المال

وقال القطامي يصف سفينة نوح :

إلى الجودي حتى صار حجراً وكان لذلك الغمر انحسار^(٣)

أى لذلك الماء الذى غمر الأرض ومن عليها .

فصل

وأما الوهل فهو بتحريك الماء وأصله النزاع والروع ، يقال : وهل يؤهل وهو وهل ومستهل . قال القطامي يصف إبلاً :

(١) الآيتان ١٠ و ١١ . سورة الذاريات .

(٢) الآية ٥٥ . سورة المؤمنون .

(٣) الجودي : هو الجبل الذى استوت عليه سفينة سيدنا نوح عليه السلام . الحجر : الممنوع الذى له حاجز . والنمر جمع غمرة . قال ابن سيده : وجمع السلامة أكثر .

وترى لحيضتين عند رحيلنا وهلا كان بين جنة أولق^(١)
وإنما كان الوهل من أسماء الحب لما فيه من الرّوع ، ومنه يقال :
جمال رائع . فإن قيل : ما سبب روعة الجمال ولأى شيء إذا رأى المحب
محبوبه فجأة يرتاع لذلك ويصفر لونه ويبهت . قال الشاعر :
وما هو إلا أن أراها فجأة فابهت حتى لا أكاد أجيب

وكثير من الناس يرى محبوبه فيصفر ويرتعد ؟ قيل : هذا مما خفى سببه
على أكثر المحبين فلا يدرون ما سببه ، فقيل شبيه أن الجمال سلطان على
القلوب ، وإذا بدا راع القلوب بسلطانه ، كما يرؤعها الملك ونجومه من له سلطان
على الأبدان ، فسلطان الجمال والمجبة على القلوب ، وسلطان الملوك على الأبدان ،
فإذا كان السلطان الذى على الأبدان يرؤع إذا بدا ، فكيف بالسلطان الذى هو
أعظم منه ؟ قالوا : وأيضاً فإن الجمال يأسير القلب فيحس القلب بأنه أسير
ولا بد لتلك الصورة التى بدت له ، فيرتاع كما يرتاع الرجل إذا أحس بمن
يأسره ، ولهذا إذا أمن الناظر من ذلك لم تنمض له هذه الرّوعة . قال الشاعر :
علامة من كان الهوى بقواده إذا ما رأى محبوبه يتغير

فصل

وأما الشجن فهو من أسمائه ، فإن الشجن الحاجة حيث كانت ، وحاجة
المحب أشد شيء إلى محبوبه . قال الراجز :

(١) فى اللسان قال : وهو الروغان والمدول عن التمدد ، وأصل الجيضى
الميل عن الشيء . والأولق : الجنون ، وقيل : الحفة من النشاط كالجنون .

إني نأبدي لك فيما أبدي لي شجنان شجنٌ ينبغي
وشجنٌ لي يسلا السند

والجمع شجون . قال : والنفس شتى شجونها^(١) ، ويجمع على أشجان .
قال الشاعر :

نَحْمَلُ أَهْوَائِي وَلَمْ يَجِدُوا وَجْدِي وَلِلنَّاسِ أَشْجَانٌ وَلِي شَجْنٌ وَحْدِي
وَقَدْ شَجَّنْتَنِي الْحَاجَةُ تَشْجُنُنِي شَجْنًا : إِذَا حَبَسْتِكَ ، وَوَجْهٌ آخِرٌ أَيْضًا
وَهُوَ أَنَّ الشَّجْنَ الْحُزْنَ وَالْجَمْعَ أَشْجَانٌ ، وَقَدْ شَجَّنَ بِالْكَسْرِ فَهُوَ شَاجِنٌ
وَأَشْجَنَهُ غَيْرُهُ وَشَجَّنَهُ ، أَيْ أَحْزَنَهُ ، وَالْحَبُّ فِيهِ الْأَمْرَانِ : هَذَا وَهَذَا .

فصل

وأما اللاعج فهو اسم فاعل من قولهم : لَعَجَهُ الضربُ إِذَا آلَمَهُ وَأَحْرَقَ
جلده . قال الهذلي^(٢) :

* ضَرْبًا أَلَمًا بَسِيتَ يَا عَجُ الْجِلْدَةِ *^(٣)

ويقال : هو لاعج الحرقعة الفؤاد من الحب .

فصل

وأما الاكتئاب فهو افتعال من الكأبة ، وهي سوء الحال والانكسار
من الحزن ، وقد كُتِبَ الرَّجُلُ يَكْأَبُ كَأْبَةً وَكَأْبَةً كَرَأْفَةً وَرَأْفَةً ، وَنَشَأَ

(١) أصل البيت رواه ابن بري وهو :

ذَكَرْتُكَ حَيْثُ اسْتَأْنِ الْوَحْشَ وَالْقَتَّ رَفَاقٌ بِهِ وَالنَّفْسُ شَقِي شَجُونَهَا

(٢) في ياقوت : هو عبد مناف بن ربع الجربي ، وصدره :

هَذَا إِذَا تَجَرَّدَ نُوحٌ قَامَتَا مَعَهُ هـ

(٣) السبب بالكسر : نكل جلد يدبرغ . يلعبج : يؤلم ويحرق .

ونشأة فهو كَثِيبٌ، وامرأةٌ كَثِيبَةٌ وكأُباءٌ أيضاً . قال الرازي^(١) :

* أَوْ أَنْ تَرَى كُأْبَاءَ لَمْ تَبْرَنْشِقِ *

واكتأب الرجلُ مثله ، وَرَمَادٌ مُكْتَتِبٌ اللون : إذا ضرب إلى السواد كما يكون وجه الكَثِيب ، والكُأْبَةُ تتولد من حصول الحب وفوت المحبوب فتحدثُ بينهما حالةٌ سيئة تسمى الكُأْبَةُ .

فصل

وأما الوَصَبُ فهو ألمُ الحب ومرضه فإن أصل الوَصَبِ المرض ، وقد وَصِبَ الرجلُ يَوْصَبُ فهو وَصِيبٌ ، وَأَوْصَبَهُ اللهُ فهو مُوَصَّبٌ ، وَالْمُوَصَّبُ بالتشديد الكثير الأوجاع . وفي الحديث الصحيح : « لَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ كَمٍّ وَلَا وَصَبٍ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكَهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ »^(٢) وَوَصِبَ الشيءُ يَصِيبُ وَصُوبًا إذا دام ، تقول : وَصِبَ الرجلُ على الأمر إذا دام عليه . قال الله تعالى : (وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ)^(٣) وقال تعالى : (وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا)^(٤) أى الطاعة دائمة .

فصل

وأما الحزن فقد عُدَّ من أسماء المحبة والصواب أنه ليس من أسماؤها ، وإنما هو حالة تحدث للمحب ، وهى ورود المكروه عليه ، وهو خلاف السرور ، ولما كان الحُب لا يخلو من ورود مالا يسرّ على قلب المحب كان الحزن من لوازمه .

(١) فى يافوت : هو جندل بن المثنى الطهوى يخاطب ابنة أخيه .

والمبرنشق : الفرح السرور وقد ابرنشق .

(٢) فى صحيح مسلم وغيره بالفاظ متقاربة .

(٣) الآية ٩ . سورة الصافات .

(٤) الآية ٥٢ . سورة النحل .

وفي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : « **الْأَعْمَى إِنْ أُعُوذَ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ ، وَضَلَعِ الدِّينِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ** »^(١) ، فاستعاذ صلى الله عليه وسلم من ثمانية أشياء ، كل شيتين منهما قرينان . فالهم والحزن قرينان ، فإن ورود المكروه على القاب إن كان لما مضى فهو الحزن ، وإن كان لما يستقبل فهو الهم ، والعجز والكسل قرينان فإن تخلف العبد عن كماله إن كان من عدم القدرة فهو العجز ، وإن كان من عدم الإرادة فهو الكسل ، والجبن والبخل قرينان ، فإن الرجل يراحم منه النفع بماله أو يبدنه ، فالجبان لا ينفع يبدنه ، والبخل لا ينفع بماله ، وضلع الدين وغلبة الرجال قرينان ، فإن قهر الناس نوعان : نوع بحق فهو ضلع الدين ، ونوع بباطل فهو غلبة الرجال . وقد نفي الله سبحانه وتعالى عن أهل الجنة الخوف والحزن ، فلا يحزنون على ما مضى ، ولا يخافون مما يأتي ، ولا يطيب العيش إلا بذلك ، والحبيب يلزمه الخوف والحزن .

فصل

وأما الكمدُ فمن أحكام المحبة في الحقيقة وليس من أسمائها ، ولكن المتكلمون في هذا الباب لا يفرقون بين اسم الشيء ولازمه وحكمه ، والكمد الحزن المكتوم ، تقول منه : كمد الرجل فهو كمدٌ وكَمِيدٌ والكَمْدَةُ تَعْيِيرُ اللون وأَكْمَدَ القَصَّارُ الثوب إذا لم يُنْقَه .

فصل

وأما اللذع فهو من أحكام المحبة أيضاً ، وأصله من لذع النار . يقال :

(١) في الصحيحين وغيرهما . والضلع : القهر .

لَذَعْتُهُ النَّارُ لَذْعًا : أحرقته ، ثم شبهوا لَذَعَ اللسان بِلَذَعِ النار ، فقالوا : لَذَعُهُ بلسانه ، أى أحرقه بكلامه ، يقال : أعوذ بالله من لَوَازِجِهِ .

فصل

وأما الحُرْقُ فهو أيضاً من عوارض الحُبِّ وآثاره ، والحُرْقَةُ تكون من الحُبِّ تارةً ومنه قولهم : مالك حُرْقَةٌ عَلَى هذا الأمر ، وتكون من الغيظ ومنه فى الحديث : « تَرَكَتُهُمْ يَتَحَرَّقُونَ عَلَيْكُمْ » .

فصل

وأما السُّهْدُ فهو أيضاً من آثار المحبة ولوازمها ، فالسُّهْدُ : الأرقُ وقد سَهَدَ الرجل بالكسر يَسْهَدُ سَهْدًا ، والسُّهْدُ بضم السين والهاء : القليل النوم . قال أبو كبير الهذلي :

فَأَنْتَ بِهِ حُوشَ الْجَنَانِ مُبْطِنًا سُهْدًا إِذَا مَا نَامَ لَيْلُ الرُّوحِ جَلْ (١)
وسهْدته أنا فهو مُسَهَّد .

فصل

وأما الأرقُ فهو أيضاً من آثار المحبة ولوازمها فإنه السهر . وقد أَرِقْتُ بالكسر أى سهرت ، وكذلك انْتَرَقْتُ عَلَى انتعالت فأنا أَرِقٌ ، وَأَرَقْنِي كَذَا تَأْرِيقًا ، أى سهرنى .

فصل

وأما اللَّهْفُ فمن أحكامها وآثارها أيضاً ، يقال : لَهَفَ بالكسر يَلْهَفُ

(١) حوش الجنان ، أى حديد الفؤاد . والمبطن : الضامر البطن . والهوجل : الرجل الالهوج .

لَهْفًا أَى جَزَنَ وَتَحَسَّرَ . وَكَذَلِكَ التَّلَهْفُ عَلَى الشَّيْءِ . وَقَوْلُهُمْ : يَا لَهْفَ فُلَانٍ
كَلِمَةٌ يُتَحَسَّرُ بِهَا عَلَى مَا فَاتَ ، وَاللَّهْفَانُ الْمُنْتَحَسِرُ ، وَاللَّهْفُ الْمَضْطَرُ .

فصل

وَأَمَّا الْخَنِينُ فَقَالَ فِي الصَّحَاحِ : الْخَنِينُ الشُّوقُ وَتَوَقَّانُ النَّفْسُ ، تَقُولُ
مِنْهُ : حَنَّ إِلَيْهِ يَحْنُ حَنْينًا فَهُوَ حَانٌّ ، وَالْخَنَانُ الرَّحْمَةُ ، تَقُولُ مِنْهُ : حَنَّ عَلَيْهِ
يَحْنُ حَنَّانًا ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَحَنَّاكَأَ مِنْ لَدُنَّا)^(١) وَتَحَنَّنَ عَلَيْهِ تَرْحَمَ ،
وَالْعَرَبُ تَقُولُ : حَنَّاكَ يَا رَبِّ وَحَنَّاكَ بِكَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ ، أَى رَحِمْتُكَ ، قَالَ
أَمْرُؤُ الْقَيْسِ :

وَيَمْنَحُهَا بَنُو كَيْمَجَى بْنِ جَرْمٍ مَعِيزَمَ حَنَّاكَذَا الْخَنَانُ^(٢) .
وَقَالَ طَرَفَةُ :

أَبَا مِنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقِ بَعْضُنَا حَنَّاكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ
وَفِي الْحَقِيقَةِ الْخَنِينُ مِنْ آثَارِ الْحُبِّ وَمُوجِبَاتِهِ ، وَحَنِينُ النَّاقَةِ صَوْتُهَا
فِي نَزَاعِهَا إِلَى وَلَدِهَا . وَحَنَّةُ الرَّجُلِ امْرَأَتُهُ . قَالَ^(٣) :

وَلَيْلَةٍ ذَاتِ دُجَى سَرَيْتُ وَلَمْ أَفِرْزَنِي حَنَّةً وَبَيْتُ
قُلْتُ : مُسَمِّتٌ حَنَّةً لِأَنَّ الرَّجُلَ يَحْنُ إِلَيْهَا أَبْنِ كَانَ

فصل

وَأَمَّا الْاِسْتِكَانَةُ فَهِيَ أَيْضًا مِنْ لَوَازِمِ الْحُبِّ وَأَحْكَامِهِ ، لِأَمِنْ أَسْمَانِهِ الْخُتْمَةُ

(١) الْآيَةُ ١٢ . سُورَةُ مَرْيَمَ .

(٢) فِي اللَّسَانِ : يَمْنَحُهَا رَوَايَةُ الْأَصْمَعِيِّ ، أَى يَعْطِيهَا ، وَرَوَاهُ ابْنُ
الْأَعْرَابِيِّ : وَيَمْنَحُهَا .

(٣) هُوَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْقَتَمَسِيُّ

به ، وأصلها الخضوع . قال الله تعالى : (فَمَا اسْتَسْكَنُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ)^(١)
وقال تعالى : (فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا)^(٢)
وأصلها استفعل من الكون ، وهذا الاشتقاق والتصريف يطابق اللفظ ، وأما
المعنى فالمستكن ساكن خاشع ضد الطائش ، ولكن لا يوافق السكون
تصريف اللفظة فإنه إن كان افتعل كان ينبغي أن يقال استكن لأنه ليس في
كلامهم افتعال ، والحق أنه استعمل من السكون فنقلوا حركة الواو إلى الكاف
قبلها فتحركت الواو أصلاً وانفتح ما قبلها تقديرأ فقلت ألقا كاستقام ، والسكون
الحالة التي فيها إنابةٌ وذلٌ وخضوع . وهذا يُحمد إذا كان لله ، ويذم إذا كان
لغيره ، ومنه الحديث : «أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخَوْرِ بَعْدَ الْكُورِ»^(٣) أى الرجوع
عن الاستقامة بعد ما كنت عليها .

فصل

وأما التباله فعلى فعالة من تباله إذا أفناه . قال الجوهري : تبالهم الدهر .
وأتبالهم إذا أفناهم . قال الأعشى :
أَنْ رَأَتْ رَجُلًا أَعْشَى أَضْرَبَهُ رَيْبُ الزَّمَانِ وَدَهْرٌ مُتَبَالٍ خَيْلُ
أى يذهب بالأهل والولد ، وتباله الحب ، أى أسقمه وأفسده . قلت : ومنه
قول كعب بن زهير بن أبى سلمى :
بانت سعاد قلبي اليوم متبول متيم عندها لم يُفد مكبول

(١) الآية ٧٧ . سورة المؤمنون .

(٢) الآية ١٤٦ . سورة آل عمران .

(٣) ويروى بعد السكون وقد رجح النوى هذه الرواية في الأذكار
والحديث رواه أحمد بن مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه . والخور : النقص
والكور : الزيادة . يمتنى من النقص بعد الزيادة .

فصل

وأما اللوعة فقال في الصحاح : لوعة الحب حرقة وقد لاعه الحب يَلُوعُه والتاع فؤاده أى احترق من الشوق ، ومنه قولهم : أَتَانُ لَاعَهُ الْفُؤَادِ إِلَى جَحْشِهَا . قال الأصمى : أى لاعة الفؤاد وهى التى كأنها وَلِهَى من الفزع .

فصل

وأما الفتون فهو مصدر فَتَنَهُ يَفْتِنُهُ فُتُونًا ، قال الله تعالى : (وَفْتَنَّاكَ فُتُونًا)^(١) أى امتحنَّاك واختبرناك . والفتنة يقال عَلَى ثَلَاثَةِ مَعَانٍ^(٢) ، أحدها : الامتحان والاختبار ، ومنه قوله تعالى : (إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ)^(٣) أى امتحانك واختبارك والثانى : الافتتان نفسه ، يقال : هذه فِتْنَةٌ فَلَانٌ ، أى افْتِنَانُهُ ، ومنه قوله تعالى : (وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)^(٤) يقال : أصابته الْفِتْنَةُ وَفَتَنَتْهُ الدُّنْيَا وَفَتْنَتِ الْمَرْأَةُ وَأَفْتَنَتْهُ . قال الأعشى :

لَنْ فَتَنَتْنِي لَهْيَ الْأَمْسِ أَفْتَنْتَ سَعِيدًا فَأَصْحَى قَدْ قَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ
وَأَنْكَرَ الْأَصْحَى أَفْتَنَتُهُ . والثالث : المفتون به نفسه يُسَى فِتْنَةً ، قال الله تعالى :
(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ)^(٥) وأما قوله تعالى : (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ
فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)^(٦) أى لم تكن عاقبة
شُرْكِهِمْ إِلَّا أَنْ تَبْرَأُوا مِنْهُ وَأَنْكَرُوهُ . وأما قوله تعالى : (يَوْمَ نَحْمِلُ عَلَى النَّارِ

(١) الآية ٤٠ . سورة طه .

(٢) ذكر بعض المفسرين أن الفتنة فى القرآن على خمسة عشر وجهاً وفيها .

(٣) الآية ٢٥٤ . سورة الاعراف

(٤) الآية ٢٥ . سورة الانفال .

(٥) الآية ١٥ . سورة التباين (٦) الآية ٢٣ . سورة الانعام .

يُفْتَنُونَ . ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ^(١)) فقيل المعنى يحرقون ، ومنه فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته ودينار مفتون . قال الخليل : والفتن : الإحراق قال الله تعالى : (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ) وورق فتين ، أى فضة مُحَرَقَة . وأفنتين الرجل وفتين : إذا أصابته فتنة فذهب ماله أو عقله . وفتنته المرأة إذا ولّته ، وقوله تعالى : (فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ . إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ)^(٢) أى لا تفتنون على عبادته إلا من سبق فى علم الله أنه يصلى الجحيم فذلك الذى يفتن بفتنتكم إياه ، وأما قوله تعالى : (فَسُتَبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ . بِأَيِّكُمْ آلَهُمُتُونَ)^(٣) فقيل : الباء زائدة ، وقيل : المفتون مصدر كالمفتول والميسور والحلوف والميسور ، والصواب أن يُبْصِرُ مُضَمَّنٌ معنى يَشْعُرُ ويعلم ، قال الله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِ بِخَلْقِهِنَّ بِتَادِرٍ)^(٤) فعلى فعل الرؤية بالباء وفى الحديث : « الْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ يَسْمُهُمَا الْمَاءُ وَالشَّجَرُ وَيَتَعَاوَنَانِ عَلَى الْفِتْنَانِ »^(٥) يروى بفتح الفاء وهو واحد وبضمها وهو جمع فأتى كتابه وتجار . والمقصود أن الحب موضع الفتون فأتى من قن إلا بالهبة .

فصل

وأما الجنون فمن الحب ما يكون جنونا ، ومنه قوله :

-
- (١) الآيتان ١٣ و ١٤ . سورة الذاريات .
 (٢) الآيات ١٦١ و ١٦٢ و ١٦٣ . سورة الصافات .
 (٣) الآيتان ٥ و ٦ . سورة القلم (٤) الآية ٣٣ . سورة الاحقاف .
 (٥) فى الجامع الكبير للسيوطى : المسلم أخو المسلم الخ قال: رواه أبو داود والبيهقى والطبرانى .

قالت جُنِنْتَ بمن تهوى قُلتُ لها ألمشوق أعظم بما بالمجانين
 المشوق لا يستفيق الدهرَ صاحبه وإنما يُصرَعُ الجنونُ في الحين^(١)
 وأصل اللادة من السَّتر في جميع تصاريفها ، ومنه أَجَنَّة الليل وجَنَّ عليه :
 إذا ستره ، ومنه الْجُنَيْن لاستتاره في بطن أمه ، ومنه الْجَنَّة لاستتارها بالأشجار ،
 ومنه المَجَنُّ لاستتار الضارب به والمضروب ، ومنه الْجِنُّ لاستتارهم عن العيون
 بخلاف الإنس فإنهم يؤفَّسون أى يركون ، ومنه الْجَنَّة بالضم وهى ما استترت
 به وأتيت ، ومنه قوله تعالى : (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً)^(٢) وأجنت الميِّت :
 واريته في القبر فهو جَنِين . وأُتِبَ المقرط يستر العقل فلا يَعْمَلُ الخب ما ينفعه
 ويضره فهو شعبةٌ من الجنون .

فصل

وأما اللَّمَم فهو طَرَف من الجنون ، ورجل ملومٌ ، أى به لَمَمٌ ، ويقال
 أيضاً : أصابت فلاناً من الجنِّ لَمَةً وهو المس والشيء القليل قاله الجوهري .
 قلت : وأصل اللفظة من المقاربة ، ومنه قوله تعالى : (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ
 الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ)^(٣) وهى الصغائر . قال ابن عباس رضى الله عنها :
 ما رأيتُ أشبه باللَّم مما قال أبو هريرة رضى الله عنه : إن العين تزنى وزناها
 النظر ، واليد تزنى وزناها البطش ، والرجل تزنى وزناها المشى ، والقم يزنى
 وزناه القُبْل . ومنه أَلَمَّ بكذا ، أى قارب ودنا منه ، وغلامٌ مُلِمٌ ، أى قارب

(١) الحين : الوقت طال أو قصر .

(٢) الآية ١٦ . سورة المجادلة . والآية ٢ . سورة المنافقون .

(٣) الآية ٣٢ . سورة النجم .

البلوغ ، وفي الحديث : « إِنَّ يَمَّا يُنْبِتُ الرَّيْسُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُيْلِمُ »^(١) ،
أى يقرب من ذلك . وبالجملة فلا يستبين كونُ اللَّيْمِ من أسماء الحب وإن كان
قد ذكره جماعة إلا أن يقال : إن المحبوب قد أَلِمَّ بقلب المحب ، أى نزل به ،
ومنه أَلِمَ بنا ، أى انزل بنا ، ومنه قوله :

مَتَى تَأْتِنَا تُنَلِّمُ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدُ حَطَبًا جَزَلًا وَنَارًا تَأْجِبَا

فصل

وأما التَّحْبِيلُ فن موجبات العشق وآثاره لا من أسمائه وإن ذكر من أسمائه
فإن أصله الفساد وجمعة خُبُول ، والتَّحْبِيلُ بالتحريك الجن ، يقال به خَبِلَ ، أى
شئ من أهل الأرض ، وقد خَبِلَهُ وخَبِلَهُ وَأَخْتَبَلَهُ : إذا أفسد عقله أو عضوه ،
ورجلٌ مُخْبَلٌ وهو نوع من الجنون والفساد .

فصل

وأما الرَّيْسُ فقد كثر في كلامهم رَيْسُ المَسْوَى والشوق ورَيْسُ
الحب ، فظن من أدخله في أسماء الحب أنه منها وليس كذلك ، بل الرَّيْسُ
الشيء الثابت ، فرَيْسُ الحب ثباته ودوامه ، ويمكن أن يكون من رَسِّ
الحُمَى ورَيْسِهَا وهو أولُ مَسِّهَا ، فشبهوا رَيْسَ الحب بحرارته وحرقة
برَيْسِ الحُمَى ، وكان الواجب عَلَى هؤلاء أن يعملوا الأوار من أسماء الحب
لأنه يضاف إليه ، قال الشاعر^(٢) :

(١) في المصححين ، ويقال : حبطت الدابة حبطا بالتحريك إذا أصابت
مرعى طيباً فأفرطت في الأكل حتى تنفخ فتموت . والحباط : وجع البطن من
الانتفاخ لكثرة الأكل أو لآكل غير موافق .
(٢) هو عروة بن أذينة .

إذا وجدت أوار الحب في كبدى . أقبلت نحو سقاء القوم أبرد
هبنى بردت ببرد الماء ظاهره . فمن لناي على الأحشاء تنقذ
وقد وقع إضافة الرسيس إلى الهوى في شعر ذى الرثمة حيث يقول :
إذا غير النأى المحبين لم يكذ . رسيس الهوى من حب مية يبرح
وفيه إشكال نحوى ليس هذا موضعه .

فصل

وأما الداء المخامر فهو من أوصافه وسمى مخامراً لمخالطته القلب والروح
يقال خامره ، قال الجوهري : والمخامرة المخالطة ، وخامر الرجل المكان إذا
لزمه . وقد يكون أخذ من قولهم : استخمر فلان فلاناً إذا استعبده ، وكان
العشق داء مستعبد للعاشق ، ومنه حديث معاذ : من استخمر قوماً^(١) ، أى
أخذهم قهراً وتملك عليهم ، فالحب داء مخالط مستعبد .

فصل

وأما الود فهو خالص الحب وألفه وأرثه ، وهو من الحب بمنزلة
الرأفة من الرحمة ، قال الجوهري : وددت الرجل أودّه ودّاً إذا أحببته . والود
والودّ والودّة ، تقول : بودى أن يكون كذا ، وأما قول الشاعر :
أيها العائد المسائل عنا وبوديك أن ترى أ كفانى

فإنما أشبع كسرة الدال ليستقيم له البيت فصارت ياء . والودّ الوديد بمعنى
المودود والجمع أودّ مثل قدح وأقدح وذئب وأذئب ، وهاتوا دان وهم أوداء ،
والودود الحب ، ورجال ووداء يستوى فيه المذكر والمؤنث لسكونه وصفاً

(١) ذكر الزمخشري في الزائق هذا الحديث وابن الأثير في النهاية وغيرهما
من أصحاب اللغة .

داخلا عَلَى وصف المبالغة . قلت : الودود من صفات الله سبحانه وتعالى أصله من المودة ، واختلف فيه عَلَى قوانين : فقيل : هو ودود بمعنى واد كضروب بمعنى ضارب وقتول بمعنى قاتل ونؤوم بمعنى نائم ، ويشهد لهذا القول أن فعولاً في صفات الله سبحانه وتعالى فاعل كغفور بمعنى غافر ، وشكور بمعنى شاكر ، وصبور بمعنى صابر ، وقيل : بل هو بمعنى مودود وهو الحبيب ، وبذلك فسر البخارى في صحيحه ، فقال : الودود الحبيب ، والأول أظهر لاقتراحه بالغفور في قوله : (وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ)^(١) وبالرحيم في قوله : (إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ)^(٢) وفيه سر لطيف وهو أنه يحب التوابين وأنه يحب عبده بعد المغفرة فيغفر له ويحبه كما قال : (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)^(٣) فالتائب حبيب الله ، فالود أصنى الحب وألطفه .

فصل

وأما الخلّة فتوحيد المحبة ، فالخليل هو الذى توحّد حبه لمحبيه ، وهى رتبة لا تقبل المشاركة ، ولهذا اختص بها فى العالم الخليلان إبراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، كما قال الله تعالى : (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا)^(١) وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا »^(٥) وفى الصحيح^(٦) عنه صلى الله عليه وسلم : « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا . وَلَكِنْ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ » ، وفى الصحيح أيضاً : « إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى كُلِّ خَلِيلٍ

(١) الآية ١٤ . سورة البروج . (٢) الآية ٩٠ . سورة هود .

(٣) الآية ٣٢٢ . سورة البقرة . (٤) الآية ١٢٤ . سورة النساء .

(٥) رواه ابن ماجه والبيهقى وغيرهما . كما قال السيوطى .

(٦) فى الصحيحين وغيرهما بلفاظ متقاربة . وسيأتى قريباً .

مِنْ خُلَّتِهِ»^(١) . ولما كانت الخلّة مرتبة لا تقبل المشاركة امتحن الله سبحانه إبراهيم الخليل بذبح ولده لما أخذ شعبةً من قلبه ، فأراد سبحانه أن يخلص تلك الشعبة له ولا تكون لغيره ، فامتنحه بذبح ولده ، والمراد ذبحة من قلبه ، لا ذبحه بالمذبة ، فلما أسلم لأمر الله وقدم محبة الله تعالى على محبة الولد ، خلّص مقام الخلّة وفدى الولد بالذبح .

وقيل : إنما سُميت خلّة لتخلّل المحبة جميع أجزاء الروح ، قال :
قد تخلّلت مسلك الروح منى وبذا سمي الخليل خليلاً
والخلّة الخليل يسترى فيه الذكر والمؤنث لأنه في الأصل مصدر قولك
خليلٌ بين الخلّة والخلولة ، قال^(٢) :

ألا أباغنا خلّتي جابراً بأن خليلك لم يُقتل
ويجمع على خِلال مثل مُقاة وقِلال . والخِلُّ الودّ والصديق ، والخِلال
أيضاً مصدر بمعنى المُخالّة ، ومنه قوله تعالى : (لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ)^(٣) ،
وقال في الآية الأخرى : (لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ)^(٤) ، قال امرؤ القيس :
* ولست بمقتلي الخِلال ولا قالي *^(٥)

والخليل الصديق والأنثى خليلية ، والخِلالة والخِلالة بكسر الخاء
وفتحها وضمها : الصداقة والمودة . قال^(٦) :

وكيف تُواصلُ من أصبحت خِلالته كأي مَرَحٍ^(٧)

(١) رواه مسلم بلفظ آخر . (٢) هو أوفى بن مطر المازني .
(٣) الآية ٣١ . سورة إبراهيم . (٤) الآية ٢٥٤ . سورة البقرة .
(٥) صدر البيت : صرفت الهوى عنهن من خشية الردى . ولست . . . :
كما قال ياقوت . (٦) هو الذابنة الجعدي . كما قال ياقوت .
(٧) في السحاح : وأبو مرحب كنية النخل ، ويقال هو كنية عرقب الذي قيان
فيه : مواعيد عرقب .

وقد ظن بعض من لاعلم عنده أن الحبيب أفضل من الخليل ، وقال : لمحمد حبيب الله وإبراهيم خليل الله ، وهذا باطل من وجوه كثيرة ، منها : إن الخلّة خاصة والحبّة عامة فإن الله يحبّ التوابين ويحبّ المتطهرين ، وقال في عباده المؤمنين : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)^(١) ، ومنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم نبي أن يكون له من أهل الأرض خليل ، وأخبر أن أحبّ النساء إليه عائشة ومن الرجال أبوها^(٢) ، ومنها : أنه قال : « إِنْ اللَّهُ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا »^(٣) . ومنها أنه قال : « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنْ أَخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّةُ »^(٤) .

فصل

وأما الخِلْمُ فهو مأخوذ من المَخَالمة وهي المصادقة والمودة ، والخِلْمُ الصديق ، والأخلام الأصحاب ، قال السكيت :

إِذَا ابْتَسَرَ الْحَرْبَ أَخْلَامُهَا كِشَافًا وَهِيَ جَبَّتْ الْأَفْعُلُ^(٥)

فصل

وأما الغرام فهو الحبُّ اللازم ، يقال : رجلٌ مُغْرَمٌ بالحبِّ ، أى قد لزمه الحب وأصل المادة من اللزوم ، ومنه قولهم رجلٌ مُغْرَمٌ من الغُرْمِ أو الدَّيْنِ ، قال في الصحاح والغرام الولوع ، وقد أُغْرِمَ بالشئ ، أى أُولِيعَ به ، والغريم

(١) الآية ٥٧ . سورة المائدة .

(٢) رواه البخارى ومسلم وسيأتى فى الباب الرابع عشر .

(٣) تقدم تفريجهما فى صفحة ٤٦ .

(٤) فى اللسان : وأبتسر الفحل الناقة ضربها قبل الشبهة وهى شدة الشهوة . وفى الكشاف أن تلحق الناقة فى غير زمان لقاحها ، ويقال ذلك فى الحرب على المثل .

الذى عليه الدين ، يقال : خذ من غريم السوء ماسنح ، ويكون الغريم أيضاً الذى له الدين ، قال كثير عزة :

قضى كل ذى دين قوفاً غريمه وعزة مظلوم معني غريمها
ومن الماده قوله تعالى فى جهنم : (إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا)^(١) والغرام :
الشر الدائم اللازم والعذاب ، قال بشر^(٢) :
ويوم النّسار ويوم الجفأ رِكانا عذاباً وكلنا غراماً^(٣)
وقال الأعشى :

إن يعاقب يكن غراماً وإن يُعـ طـ جزيراً فإنه لا يبالى
وقال أبو عبيدة : (إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا)^(٤) كُن هلاكاً ولزماً لهم .
ولطف المحبة عندهم واستعذابهم لها لم يكادوا يطلقون عليها لفظ انغرام وإن
لهيـج به للتأخرون .

فصل

وأما الهيام قال فى الصحاح : هام على وجه يهيم هيماً وهيماً ذهب من
العشق أو غيره ، وقلب مستهام ، أى هائم ، والهيام بالضم : أشد العطش
والهيام كالجنون من العشق ، والهيام : داء يأخذ الإبل قهيم لاترعى ، يقال : ناقة
هيماء قال : والهيام بالكسر : الإبل العطاش الواحد هيمان ، وناقة هيمى

(١) الآية ٦٥ . سورة الفرقان .

(٢) وكذلك هو فى الصحاح . أما فى اللسان فقد نسبته للطرماح .

(٣) النّسار : ماء لبنى عامر ، ومنه يوم النّسار . والجفأ : ماء لبنى تميم
يوجد ومنه يوم الجفأ .

(٤) الآية ٦٥ . سورة الفرقان .

مثل عطشان وعطشى ، وقسوم هيم ، أى عطاش ، وقد هاموا هياماً ، وقوله تعالى : (فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ) ^(١) هى الإبل العطاش . قلت : جمع أهيم هيم مثل أحر وحر وهو جمع فعلاء أيضاً كصفراء وصفر ^(٢) .

فصل

وأما التذليّة فى الصحاح : التذليّة ذهاب العقل من الهوى ، يقال : ذلّه الحُبُّ ، أى حيره وأدهشه ، وذلة هو يذله قال أبو زيد : الذلوه : الناقة لاتكاد تحنّ إلى ألف ولا ولد ، وقد ذلّته عن ألفها وعن ولدها تذله ذلوهما .

فصل

وأما الوالة فقال فى الصحاح : الوالة : ذهاب العقل والتحير من شدة الوجد ، ورجل واليه وامرأة واليه واليه . قال الأعشى :
فَأَقْبَلْتُ وَالْمَا تُكَلِّ عَلَى عَجَلٍ كُلُّ دَهَاها وَكُلُّ عِنْدَهَا اجْتَمَعَا
وقد وله يواله ولما ووالهانا وتواله واتله وهو افتعل أدغم .
قال الشاعر ^(٣) :

وَاتَّالَهُ الْغَيُورُ

وَالْقَوْلِيَةُ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ الْأُمِّ وَلَدِهَا ، وفى الحديث : « لَا تَوَلَّهِ وَالِدُهُ »

(١) الآية ٥٥ ، سورة الواقعة .

(٢) فى اللسان : جمع على فعل ثم خفف وكسرت الهاء لأجل الياء ، ومن العرب من يقول : هاتم والآنثى هاتمة ثم يجمعونه على هيم .

(٣) هو مليح الهذلى ، والبيت فى اللسان :

لَنَا مَا حَالُ دُونَ كَلَامِ سَعْدَى تَنَائَى الدَّارِ وَاتْلَهُ الْغَيُورُ

يُولَدُهَا»^(١) ، أى لا يُجْمَلُ والماء ذلك فى السَّبايا . وناقتهُ والهِمَّةُ : إذا اشتدَّ وَجْدُهَا عَلَى وَلَدِهَا . والمِيلَامُ التى من عاداتها أن يشتدَّ وَجْدُهَا عَلَى وَلَدِهَا صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها . وماء مَوْلَاهُ ومُورَكَّهُ أرسل فى الصحراء فذهب ، وقول رؤوبة :

بِهَ كَمَطَّتْ غَوَلَ كُلِّ مَيْلَةٍ بنا حَرَاجِيحُ الْمَهَارَى الثُّفَّةِ^(٢)
أراد البلاد التى تُولُّهُ الإنسان ، أى تحيِّره .

فصل

وأما التَّعَبُّدُ فهو غاية الحب وغاية الذل ، يقال : عبده الحبُّ ، أى ذلله . وطريقُ مَعْبُدٍ بالأقدام ، أى مُذَلَّلٌ ، وكذلك المحب قد ذلَّله الحب ووطَّأه ، ولا تصَّاح هذه المرتبة لأحد غير الله عز وجل ، ولا يغفر الله سبحانه لمن أشرك به فى عبادته ، ويغفر ما دون ذلك لمن شاء . فحجة العبودية هى أشرف أنواع المحبة ، وهى خالص حق الله على عباده ، وفى الصحيح عن مُعَاذٍ أَنَّهُ قَالَ : كُنْتُ سَائِرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا مُعَاذُ ، قُلْتُ : كَيْبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ، قَالَ : ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : يَا مُعَاذُ ، قُلْتُ : كَيْبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً فَقَالَ : يَا مُعَاذُ ، قُلْتُ : كَيْبَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ، قَالَ : أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : حَقُّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ لَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا

(١) رواه البيهقى فى السنن . كما قال السيوطى .

(٢) كَمَطَّتْ : أى سارت سيرا طويلا . والغول : بعد المفازة . والحراجيج جمع حرجوج وهى الناقة المولىة على وجه الأرض . والمهارى : الإبل المنسوبة إلى مهرة بن حيدان . والثفة : السكالة والذليلة .

فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم بالنار^(١) . وقد ذكر الله سبحانه رسوله بالعبودية في أشرف مقاماته ، وهي مقام التحدي ، ومقام الإسراء ، ومقام الدعوة ، فقال في التحدي : (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ)^(٢) ، وقال في مقام الإسراء : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)^(٣) ، وقال في مقام الدعوة : (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ)^(٤) . وإذا تدافع أولو العزم الشفاعة الكبرى يوم القيامة يقول المسيح لهم : اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فقال ذلك المقام بكامل العبودية لله وكامل مغفرة الله له ، فأشرف صفات العبد صفة العبودية ، وأحب أسمائه إلى الله اسم العبودية ، كثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَامٌ ، وَأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمُرَّةٌ »^(٥) . وإنما كان حارث وهام أصدقها لأن كل أحد لا بد له من هم وإرادة وعزم ينشأ عنه حرثه وفعله ، وكلُّ أحدٍ حارثٌ وهام ، وإنما كان أقبحها حربٌ ومُرَّةٌ لما في مسمى هذين الأسمين من الكراهة ونفور العقل عنهما وبالله التوفيق .

(١) رواه الشيخان والإمام أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان كما قال السيوطي .

(٢) الآية ٢٣ . سورة البقرة (٢) أول سورة الإسراء .

(٣) الآية ١٩ . سورة الجن .

(٤) في تيسير الوصول للشيباني : أخرجه أبو داود واللفظ له وللنسائي مختصراً كما روى النسب الأول منه مسلم والترمذي وابن ماجه وغيرهم .

الباب الثالث

في نسبة هذه الأسماء بعضها إلى بعض هل هي بالترادف أو التباين

فالأسماء الدالة على مسمى واحد نوعان : أحدهما أن يدلّ عليه باعتبار الذات فقط ، فهذا النوع هو المترادفُ ترادفًا محضًا ، وهذا كل الحنطة والقمح والبرّ والأسمـ والكُنْيَة واللقب إذا لم يكن فيه مدحٌ ولا ذمٌّ وإنما أتى به لجرد التعريف ، والنوع الثاني أن يدلّ على ذاتٍ واحدة باعتبار تباين صفاتها كأسماء الرب تعالى ، وأسماء كلامه ، وأسماء نبية ، وأسماء اليوم الآخر ، فهذا النوع مترادفٌ بالنسبة إلى الذات ، متباينٌ بالنسبة إلى الصفات ، فالرب والرحمن والعزیز والتقدير والمَلِكُ يدلّ على ذاتٍ واحدةٍ باعتبار صفاتٍ متعددة ، وكذلك البشير والنذير والهاشر والعاقب والمآحى ، وكذلك يوم القيامة ويوم البعث ويوم الجمع ويوم التغابن ويوم الآزفة ونحوها ، وكذلك القرآن والفرقان والكتاب والهدى ونحوها ، وكذلك أسماء السيف فإنّ تعدُّدها بحسب أوصافٍ وإضافاتٍ مختلفة ، كالمهند والعَصَب والصَّارم ونحوها ، وقد عرّفت تباين الأوصاف في أسماء الحجة ، وقد أنكر كثيرٌ من الناس الترادف في اللغة ، وكأنهم أرادوا هذا المعنى ، وأنه ما من إسمين لمسمى واحدٍ إلا وبينهما فرقٌ في صفةٍ أو نسبةٍ أو إضافة ، سواء عُلِمَت لنا أولم تُعَلَمْ ، وهذا الذي قالوه صحيحٌ باعتبار الواضع الواحد ، ولكن قد يقعُ الترادفُ باعتبار واضعين مختلفين يسمى أحدهما المسمى باسم ، ويسميه الواضع الآخر باسم غيره ، ويشتهر الوضعان عند القبيلة الواحدة ، وهذا كثير ومن هنا يقع الاشتراك أيضًا ، فالأصل في اللغة هو التباين وهو أكثر اللغة والله أعلم .

الباب الرابع

فى أنه العالم العلوى والسفلى إنما وجد بالجنة ولأجلها وأنه مدرجات الأفلاك
والشمس والقمر والنجوم ومدرجات الملائكة والحيوانات
ومركبة كل متحرك إنما وجدت بسبب الحب .

وهذا باب شريف من أشرف أبواب الكتاب ، وقبل تقريره لابد من
بيان مقدمة وهى أن الحركات ثلاث : حركة إرادية ، وحركة طبيعية ، وحركة
قسرية ، وبيان الحصر أن مبدأ الحركة إما أن يكون من المتحرك أو من غيره ،
فإن كان من المتحرك فإما أن يقارنها شعوره وعلمه بها أولاً ، فإن قارنها الشعور
والعلم فهى الإرادية ، وإن لم يقارنها الشعور والعلم فهى الطبيعية ، وإن كانت من
غيره فهى القسرية ، وإن شئت أن تقول للمتحرك إما أن يتحرك بإرادته أولاً ،
فإن تحرك بإرادته فحركته إرادية ، وإن تحرك بغير إرادته فإما أن تكون حركته
إلى نحو مركزه أولاً ، فإن تحرك إلى جهة مركزه فحركته طبيعية ، وإن تحرك
إلى غير جهة مركزه فحركته قسرية ، إذا ثبت هذا فالحركة الإرادية تابعة لإرادة
المتحرك ، والمراد إما أن يكون مراداً لنفسه أو لغيره ، ولا بد أن ينتهى المراد
لغيره إلى مراد لنفسه دفعا للدور والتسلسل . والإرادة إما أن تكون جلب منفعة
ولذة إما للمتحرك وإما لغيره ، أو دفع ألم ومضرة إما عن المتحرك أو عن غيره ،
والعقل لا يجلب لغيره منفعة ولا يدفع عنه مضرة إلا لما له فى ذلك من
اللذة ودفع الألم ، فصارت حركته الإرادية تابعة للجنة ، بل هذا حكم كل حى
متحرك . وأما الحركة الطبيعية فهى حركة الشيء إلى مستقره ومركزه ، وتلك
تابعة للحركة التى اقتضت خروجه عن مركزه ، وهى القسرية التى إنما تكون
بقسر قاسم أخرجه عن مركزه إما باختياره كحركة الحجر إلى أسفل إذا رُمى به

إلى جهة فوق ، وإما بغير اختيار مُحرَّكه كتحريك الرياح للأجسام إلى جهة مهابها ، وهذه الحركة تابعة للقاسر ، وحركة القاسر ليست منه بل مبدؤها من غيره ، فإن الملائكة موكَّلةٌ بالعالم العلوى والسفلى تدبره بأمر الله عز وجل كما قال الله تعالى : (فَأَلْمَدَبَرَاتِ أُمْرًا)^(١) وقال : (فَأَلْمُقَسَّمَاتِ أُمْرًا)^(٢) وقال تعالى : (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ، فَأَلْمَاصِفَاتِ عَصْفًا ، وَالنَّائِرَاتِ نَشْرًا ، فَأَلْمَافِرَاتِ فَرْقًا ، فَأَلْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا)^(٣) وقال : (وَالنَّازِعَاتِ غُرَفًا . وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ، وَالسَّائِحَاتِ سَبْعًا ، فَأَلْسَابِقَاتِ سَبْعًا ، فَأَلْمُدَبَّرَاتِ أُمْرًا)^(٤) وقد وكل الله سبحانه بالأفلاك والشمس والقمر ملائكةً تحرَّكها ، ووكل بالرياح ملائكةً تصرِّفها بأمره وهم خزنتها ، قال الله تعالى : (وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا)^(٥) وقال غير واحد من السلف : عتت على الخزان فلم يقدروا على ضبطها (ذكره البخارى فى صحيحه) ووكل بالقطار ملائكةً ، وبالسحاب ملائكةً تسوقه إلى حيث أمرت به ، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بَيْنَمَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ إِذْ سَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ يَقُولُ : اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ فَتَتَّبِعُ السَّحَابَةَ حَتَّى اتَّهَتْ إِلَى حَدِيقَةٍ فَأَفْرَغَتْ مَاءَهَا فِيهَا ، فَنَظَرَ فَإِذَا رَجُلٌ فِي الْحَدِيقَةِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَةٍ ، فَقَالَ لَهُ : مَا أَسْمُكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ فُلَانُ الْإِسْمُ الَّذِى سَمِعَهُ فِي السَّحَابَةِ ، فَقَالَ : إِنِّى سَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ فِي هَذِهِ السَّحَابَةِ : اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ ، فَمَا تَصْنَعُ فِي هَذِهِ الْحَدِيقَةِ ؟ فَقَالَ . إِنِّى أَنْظَرُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَجْعَلُهُ ثَلَاثَةَ أَثْلَاثٍ :

(١) الآية ٥ . سورة النازعات . (٢) الآية ٤ . سورة الذاريات .

(٣) أوائل سورة المرسلات . (٤) أوائل سورة النازعات .

(٥) الآية ٦ . سورة الحاقة .

يُثْكَ أَتَصَدَّقَ بِهِ ، وَثُكْتُ أَنْفَتَهُ عَلَى عِيَالِي ، وَثُكْتُ أَرُدَّهُ فِيهَا ^(١) . ووَكَّلَ
 اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِالْجِبَالِ مَلَائِكَةً ، وَثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ جَاءَهُ مَلَكُ
 الْجِبَالِ يَسَلِّمُ عَلَيْهِ وَيَسْتَأْذِنُهُ فِي هَلَاكِ قَوْمِهِ إِنْ أَحَبَّ ، فَقَالَ : « بَلْ أَسْتَأْذِنُ
 لَكُمْ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ^(٢) »
 ووَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكَ يَقُولُ : يَارَبَّ نَظْفَةَ ؟ يَارَبَّ عِلْقَةَ ؟ يَارَبَّ مَضْعَاة ؟ يَارَبَّ
 ذَكَرٌ ؟ أَمْ أُتَى ؟ فَمَا الرِّزْقُ ؟ فَمَا الْأَجَلُ ؟ وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ؟ ووَكَّلَ بِكُلِّ عَبْدٍ
 لِرَبْعَةٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا : حَافِظَانِ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ يَكْتُبَانِ أَعْمَالَهُ ،
 وَمُعْتَبَتَانِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ أَقْلُهُم ائْتَانِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ^(٣) ، ووَكَّلَ
 بِالْمَوْتِ مَلَائِكَةً ، ووَكَّلَ بِمُسَاوَةِ الْمَوْتِ مَلَائِكَةً فِي الْقُبُورِ ، ووَكَّلَ بِالرَّحْمَةِ
 مَلَائِكَةً ، وبِالْعَذَابِ مَلَائِكَةً ، وبِالْمُؤْمِنِ مَلَائِكَةً يَثْبُتُونَهُ وَيُؤَزِّزُونَهُ ^(٤) إِلَى
 الطَّاعَاتِ أَرَا ، ووَكَّلَ بِالنَّارِ مَلَائِكَةً يَبْنُونَهَا وَيُوقِدُونَهَا ، وَيَصْنَعُونَ أَغْلَالَهَا
 وَسُلَالَهَا وَيُقِيمُونَ بِأَمْرِهَا ، ووَكَّلَ بِالْجَنَّةِ مَلَائِكَةً يَبْنُونَهَا وَيَفْرَشُونَهَا ،
 وَيَصْنَعُونَ أَرَائِكَهَا وَسُرُرَهَا وَمَحَافِهَا وَنَمَارِقَهَا وَزَرَائِبَهَا ^(٥) ، فَأَمَرَ الْعَالَمَ الْعُلُوِّ
 وَالسُّفْلَى وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ بِتَنْذِيرِ الْمَلَائِكَةِ . بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَأَمْرُهُ ،
 (لَا يَسْبِقُوهَ بِأَقْوَالٍ وَمَنْ يَأْمُرِهِ يَفْعَلُونَ) ^(٦) وَ (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ

(۱) أخرجه مسلم مطولا .

(٢) في كتاب الشفاء ، بل أرجو ، وقال شارحه الخفاجي : هذا الحديث رواه الشيخان وأصحاب الكتب الستة .

(۳) من أمر الله : بأمر الله وإذنه كما جاء في تفسير الخازن .

(۴) يۈزۈنە : يىغرونى .

(هـ) الأرائك : الأسرة المنجدة المزينة. والصحاف : آنية الأكل . والنمارق : الوسائد . والزراي : البسط .

(٦) الآية ٢٧ . سورة الانبياء .

وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ^(١) . فأخبر أنهم لا يعصونه في أمره ، وأنهم قادرون على تنفيذ أوامره ليس بهم عجز عنها ، بخلاف من يترك ما أمر به عجزاً فلا يعصى الله ما أمره ، وإن لم يفعل ما أمر به ، وكذلك البحار قد وُكِّلت بها ملائكة تسجرها^(٢) وتمنعها أن تفيض على الأرض فتغرق أهلها ، وكذلك أعمال بني آدم خيرها وشرها قد وُكِّلت بها ملائكة تحصيلها وتحفظها وتكتبها ، ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذي لا يتم إلا به . وهي خمس : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر .

وإذا عُرِفَ ذلك عُرِفَ أن كل حركة في العالم فسببها الملائكة ، وحركتهم طاعة الله بأمره وإرادته ، فيرجع الأمر كله إلى تنفيذ مراد الرب تعالى شرعاً وقدرأً ، والملائكة هم المنفذون ذلك بأمره ، ولذلك سُمُّوا ملائكة من الألوكة وهي الرسالة ، فهم رسل الله في تنفيذ أوامره .

والمقصود أن حركات الأفلاك وما حوته تابعة للحركة الإرادية المستلزمة للمحبة ، فالحبة والإرادة أصل كل فعل ومبداءه ، فلا يكون الفعل إلا عن محبة وإرادة ، حتى دفعه للأمر التي يبغيضها ويكرهها ، فإنما يدفعها بإرادته ومحبه لأضدادها واللذة التي يمدّها بالدفع كما يقال : شفى غيظه ، وشفى صدره ، والشفاء والعافية يكون للمحبوب وإن كن كرهاً ، مثل شرب الدواء الذي يُدْفَع به ألم المرض ، فإنه وإن كان مكروهاً من وجهٍ فهو محبوبٌ لما فيه من زوال المكروه وحصول المحبوب ، وكذلك فعل الأشياء المخالفة للهوى ، فإنها وإن كانت مكروهةً فإنما تُفَعَّلُ لمحبة وإرادة ، وإن لم تكن محبوبةً لنفسها فإنها

(١) الآية ٦ . سورة التحريم .

(٢) تسجرها : تملؤها . قال الله تعالى : (والبحر المسجور) .

مستلزمةً للمحبوب لنفسه . فلا يترك الحق ما يُحبه ويهواه ، إلا لما يُحبه ويهواه ، ولكن يترك أضعفهما محبةً لأقواهما محبةً ، ولذلك كانت المحبة والإرادة أصلاً للبغيض والكراهة ، فإن البغيض المكروه ينافي وجود المحبوب ، والفعل إما أن يتناول وجود المحبوب أو دفع المكروه المستلزم لوجود المحبوب ، فعاد الفعل كله إلى وجود المحبوب .

والحركة الاختيارية أصلها الإرادة ، والقسرية والطبيعية تابعتان لها ، فعاد الأمر إلى الحركة الإرادية ، فجميع حركات العالم العلوى والسفلى تابعة للإرادة والمحبة ، وبها تحرك العالم ولأجلها ، فهي العلة الفاعلية والغائية ، بل هي التي بها ولأجلها وجد العالم ، فما تحرك في العالم العلوى والسفلى حركةً إلا بالإرادة والمحبة سببها وغايتها ، بل حقيقة المحبة حركة نفس الحب إلى محبوبه ، فالمحبة حركة بلا سكون . وكال المحبة هو العبودية ، والذل ، والخضوع ، والطاعة للمحبوب ، وهو الحق الذى به وله خُلِقَت السموات والأرض والدين والآخر ، قال تعالى : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)^(١) وقال الله تعالى : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا)^(٢) وقال تعالى : (أَحْسِبْتُمْ أَنَّنا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)^(٣) .

والحق الذى خُلِقَ به ولأجله الخلق هو عبادة الله وحده التى هي كمال محبته والخضوع والذل له ، ولوازم عبوديته من الأمر والنهى والثواب والعقاب ، ولأجل ذلك أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، وخلق الجنة والنار . والسموات والأرض إنما قامت بالعدل الذى هو صراط الله الذى هو عليه وهو أحب

(١) الآية ٨٥ . سورة الحجر . (٢) الآية ٢٧ . سورة ص .

(٣) الآية ١١٦ . سورة المؤمنون .

الأشياء إلى الله تعالى قال الله تعالى حاكياً عن نبيه شعيب عليه السلام :
 (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا
 إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)^(١) فهو على صراطٍ مستقيم في شرعه وقدره ، وهو
 العدل الذي به ظهر الخلق والأمر والثواب والعقاب ، وهو الحق الذي به وله
 خلقت السموات والأرض وما بينهما ، ولهذا قال المؤمنون في عبادتهم : (رَبَّنَا
 مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ)^(٢) فنزهوا ربهم سبحانه أن يكون خلق
 السموات عبثاً لغر حكمة ولا غاية محمودة ، وهو سبحانه يُحمد لهذه الغايات
 المحمودة كما يُحمد لذاته وأوصافه ، فالغايات المحمودة في أفعاله هي الحكمة التي
 يحبها ويرضاها ، وخلق ما يكره لاستئزاه ما يحبه وترتيب المحبوب له عليه ،
 ولذلك يترك سبحانه فعل بعض ما يحبه لما يترتب عليه من فوات محبوب له
 أعظم منه ، أو حصول مكروهٍ أكره إليه من ذلك المحبوب ، وهذا كما تُبطل
 قلوب أعدائه عن الإيمان به وطاعته ، لأنه يكره طاعتهم ويُفوت بها ما هو
 أحب إليه منها من جهادهم وما يترتب عليه من الموالاة فيه والمعاداة ، وبذل
 أوليائه نفوسهم فيه ، وإيثار محبته ورضاه على نفوسهم ، ولأجل هذا خلق
 الموت والحياة وجعل ما على الأرض زينة لها ، قال تعالى : (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ
 وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)^(٣) . وقال : (إِذَا جَعَلْنَا مَا عَلَى
 الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)^(٤) .

(١) الآية ٥٦ . سورة هود .

(٢) الآية ١٩١ . سورة آل عمران .

(٣) الآية ٢ . سورة الملك .

(٤) الآية ٧ . سورة الكهف .

وقال تعالى : (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِنَبِّئَكُمُ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)^(١) فأخبر سبحانه عن
خلق العالم والموت والحياة وتزيين الأرض بما عليها أنه للابتلاء والامتحان
ليختبر خلقه أيهم أحسن عملاً ، فيكون عمله موافقاً لحابُّ الرب تعالى ، فيوافق
الغاية التي خلُق هو لها وخلق لأجلها العالم ، وهي عبوديته المتضمنة لمحبه وطاعته ،
وهي العملُ الأحسنُ وهو مَوَاقِعُ محبته ورضاه ، وقدَّر سبحانه مقاديرَ تخالفها
بمكته في تقديرها ، وامتنح خلقه بين أمره وقدَّره ليلوِّمهم أيهم أحسنُ عملاً .
فانقسم الخلق في هذا الابتلاء فريقين : فريقاً داروا مع أوامره ومحابَّه ،
ووقفوا حيث وقف بهم الأمر ، وتمحروا حيث حرَّكهم الأمر ، واستعملوا
الأمر في القَدَر ، وركبوا سفينةَ الأمر في بحر القَدَر ، وحَسَّكُوا الأمر
على القَدَر ، ونازعوا القَدَر بالقَدَر امتثالاً لأمره واتباعاً لرضائه ، فهؤلاء
هم الناجون .

والفريق الثاني عارضوا بين الأمر والقَدَر ، وبين ما يحبه ويرضاه ، وبين
ما قدَّره وقضاه ، ثم افترقوا أربعَ فِرَقٍ :
فرقةٌ كذَّبت بالقَدَر بحافضةً على الأمر ، فأبطلت الأمر من حيث حافظت
على القَدَر ، فإن الإيمان بالقَدَر أصل الإيمان بالأمر ، وهو نظام التوحيد ، فن
كذَّب بالقَدَر نقضَ تكذيبه إيمانه ،

وفرقةٌ ردت الأمر بالقَدَر وهؤلاء من أ كفر الخلق ، وهم الذين حكى الله
قولهم في القرآن إذ قالوا : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ تَأْمُرُنَا وَلَا آتَاوُنَا وَلَا حَرَّمْنَا

(١) الآية ٧ . سورة هود .

مِنْ شَيْءٍ) ^(١) . وقالوا أيضاً : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ) ^(٢) . وقالوا أيضاً : (لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ) ^(٣) . وقالوا أيضاً : (أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ) ^(٤) . فجلهم الله سبحانه وتعالى بذلك مكذِّبين خاربين ليس لهم علم ، وأخبر أنهم في ضلال مبين .

وفرقة دارت مع القدر ، فسارت بسيره ، ونزلت بنزوله ، ودانت به ، ولم تبالِ وافق الأمر أو خالفه ، بل دينها القدر ، فالحلال ما حلَّ بيدها قدراً ، والحرام ما حرَّمته قدراً ، وهم مع من غلب قدراً من مسلم أو كافر ، برأ كان أو فاجراً ، وخواصُّ هؤلاء وعبيادهم لما شهدوا الحقيقة الكونية القدريّة صاروا مع الكفار المسلطين بالقدر ، وهم خفراؤهم ، فهؤلاء أيضاً كفار .

وفرقة وقفت مع القدر مع اعترافها بأنه خلاف الأمر ، ولم تدن به ولكنها استرسلت معه ، ولم تُحكِّم عليه الأمر وتُجيزت عن دفع القدر بالقدر اتباعاً للأمر ، فهؤلاء مفرطون ، وهم بين عاجز وعاصي لله ، وهؤلاء الفرق كلهم مؤتمنون بشيخهم إبليس ، فإنه أول من قدم القدر على الأمر وعارضه به ، وقال : (رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) ^(٥) وقال : (قَبِمْ أَغْرَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) ^(٦) فردَّ أمر الله بقدره ، واحتجَّ على ربه بالقدر . وانقسم أتباعه أربع فرق كما رأيت ، فإبليس

(١) الآية ١٤٨ . سورة الأنعام (٢) الآية ٣٥ . سورة النحل .

(٣) الآية ٢٠ . سورة الزخرف (٤) الآية ٤٧ . سورة يس .

(٥) الآية ٣٩ . سورة الحجر . (٦) الآية ١٥ . سورة الأعراف .

وجنوده أرسلوا بالقدر إرسالاً كونياً . فالقدر دينهم . قال الله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزْجًا)^(١) فدينهم القدر ، ومصيرهم سقر . فبمث الله الرسل بالأمر وأمرهم أن يحاربوا به أهل القدر ، وشرع لهم من أمره سنة لنا ، وأمرهم أن يركبوا فيها هم وأتباعهم في بحر القدر ، ونحس بالنجاة من ركبها كما خص بالنجاة أصحاب السفينة ، وجعل ذلك آية للعالمين . فأصحاب الأمر حرب لأصحاب القدر حتى يرُدُّوهم إلى الأمر ، وأصحاب القدر يحاربون أصحاب الأمر حتى يخرجوهم منه ، فالرسل دينهم الأمر مع إيمانهم بالقدر وتحكيم الأمر عليه ، وإبليس وأتباعه دينهم القدر ودفع الأمر به ، فتأمل هذه المسألة في القدر والأمر وانقسام العالم فيها إلى هذه الأقسام الخمسة ، وبالله التوفيق .

فحركات العالم العلوى والسفلى وما فيها مرافقة للأمر ، إما الأمر الدينى الذى يحبه الله ويرضاه ، وإما الأمر الكونى الذى قدره وقضاه ، وهو سبحانه لم يقدره سدئ ولا قضاه عبثاً ، بل لما فيه من الحكمة والغايات الحميدة ، وما يترتب عليه من أمور يحب غايتها وإن كره أسبابها ومبادئها ، فإنه سبحانه وتعالى يحب المغفرة وإن كره معاصي عباده ، ويحب السر وإن كره ما يستتر عبده عليه ، ويحب العتق وإن كره السبب الذى يعتق عليه من النار ، ويحب العفو كما فى الحديث : « أَللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي »^(٢) وإن كره ما ينفذ عنه من الأوزار ، ويحب الثوابين وتوبتهم وإن كره معاصيهم

(١) الآية ٨٤ . سورة مريم .

(٢) روى بالأسانيد الصحيحة فى كتب الترمذى والنسائى وابن ماجه وغيرهما

كما جاء فى الاذكار للنوروى

التي يتوبون إليه منها ، ويجب الجهاد وأهله بل هم أحب خلقه إليه وإن كره
أفعال من يجهادونه ، وهذا باب واسع قد فُتِح لك فادخل منه يُطالعك على
رياض من المعرفة مُوقَّعة مات مَنْ فاتته بحسرتها ، وبالله التوفيق .

وهذا موضع يضيق عنه عدَّة أسفار واللييب يدخل إليه من بابه ، وسرُّ
هذا الباب أنه سبحانه كاملٌ في أسمائه وصفاته ، فله الكمال المطلق من جميع
الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه ما ، وهو يحب أسمائه وصفاته ، ويجب ظهور
آثارها في خلقه ، فإن ذلك من لوازم كماله ، فإنه سبحانه وتعالى يحب الوبر ،
جميل يحب الجمال ، عليم يحب العلماء ، جواد يحب الأجواد ، قوى ،
والؤمن القوى أحب إليه من المؤمن الضعيف ، حَيٌّ يحب أهل الحياء ، وفي
يحب أهل الوفاء ، شكور يحب الشاكرين ، صادق يحب الصادقين ، محسن
يحب المحسنين .

فإذا كان يحب الغفر والمغفرة والحلم والصفح والستر لم يكن بد من
تقديره للأسباب التي تظهر آثار هذه الصفات فيها ، ويستدل بها عباده على
كمال أسمائه وصفاته ، ويكون ذلك أدعى لهم إلى محبته وحده وتمجيده والثناء
عليه بما هو أهله ، فتحصل الغاية التي خلق لها الخلق ، وإن فاتت من بعضهم
فذلك انقوات سبب لكمالها وظهورها ، فتضمن ذلك القوات المكروه له أمراً
هو أحب إليه من عدمه ، فتأمل هذا الموضع حق التأمل . وهذا ننكشف
يوم القيامة للخلقة بأجمعهم حين يجمعهم في صعيد واحد ، ويوصل إلى كل نفس
ما ينبغي إيصاله إليها من الخير والشر ، واللذة والألم ، حتى مثقال الذرة ،
ويوصل كل نفس إلى غايتها التي تشهد هي أنها أولى بها ، فينشد ينطق الكون

بأجعة بحمده تبارك وتعالى قالاً وحالاً ، كما قال سبحانه وتعالى : (وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَتُفْضَى بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)^(١) ، فحذف فاعل القول لأنه غير معين ، بل كل أحد يحمده على ذلك الحكم الذى حكم فيه ، فيحمده أهل السموات وأهل الأرض ، والأبرار والفجار ، والإنس والجن حتى أهل النار . قال الحسن أو غيره : لقد دخلوا النار وإن حمده لنى قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلاً ، وهذا والله أعلم هو السر الذى حذف لأجله الفاعل فى قوله : (قِيلَ أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا)^(٢) وقوله : (وَقِيلَ أَدْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ)^(٣) كأن الكون كله نطق بذلك وقاله لهم ، والله تعالى أعلم بالصواب .

(١) الآية ٧٥ . سورة الزمر

(٢) الآية ٧٢ . سورة الزمر .

(٣) الآية ١٠ . سورة التحريم .

الباب الخامس

في دواعي المحبة ومتعلقاتها

الداعي قد يُراد به الشعور الذي تتبَّعه الإرادة والميل ، فذلك قائمٌ بالمحب ، وقد يُراد به السببُ الذي لأجله وجدت المحبة وتعلَّقت به ، وذلك قائمٌ بالمحبوب ، ونحن نريد بالداعي مجموعَ الأمرين ، وهو ما قام بالمحبوب من الصفات التي تدعو إلى محبته ، وما قام بالمحب من الشعور بها ، والموافقة التي بين الحب والمحبوب ، وهي الرابطة بينهما وتسمى بين المخلوق والمخلوق مناسبةً وملاءمةً .

فهاهنا أمور : وصفُ المحبوب وجماله ، وشعورُ المحب به ، والمناسبة وهي العلاقة والملاءمة التي بين الحب والمحبوب ، فتى قويت الثلاثة وكملت ، قويت المحبة واستحكمت ، ونقصان المحبة وضعفها بحسب ضعف هذه الثلاثة أو نقصها ، فتى كان المحبوب في غاية الجمال ، وشعورُ المحب بجماله أتمَّ شعور ، والمناسبة التي بين الرُّوحين قويةٌ ، فذلك الحبُّ اللازم الدائم ، وقد يكون الجمال في نفسه ناقصاً لسكن هو في عين المحب كامل ، فتكون قوَّة محبته بحسب ذلك الجمال عنده ، فإنَّ حُبَّكَ للشئ يُعمى ويُصمِّم ، فلا يرى المحبُّ أحداً أحسنَ من محبوبه ، كما يُحكى أنَّ عَزَّة دخلت على الحجاج فقال لها : يا عَزَّة والله ما أنتِ كما قال فيك كثيرٌ ، فقالت : أيها الأمير إنه لم يرني بالعين التي رأيتني بها . ولا ريب أن المحبوب أحلى في عين محبه وأكبر في صدره من غيره ، وقد أفصح بهذا القائل في قوله^(١) :

فوالله ما أدرى أزيدت ملاحه وعُسنًا على النسوان أم ليس لي عقلُ

(١) هو الحكم بن معمر الخنضري .

وقد يكون الجمال موقراً لكنه ناقص الشعور به فتضعف محبته لذلك ،
فلو كشف له عن حقيقته لأسر قلبه ، ولهذا أمر النساء بسترو وجوههن عن
الرجال ، فإن ظهور الوجه يسفر عن كمال المحاسن فيقع الافتتان ، ولهذا شرع
للمخاطب أن ينظر إلى الخطوبة ، فإنه إذا شاهد حسناتها وجمالها كان ذلك أدعى
إلى حصول المحبة والألفة بينهما كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم في قوله :
« إذا أراد أحدكم خطبة امرأة فليتنظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فإنه
أحرى أن يؤدم بينهما » (١) أى يُلأم ويوافق ويصالح . ومنه الأدام الذى
يصلح به الخبز ، وإذا وجد ذلك كله وانتفتت المناسبة والعلاقة التى بينهما لم
تستحكم المحبة ، وربما لم تقع البتة ، فإن التناسب الذى بين الأرواح من أقوى
أسباب المحبة .

* فكل أمرىء يصبو إلى من يناسبه *

وهذه المناسبة نوعان : أصلية من أصل الخلقة ، وعارضة بسبب المجاورة
أو الاشتراك فى أمر من الأمور ، فإن من ناسب قصدك قصده حصل التوافق
بين رُوحك ورُوحه ، فإذا اختلف القصد زال التوافق ، فأما التناسب الأصلى
فهو اتفاق أخلاق وتشاكل أرواح وشوق كل نفس إلى مُشاكلها ، فإن شبه
الشيء يجذب إليه بالطبع ، فتكون الروحان متشاكلتين فى أصل الخلقة ،
فتتجذب كل منهما إلى الأخرى بالطبع ، وقد يقع الانجذاب والميل

(١) مأخوذ من حديثين الأول رواه أبو داود ولفظه : « إذا خطب أحدكم
المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليصنع » والآخر رواه النسائي
عن المنيرة بن شعبة رضى الله تعالى عنه قال : « خطبت امرأة فى عهد رسول الله صلى
الله عليه وسلم فقال لى : أنظرت إليها ؟ قلت : لا قال : فانظر إليها فإنه أجد
أن يؤدم بينكما . »

بالخاصية ، وهذا لا يعلل ولا يُعرف سببه كإنجذاب الحديد إلى الحجر
المغناطيس . ولا ريب أن وقوع هذا القدر بين الأرواح أعظم من وقوعه بين
الجمادات كما قيل :

محاسنها هيولى^(١) كل حسنٍ ومغناطيسُ أفئدةِ الرجال
وهذا الذى سَمَّلَ بعضَ الناس على أن قال : إن العشق لا يقف على
الحسن والجمال ولا يلزم من عَدَمِهِ عَدَمُهُ ، وإنما هو تشاكل النفوس وتمازجها
في الطباع الخلوقة ، كما قيل^(٢) :

وما الحُبُّ من حُسْنٍ ولا من مَلاحِظٍ ولكنه شئٌ به الرُّوحُ تَكَلَّفَ^(٣)
قال هذا القائل : فحقيقته أنه مِرَّةٌ آتٍ يبصر فيها المحبُّ طباعه وِرْقَتَهُ في صورة
محبوبه ، ففي الحقيقة لم يحبَّ إلا نفسه وطباعه ومشاكله .

قال بعضهم لمحبوبه : صادفتُ فيك جوهرَ نفسى ومُشاكَلَتَهَا في كل
أحوالها ، فانبعثت نفسى نحوك وانقادت إليك ، وإنما هو يَتُ نفسى . وهذا
صحيح من وجه ، فإن المناسبةَ عِلَّةُ الضَّمِّ شرعاً وقدرأً ، وشاهدُ هذا الاعتبار أن
أحبَّ الأغذية إلى الحيوان ما كان أشبهَ بجوهر بدنه وأكثرَ مناسبةً له ، وكلما
قويت المناسبة بين الغاذى والغذاء كان ميلُ النفس إليه أكثرَ ، وكلما بعدت
المناسبة حصلت التَّنَزُّعُ عنه ، ولا ريب أن هذا قدرٌ زائدٌ على مجرد الحسن

(١) الهيولى : مادة الشيء الذى يصنع منها . وعند القدماء : مادة ليس لها
شكل ولا صورة معينة قابلة للتشكيل والتصوير ، وهى التى صنع الله تعالى منها
أجزاء العالم المادية .

(٢) هو لمحمد بن داود الظاهرى كما جاء فى ديوان الصبابة .

(٣) كلف الشيء وبه : أحبه وأولع به .

والجمال ، ولهذا كانت النفوسُ الشريفةُ الزكيةُ العُلويةُ تعشق صفاتِ الكمالِ بالذات ، فأحبُّ شيءٍ إليها العلمُ والشجاعةُ والعِفَّةُ والجودُ والإحسانُ والصبرُ والثباتُ لمناسبة هذه الأوصافِ لجوهرها ، بخلاف النفوسِ اللثيمةِ الدنيئةِ فإنها يَمَعُزِلُ عن محبةِ هذه الصفاتِ ، وكثيرٌ من الناسِ يَحْمِلُهُ على الجودِ والإحسانِ قِرْبَةُ عَشْقِهِ ومَحَبَّتِهِ لَهُ واللَّذَّةُ التي يَجِدُهَا فِي بَذْلِهِ ، كما قال المأمونُ : لَقَدْ حُبَّبَ إِلَى الْعَفْوِ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ لَا أُؤْجَرَ عَلَيْهِ . وقيل للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : تعلمت هذا العلمُ لله ؟ فقال : أما لله فعزيز ، ولكن شيءٌ حُبَّبَ إِلَى فَعَلْتُهُ . وقال آخر : إِنِّي لَا فَرَحَ بِالْعَطَاءِ وَأَلْتَذُّ بِهِ أَكْثَرُ أَعْظَمَ مِمَّا يَفْرَحُ الْآخِذُ بِمَا يَأْخُذُهُ مِنْهُ . وفي هذا قيل في مدح بعض الكرماء من أبيات :

وَتَأْخُذُهُ عِنْدَ الْمَكَارِمِ هَزْرَةٌ كَمَا أَهْتَزَّ عَبْدُ الْبَارِحِ ^(١) الْفُضْنُ الرُّطْبُ

وقال شاعر الحماسة :

تراه إذا ماجتْهُ مَهْلَكًا كأنك تعطيه الذي أنت سائله ^(٢)

وكثيرٌ من الأجواد يعشق الجودَ أعظمَ عَشْقٍ ، فلا يصبر عنه مع حاجته إلى ما يجود به ، ولا يقبل فيه عَذْلًا عَازِلًا ، ولا تأخذه فيه لومةُ لائمٍ ، وأما عشاقُ العلمِ فأعظمُ شَغَفًا به وعَشْقًا لَهُ مِنْ كُلِّ عَاشِقٍ بِمَعشوقه ، وكثيرٌ منهم لا يَشْقُهُ عَنْهُ أَجَلُ صُورَةٍ مِنَ الْبَشَرِ . وقيل لامرأة الزبير بن بكار أو غيره : هَنِيئًا لَكَ إِذَا لَيْسَتْ لَكَ ضَرَّةٌ ، فقالت : والله لهذه الكتبُ أَضَرُّ عَلَىَّ مِنْ عِدَّةِ ضُرَائِرٍ .

(١) البارح : الريح الحارة في الصيف .

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمي ، وقد ورد في شرح ديوانه (ص ١٤٢)

طبعة دار الكتب المصرية . ونسب في الأغاني (ج ١٣) طبع بولاق لعبد الله ابن الزبير الإسدي .

وحدثني أخو شيخنا عبد الرحمن بن تيمية عن أبيه قال : كان الجُدُّ إذا دخل
الخلاء يقول لي : اقرأ في هذا الكتاب وارفع صوتك حتى أسمع . وأعرف من
أصابه مرضٌ من صُدَاعٍ وُحَى وكان الكتاب عند رأسه ، فإذا وَجَدَ إفاقةً
قرأ فيه ، فإذا غلب وضعه ، فدخل عليه الطبيب يوماً وهو كذلك فقال : إن
هذا لا يَحِلُّ لك فإنك تُعين على نفسك وتكون شبيهاً لفوات مطلوبك . وحدثني
شيخنا قال : ابتدأتُ مرضٌ فقال لي الطبيب : إن مطالعتك وكلامك في العلم
يزيد المرض ، قلت له : لا أصبر على ذلك وأنا أحاكمك إلى علمك ، أليست
النفس إذا فرحت وسُرَّت قَوَّرت الطبيعة فدفعت المرض ؟ فقال : بلى ، قلت
له : فإن نفسي تُسرُّ بالعلم فتقوى به الطبيعة فأجدُ راحة ، فقال : هذا خارجٌ
عن علاجنا ، أو كما قال :

فَعَشَقُ صِفَاتِ الْكَمَالِ مِنْ أَفْنَعِ الْعَشَقِ وَأَعْلَاهُ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ بِالْمُنَاسِبَةِ الْقِيَامُ
بَيْنَ الرُّوحِ وَتِلْكَ الصِّفَاتِ وَلِهَذَا كَانَ أَعْلَى الْأَرْوَاحِ وَأَشْرَفُهَا أَعْلَاهَا وَأَشْرَفُهَا
مَعشوقاً كما قيل :

أَنْتَ الْقَتِيلُ بِكُلِّ مَنْ أَحْبَبْتَهُ فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ فِي الْمَوَى مِنْ تَصْطَفِي
فَإِذَا كَانَتِ الْمَحَبَّةُ بِالمَشَاكِلَةِ وَالْمُنَاسِبَةِ ثَبَتَتْ وَتَمَكَّنَتْ وَلَمْ يُرْهِلْهَا إِلَّا مَانِعٌ
أَقْوَى مِنَ السَّبَبِ ، وَإِذَا لَمْ تَكُنْ بِالمَشَاكِلَةِ فَإِنَّمَا هِيَ مَحَبَّةٌ لِنَرَضٍ مِنَ الْأَغْرَاضِ
تَزُولُ عِنْدَ اقْتِضَائِهِ وَتَضْحَلُ ، فَمَنْ أَحْبَبَكَ لِأَمْرٍ وَلَّى عِنْدَ اقْتِضَائِهِ ، فَدَاعَى الْمَحَبَّةُ
وَبَاعَثَهَا إِنْ كَانَ غَرَضًا لِلْمَحَبِّ لَمْ يَكُنْ لِمَحَبَّتِهِ بَقَاءٌ ، وَإِنْ كَانَ أَمْرًا قَائِمًا بِالمَحْبُوبِ
سَرِيعَ الزَّوَالِ وَالْإِنْتِقَالِ زَالَتْ مَحَبَّتُهُ بِزَوَالِهِ ، وَإِنْ كَانَ صِفَةً لَازِمَةً فَحَبَّتُهُ بَاقِيَةٌ
بِقِيَامِ دَاعِيهَا مَا لَمْ يَمَارِضْهُ مَعَارِضٌ يُوجِبُ زَوَالَهَا ، وَهُوَ إِمَّا تَغْيِيرُ حَالٍ فِي الْمَحَبِّ ،
أَوْ أَدَى مِنَ الْمَحْبُوبِ ، فَإِنَّ الْأَدَى إِمَّا أَنْ يُضْعِفَ الْمَحَبَّةَ أَوْ يَزِيلَهَا .

قال الشاعر :

خذى العفو منى تستديى مودتى ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب
فانى رأيت الحب فى القلب والأذى إذ اجتمعنا لم يلبث الحب يذهب

وهذا موضع انقسم المحبون فيه قسمين : فرقة قالت : ليس بحب صحيح مايزيله الأذى ، بل علامة الحب الصحيح أنه لا ينقص بالجفوة ولا يذهبه أذى قالوا : بل المحب يلتذ بأذى محبوبه له ، كما قال أبو الشيص :

وقف الهوى بى حيث أنتِ فليس لى متأخر عنه ولا متقدم
وأهنتنى فأهنت نفسى جاهداً ما من يهون عليك من يسكرم
أشبهت أعدائى فصرت أحبهم إذ كان خطي منك خطي منهم
أجد الملامة فى هوائك لذينة حبا لذكرك فليكني اللوم^(١)

فهذا هو الحب على الحقيقة فإنه متضمن لغاية الموافقة ، بحيث قد اتخذ مراده ومراد محبوبه من نفسه ، فأهان نفسه موافقة لإهانة محبوبه له ، وأحب أعداءه لما أشبههم بحبوه فى أذاه . وهذا وإن كانت الطباع تأباه لكنه موجب الحب التام ومقتضاه . وقالت فرقة : بل الأذى مزيل للحب ، فإن الطباع مجبولة على كراهة من يؤذيها ، كما أن القلوب مجبولة على حب من يحسن إليها . وما ذكره أولئك فدعوى منهم .

والإنصاف أن يقال : يجتمع فى القلب بغض أذى الحبيب وكراهته ، ومحبة من وجه آخر ، فيجبه ويُبغض أذاه ، وهذا هو الواقع ، والغالب منها يوارى

(١) تقدمت هذه الأبيات فى الصفحة ٢٢ .

المغلوب ويبقى الحكم له ، وقد كشف عن بعض هذا المعنى الشاعرُ
في قوله (١) .

ولو قلتَ طناً في النار أعلمُ أنه رضا لكِ أو مُذن لنا من وصالِك
لقد متُ رجلى نحوها فوطئتها هدى منك لي أو ضيلة من ضلالِك
وإن ساءني أن نلتقي بمساء فقد سرّني أني خَظرتُ بِبِكالِك (٢)
فهذا قد أنصف حيث أخبر أنه يسوؤه أن يناله محبوبه بمساء ويسره
خطوره بباله ، لأنّ كُن ادّعى أنه يلتذّ بأذى محبوبه له ، فإن هذا خارجٌ عن
الطباع ، اللهم إلا أن يكون ذلك الأذى وسيلةً إلى رضى المحبوب وقربه ، فإنه
يلتذّ به إذا لاحظ غايته وعاقبته ، فهذا يقع ، وقد أخبرني بعض الأطباء قال :
إنى ألتذّ بالدواء الكريه إذا علمتُ ما يحصلُ به من الشفاء ، وأضعه على لساني
وأترشّفه بحبة له ، ومن هذا التذادُ المحبين بالمشاقّ التي توصلهم إلى وصال
محبوبهم وقربه ، وكلما ذكروا روح الوصال وأن مام فيه طريقٌ موصلٌ إليه ،
لذّ لهم مقاساته ، وطاب لهم تحمُّله . كما قال الشاعر :

لها أحاديثُ من ذكرالك تشغلها عن الشراب وتلّهبها عن الزاد
لها بوجهك نورٌ تستضيء به ومن حديثك في أعقابها حادى
إذا شككت من كلال السير أوعدها رَوْحَ اللقاء فتقوى عند ميعاد
والقصد أن المحبة تستدعى مشاكلةً ومناسبةً ، وقد ذكر الإمام أحمد بن
حنبل رحمه الله تعالى في مسنده من حديث عائشة رضى الله عنها : أن امرأةً

(١) هو عبد الله بن الدمينه .

(٢) سيأتى هذا البيت في الباب العشرين وفيه لئن ساءني ... لقد سرّني الخ ،
وهو المرواب .

كانت تدخل على قريش فتضحكهم ، فقدمت للمدينة فنزلت على امرأة تضحك الناس ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : على من نزلت فلانة ؟ قالت : على فلانة المضحكة ، قال : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تنافرت منها اختلف » . وأصل الحديث في الصحيح ^(١) . وذكر لبقراط رجل من أهل النقص يحبه فاعتم لذلك وقال : ما أحبنى إلا وقد واقفته في بعض أخلاقه ، وأخذ المتنبي هذا المعنى قلبه وأجاد فقال :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني فاضل ^(٢)

وقال بعض الأطباء : العشق امتزاج الروح بالروح لما بينهما من التناسب والتشاكل ، فإذا امتزج الماء بالماء امتنع تخليص بعضه من بعض ، ولذلك تبلى المحبة بين الشخصين حتى يتألم أحدهما بتألم الآخر ، ويسقم بسقمه وهو لا يشعر . ويذكر أن رجلاً كان يحب شخصاً فرض فدخل عليه أمحابه يمدونه فوجدوا به خفة فانبسط معهم ، وقال : من أين جئتم ؟ قالوا : من عند فلان عدنا ، فقال : أو كان عليلاً ؟ قالوا : نعم وقد عوفي ، فقال : والله لقد أنكرت علي هذه ولم أعرف لها سبباً غير أني توهمت أن ذلك لعل نالت بعض من أحب ، ولقد وجدت في يومي هسداً راحة ففرحت طمعاً أن يكون الله سبحانه وتعالى شفاه ، ثم دعا بدواة فكتب إلى محبوبه ^(٣) :

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم .

(٢) في بعض نسخ الديوان :

فهي الشهادة لي بأني كامل .

(٣) الشعر لأبي نواس قاله في رجة بن نجاح كما في ديوانه (ص ٢٩٩) مدمر ببعض اختلاف وزيادة بيتين والقوافي فيه مفتوحة خطاباً للذكر . وجاء في ديوان العصابة لابن أبي حجلة أنها قيلت في عنان جارية الناطقي فهي هناك كما هي هنا مكسورة خطاباً للنؤث .

إني حُجِمْتُ ولم أشعرُ بِحُجْمِكَ حتى تحدثَ عَوَّادِي بِشُكْوَاكِ
 فقلتُ ما كانتُ الحُمَّى لتَطْرُقَنِي من غير ما سببٍ إِلَّا لِحُجْمَاكِ
 وَخَصَلَةٍ كُنتُ فِيهَا غَيْرَ مُتَّهِمٍ عَافَانِي اللَّهُ مِنْهَا حِينَ عَافَاكِ
 حتى اتفقت نفسي ونفْسُكَ فِي هذا وَذاك وَفِي هَذَا وَفِي ذَاكِ
 وَيُحْسِكِي أَنْ رَجُلًا مَرَضَ مِنْ يَحِبُّهُ فَعَادَهُ الْمَحَبَّةُ فَرَضَ مِنْ وَقْتِهِ ، فَعُوفِي
 بِحُبِّهِ فَمَا يَعُودُهُ فَلَمَّا رَأَاهُ عُوفِي مِنْ وَقْتِهِ وَأَنْشُدَ:

مَرَضَ الْحَبِيبُ فَعُدَّتُهُ فَرَضْتُ مِنْ حَدَرِي (١) عَلَيْهِ
 وَأَتَى الْحَبِيبُ يَعُودُنِي فَبَرِئْتُ مِنْ نَظَارِي إِلَيْهِ

وَأَنْتِ إِذَا تَأَمَّلْتَ الْوُجُودَ لَا تَكَادُ تَجِدُ اثْنَيْنِ يَتَحَابَّانِ إِلَّا وَبَيْنَهُمَا مَشَاكِلَةٌ
 أَوْ اتِّفَاقٌ فِي فِعْلٍ أَوْ حَالٍ أَوْ مَقْصِدٍ ، فَإِذَا تَبَايَنَتِ الْمَقَاصِدُ وَالْأَوْصَانُ وَالْأَفْعَالُ
 وَالطَّرَائِقُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلَّا النِّقَرَةُ وَالْبَعْدُ بَيْنَ الْقُلُوبِ ، وَيَكْفِي فِي هَذَا الْحَدِيثُ
 الصَّحِيحُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ
 وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ
 سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ » (٢) .

فَإِنْ قِيلَ : فَهَذَا الَّذِي ذَكَرْتُمْ يَقْتَضِي أَنَّهُ إِذَا أَحَبَّ شَخْصٌ شَخْصًا أَنْ
 يَكُونَ الْآخَرُ يَحِبُّهُ فَيَشْتَرِكَانِ فِي الْمَحَبَّةِ ، وَالْوَاقِعُ يُشْهَدُ بِخِلَافِهِ ، فَكَمْ مِنْ مَحَبٍّ غَيْرِ
 مَحْبُوبٍ بَلْ بِسَيْفِ الْبَغْضِ مَضْرُوبٍ ، قِيلَ : قَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي جَوَابِ هَذَا
 السُّؤَالِ ، فَأَمَّا أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ حَزْمٍ فَإِنَّهُ قَالَ : الَّذِي أَذْهَبَ إِلَيْهِ أَنَّ الْعَشْقَ اتِّصَالٌ
 بَيْنَ أَجْزَاءِ النَّفْسِ الْمَقْسُومَةِ فِي هَذِهِ الْخَلْقَةِ فِي أَصْلِ عُنْصُرِهَا الرَّفِيعِ ، لَا عَلَى

(١) فِي رِوَايَةِ أُخْرَى : مِنْ وَجَدِي عَلَيْهِ .

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَأَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ .

ما حكاه محمد بن داود عن بعض أهل الفلسفة أن الأرواح أكرّ مقسومة لكن على سبيل مناسبة قواها في مقرّ عالمها العلوى وبجاورتها في هيئة تركيبها . وقد علمنا أن سرّ التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال ، فالشكل إنما يستدعى شكله والمثل إلى مثله ساكن . وللمجانسة عمل محسوس وتأثير مشاهد . والتنافر في الأضداد ، والموافقة في الأنداد ، والنزاع فيما تشابه موجود بيننا ، فكيف بالنفس وعالمها العالم الصافي الخفيف ، وجوهرها الجوهر الصعّاد المعتدل ، وسنخها^(١) ألهمياً لقبول الاتفاق والليل والتوق والانحراف والشهوة والنفاق ؟ والله تعالى يقول : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا)^(٢) فجعل علة السكون أنها منه ، ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية لوجب أن لا يستحسن الأتقص من الصور ، ونحن نحمد كثيراً من يؤثّر الأدنى ويعلم فضل غيره ولا يجد تحيداً لقلبه عنه ، ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه ، فعلمنا أنه نسي في ذات النفس ، وربما كانت الحبة لسبب من الأسباب ، وتلك تفتى بفناء ضبيها .

قال : وما يؤكد هذا القول أننا قد علمنا أن الحبة ضروب : فأفضأها محبة المتحابين في الله عز وجل إما لاجتهاد في العمل ، وإما لاتفاق في أصل المذهب ، وإما لفضيل علم يمنحه الإنسان . ومحبة القرابة ، ومحبة الألفة والاشتراك في المطالب ، ومحبة التصاحب والمعرفة ، ومحبة لبر يضعه المرء عند أخيه ، ومحبة لطمع في جاه المحبوب ، ومحبة المتحابين لسرّ^٣ يتمتعان عليه يلزمها ستره ،

(١) السنخ : الأصل من كل شيء .

(٢) الآية ١٨٨ . سورة الأعراف .

ومحبة بلوغ اللذة وقضاء الوطر ، ومحبة العشق التي لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس . وكل هذه الأجناس فنقضية مع انقضاء عِلِّها ، وزائدة بزيادتها ، وناقصة بنقصانها ، متأكدّة بدنوّها ، فائرة ببعدها ، حاشا محبة العشق الصحيح المتمكن من النفس . ثم أورد هذا السؤال ^(١) قال : والجواب أن نفس الذي لا يجب من يُحبّه مُكْتَنَفَةٌ الجهات ببعض الأعراض الساترة ، والمُحْبَبُ المحيطة بها من الطبائع الأرضية ، فلم يُنْحَسَ بالجزء الذي كان متصلاً بها قبل حلولها حيث هي ، ولو تَخَلَّصَتْ لاستويا في الاتصال والمحبة . ونفس المحب متخلصة عالمه بمكان ما كان يَشْرَكُها في المجاورة . طالبة له قاصدة إليه باحثة عنه مشتهية للملاقاة ، جاذبة له لو أمكنها كالغناطيس والحديد ، وكال نار في الحجر .

وأجابت طائفة أخرى أن الأرواح خُلِقَتْ عَلَى هيئة الكرة ثُمَّ قُسِمَتْ . فَأَيُّ رُوحَيْنِ تَلَاقَتَا هُنَاكَ وَتَجَاوَرَتَا تَأَلَّفَتَا فِي هَذَا الْعَالَمِ وَتَجَاوَرَتَا ، وَإِنْ تَنَافَرَتَا هُنَاكَ تَنَافَرَتَا هُنَا ، وَإِنْ تَأَلَّفَتَا مِنْ وَجْهِهِ وَتَنَافَرَتَا مِنْ وَجْهِهِ كَانَتَا كَذَلِكَ هَاهُنَا ، وَهَذَا الْجَوَابُ مَبْنَى عَلَى الْأَصْلِ الْفَاسِدِ الَّذِي أَصْلُهُ هُوَ لَا أَنَّ الْأَرْوَاحَ مَوْجُودَةٌ قَبْلَ الْأَجْسَادِ ، وَأَنَّهَا كَانَتْ مُتَعَارِفَةً مُتَجَاوِرَةً هُنَاكَ ، تَتَلَقَّوْنَ وَتَتَعَارَفُونَ وَهَذَا خَطَأٌ ، بَلِ الصَّحِيحُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ أَنَّ الْأَرْوَاحَ مَخْلُوقَةٌ مَعَ الْأَجْسَادِ ، وَأَنَّ الْمَلَكَ الْمُوَكََّلَ يَنْفَخُ الرُّوحَ فِي الْجَسَدِ يَنْفَخُ فِيهِ الرُّوحَ إِذَا مَضَى

(١) يشير إلى السؤال الذي تقدم في الصفحة ٧٤ وهو : فإن قيل فهذا الذي ذكرتم يقتضى أنه إذا أحب شخص شخصاً أن يكون الآخر يحبه فيشتركان في المحبة والوانع يشهد بخلافه . وهذا السؤال ليس لفظ ابن حزم وإنما أورده المؤلف بالمعنى .

على النطفة أربعة أشهر ودخلت في الخامس ، وذلك أول حدوث الروح فيه .
ومن قال إنها مخلوقة قبل ذلك فقد غلط ، وأقبح منه قول من قال : إنها
قديمة ، أو توقّف في ذلك ، بل الصواب في الجواب أن يقال : إن المحبة
كما تقدّم قسمان : محبة غرضية غرضية ، فهذه لا يجب الاشتراك فيها بل
يقارنها بمقتّ المحبوب وبغضه للمحب كثيراً ، إلا إذا كان له معه غرض
نظير غرضه فإنه يحبّه لغرضه منه ، كما يكون بين الرجل والمرأة اللذين لكلّ
منهما غرض مع صاحبه . والقسم الثاني محبة روحانية سببها المشاكلة والاتفاق
بين الروحين ، فهذه لا تكون إلا من الجانبين ولا بدّ ، فلو فُتّش المحب
المحبة الصادقة قلب المحبوب لوجد عنده من محبته نظير ما عنده أو دونه
أو فوقه .

فصل

وإذا كانت المحبة من الجانبين استراح بها كلّ واحد من المحبين ،
وسكن ذلك بعض ما به وعده نوعاً من الوصال ، وقالت امرأة من العرب :
حَبَبْتُ ولم أَخْجُجْ لذنْبِ عَمَلْتُهُ ولكن لتُعْدِيْنِي عَلَى قَاطِعِ الْحَبْلِ
ذَهَبَتْ بِعَقْلِي فِي هَوَاهُ صَغِيرَةٌ وَقَدْ كَبُرَتْ سَنِي فَرُدَّ بِهِ عَقْلِي
وإلا فسوء الحبّ بيني وبينه فإنك يا مولاي توصف بالعدل
وقال آخر :

فِيَارِبُ أَشْغَلْهَا بِحَبِي كَمَا بَهَا شَغَلْتَ فَوَادِي كِي يَخْفَ الَّذِي بِيَا
وقالت امرأة تعاتب بعلمها . أسأل الذي قسم بين العباد معاشهم أن يقسم
الحبّ بيني وبينك ، ثم أنشدت :

أُدْعُو الَّذِي صَرَفَ الْهَوَى مَنِّي إِلَيْكَ وَمَنْكَ عَنِّي
أَنْ يَبْتَئِلِكَ بِمَا أَبْتَئِلَا نِي أَوْ يَسَلَّ الْحَبَّ مِنِّي

وقال آخر :

فِيَارَبِّ إِنْ لَمْ تَقْسِمِ الْحَبَّ بَيْنَنَا بِشَطَرَيْنِ فَاجْعَلْنِي عَلَى هَجْرهَا جَلْدًا
وَأَعْقِبْنِي السُّلُوفَ عَنْهَا وَرُدَّنِي فَوَادِيَّ مِنْ سَلْمَى أَثْبُوكَ بِهِ حَمْدًا
وقال أبو المَذْبِيلِ الْعَلَّافُ : لَا يَجُوزُ فِي دَوْرِ الْفَلَكَ وَلَا فِي تَرْكِيبِ الطَّبَائِعِ
وَلَا فِي الْوَاجِبِ وَلَا فِي الْمُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ مُحِبٌّ لِمُحِبُّوهُ إِلَّا بِهِ مِيلٌ ، وَإِلَى
هَذَا الْمَذْهَبِ ذَهَبَ أَبُو الْعَبَّاسِ النَّاشِئُ حَيْثُ يَقُولُ :

عَيْنَاكَ شَاهِدَتَانِ أَنَّكَ مِنْ حَرِّ الْهَوَى تَجْدِينِ مَا أُجِدُّ
بِكَ مَا بِنَا لَكِنْ عَلَى مَضَضٍ تَتَجَلَّلِينَ وَمَا بِنَا جَلْدُ
وقال أَبُو عَمِيْنَةَ :

تَبَيَّنْتُ بِنَا تَهْدِي وَأَهْدِي بِذِكْرِهَا كَلَانَا يَقَاسِي اللَّيْلَ وَهُوَ مُسَهَّدُ
وَمَا رَقَدَتْ إِلَّا رَأَتْني ضَجِيعَهَا كَذَلِكَ أَرَاهَا فِي الْكُرَى حِينَ أَرْقُدُ
تُقِرُّ بِذَنْبِي حِينَ أَغْفُو وَتَلْتَقِي وَأَسْأَلُهَا يَقْظَانَ عَنْهُ فَتَجْجَدُ
كَلَانَا سِوَاهُ فِي الْهَوَى غَيْرِ أَنَّهَا تَجَلْدُ أَحْيَانًا وَمَالِي تَجَلْدُ
وقال عُرْوَةُ بْنُ أَذْيَنَةَ :

إِنْ الَّتِي زَعَمْتَ فَوَادِكَ مَاءَهَا خُلِقْتَ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوَى لَهَا
فَبِكَ الَّذِي زَعَمْتَ بِهَا فَكَلَاكَ أَبْدَى لِصَاحِبِهِ الصَّبَابَةَ كُلَّهَا

فَإِذَا تَشَاكَلَتِ النُّفُوسُ وَتَمَازَجَتِ الْأَرْوَاحُ وَتَفَاعَلَتِ تَفَاعَلَتْ عَنْهَا الْأَبْدَانُ ،
وَطَلَبَتْ نَظِيرَ الْإِمْتِزَاجِ وَالْجَوَارِ الَّذِي بَيْنَ الْأَرْوَاحِ ، فَإِنَّ الْبَدْنَ آتَةُ الرُّوحِ
وَمَرْكَبُهُ ، وَهَذَا رَكَبَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ شَهْوَةُ الْجَمَاعِ بَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى طَلِبًا

للأمتزاج والاختلاط بين البدنين ، كما هو بين الروحين ، ولهذا يسمى جماعاً
وخلطاً ونكاحاً وإنشاءً ، لأن كل واحدٍ منهما يُقضى إلى صاحبه فيزول
القضاء بينهما .

فإن قيل : فهذا يوجب تأكد الحب بالجماع وقوته به والواقع خلافه ، فإن
الجماع يُطفيء نار المحبة ويبرد حرارتها ويسكن نفس المحب ، قيل : الناس
مختلفون في هذا فمنهم من يكون بعد الجماع أقوى محبةً وأمكن وأثبت بما قبله ،
ويكون بمنزلة من وصف له شيء ملائم فأحببه ، فلما ذاقه كان له أشد محبةً ،
وإليه أشد اشتياقاً ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث
عروج الملائكة إلى ربهم أنه سبحانه يسألهم عن عبادهم — وهو أعلم بهم —
فيقولون : إنهم يسبحونك ويمجدونك ويقدمونك فيقول : وهل رأوني ؟
فيقولون : لا ، فيقول : فكيف لو رأوني ؟ فتقول الملائكة : لو رأوك لكانوا
أشد تسبيحاً وتقديساً وتمجيداً ثم يقولون : ويسألونك الجنة فيقول : وهل
رأوها ؟ فيقولون : لا ، فيقول : فكيف لو رأوها ؟ فتقول الملائكة : لو رأوها
لكانوا أشد لها طلباً وذكر الحديث^(١) . ومعلوم أن محبة من ذاق الشيء
الملائم وعُدِم صبره عنه أقوى من محبة من لم يذوقه ، بل نفسه مقطومة
عنه ، والمودة التي بين الزوجين والمحبة بعد الجماع أعظم من التي كانت قبله .
والسبب الطبيعي أن شهوة القلب ، مزجة بلذة العين ، فإذا رأت العين اشتهى
القلب ، فإذا باشر الجسم الجسم اجتمع شهوة القلب ولذة العين ولذة
المباشرة ، فإذا فارق هذه الحال كان نزاع نفسه إليها أشد ، وشوقه إليها
أعظم كما قيل :

وأكثر ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الديار من الديار

(١) رواه البخاري مطولاً ومسلم والإمام أحمد .

ولذلك يتضاعف الألم والحسرة على من رأى محبوبه أو باشره ثم حيل بينه وبينه ، فتضاعف ألمه وحسرتة في مقابلة مضاعفة لذّة من عاوده ، وهذا في جانب المرأة أقوى فإنها إذا ذاقّت عُسيلة الرجل ولا ضياء أول عُسيلة لم تسكد تصبر عنه بعد ذلك ، قال أيمن بن خرّيم :

يميت العتَابَ خِلَاطُ النِّسَاءِ وَيُحْيِي اجْتِنَابُ الْخِلَاطِ الْعِتَابَا

وتزوَّج زهير بن مسكين الفهرى جارية ولم يكن عنده ما يرضيها به ، فلما أمكنته من نفسها لم ترّ عنده ما ترضى به فذهبت ولم تعدّ ، فقال في ذلك أشعاراً كثيرة ، منها :

تقول وقد قبّلتُها ألف قبلة كذاك أُمّ أمشي ، لديك ضوى القُبُلِ
فقلت لما حبّبتُ على القلب حفظه وطولُ بكاء تمنيض له القُلُ
فقلت لعمرُ الله مالدّة النقي من الحب في قول يخالفه القمل

وقال آخر :

رأت حُبِّي مصادُ بلا جاعٍ فقالت حبُّنَا حبلُ انقطاعٍ
ولمت أريد حبّاً ليس فيه متاعٌ منك يدخل في متاعِي
فلو قبّلتني ألفاً وألفاً لما أرضيت إلاّ بالجماع
إذا ما الصبُّ لم يكُ ذا جاعٍ يرى المحبوبَ كالشيء المضاع
جاعُ الصبِّ غايةُ كلِّ أُنثى وداعيةٌ لأهل العشق داعِي
فقلت لها وقد ولّت تعالَى فإنك بعد هذا لن تُراعى
وإنك لو سألتِ بقاء يومٍ خلّ عن جاعك لن تطاعِي

قالت مرحباً بفتى كريم ولا أهلاً بذى الخنجر البراع^(١)
إذا ما البعل لم يك ذا جاع يزى في البيت من سقط المتاع
وقال آخر :

ولما شكوت الحب قالت كذبتى فكم زورة منى قصدتكم خالياً
فما حلّ فيها من إزار للذة قعدت وحاجات الفؤاد كما هيأ
وهل راحة للمرء في ورد منهل ويرجع بعد الورد ظمآن صادياً
وقال العباس بن الأحنف :

لم يصف وصل لمعشوقين لم يدقا^(٢) وصلاً يحلّ على كل اللذات
وقال هذبة بن الخشرم :

والله ما يشفى الفؤاد المأتما ذك الرقى وعقدك التما
ولا الحديث دون أن تلازما ولا الأزام دون أن تفاعما^(٣)
ولا القمام دون أن تفاقما^(٤) وتملوا القوام القواما
وقال آخر :

قولا لعاتكة التي في نظرة قضت الوطر

(١) الخنجر : الذى يكتفى من النساء بالمغازلة والملاعبة ، وخنجر فلان النساء :
مالهن وعاشرن بالمنازلة والملاعبة . والبراع : الجبان الذى لا قلب له . وعلى
النشيبه : من لا رأى ولا عقل له .

(٢) كذا ... والبيت غير موجود في ديوان الأحنف المطبوع .

(٣) القمام : أن تشم رائحة جسدها وتلا به أنفك .

(٤) القمام : أن تقبلها حتى تروى . والقمم : اللحمى وفي الحديث (من حفظ
ما بين فقيهه) أى ما بين لحييه .

إني أريدك للنكا حر ولا أريدك للنظر
لو كان هذا مقنى لتنعت عنها بالقمر

وقال آخر :

دواء الحب تقييل وشم ووضع للبطون على البطون
ورهرز تذر العيانات منه وأخذ بالمناكب والقرون^(١)
وقالت امرأة وقد طلبت منها المعاهدة :

ليس بهذا أمرتني أئى ولا بتقييل ولا بشم
لكن جماعاً قد يسلى همى يسقط منه خاتمي في كؤى

وقد كشف الشاعر سبب ذلك حيث يقول :

لوضم صبي إلفه ألقا أجدى وزادت لوعة وغرام
أرواحهم من قبل ذاك تألفت فتألفت من بعدها الأجسام
وقال المؤلف :

سألت فقيه الحب عن علة الهوى وقلت له أشكو إلى الشيخ حالياً
فقال دواء الحب أن تلصق الحشا بأحشاء من تهوى إذا كنت خاليا
وتتعداً من بعد ذاك تمانقاً وتلتصقه حتى يرى لك ناهياً
فتنقض حاجات الفؤاد بأسرها على الأمن مادام الحبيب مؤاتياً
إذا كان هذا في حلال فبيدا وصال به الرحمن تلقاه راضياً
وإن كان هذا في حرام فإنه عذاب به تاتى العنا والمكاوياً
قال هؤلاء : ولا يستحكم الحب إلا بعد أن يشق الرجل رداءه وتشق
المرأة العشوقة برقعها ، كما قال الشاعر :

(١) الرمز : شدة الحركة في الجماع . والقرن : ذؤابة المرأة ، الخصلة من الشعر

إِذَا شَقَّ بُرْدٌ شَقَّ بِالْبُرْدِ بُرْقَعٌ دَوَّالِيكَ حَتَّى كَلْنَا غَيْرَ لَانِسِ
فَكَمْ قَدْ شَقَقْنَا مِنْ رِداءِ مُحَبَّرٍ وَمِنْ بَرْقَعٍ عَنْ طِفْلَةٍ غَيْرِ عَانِسِ^(١)
وَلَمَّا بَلَغَ بَعْضَ الظَّرْفَاءِ^(٢) قَوْلُ الْمُؤْمِنِ : مَا الْحُبُّ إِلَّا قَبْلَةٌ . الأبيات^(٣)
قال : كَذَبَ الْمُؤْمِنُ ثُمَّ قَالَ :

وَبَاضَ الْحُبُّ فِي قَلْبِي فَوَا وَيْلَا إِذَا فَرَّخُ
وَمَا يَنْفَعُنِي حَبِي إِذَا لَمْ أَكُنْسِ الْبَرْبَنْجَ^(٤)
وَأِنْ لَمْ يَضَعِ الْأَصْدَ عُخْرُجِيهِ عَلَى الْمَطْبَخِ

وقال ابن الرومي :

أَعَاقَهَا وَالنَّفْسُ بَعْدُ مَشْوَقَةٌ إِلَيْهَا وَهَلْ بَعْدَ الْعِنَاقِ تَدَانِي
وَأَلْتَمُّ فَاهَا كَيْ تَزُولَ صَبَابِي فَيَسْتَدَّ مَا أَلْقَى مِنَ الْهَيَّانِ
وَلَمْ يَكْ مُقْدَارُ الَّذِي بِي مِنَ الْجَوَى لِيَشْفِيَهُ مَا تَرَشَّفُ الشَّفَتَانِ
كَأَنَّ فَوَادِي لَيْسَ يَشْفِي غَايِلَهُ سِوَى أَنْ أَرَى الرَّوْحَيْنِ تَمْتَرُجَانِ^(٥)

وقال الطبراني في معجمه الأوسط : حَدَّثَنَا بَكْرُ بْنُ سَهْلٍ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ
ابْنُ يَوْسُفَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مَيْسَرَةَ ، عَنْ طَاوُسٍ ، عَنْ
ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ عِنْدَنَا يَتِيمَةٌ قَدْ خُطِبَهَا

(١) محبر : مزين ومنمق . والمائس : البكر النصف والجمع عوالس وعفس .

(٢) هو أبو العبر كما جاء في الأغاني للأصفهاني .

(٣) ستأتي الأبيات في صفحة ٨٥ . وفيها : ما الحب إلا نظرة .

(٤) البربنج : منفذ المياه ومجره ، والبالوعة من الخزف وغيره وهو هنا

يدعى الفرج .

(٥) تقدمت هذه الأبيات في صفحة ٣٢

رجلان : مُوسِرٌ ومُعْسِرٌ ، وهى تهوى المُعْسِرَ ، ونحن نهوى المُوسِرَ ، : فقال : «لَمْ يَرْ لِلْمُتَّحَاتِّ بْنِ مِثْلُ التَّزْوِيجِ» قال أبو القاسم الطبرانى : لم يَرَوْه عن طاوس إلا إبراهيم ، ولا رواه عن إبراهيم إلا محمد بن مسلم ، وسفيان الثورى ، تفرَّد به مؤمِّل بن إسماعيل عن الثورى انتهى . وقد رواه أبو الفرج بن الجوزى من حديث حَسَّان بن بِشْر : حدَّثنا أحمد بن حَرْب : حدَّثنا ابن عُيَيْنَةَ : حدَّثنا عمرو ، عن جابر فذكره . وقال البغافى بن عِمْران : حدَّثنا إبراهيم بن يزيد ، عن سليمان بن موسى ، عن عمرو ، عن طاوس ، عن ابن عباس رضى الله عنهما . وحدَّثنا على بن حرب الطائى : حدَّثنا ابن عُيَيْنَةَ ، عن إبراهيم بن مَيْسَرَةَ ، عن طاوس . وذكره الدارقطنى فى كتاب الغرائب وقال : تفرَّد به يزيد ابن مروان ، عن عمرو بن هرون ، عن عثمان بن الأسود السكى ، عن إبراهيم بن مَيْسَرَةَ ، عن طاوس .

وقالت هند بنت المُهَاجِر : ما رأيت لصالحى النساء وشراًهن خيراً من إلحاقهن بمن يَسْكُنُ إليه من الرجال ، ولربَّ مسكونٍ إليه غير طائل والسَّكَنَ عَلَى كلِّ حالٍ أَوْفَى .

وذكر الحاكم فى تاريخ نيسابور من حديث أبي هريرة رضى الله عنه يرفعه : أَرْبَعٌ لَا يَشْبَعْنَ مِنْ أَرْبَعٍ : أَرْضٌ مِنْ مَطَايِرَ ، وَأَنْثَى مِنْ ذَكَرٍ ، وَعَيْنٌ مِنْ نَظَرٍ ، وَعَالِمٌ مِنْ عِلْمٍ . وهذا باطل قطعاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كثير عن أبي هريرة رضى الله عنه^(١) . وذكر الطبرانى فى معجمه

(١) ذكر هذا الحديث فى طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى من رواية الحاكم أيضاً عن عائشة رضى الله عنها لا عن أبي هريرة ، وفى سنده عبد السلام بن عبد الله بن وهب فى تهذيب التهذيب قول أبى حاتم فى عبد السلام : يروى الموضوعات لا يضل الاحتجاج به منها حديث : أَرْبَعٌ لَا يَشْبَعْنَ مِنْ أَرْبَعٍ الخ ثم قال : هذا منكر .

الأوسط من حديث ابن عمر يرفعه : فَضْلُ مَا بَيْنَ لَذَّةِ الْمَرْأَةِ وَلَذَّةِ الرَّجُلِ كَأَثَرِ الْمَخِيطِ فِي الطَّيْنِ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ سَتَرَهُنَّ بِالْحَيَاءِ وَقَالَ : لَمْ يَرَوْهُ عَنْ لَيْثٍ إِلَّا أَبُو السَّيِّبِ سَلَّمَ بِنِ سَلَامٍ عَنْ سُوَيْدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُسَامَةَ عَنْ يَعْقُوبَ ابْنِ خَالِدٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا . قُلْتُ : وَهَذَا أَيْضًا لَا يَصِحُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَإِسْنَادُهُ مَظْلَمٌ لَا يَحْتَاجُ بِمَثَلِهِ .

فصل

ورأت طائفة أن الجماع يُفسد العشقَ ويُبطله أو يُضعفه ، واحتجت بأمور منها : أن الجماع هو الغاية التي تُطلب بالعشق فما دام العاشق طالباً فعشقه ثابتٌ ، فإذا وصل إلى الغاية قضى وطره ، وبركدت حرارة طلبه ، وطفئت نارُ عشقه . قالوا : وهذا شأن كل طالبٍ لشيءٍ إذا ظفر به ، كالظمان إذا روى ، والجامع إذا شبع ، فلا معنى للطلب بعد الظفر . ومنها : أن سبب العشق فكرىٌ وكلما قوى الفكرُ زاد العشق ، وبعد الوصول لا يبقى الفكر ، ومنها : أنه قبل الظفر ممنوعٌ ، والنفسُ موكلةٌ بحب ما مُنعت منه كما قال (١) :

وزادنى كلفاً في الحب أن مُنعتُ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنِعَا
وقال الآخر (٢) :

لولا طرادُ الصيد لم تنكُ لَذَّةٌ فَتَنَارِدِي لِي بِالْوَصَالِ قَلِيلًا
قالوا : وكانت الجاهلية الجهلاء في كفرهم لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً ، وكانوا يصونون العشق عن الجماع ، كما ذكر أن أعرايياً علق امرأةً في مكان

(١) هو الأحوص .

(٢) هو كشاجم كما جاء في ديوان الصبابة .

يأتيها شنين وما جرى بينهما ريبة ، قال : فرأيت ليلةً يياض كنفها في ليلة ظلماء
فوضعتُ يدي على يدها فقالت : مه لا تفسد ما صلح فإنه ما نكح حباً إلا
فسد. فأخذ ذلك المأمون فقال :

ما الحب إلا نظيرةٌ وغزٌ كَفٌّ وعَضْدٌ
أو كُتِبَ فيها رُقٌّ أَجَلٌ من ثِقِ العُقْدِ
ما الحب إلا هكذا إن نكح الحب فسد
من كان هذا حبه فإيما يعني الولد

وهوى آخرُ امرأةً فدام الحالُ بينهما في اجتماعٍ وحديثٍ ونظرٍ ، ثم إنه
جامعها فقطعت الوصلَ بينهما فقال :

لو لم أواقع دام لي وصلها فليتني لا كنتُ واقعتها
وقيل لآخرٍ شكاً فراقٍ محبوبته له ^(١) :

أكثرَ من وطنها وأوطأ منامةً فارقُ بنفسك إن الرفقَ محمود

وذكر عمر بن شبة عن بعض علماء أهل المدينة قال : كان الرجل يحب
الفتاة فإذا ظفر بها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار ، واليوم يشير إليها وتشير
إليه فيعدها وتعدّه ، فإذا التقيا لم يشك حُباً ولم يُنشد شعراً وقام إليها كأنه
أشهد على نكاحها أبا هريرة رضى الله عنه .

يخط من داخل الدهايز منصرفاً إلا وخلخالها قد قارب الساقا

قال الأصمعي : قلت لأعرابية : ما تعدون العشق فيكم ؟ قالت : العناق
والغصة والغمرة والمحادثة .

ثم قالت : يا حضري فكيف هو عندكم ؟ قلت : يقعد بين شعبها الأربع
ثم يُجهدُها . قالت : يا ابن أخي ما هذا عاشقٌ هذا طالب ولد .

وسئل أعرابيٌّ عن ذلك فقال : مَصُّ الرِّيقِ ، وَلِثْمُ الشَّفَةِ ، والأخذ من
أطايب الحديث ، فكيف هو فيكم أيها الحضري ؟ فقال : العَفْسُ ^(١) الشديد ،
والجمع بين الركبة والوريد ، ورَهْزٌ يوقظ النائم ، ويَشْفِي القلب الهائم . قال :
بالله ما يفعل هذا العدو الشديد فكيف الحبيب الودود ؟

وقال بعضهم : الحبُّ يطيب بالنظر وَيَفْسُدُ بالنزير . قال هولاء : والحب
الصحيح يوجب إعظامَ المحبوب وإجلالَه والحياء منه ، فلا تطاوع نفسه أن
يلقى جلاباب الحياء عند محبوبه ، وأن يُلقِيَه عنه ، ففى ذلك غاية إذلاله وقهره
كما قيل :

إذا كانَ حظُّ الرءِ مِن مُجْبِهٍ حراماً لَخَطَى ما يَحِلُّ وَيَحْمِلُ
حديثُ كِساءِ المَزْنِ بينَ فُصُولِهِ عتابٌ بهِ حَسَنُ الحديثِ يُفَصِّلُ
ولَسْتُ فَمٍ عَذَبَ اللِّثاتِ كما نَمَّا جَنَاهُنَّ شَهِدَتْ فِيهِ القَرَئِنُ
وما العشقُ إلا عَفَّةٌ ونِزَاهَةٌ وَأَنَسُ قُلُوبِ أَنْسَنِ التَّفَرُّلِ
وإني لأَسْتَحْيِي الحبيبَ منَ التي تَرِيبُ وَأُدْعَى للجميلِ فَاتَّحِلُ
وزعم بعضهم أنه كان يُشَرِّطُ بين العشيقة والعاشق أنَّ له من نصفها الأعلى
إلى سُرَّتِها ينال منه ما يشاء من ضمِّ وتقبيل ورَشْفٍ ، والنصفُ الأسفلُ يَحْرُمُ
عليه ، وفي ذلك قال شاعر القوم :

فَلِلْحَبِّ شِطَارٌ مُطْلَقٌ مِنْ عِقَالِهِ وَلِلْبَعْلِ شِطَارٌ مَا يُرَامُ مَدِينُهُ

(١) عَفْسُهُ عَفْساً : طَرَحَهُ عَلَى الْأَرْضِ وَضَعَهُ لَهُ سَهْطاً شَدِيداً ، وَضَرَبَهُ
عَلَى عِجْزِهِ .

وقال الآخر :

لما شطر فن حلّ ويحلّ ونصف كالبجيرة ما يهاج^(١)
وهذا كان من دين الجاهلية فأبطلته الشريعة ، وجعلت الشّطرين كليهما
للشّرع . والشعراء قاطبة لا يرون بالمعاصرة والنظر للأجنبيات بأساً ، وهو مخالف
للشّرع والعقل فإن فيه تعريضاً للطبع لما هو مجبول على الميل إليه ، والطبع
يسرق ويقلب ، وكم من مفتون بذلك في دينه ودنياه ، فإن قيل فقد أُنشد
الحاكم في مناقب الشافعي له :

يقولون لا تنظر وتلك بليّة ألا كلّ ذى عينين لابدّ ناظر
وليس اكتحال العين بالعين رية إذا عَفّ فيما بين ذاك الضمائر^(٢)
فإن محت عن الشافعي فإنما أراد النظر الذي لا يدخل تحت التكليف ،
كنظرة التّجأ أو النظر المباح . وقد ذهب أبو بكر محمد بن داود الأصفهاني
إلى جواز النظر إلى من لا يحلّ له كما سيأتي كلامه إن شاء الله تعالى . قال
أبو الفرج بن الجوزي : وأخطأ في ذلك وجرّ عليه خطؤه اشتهاؤه بين الناس
وافتنائه . وذهب أبو محمد بن حزم إلى جواز العشق للأجنبية من غير رية ،
وأخطأ في ذلك خطأ ظاهراً فإن ذريعة العشق أعظم من ذريعة النظر ، وإذا

(١) البل بالكسر : المباح يقال : حلّ بل وهو إتباع . والبجيرة : الناقة ،
كانت في الجاهلية إذا ولدت خمسة أبطن ، شقوا أذنّها وأعفوها أن ينفع بها
ولم يمنعوها مرعى ولا ماء ، وقد أبطلها الإسلام . قال تعالى : (ما جعل الله من
بجيرة) الآية ١٠٦ . سورة المائدة .

(٢) في معجم البلدان لياقوت أن هذين البيتين للخصيل بن عبيد فلم تتأكد
نسبتهما إلى الشافعي .

كان الشرعُ قد حرّمَ النظر لما يؤدي إليه من الفساد كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، فكيف يجوز تعاطي عشق الرجل لمن لا يحل له ؟

والمقصود أن هذه الفرقة رأت أن الجماع يُفسد العشق فغارت عليه مما يفسده . وإن لم تتركه ديانة . وقيل لبعض الأعراب : ما ينال أحدكم من عشيقته إذا خلى بها ؟ قال : اللّمس والقُبْل وما يشاكلها . قال : فهل يتناولان إلى الجماع ؟ فقال : بأبي وأمي ليس هذا بعاشق ، هذا طالب ولد . ويُحكى أن رجلاً عشق امرأةً فقالت له يوماً : أنت صحيح الحبّ غير سقيمه — وكانوا يُسمّون الحبّ على الخنا الحبّ السقيم — فقال : نعم ، فقالت : اذهب بنا إلى المنزل ، فما هو إلّا أن حصلت في منزله فلم يكن له همةٌ غيرُ جماعها ، فقالت له وهو كذلك :

أسرفت في وطئنا والوطء ممّطعةٌ فارقني بنفسك إن اترقت محمود
فقال لها وهو على حاله :

لولم أطأك لما دامت محبتنا لكن فعلى هذا فعلٌ مجهود
فنشرت من تحتها وقالت : ياخييث أراك خلافَ ماقلت من صحة الحب ، ولم تجعل جماعى إلّا سبباً لذهاب حبك ، والله لا ضمنى وإياك سقفت أبداً . وسيأتي تمام الكلام في هذا في باب عفاف المحبين ، إن شاء الله تعالى .

فصل

الخطاب بين الفريقين أن الجماع الحرام يفسد الحبّ ، ولا بدّ أن تنتهي المحبةُ بينهما إلى المعادة والتباغض والقلى كما هو مشاهدٌ بالعيان ، فكل محبةٍ تغير الله آخرها قلى وبعض ، فكيف إذا قارنها ما هو من أكبر الكبائر ؟

وهذه عداوة بين يدي العداوة الكبرى التي قال الله تعالى فيها : (الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) ^(١) وسنذكر إن شاء الله تعالى من ظفر بمحبوبه وترك قضاء وطّره منه رغبة في بقاء محبته وخشية أن تنقلب قلبه وبغضا في الباب الموعود به فإن ذلك أليق به . وأما الجناح الباح فإنه يزيد الحب إذا صادف مراد الحب ، فإنه إذا ذاق لذته وطعمته أوجب له ذلك رغبة أخرى لم تكن حاصلة قبل الذوق . ولهذا لا يكاد الكبران يصبر أحدهما عن الآخر ، هذا ما لم يعرض للحب ما يفسده ويوجب نقله إلى غير المحبوب . وأما ما احتج به الآخرون فجوابه أن الشهوة والإرادة لم تطفأ نارها بالسكينة ، بل فترت شهوة ذلك الوقت ثم تعود أمثالها ، وإنما يظهر هذا إذا غاب أحدهما عن حبيبه ، وإلا فادام برأى منه وهو قادر عليه متى أحب فإن النفس تسكن بذلك وتطمئن به ، وهذا حال كل من كان بحضرته ما يحتاج إليه من طعام وشراب ولباس وهو قادر عاياه ، فإن نفسه تسكن عنده ، فإذا حيل بينه وبينه اشتد طلبه له ونزاع نفسه إليه ، على أن الحب للشيء متى أفرط في تناول محبوبه فقرت نفسه منه ، وربما انقلبت محبته كراهية . وسيأتي مزيد بيان لهذا في باب سلو المحبين إن شاء الله تعالى .

فصل

ودواعي الحب من المحبوب جماله ، إما الظاهر أو الباطن أوها معاً ، فمتى كان جميل الصورة جميل الأخلاق والشيم والأوصاف كان الداعي منه أقوى ، وداعي الحب من المحب أربعة أشياء : أولها : النظر إما بالعين أو بالقلب إذا

(١) الآية ٦٧ : سورة الزخرف .

وُصِفَ له ، فكثيرٌ من الناس يحب غيره ويفنى فيه محبةً وما رآه لكن وُصِفَ له ، ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم المرأة أن تنعت المرأة لزوجهما حتى كأنه ينظرُ إليها (والحديث في الصحيح)^(١) ، اثناني : الاستحسان ، فإن لم يورث نظره استحساناً لم تقع المحبة ، الثالث : الفكر في المنظر وحديث النفس به ، فإن شغل عنه غيره مما هو أهمُّ عنده منه لم يعلّق حبه بقلبه ، وإن كان لا يعدم خطراتٍ وسوايحٍ ، ولهذا قيل : العشق حركة قلبٍ فارغ . ومتى صادف هذا النظرُ والاستحسانُ والفكرُ قلباً خالياً تمكّن منه كما قيل :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكّن

فإن قيل : فهل يتوقف على الطمع في الوصول إلى المحبوب أم لا ؟ قيل : الناس في هذا على أقسام : منهم من يعشق الجمالَ المطلق ، فقلبه مُعلّق به إن استقلت ركائبه ، وإن حلت مضاربُه ، وهذا لا يتوقف عشقه على الطمع . ومنهم من يعشق الجمالَ المقيد سوا طمعت نفسه في وصاله أم لم تطمع ، ومنهم من لا يعشق إلا من طمعت نفسه في وصاله ، فإن يئس منه لم يعلّق حبه بقلبه ، والأقسام الثلاثة واقعة في الناس ، فإذا وُجد النظرُ والاستحسانُ والفكرُ والطمعُ هاجت بلائُه ، وأمكن من معشوقه مقاتله ، واستحكم دأؤه ، وعجزَ عن الأطباء دواؤه .

تالله ما أسرَّ الهوى من عاشقٍ إلا وعزَّ على النفوس فكلاً
وإذا كان النظرُ مبدأً للعشق ، فحقيق بالمطلق أن لا يعرض نفسه للإسار الدائم بواسطة عينه ، وإذا قد أفضى بنا الكلام إلى النظر فلنذكر حكمه وغائلته .

(١) رواية البخاري : ولا تبأشر المرأة المرأة فتتمتها لزوجهما كأنه ينظر إليها ، ورواه أبو داود والترمذي والإمام أحمد في مسنده . ولغت : وصف .

الباب السادس

في أمثال النظر وغائته وما يجنى على صامبه

قال الله تعالى : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ) الآية (١) فلما كان غضُّ البصر أصلاً لحفظ الفرج بدأ بذكره ، ولما كان تحريمه تحريم الوسائل فيباح للمصلحة الراجحة ، ويحرم إذا خيف منه الفساد ولم يعارضه مصلحة أرجح من تلك المفسدة ، لم يأمر سبحانه بغضه مطلقاً بل أمر بالنض منه ، وأما سنن الفرج فواجب بكل حال ، لا يباح إلا بحقه ، فلذلك عمّ الأمر بحفظه .

وقد جعل الله سبحانه العين مِرْآة القلب ، فإذا غضَّ العبدُ بصره غضَّ القلب شهوته وإرادته ، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته . وفي الصحيح أن الفضل بن عباس رضي الله عنهما كان ردِّيف^(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر من مُزْدَلِفَةَ إلى مِنًى ، فمرَّتْ ظِلْعُنُ^(٣) يَجْرِينَ فطَفِقَ الفضل ينظر إلى بنِّ خَوَلٍ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه إلى الشَّقِّ الآخر^(٤) ، وهذا منع وإنكار بالفعل . فلو كان النظر جائزاً لأقرّه عليه . وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إِنْ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّيْنِ

(١) الآيتان ٣٠ و ٣١ . سورة النور .

(٢) الرديف . الراكب خلف الراكب .

(٣) جمع ظعنينة : الراحلة يرتحل عليها ، الشرج ، الزوجه .

(٤) في البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم .

أَدْرَكَ ذَلِكَ لَأَحْمَلَهُ ، فَالْعَيْنُ تَزِنُ وَزِنَاهَا النَّظَرُ ، وَاللِّسَانُ يَزِنُ وَزِنَاهُ
التُّعَاطُ ، وَالرَّجْلُ تَزِنُ وَزِنَاهَا الْخَطَى ، وَالْيَدُ تَزِنُ وَزِنَاهَا الْبَطْشُ ،
وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ ^(١) . فبدأ بزنى
العين لأنه أصل زنى اليد والرجل والقلب والفرج ، ونبه بزنى اللسان
بالكلام على زنى الفم بالقبيل ، وجعل الفرج مصدقاً لذلك إن حقق الفعل ،
أو مكذباً له إن لم يُحَقِّقْهُ . وهذا الحديث من أبين الأشياء على أن العين
تعصى بالنظر وأن ذلك زناها ، ففيه ردٌّ على من أباح النظر مطلقاً . وثبت عنه
صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يَا عَلِيُّ لَا تُتَّبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فَإِنَّ لَكَ الْأُولَى
وَلَيْسَتْ لَكَ الثَّانِيَةَ ^(٢) » .

ووقعت مسألة : ما تقول السادة العلماء في رجل نظر إلى امرأة نظرة
فعلق حبها بقلبه واشتد عليه الأمر ، فقالت له نفسه : هذا كله من أول نظرة
فلو أعدت النظر إليها لرأيته دون ما في نفسك فساوت عنها ، فهل يجوز له تعمُّدُ
النظر ثانياً لهذا المعنى ؟ .

فسكان الجواب : الحمد لله لا يجوز هذا لمشرة أوجه : أحدها : أن الله
سبحانه أمر بغصّ البصر ولم يجعل شفاء القلب فيما حرّمه على العبد . الثاني : أن
النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن نظر الفجأة ، وقد علم أنه يؤثر في القلب فأمر
بمداواته بصرف البصر لا بتكرار النظر . الثالث : أنه صرح بأن الأولى له
وليست له الثانية ، ومحال أن يكون داؤه مما له ودواؤه فيما ليس له . الرابع :
أن الظاهر قوة الأمر بالنظرة الثانية لاتناقضه ، والتجربة شاهدته به ، والظاهر

(١) أورده المنذرى بنحوه وقال : رواه مسلم والبخارى باختصار والنسائي
وأبو داود .

(٢) رواه أحمد والترمذي وأبو داود . كما قال الحافظ المنذرى .

أن الأمر كما رآه أول مرة فلا تحسنُ المخاطرة بالإعادة . الخامس : أنه ربما رأى ما هو فوق الذي في نفسه فزاد عذابه . السادس : أن إبليس عند قصده للنظرة الثانية يقوم في ركائبه فيزين له ما ليس بحسنٍ لِتَتِمَّ البلية . السابع : أنه لا يُعَانُ على بليته إذا أعرض عن امثال أوامر الشرع وتداوى بما حرّمه عليه ، بل هو جديرٌ أن تتخلف عنه المعونة . الثامن : أن النظرة الأولى سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس ، ومعلومٌ أن الثانية أشدَّ سُمًّا فكيف يتداوى من السمِّ بالسمِّ ؟ . التاسع : أن صاحب هذا المقام في مقام معاملة الحق عزَّ وجلَّ في ترك محبوبٍ كما زعم ، وهو يريد بالنظرة الثانية أن يتبين حال المنظور إليه ، فإن لم يكن مرضياً تركه ، فإذا يكون تركه لأنه لا يلائم غرضه لا لله تعالى ، فأين معاملة الله سبحانه بترك المحبوب لأجله ؟ . العاشر : يتدين بضرب مثلٍ مطابقٍ للحال وهو أنك إذا ركبت فرساً جديداً فالت بك إلى درجٍ ضيق لا ينفذ ولا يمكنها تستدير فيه للخروج ، فإذا همت بالدخول فيه فاكبحها لئلا تدخل ، فإذا دخلت خطوة أو خطوتين فصيح بها وردها إلى وراء عاجلاً قبل أن يتمكن دخولها ، فإن ردّتها إلى ورائها سهل الأمر ، وإن توانيت حتى ولجت^(١) وسقطتها داخلًا ثم قتت تجذّبها بذنبها عسر عليك أو تعذر خروجها ، فهل يقول عاقل إن طريق تخليصها سوفها إلى داخل ؟ فكذلك النظرة إذا أثرت في القلب ، فإن عجز الحازم وحتم المادة من أولها سهل علاجه ، وإن كرّر النظر ونقب عن محاسن الصورة وثقلها إلى قلب فارغ فنقشها فيه تمكنت الحبة ، وكما تواصلت النظرات كانت كالماء يسقي الشجرة فلا تزال شجرة الحب تنمى حتى يفسد القلب ويعرض عن الفكر فيما أمر به ، فيخرج

(١) ولجت : دخلت .

بصاحبه إلى المحن ، ويوجب ارتكابَ المحظورات والفتن ، ويلقى القلب في التلّف . والسببُ في هذا أن الناظر التذتّ عينه بأوّل نظرة فطلبت المعاودة ، كما كل الطعام اللذيذ إذا تناول منه لقمة ، ولو أنه غصّ أولاً لاستراح قلبه وسلم ، وتأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم : « النظرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ ^(١) » فَإِنَّ السَّهْمَ شَأْنُهُ أَنْ يَسْرَى فِي الْقَلْبِ فَيَعْمَلُ فِيهِ عَمَلُ السَّمِّ الَّذِي يُسْقَاهُ الْمَسْمُومُ ، فَإِنْ بَادَرَ وَاسْتَفْرَغَهُ وَإِلَّا قَتَلَهُ وَلَا بَدَّ .

قال المروزي : قلت لأحمد : الرجل ينظر إلى المملوكة . قال : أخاف عليه الفتنة ، كم نظرة قد أَلَت في قلب صاحبها البلبال ^(٢) . وقال ابن عباس : الشيطان من الرجل في ثلاثة : في نظره وقابه وذكره ، وهو من المرأة في ثلاثة : في بصرها وقلبها وعجزها .

فصل

ولما كان النظر من أقرب الوسائل إلى الحرّم اقتضت الشريعة تحريمه ، وأباحت في موضع الحاجة ، وهذا شأن كل ما حرّم تحريم الوسائل فإنه يباح للمصلحة الراجحة ، كما حرّمت الصلاة في أوقات النهي لئلا تكون وسيلة إلى التشبه بالكفار في سجودهم للشمس ، أبيحت للمصلحة الراجحة كقضاء الفوائت وصلاة الجنائز وفعل ذوات الأسباب على الصحيح . وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « النظرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ فَمَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنْ مُحَاسِنِ امْرَأَةٍ أَوْرَثَ اللَّهُ قَلْبَهُ حَلَاوَةً يَجِدُهَا

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده .

(٢) جمع بلبال وبلباله : شدة الهم والوساوس .

إلى يَوْمٍ يَلْقَاهُ» ، أو كما قال . وقال جريرُ بن عبد الله رضى الله عنهما : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة فأمرني أن أصرف بصرى^(١) . ونظرة الفجأة هي النظرة الأولى التي تقع بغير قصدٍ من الناظر ، فما لم يعتمد عليه القلب لا يُعاقب عليه ، فإذا نظر الثانية تعمداً أُثم ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم عند نظرة الفجأة أن يصرف بصره ولا يستديم النظر فإن استدامتته كتكريره ، وأرشد من ابتلى بنظرة الفجأة أن يداويه بإتيان أسهاته ، وقال : إِنَّ مَعَهَا مِثْلَ الذِّبْرِ مَعَهَا^(٢) ، فإن في ذلك التسلية عن المطلوب بجنسه . والثاني أن النظر يثير قوة الشهوة فأمره بتدقيقها بإتيان أهله ، ففتنة النظر أصل كل فتنة كما ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد رضى الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « مَا تَرَكَتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ^(٣) » ، وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد أنشد روى رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « اتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ » وفي مسند محمد بن إسحاق السراج من حديث علي بن أبي طالب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي النِّسَاءُ وَالْخَمْرُ » وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لم يكفر من كفر بمن منى إلا من قبل النساء ، وكفر من بقي من قبل النساء .

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى . كما قال الحافظ المنذرى .

(٢) ورد الأمر بإتيان الأهل في مثل هذه الحالة في أحاديث رواها أحمد ومسلم وأبو داود .

(٣) رواه البخارى ومسلم وأحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه . كما قال السيوطى .

فصل

وفي غضّ البصر عدّة فوائد : أحدها تخليص القلب من ألم الحسرة ، فإن من أطلق نظره دامت حسرتُه ، فأضرّ شيء على القلب إرسال البصر ، فإنه يرى ما يشتدّ طلبه ولا صبر له عنه ولا وصول له إليه ، وذلك غاية ألمه وعذابه ، قال الأصمعي : رأيت جارية في الطواف كأنها مَهَاةٌ ، فجعلتُ أنظر إليها وأملأُ عيني من محاسنها فقالت لي : يا هذا ما شأنك ؟ قلت : وما عليك من النظر ؟ فأنشأت تقول :

وكنّت متى أرسلتَ طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتكَ المناظرُ
رأيتَ الذي لا كله أنتَ قادرٌ عليه ولا عن بعضه أنتَ صابرٌ

والنظرة تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرميّة ، فإن لم تقتله جرحته ، وهي بمنزلة الشرارة من النار ترمي في الحشيش اليابس ، فإن لم تُحرقه كله أحرقت بعضه كما قيل :

كل الحوادث مبداها من النظر ومُعظمُ النار من مُستصغِرِ الشرِّ
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها فتتكَ السهام بلا قوسٍ ولا وترَ
والمرء ما دام ذا عينٍ يُقلِّبُها في أعينِ الغديرِ موقوفٌ على الخطرِ
يسرّ مقلّتها ما ضرّ مهجته لا مرحباً بسرورٍ عاد بالضررِ
والناظر يرمي من نظره بسهامٍ غرضها قلبه وهو لا يشعر ، فهو إنما يرمي قلبه ، ولي من أبيات :

يارامياً بسهامِ اللّخْظِ مجتهداً أنتَ القَتيلُ بما ترمي فلا تُصِبرِ
وباعثَ الطرفِ يرّثاد الشفاء له توقّه إنّه يأتيك بالمعطبِ

وقال الفرزدق :

تزوّد منها نظرة لم تدع له فؤاداً ولم يشعُر بما قد تزوّدَا
لم أرَ مقتولاً ولم أرَ قاتلاً بغير سلاحٍ مثانها حين أقصدا

وقال آخر :

ومن كان يؤثي من عدوّ وحاسدٍ فإني من عيني أتيّتُ ومن قلبي
هما اغتوراني^(١) نظرة ثم فسكرة فما أبقيا لي كل من رقادٍ ولا لبّ

وقال آخر :

رمانى بها طرقي فلم تخطِ مقاتي وما كل من يرثي تصاب مقاتله
إذا ميتٌ فابكوني قتيلاً لطرفه قتيل صديقٍ حاضرٍ مايزيله

وقال ابن المعتز :

متيمٌ يرعى نجومَ الدجى يبكي عليه رحمةً عاذله
عيني أشاطت^(٢) بدمي في الهوى فابكوا قتيلاً بعضه قاتله

ومثله للمتنبي :

وأنا الذي اجتلبَ المنيةَ طرفه فمن المطالبُ والقتيلُ القاتلُ
وقال أيضاً :

يانظرةً نفتِ أرقادَ وغادرت في حدّ قلبي ما بقيتُ فلولاً
كانت من الكحلّاءِ سُولى وإنما أجلى تمثّل في فؤادي سُولاً

وقال أيضاً :

(١) اغتوراني : تداولاني .

(٢) أشاط دمه وأشاطه غيره أهلكه : أو عرضه للقتل

وَقِيَ الْأَمِيرُ مِنَ الْعِيُونِ^(١) فَإِنَّهُ مَالَا يَزُولُ بِبُاسِهِ وَسَخَاهُ
يَسْتَأْسِرُ الْبَطْلُ الْكَمِيَّ^(٢) بِنَظَرِهِ وَيَحُولُ بَيْنَ فَوَادِهِ وَعَزَاهُ
وقال الصوري :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرَعْ الْبُرُوقَ الْلَوَاحِجَا وَنَمَتَ جَرَى مِنْ تَحْتِكَ السَّيْلُ سَالِحَا
غَرَسْتَ الْهَوَى بِالْحِظِّ ثُمَّ احْتَفَرْتَهُ وَأَهْمَلْتَهُ مُسْتَأْنَسًا مُتَسَاعِجَا
وَلَمْ تَدْرِ حَتَّى أَيْنَمْتَ شَجَرَاتِهِ وَهَبْتَ رِيَّاحُ الْوَجْدِ فِيهِ لَوَاحِجَا
فَأَمْسَيْتَ تَسْتَدْعِي مِنَ الصَّبْرِ عَازِبَا عَلَيْكَ وَتَسْتَدْنِي مِنَ النَّوْمِ نَازِحَا^(٣)
ودخل أصبهان مُغْنٍ فَكَانَ يَتَغَنَّى بِهِذَيْنِ الْيَتِيمَيْنِ :

سَمَاعَا يَا عِبَادَ اللَّهِ مَنْى وَكَفُّوا عَنِ مِلَاحِظَةِ الْمَلِاحِ
قَابِ الْحُبِّ آخِرُهُ لِلْمَنَايَا وَأَوَّلُهُ شَسِيْبُهُ بِالْمُزَاحِ
وقال آخر :

وشادن^(٤) لما بدا أَسْلَمَنِي إِلَى الرَّدَى
بِظَرَفِهِ وَلَطْفِهِ وَطَرَفِهِ لَمَّا بَدَا
أَرَدْتُ أَنْ أَصِيدَهُ فَصَادَ قَلْبِي وَعَدَا

وقال آخرُ يعاتبُ عينه :

وَاللَّهِ يَا بَصْرِي الْجَانِي عَلَى جَسَدِي لِأَطْفُنَّ بِدَمْعِي لَوَعَةً الْخُزْنِ
تَاللَّهِ تَطْمَعُ أَنْ أَبْكِي هَوَى وَضَنَى وَأَنْتَ تَشْبَعُ مِنْ مُغْمَضٍ وَمِنْ وَسْنِ
هِيَهَاتَ حَتَّى تُرَى طَرَفًا بِلَا نَظَرٍ كَمَا أُرَى فِي الْهَوَى شَخْصًا بِلَا بَدَنِ

(١) في ديوان المتنبي : وقى الأمير هوى العيون .

(٢) السكى : السجاع ، الجرىء ، المقدام كان عليه السلاح أو لم يكن .

(٣) عازيا ونازحا : بعيدا .

(٤) الشادن : ولد الغلبة وجمعه شوادن .

وقال آخر :

يا من يرى سقى يزيدُ وعِلَّتِي أُعْيِتْ طليبي
لا تعجبين^(١) فهكذا تَجْنِي العيونُ عَلَى القلوب

وقال آخر :

لواحظنا تَجْنِي ولا عِلْمَ عندنا وأنفسنا مأخوذةٌ بالجرائر^(٢)
ولم أَرَى أغْبِي من نفوسٍ عنائفٍ تُصَدِّقُ أخهارَ العيونِ الفواجر
ومن كانت الأجفان حُجَابَ قلبه أَذِنَ عَلَى أحشائه بالفواقِر^(٣)

وقال آخر :

ومستفتح باب البلاء بنظرةٍ تزوّد منها قلبه حَسْرَةَ الدَّهْرِ
فوالله ما تدرى أيدري بما جنث على قلبه أم أهلكته وما يدرى

وقال آخر :

أنا ما بين عدوين هما قلبي وطرفي
ينظر الطرف ويهوى القلبُ والمقصودُ حَتْفِي

وقال الخفاجي^(٤)

رَمَتْ عَيْنَهَا عَيْنِي وراحت سليمةً كَمَنْ حَاكَمَ بَيْنَ السَّكِينَةِ وَالْعَبْرِي^(٥)
فيا طَرْفُ قَدْ حَذَرْتُكَ النِّظْرَةَ الَّتِي خَلَسْتَ فَبَارَقْتَ نَهْيًا وَلَا زَجْرًا

(١) الجرائر جمع جريرة: الذنوب والجنايات .

(٢) الفواقِر جمع فاقرة: الدواهي .

(٣) هو عبد الله بن سعيد المعروف بابن سنان الخفاجي وهو غير الشهاب أحمد الخفاجي فإن هذا متأخر .

(٤) الببرى : الباكية .

وياقلبُ قد أرداك طرفي مرّةً فويحك لم طاعته سرّةً أخرى
 ولي من آياتٍ لعل معناها مبتكر :
 ألم أقل لك لا تسرق ملاحظةً فسارقُ اللحظ لا ينجو من الدرك^(١)
 نصبتُ طرفي له لما بدا شرّاً فكان قلبي أولى منه بالشرّك
 الفائدة الثانية أنه يورث القلب نوراً وإشراقاً يظهر في العين وفي الوجه
 وفي الجوارح ، كما أن إطلاق البصر يورثه ظلمةٌ تظهر في وجهه وجوارحه .
 ولهذا والله أعلم ذكر الله سبحانه آية النور في قوله تعالى : (اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ) عقيب قوله : (قُلْ لِمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)^(٢) وجاء
 الحديث مطابقاً لهذا حتى كأنه مشتقٌّ منه وهو قوله : « النظره سهمٌ مسمومٌ من
 سهام إبليس ، فمن غضّ بصره عن محاسن امرأةٍ أورث الله قلبه نوراً »^(٣)
 الحديث .

الفائدة الثالثة أنه يورث صحة الفراسة فإنها من النور وثمراته ، وإذا استدار
 القلب صحّت الفراسة لأنه يصير بمنزلة المرأة المجلّوة تظهر فيها المعلومات كما هي ،
 والنظر بمنزلة التنفّس فيها ، فإذا أطلق العبدُ نظره تنفّست نفسه السعداء في
 مرآة قلبه فطمست نورها كما قيل :

مرآةُ قلبك لا تريك صلاحه والنفسُ فيها دائماً تنفّس

وقال شجاع السكرماني : من عمر ظاهره باتباع السنة ، وباطنه بدوام
 المراقبة ، وغضّ بصره عن المحارم ، وكفّ نفسه عن الشهوات ، وأكل من

(١) الدرك : التبعة أو العقاب وهي ما يترتب على الفعل من الخير والشر إلا
 أن استعماله في الشر .

(٢) الآيتان ٣٥ و ٣٠ . سورة النور .

(٣) تقدم هذا الحديث في ص (٩٦) وفيه : أورث الله قلبه حلاوة .

الحلال لم تخطيء فراسته . وكان شجاعاً لا تخطيء له فِرَاسَة . والله سبحانه وتعالى يجزي العبد على عمله بما هو من جنسه ، فمن غصَّ بصره عن المحارم عوَّضه الله سبحانه وتعالى إطلاق نور بصيرته ، فلما حبس بصره الله أطلق الله نور بصيرته ، ومن أطلق بصره في المحارم حبس الله عنه بصيرته .

الفائدة الرابعة أنه يفتح له طرق العلم وأبوابه ، ويسهل عليه أسبابه ، وذلك بسبب نور القلب ، فإنه إذا استنار ظهرت فيه حقائق المعلومات ، وانكشفت له بسرعة، ووقد من بعضها إلى بعض . ومن أرسل بصره تكدر عليه قلبه وأظلم ، وأنسد عليه باب العلم وطريقه .

الفائدة الخامسة أنه يورث قوة القلب وثباته وشجاعته ، فيجعل له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة . وفي الأثر : إن الذي يخالف هواه يفرق^(١) الشيطان من ظله ، ولهذا يوجد في المتبع لهواه من ذل القلب وضعفه ومبانة النفس وحقارتها ما جعله الله لمن آثر هواه على رضاه . قال الحسن : إنهم وإن همَّجَت بهم البغال وطقَّطَت بهم البراذين^(٢) إن ذل المعصية لفي قلوبهم . أبي الله إلا أن يذل من عصاه . وقال بعض الشيوخ : الناس يطالبون العزَّ بأبواب الملوك ، ولا يمدونه إلا في طاعة الله . ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه ، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه ، وفيه قِسْطٌ ونصيبٌ من فعل من عاداه بمعاصيه ، وفي دعاء القنوت : إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت .

الفائدة السادسة أنه يورث القلب سروراً وفرحة ، وانشراحاً أعظم من اللذة والسرور الحاصل بالنظر ، وذلك لقبره عدوه بمخالفته ومخالفة نفسه وهواه ،

(١) يفرق : يخشى ويخاف .

(٢) الهملجة : حسن سير الدابة . والطقطة : حكاية صوت حوافر الدواب . والبراذين : الدواب مفردهما برذون وبرذونة .

وأيضاً فإنه لما كَفَّ لذته وحبس شهوته لله وفيها مسرةٌ نفسه الأمارة بالسوء
أعاضه الله سبحانه مسرةً ولذةً أكلَ منها ، كما قال بعضهم : والله للذة العفة
أعظمُ من لذة الذنب . ولا ريب أن النفس إذا خالقت هواها أعقبها ذلك فرحاً
وسروراً ولذةً أكلَ من لذة موافقة الهوى بما لا نسبة بينهما . وهاهنا يمتاز
العقل من الهوى .

الفائدة السابعة أنه يُخَلِّص القلبَ من أسر الشهوة ، فإن الأسير هو أسيرُ
شهوته وهواه ، فهو كما قيل :

* طليق برأى العين وهو أسير *

ومتى أسرت الشهوةُ والهوى القلبَ تمسَّك منه عدوُّه وسامه سوء العذاب
وصار :

كعصفورةٍ في كفِّ طفلٍ يسومها حياضَ الردى والطفلُ يلهو ويلعب
الفائدة الثامنة أنه يسدُّ عنه باباً من أبواب جهنم ، فإن النظر بابُ الشهوة
الحاملة على مواقف الفعل ، وتحريمُ الرب تعالى وشرعه حجابٌ مانعٌ من
الوصول ، فتى هَتَكَ الحجابَ ضَرَى^(١) عَلَى المحذور ، ولم تَقِفْ نفسه منه عند
غاية ، فإن النفس في هذا الباب لا تَتَمَتَّعُ بغايةٍ تقف عندها ، وذلك أن لذتها في
الشيء الجديد ، فصاحب الطارف لا يَقْتَمِعُهُ التليد^(٢) ، وإن كان أحسنَ منه
منظراً وأطيبَ نَجْوَراً ، ففضُّ البصر يسدُّ عنه هذا الباب الذي عَجَزَتِ الملوكُ عن
استيفاء أغراضهم فيه .

الفائدة التاسعة أنه يقوِّم عقله ويزيده ويثبته ، فإن إطلاق البصر وإرساله

(١) ضرى به أو عليه : لومه وأولع به ، اعتاده وتجراً عليه .

(٢) التليد . القديم وضده الطارف .

لا يحصل إلا من خفة العقل وطيشه وعدم ملاحظته للعواقب ، فإن خاصمة العقل ملاحظة العواقب . ومُرْسِلُ النظر لو علم ما تجني عواقبُ نظره عليه لما أطلق صره ، قال الشاعر :

بوأعقلُ الناسِ من لم يرتكب سبباً حتى يفكرَ ما تجني عواقبه
الفائدة العاشرة أنه يُخلَّص القلب من سُكر الشهوة ورَقْدَةِ الغفلة ، فإن إطلاقَ البصر يوجب استحكامَ الغفلة عن الله والدار الآخرة ، ويوقع في سكرة العشق ، كما قال الله تعالى عن عشاق الصور : (لَعَنُوكَ إِنَّهُمْ كَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)^(١) . فالنظرة كَأَسُّ من خمر ، والعشق هو سكر ذلك الشراب ، وسكرُ العشق أعظمُ من سكر الخمر ، فإن سكران الخمر يُفَيِّقُ ، وسكران العشق قلما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات ، كما قيل :

سكران سكر هوى وشكر مدامة ومتى إفاقته من به سكران ؟
وفوائد غضِّ البصر وآفاتُ إرساله أضعافُ أضعافٍ ما ذكرنا ، وإنما نبهنا عليه تنبيهاً ولا سيما النظر إلى من لم يحمل الله سبيلاً إلى قضاء الوطر منه شرعاً ، كالمُرْدَانِ الحسان ، فإن إطلاقَ النظر إليهم السمُّ الناقع^(٢) والداء العضال^(٣) . وقد روى الحافظ محمد بن ناصر من حديث الشعبي مُرْسَلاً . قال :
قدم وفدُ عبد القيس على النبي صلى الله عليه وسلم وفيهم غلامٌ أَمْرُدُ ظاهرُ الوضاعة^(٤) ، فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم وراء ظهره وقال : كانت خطيئته لمن مَضَى مِنَ النَّظَرِ . وقال سعيد بن المسيَّب : إذا رأيتم الرجل يحذو النظر إلى

(١) الآية ٧٢ . سورة الحجر .

(٢) السم الناقع : البالغ الأثر ، القاتل .

(٣) الداء العضال : الشديد المعجز ، الذي لا طب له .

(٤) الوضاعة : الحسن والجمال والنظافة

الغلام الأمرد فأتهموه . وقد ذكر ابن عديّ في كامله من حديث بقية عن
الوازع عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : نهى رسول الله صلى
الله عليه وسلم أن يحدّ الرجل النظر إلى الغلام الأمرد ، وكان إبراهيم
النخعي وسفيان الثوري وغيرهما من السلف يَنْهَوْنَ عن مجالة المردان . قال
النخعي : مجالستهم فتنة وإنما هم بمنزلة النساء . وبالجلة فسكن من مُرسِلِ لحظاته
رجع بجيش صبره مغلولاً ، ولم يُقلع حتى تشحط^(١) بينهم قتيلاً .

يا ناظرأ ما أقلعت لحظاته حتى تشحط بينهم قتيلاً

(١) تشحط : تخبط واضطرب وتمرغ .

الباب السابع

في ذكر مناظرة بين القلب والعين ولوم كل منهما صاحبه والحكم بينهما

لما كانت العين رائداً ، والقلب باعناً وطالبا ، وهذه لها لذة الرؤية ، وهذا له لذة الظفر ، كانا في الهوى شريكتي عنان . ولما وقعا في العناء ، واشتركا في الوباء ، أقبل كل منهما يلوم صاحبه ويعاتبه .

فقال القلب للعين : أنت التي سقتني إلى موارد الهلكات ، وأوقعتني في الحسرات بمُتابعتك اللحظات ، ونزّعت طرفك في تلك الرياض ، وطلبت الشفاء من اتّخذق المراض ، وخالفت قولَ أحكم الحاكمين : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ)^(١) وقولَ رسوله صلى الله عليه وسلم : (النَّظَرُ إِلَى الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ ، فَمَنْ رَكَهُ [مِنْ] خَوْفِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَثَابَهُ اللَّهُ إِيْمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ » ، (رواه الإمام أحمد) حدثنا هشيم ، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق ، عن محارب بن دثار ، عن صلة ، عن حذيفة .

وقال عمر بن شبة : حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ، حدثنا عنبسة بن عبد الرحمن القرشي ، حدثنا أبو الحسن المدني ، حدثنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نَظَرُ الرَّجُلِ فِي مُحَاسِنِ الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومٌ ، فَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ السَّهْمِ أَغْقَبَهُ اللَّهُ عِبَادَةَ تَسْرُهُ »^(٢) . فَمَنْ اللَّوْمُ سِوَى مَنْ رَمَى صَاحِبَهُ بِالسَّهْمِ الْمَسْمُومِ ؟ أَوْ مَا عَمِلَتْ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَضَرَّ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنَ الْعَيْنِ وَاللِّسَانِ ؟ فَمَا عَطِبَ

(١) الآية ٣٠ . سورة النور .

(٢) تقدمت هذه الأحاديث في الممنهتين ٩٥ و٩٦ .

أَكْثَرُ مِنْ عَطِبَ إِلَّا بِهِمَا ، وَمَا هَلَكَ أَكْثَرُ مِنْ هَلَكَ إِلَّا بِسَبِيهِمَا ، فَاللهُ كَمَ مِنْ مَوْزِدِ هَلَكَةٍ أَوْ رَدَاهُ ، وَمَصْدَرِ رَدَّى عَنْهُ أَصْدَرَاهُ ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَحْيَا شَعِيداً أَوْ يَعِيشَ حَمِيداً فَلْيَقْضُ مِنْ عِنَانِ طَرَفِهِ وَلِسَانِهِ لِيَسْلَمَ مِنَ الضَّرَرِ ، فَإِنَّهُ كَأَمَّنْ فِي فَضُولِ الْكَلَامِ وَفَضُولِ النَّظَرِ . وَقَدْ صَرَّحَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ بِأَنَّ الْعَيْنَيْنِ تَزِينَانِ وَهِيَ أَصْلُ زِينَةِ الْفَرَجِ ، فَإِنَّهُمَا لَهُ رَأْدَانِ ، وَإِلَيْهِ دَاعِيَانِ ، وَقَدْ شَبَّهَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ نَظَرَةِ الْفَجَاءَةِ فَأَمَرَ السَّائِلَ أَنْ يَصْرِفَ بَصَرَهُ ، فَأَرْشَدَهُ إِلَى مَا يَنْفَعُهُ وَيُدْفَعُ عَنْهُ ضَرَرَهُ ، وَقَالَ لَابْنِ عَمَةٍ عَلَى رِضَى اللَّهِ عَنْهُ مُحَذِّراً لَهُ بِمَا يُوقِعُ فِي الْفِتْنَةِ وَيُورِثُ الْحَسْرَةَ : « لَا تُتَّبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ » ^(١) .

أَوْ مَا سَمِعْتَ قَوْلَ الْعُقَلَاءِ : مَنْ سَرَّحَ نَازِرَهُ ، أَتَعَبَ خَاطِرَهُ ، وَمَنْ كَثُرَتْ لِحَظَاتُهُ ، دَامَتْ حَسَرَاتُهُ ، وَضَاعَتْ عَلَيْهِ أَوْقَاتُهُ ، وَفَاضَتْ عِبْرَاتُهُ ، وَقَوْلَ النَّازِمِ ^(٢) :

نَظَرُ الْعَيْنِ إِلَى الْعَيْنِ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْمَلَكَ إِلَى الْفَوَادِ سَبِيلًا
مَا زَالَتْ اللَّحَظَاتُ تَغْزُو قَلْبَهُ حَتَّى تَشَحَّطَ بَيْنَهُنَّ قَتِيلًا

وَقَالَ آخَرُ ^(٣) :

تَمَتَّعْتُ بِمَا مَقَاتَى بِنَظَرَةٍ وَأُورِدَتْ قَلْبِي أَمْرَ الْمَوَارِدِ
أَعْيَنِي كُفًّا عَنْ فَوَادِي فَإِنَّهُ مِنَ الظُّلْمِ سَعَى اثْنَيْنِ فِي قَتْلِ وَاحِدٍ

فصل

قَالَتِ الْعَيْنُ . ظَلَمْتَنِي أَوَّلًا وَآخِرًا ، وَبُؤْسَتْ بِإِثْمِي بَاطِنًا وَظَاهِرًا ، وَمَا أَنَا

(١) تقدمت هذه الأحاديث في الصفحات ٩٥ و ٩٦ .

(٢) البيهقي لابن مرداس كما جاء في سحر العيون .

(٣) البيهقي للأرجاني كما جاء في تزيين الأشواق وفيهما : أعيناي .

إلارسولك الداعى إليك ، ورائدك الدالك عليك .

وإذا بعثت برائد نحو الذى تهوى وتعتبه ظلمت الرائدًا

فأنت الملك المطاع ، ونحن الجنود والأتباع . أركبتنى فى حاجتك خيل البربد ، ثم أقبلت على بالتهديد والوعيد . فلو أمرتني أن أغلق على بابي ، وأرخي على حجابي ، لسمعت وأطعت ، ولمّا رعيت فى الحمى ^(١) ورتعت ، أرسلتني لصيدٍ قد نصبت لك حباله وأشراكه ، واستدارت حولك فيخاخه وشباكّه . ففدوت أسيراً ، بعد أن كنت أميراً ، وأصبحت مملوكاً ، بعد أن كنت مليكاً . هذا وقد حكم لي عليك سيد الأنام وأعدل الحكام عليه الصلاة والسلام ، حيث يقول : « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلحَ لها سائرُ الجسد ، وإذا فسدت فسدتَ لها سائرُ الجسد ، ألا وهي القلب » ^(٢) ، وقال أبو هريرة رضى الله عنه : القلب ملك والأعضاء جنوده ، فإن طاب الملك طابت جنوده ، وإذا خبت الملك خبت جنوده . ولو أنعمت النظر لعلمت أن فساد رعيتك بفسادك ، وصلاحها ورشدّها برشادك ، ولكنك هلكت وأهلك رعيتك ، وحملت كلّ العين الضعيفة خطيئتك ، وأصل بليّتك أنه خلا منك حبّ الله وحبّ ذكره وكلامه وأسمائه وصفاته ، وأقبلت على غيره وأعرضت عنه ، وتعوّضت بحب من سواه والرغبة فيه منه . هذا وقد سمعت ماقصّ عليك من إنكاره سبحانه على بنى إسرائيل استبدالمهم طعماً بطعام أدنى منه ، فذمّهم على ذلك ونعاه عليهم ، وقال : « اتّسبّدوا للذى هو أدنى بالذى هو خير » ^(٣)

(١) الحمى : الموضع فيه كلاً يحمى من الناس أن يرفع فيه . وحمى الله محارمه ورتعت الماشية : رعت كيف شاءت فى خصب وسعة .

(٢) رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

(٣) الآية ٦١ . سورة البقرة .

فكيف بمن استبدل بمحبة خالقه وفاطره ، ووليّه ومالكِ أمره ، الذى لاصلاح له ولا فلاح ، ولا نعيم ولا سرور ، ولا فرحة ولا نجاة ، إلا بأن يوحّده فى الحب ، ويكون أحبّ إليه مما سواه ، فانظر بالله بمن استبدلت ؟ وبمحبة من تعوّضت ؟ رضيت لنفسك بالحبس فى الحبس^(١) ، وقلوبٌ محبيه تجول حول العرش . فلو أقبلت عليه وأعرضت عن سواه لرأيت العجائب ، ولأمنت من اللتلف والمعاطب ، أو ما علمت أنه خصّ بالفوز والنعيم ، من أتاه بقلب سليم ، أى سليم مما سواه ، ليس فيه غير حبه واتباع رضاه . قالت . وبين ذنبى وذنبك عند الناس كما بين عمائى وعماك فى القياس . وقد قال من بيده أزمته الأمور : (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ^(٢)) .

فصل

فلما سمعت الكبد تحاورها الكلام ، وتناوَلهما الخصام ، قالت : أنما على هلاكي تساعدتما ، وعلى قتلى تعاونتما . ولقد أنصف من حكى مناظرتكما ، وعلى لساني متظالماً منكما :

يقول طرّفى لقلبي هيّجت لى ستمّاً والعينُ تزعمُ أن القلبَ أنكاهما^(٣)
والجسمُ يشهد أن العينَ كاذبةٌ وهى التى هيّجت للقلب بَلّواها
لولا العيونُ وما يخنّين من ستمٍ ما كنتُ مُطرّحاً من بعض قتلها
فقال الكبدُ المظلومُ اتّشيدا قطعائى وما راقبنا الله

(١) الحبس مثلثة : البستان . وهو أيضاً المخرج . وكانوا يعضون حوائجهم فى البساتين .

(٢) الآية ٤٦ . سورة الحج .

(٣) أنكاهما : أوقع بها ؛ ونسكى : غلب وقهر وانتصر .

وقال آخر^(١) :

يقول قلبي لطوفي أن بكى جزعاً تبكى وأنت الذى حملتني الوجعاً
فقال طرفي له فيما يعاتبه بل أنت حملتني الآمال والطمعاً
حتى إذا ما خلا كلِّ صاحبه كلاهما بطويل السهم قد قنعاً
نادتها كبدي لا تبعدا فلقد قطعتماني هما لاقيتما قطعاً
وقال آخر :

عابت قلبي لما رأيتُ جسمي نحيلاً
فأزيم القلبُ طرفي وقال كنت الرسولاً
فقال طرفي لقلبي بل كنت أنت الدليلأ
فقلتُ كفاً جميعاً تركتاني قتيلاً

ثم قالت : أنا أتولى الحكم بينكما . أنما في البالية شريكاً عنان ، كما أنكما
في اللذة والمرة قسارهان . فالعين تلتذذ ، والقلب يتمنى ويشتهي ، ولهذا قال
فيكما القائل :

ولما سلوت الحبَّ بشر ناظري لقلبي فقال القلب لي ولك الهنا
تخاصمت من إحياء ليلك ساهراً وخاصتني من لوعة الهجر والضنا
كلانا مهتماً بالبقاء فإن تمدد فلا أنت يتيقك الغرام ولا أنا
وإن لم تدرِ كسكنا عناية مُقَّابِ القلوب والأبصار ، وإلا فالك من قرّة
ولا للقلب من قرار ، قال الشاعر :

فوالله ما أدرى أنفسي ألومها على الحب أم عيني المشؤمة أم قلبي
فإن لمت قلبي قال لي العين أبصرت وإن لمت عيني قالت الذنب للقلب

(١) في سحر الميون أنه ابن جنسكيتا البغدادى .

فعبني وقلبي قد تقاسما دمي فيارب كن عوناً على العين والقلب
 قالت: ولما سقيت القلب ماء المحبة بكؤوسك ، أوقدت عليه نار الشوق
 فارتفع إليك البخار ، فتقاطر منك فشرقت بشربه أولاً ، وشرقت بمر لاره
 ، ثانياً ، قال :

خذي يدي ثم اكشفي الثوب فانظري ضئي جسدي لكنني أستر
 وليس الذي يجري من العين ماؤها ولكن هذا روح تذوب فتقطر
 قالت : والحاكم بينكما الذي يحكم بين الروح والجسد إذا اختصما بين يديه
 فإن في الأمر المشهور : لا تزال المحصورة يوم القيامة بين الجلائق حتى تحتصم
 الروح والجسد فيقول الجسد للروح : أنت الذي حررتني وأمرتني
 وصرفتني ، وإلا فأنا لم أكن أتحرك ولا أفعل بدونك . فتقول الروح له :
 وأنت الذي أكلت وشربت وبشرت وتنعمت ، فأنت الذي تستحق العقوبة ،
 فيرسل الله سبحانه إليهما ملكاً يحكم بينهما فيقول : مثلكما مثل مُقْعَدٍ
 بصير وأعمى يمشي ، دخلاً بستناً فقال المقعد للأعمى : أنا أرى ما فيه من الثمار
 ولكن لا أستطيع القيام ، وقال الأعمى : أنا أستطيع القيام ولكن لا أبصر
 شيئاً ، فقال له المقعد : تعال فأحملني فأنت تمشي وأنا أتناول ، فعلى من تكون
 العقوبة ؟ فيقول : عليهما ، قال فكذلك أُنْثَا^(١) . وبالله التوفيق .

(١) راجع خاتمة كتاب شرح الصدور للسيوطي ،

الباب الثامن

في ذكر السبب الذي اُصنِعَ به من أبداع النظر

إلى منه لا يحل له استمتاع به وأبداع عظمه

قالت هذه الطائفة : بيننا وبينكم الكتاب ، والسنة ، وأقوال أئمة الإسلام والمعقول الصحيح .

أما الكتاب فقولهُ تعالى : (أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ)^(١) وهذا يعمّ جميع ما خلق الله فما الذي أخرج من عمومهِ الوجه المليح ؟ وهو من أحسن ما خلق . وموضع الاستدلال به والاعتبار أقوى ، ولذلك يُسَبِّحُ الخالق سبحانه عند رؤيته . كما قال بعض الناظرين إلى جميل الصورة :

ذِي طَلْعٍ سَبَّحَاتٍ فَاتٍ صَبَاحَهُ وَمَعَاظٍ^(٢) جَلَّتْ يَمِينُ الْفَارِسِ
مَرَّتْ بِأَرْجَاءِ الْخِلْيَالِ طُيُوفُهُ فَبَكَتْ عَلَى رَسْمِ السُّلُوكِ الدَّارِسِ^(٣)

ورؤية الجمال البديع تُنْطِقُ السُّنَّةَ الناظرين بقولهم : سبحان الله رب العالمين ، وتبارك الله أحسن الخالقين ، والله تعالى لم يخلق هذه المحاسن عبثاً ، وإنما أظهرها ليستدل الناظر إليها على قدرته ووحدانيته وبديع صنعِهِ ، فلا تُعْطَلُ عما خلقت له .

وأما السُّنَّةُ فالحديثُ المشهور : « النَّظَرُ إِلَى الْوَجْهِ الْمَلِيحِ عِبَادَةٌ »^(٤) .

(١) الآية ١٨٤ . سورة الأعراف .

(٢) المواضع التي تتشبه من الجسد .

(٣) درس درساً . عفا وذهب أثره وبلى وتقادم عهده .

(٤) سيأتي الكلام على هذا الحديث وما بعده في الباب التاسع .

وفي الحديث الآخر : « أَطْلُبُوا الْخَيْرَ مِنْ حِسَانِ الْوُجُوهِ » . وفي هذا إرشادٌ إلى تصفُّح الوجوه وتأملها . وخطب رجلٌ امرأةً فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم في نكاحها ، فقال : هَلْ نَظَرْتَ إِلَيْهَا ؟ فقال : لا ، قال : اذهب فانظر إليها . ولو كان النظرُ حراماً لما أطلق له أن ينظر فإنه لا يأمن الفتنة .
وأما أقوال الأئمة فحكى السمعاني أن الشافعي رضي الله عنه كتب إليه رجلٌ في رقعة :

سل المفتي المكي هل في تراوُرٍ ونظرةٍ مشتاقٍ الفؤاد جُناحٌ^(١)
فأجابه الشافعي :

معاذَ إلهِ العرش أن يُذهب التقى تلاصقُ أكبادٍ بهنٌ جراح
وذكر الخرائطي هذا السؤال والجواب عن عطاء بن أبي رباح ،
وأوَّله : سألت عطاء المكي . وذكر الحاكم في مناقب الشافعي رضي الله عنه
من شعره :

يقولون لا تنظر وتلك بليّةٌ ألا كلُّ ذى عينين لابدّ ناظر
وليس آكتحال العين بالعين ريبةٌ إذا عفّ فيما بين القنائر
وذكر الاستربادي في كتاب مناقب الشافعي أن رجلاً كتب إلى سعيده
ابن المسيّب :

يا سيّد التابعين والبرّة نسيتُ في العشق سورة البقره
فكن بفتواك مشفقاً رقيقاً باهى بك الله أكرم البرّة
هل حرّم الله لثمّ خدّ فتى أوصافه بالجمال مشتهرة

(١) الجناح بالضم : الإثم والجرم والميل إلى الإثم .

فأجابه سعيد :

ياسائلى عن خفى لوعته عايك بالصبر تحمدن أثره
ولا تكن طالباً لفاحشة أو كالذى ساق سياله مطره
وراقب الله واخش سطوته وخالف الفاسقين والفجرة
وقبل الخمد من حبيبك ذا فى كل يومه وليله عشرة
وقال أبو العباس المبرّد فى الكامل : قال أعرابى أنشدني أبو العالمة :
سألت الفتى المكيّ ذا العلم ما الذى يحلّ من التقييل فى رمضان
فقال لى المكيّ أما لزوجة فسبع وأما خلة^(١) فثمان
وذكر أبو بكر الخطيب فى كتابه رواه مالك عن بعضهم :

أقول لفت بين مكّة والصفاء لك الخير هل فى وصلهنّ حرام
وهل فى صموت الحجل مهضومة الحشا

عذاب النسايا إن لثمت أثام^(٢)
فقال لى الماتى وسالت دموعه على الخدّ من عينيه فى ثؤام
ألا ليتنى قبّلت تلك عشية بطن مئى والمحرّمون نيام

وقال الحاكم فى كتاب مناقب الشافعى : حدثنا أبو العلاء بن كوشيار
الحارّى ، أنبأنا على بن ساجان الأخفش ، عن محمد بن الجهم قال : سمعت الربيع
يقول . حضرت الشافعى بمكة وقد دفع إليه رجل رقعة فيها :

(١) الخلة : الصدانة والمحبة التى تخللت القلب والصديق يستوى فيه المذكر
والمؤنث ، وخلة الإنسان أهل مودته وخلة الرجل : الزوجة .
(٢) الحجل : القيد وهو الخلخال أيضاً . وجارية صموت : لا يسمع لخلخالها
صوت لامتلاء ساقها ، ومهضومة الحشا : ضامرة البطن .

أقول لمفتى حَيفِ مَكَّةَ والصفاء لك الخير هل في وصلهنَّ حرام
وهل في صموت الحجل مهضومة الحشا

عذاب النسايا إن كُثِّتْ أُنَام

قال فوقَّع الشافعي فيها :

فقال لي المفتي وفاضت دموعه على الخدِّ من عينٍ وهنَّ تُؤَام
ألا ليتني قُبِّلْتُ تلكَ عشيةً يطن مني والمُخْرِمون قِيَام

وقال عمرو بن سفيان ابن ابنة جامع بن مُرْخِيَّة^(١) :

إنا سألنا مالكا وقرينَه ليث بن سعدٍ عن لثام الوامق^(٢)
أيجوز قالوا والذي خلق الوري ماحرم الرَّحْمَنُ قُبلةَ عاشق

ذكر ذلك صاحب كتاب رستاق الاتفاق وهو شاعر المصريين، وأنشد
فيه عمرو بن سفيان هذا وكتب بها إلى ابن عُيَيْنَةَ :

قلنا لسفيان الهلالي مرَّةً حرمت ضمَّ العاشق المشتاق

لحييه من بعد كُنْأَي ناله فأجاب لا والواحد اتَّخَلَّاق

وأنشد فيه بكده جامع ، وكتب بها إلى علي بن زيد بن جُدْعان :

سألنا ابن جُدْعان بن عمرو أخا العلا أَيْخَرُمُ نَمُّ الحُبِّ في ليلة القدر

فقال لنا السكُّ وناهيك علمه ألا لا ومن قد جاء بالشُّفْع والوتر

وأنشد لإبراهيم بن الدبِّر وكتب بها إلى أبي بكر بن عياش أحد

أئمة القراء :

(١) في تاج العروس : ومرخية كحسنة لقب جامع بن مالك بن شداد قال :

وفي السكلة لقب جامع بن شداد بن ربيعة بن عبد الله بن أبي بكر بن قلاب .

(٢) الوامق : المحب .

سألت ابن عيَّاشٍ وكان معهما لك الخير هل في ضمة الحب من وذر
فقال أبو بكر ولا في لِسَامِهِ أَلَمْ يَأْتِنَا التَّنْزِيلُ بِالْوَضْعِ لِلْإِضْرِ
وأُشْدَ لآخر : وكتب بها إلى الإمام أحمد بن حنبل قال : وزعم بعضهم
أنه إسحاق بن مُعَاذٍ بن زهير شاعر أهل مصر في وقته :

سألتُ إمامَ الناسَ بَجَلِ ابنِ حَنْبَلٍ عن الضمِّ والتَّخْيِيلِ هل فيه من بأس
فقال إذا جُنِلَ العِزَاءُ فَوَاجِبٌ لأنك قد أَحْيَيْتَ عِيسَى من الناس
وأُشْدَ لابن مُرْخِيَّةٍ ، وكتب بها إلى أبي حنيفة :

كُتِبَتْ إلى النعمان يوماً رسالةٌ نسأله عن لَثَمِ حَبٍّ مَمْنَعٍ
فقال لنا لا إثم فيه وإنه شهِدَ إذا كانت لعشرٍ وأربعٍ
وكتب رجل إلى أبي جعفر الطحاوي :

أبا جعفرٍ ماذا تقول فإنه إذا نابنا خَطْبُكَ عَلَيْكَ الْمَعْوَلُ
فلا تُنْكِرَنَّ قَوْلِي وَأَبْشِرْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ عن الأمر الذي عنه نسأل
أَبَالُحْبِّ عَارٌّ أم من الحب مَهْرَبٌ وهل من أَمَحَا^(١) أهل الصباية ينجهل
وهل بمباحٍ فيهِ قَتْلُ مَتِيمٍ يهاجره أحبابه وهو يوصل
فَرَأَيْكَ في ردِّ الجوابِ فَإِنِّي بما فيه تقضى أيها الشيخُ أَفْعَلُ
فأجابه الطحاوي :

سَأَفْضَى قِضَاءً في الذي عنه تَسْأَلُ وَأَحْكُمُ بين العاشقين فَأَعْدِلُ
فديتك ما بالحب عَارٌّ عِلْمَتُهُ ولَلْعَارِ تَرُكُ الحب إن كنت تعقل
ومهما لحا في الحب لَاحِرٌ فَإِنَّهُ لعمرك عندي من ذوى الجهل أَجْهَلُ

وليس مباحاً عندنا قتلُ مسلمٍ بلا ترقة^(١) بل قاتلُ النفس يُقتلُ
ولكنه إن مات في الحبِّ لم يكن له قودٌ فيه ولا عنه يُعقل^(٢)
وصالكٌ من تهوى وإن صدَّ واجبٌ عليك كذا حكمُ المتيِّمِ يفعل
فهذا جوابٌ فيه عندى قناعةٌ لما جئت عنه أيها الصبُّ تسأل

ويكفى أن المعتزلة من أشدَّ الناس تعظيماً للذنوب ، وهم يخلدون أصحابَ
الكبائر ولا يرونَ تحريمَ ذلك ، كما ذكره الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في
تاريخه المشهور لبعض المعتزلة :

سألنا أبا عثمانَ عمرأً وواصلأً عن الضمِّ والتقبيل للحدِّ والجيدِ
فقالا جميعاً والذي هو عادلٌ يجوز بلا إثمٍ فدع قولَ تفنيد^(٣)

وقال إسحاق بن شبيب :

سألنا شيوخَ الواسطيينَ كلَّهم عن الرَّشَفِ والتقبيل هل فيهما إثمٌ
فقالوا جميعاً ليس إثمًا لزوجةٍ ولا خُلَّةٍ والضمُّ من هذه غُثمٌ
وأُشدُّ أبو الحسن علي بن إبراهيم بن محمد بن سعد الخير في كتابه
شرح السكامل :

فلما أن أُبيحَ لنا التلاقُ تعانقنا كما اعتنق الصديقُ
وهل حرجاً تراه أو حراماً مشوقٌ ضمَّه صيبٌ مشوقٌ

وقال الخطيب في تاريخ بغداد : حدثنا أبو الحسن علي بن أيوب بن الحسن
إملاء ، حدثنا أبو عبد الله المرزباني وابن حيوية وابن شاذان قالوا : حدثنا

(١) الترة : الدحل ، أى النار عامة أو الظلم فيه .
(٢) النوود : القصاص . والاعقل : الدية . عقل القتل : أعطى ديته . وقد عقل
عنه ، أى عزم عنه إذا لزمته دية فأداها عنه .
(٣) تفند فلان : تندم لرأى أخطأ فيه .

أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة نَفَطَوَيْهِ بِقُرْطَبَةِ قَالَ : دخلت على محمد بن داود الأصماني في مرضه الذي مات فيه فقلت له : كيف تجدك ؟ قال : حبٌّ مَنْ تعلم أوردني ماترى ، فقلت له : مامنعك عن الاستمتاع به مع القدرة عليه ؟ قال : الاستمتاع على وجهين : أحدهما النظرُ المباح ، والثاني اللذة المحظورة . فأما النظر المباح فأوردني ماترى ، وذكر القصة^(١) . وستأتي في باب غفاف العشاق . والمقصود أنه لم يَرِ النظر إلى معشوقه ولا عشقه حراماً . وجرى على هذا المذهب أبو محمد بن حزم في كتاب « طوق الحمامة » له . قالوا : ونحن نحاكمكم إلى واحدٍ يُعدُّ بألاف مؤلفة وهو شيخ الإسلام ابن تيمية فإنه سئل : ماتقول السادة الفقهاء رضى الله عنهم في رجل عاشق في صورة وهى مُصِرَّة على هجره منذ زمن طويل لا تريده إلا بعداً ، ولا يزداد لها إلا حباً ، وعشقه لهذه الصورة من غير فسق ولا خنى ، ولا هو ممن يُدَنِّسُ عشقه بزنى ، وقد أفضى به الحال إلى الهلاك لا محالة ، إن بقى مع محبوبه على هذه الحالة ، فهل يَحِلُّ لمن هذه حاله أن يُهَجَرَ ؟ وهل يجب وصاله على الجبوب المذكور ؟ وهل يأثم ببقائه على هجره ؟ وما يجب من تفاصيل أسرها ؟ وما السكل واحدٍ منهما على الآخر من الحقوق بما يوافق الشرع الشريف ؟

فأجاب بخطه بجوابٍ طويل قال في أثنائه : فالعاشق له ثلاث مقامات : ابتداء ، وتوسط ، ونهاية . أما ابتداءه فواجبٌ عليه فيه كتمان ذلك وعدم إفشائه للخلق ، مراعيًا في ذلك شرائط الفتوة من العفة مع القدرة ، فإن زاد به الحال إلى المقام الأوسط فلا بأس بإعلام محبوبه بمحبته إياه ، فيخفَّ بإعلامه وشكواه إليه ما يمد منه ، ويحذر من اطلاع الناس على ذلك ، فإن زاد به الأمر حتى خرج عن الحدود والضوابط التحق بالجانين والموسوسين . فانقسم العشاق

قسمين : قسمٌ قَنِعُوا بالنظرة بعد النظرة ، فمنهم من يموت وهو كذلك ولا يُظهر سره لأحدٍ ، حتى محبوبه لا يدري به ، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ فَسَكَّتُمْ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ »^(١) ، والقسمُ الثاني أباحوا لمن وصل إلى حدٍّ يخاف على نفسه منه القُبلة في الحين ، قالوا : لأن تركها قد يؤدِّي إلى هلاك النفس ، والقُبلةُ صغيرةٌ وهلاكُ النفس كبيرةٌ . وإذا وقع الإنسان في مرَصينِ داوَى الأخطر ولا خطرَ أعظمُ من قتل النفس ، حتى أوجبوا على المحبوب مطاوعته على ذلك إذا علم أن ترك ذلك يؤدِّي إلى هلاكه ، واحتجُّوا بقول الله تعالى : (إِنَّ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ)^(٢) وبقوله تعالى : (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ)^(٣) ومحدث الذي قال : يارسول الله ، إني لقيت امرأةً أجنبيةً فأصبت منها كلَّ شيءٍ إلا النكاح ، قال : أَصَلَّيْتُ معنا ؟ قال : نعم ، قال : إن الله قد غفر لك^(٤) فأنزل الله تعالى : (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)^(٥) ، ثم قال : فإن كان هذا السائلُ كما زعم من لا يدنس عِشْقَه بَرْنِي ، ولا يَصْغبه بَخْنِي فَيَسْتَظَرُّ في حاله ، فإن كان من الطبقة الأولى

(١) أنكر المؤلف هذا الحديث وذكّر رأيه في تخريجه في أواخر الباب الرابع عشر

(٢) الآية ٣٠ . سورة النساء .

(٣) الآية ٣٢ . سورة النجم .

(٤) أخرجه الترمذى بنحوه وفي إسناده قيس بن الربيع وضمفه وكيع وابن المديني وقال ابن معين : ضعيف الحديث لا يساوى شيئاً . وكما رواه الترمذى أيضاً من طريق آخر وقال : هذا الحديث ليس بمعمل لأن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يسمع من معاذ وكذا قال ابن المديني وابن خزيمة : لم يسمع من معاذ بن جبل رضي الله عنه . راجع تفسير الخازن وتهذيب التهذيب .

(٥) الآية ١١٥ . سورة هود .

فالنظر كافٍ لهم إن صدقت دعواهم ، وإن كان من الطبقة الثانية فلا بأس بشكواه إلى محبوبه كي يرقّ عليه ويرحمه ، وإن غلب عليه الحال فالتحق بالثالثة أبيع له ما ذكرنا بشرط أن لا يكون أنموذجاً لفعل القبيح المحرم ، فيلتحق بالكبائر ويستحقّ القتل عند ذلك ويزول عنه العذر ويحقّ عليه كلمة العذاب . انتهى ما ذكرناه من جوابه .

قالوا : وقد جوزت طائفة من فقهاء السلف والخلف والعلماء استمناء الإنسان بيده إذا خاف الزنى^(١) ، وقد جوزت طائفة من الفقهاء لمن خاف على نفسه في الصوم الواجب من شدة الشيق أن تتشقق أنثىكه أن يجامع امرأته ، وبنوا على ذلك فرعاً : وهو إذا كان له امرأتان حائضٌ وصائمة فهل يطأ هذه أو هذه كلّ وجهين . ولا ريب أن النظر والقبلة والضمّ إذا تضمن شفاءً من دأبه كان أسهل من الاستمناء باليد والوطء في نهار رمضان .

وقد جوز بعض الفقهاء للمرأة إذا خافت الزنى أن تبيخذ لها شيئاً تدخله في فرجها وتخرجه لئلا تقع في محذور الزنى .

ولا ريب أن الشريعة جاءت بالالتزام الدخول في أدنى المفسدتين دفعاً لأعلاهما ، وتقويت أدنى المصلحتين تحصيلاً لأعلاهما ، فأين مفسدة النظر والقبلة والضمّ من مفسدة المرض والجنون أو الهلاك جملة ؟ فهذا ما احتجّت به هذه الفرقة ونحن نذكر مالها وما عليها في ذلك بحول الله وقوّته وعونه .

(١) لئن أجاز العلماء ذلك لمن خشى من الزنا فإنهم لم يطلقوا جوازه إطلاقاً يبيح استعمالها لمن أراد وكلما أراد ولم يبيحوها إلا بالقدر الذي يمنع من ارتكاب جريمة الزنا وبعد استنفاد الوسائل التي تساعد على إطفاء نار الشهوة مثل الصوم واجتناب كل ما يثيرها من لظن وقراءة .

الباب التاسع

في الجواب عما احتجبت به هذه الطائفة ومالها وما عليها في هذا الاستمباح
وشبههم التي ذكروها دائرة بين ثلاثة أقسام: أحدها: تقول صحيحة
لاحقة لهم فيها، والثاني: تقول كاذبة عن نسبت إليه من وضع الفساق
والفجّار كما سنبينه، الثالث: تقول مجعلة محتملة لخلاف ما ذهبوا إليه .
فأما احتجاجهم بقوله تعالى: (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) ^(١) فهو نظير احتجاجهم بعينه على إباحة
السمع الشيطاني الفسقي بقوله تعالى: (فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ
فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) ^(٢) ، قالوا: والقول عام فحملوا لفظه ومعناه ما هو برى
منه . وإنما القول هاهنا ما أمرهم الله باستماعه ، وهو وحْيُهُ الذي أنزله على رسوله
وهو الذي قال فيه: (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ) ^(٣) وقال تعالى: (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا
كُمُ الْقَوْلَ) ^(٤) فهذا هو القول الذي أمروا باتّباع أحسنه كما قال: (وَاتَّبِعُوا
أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ) ^(٥) والنظر الذي أمرنا شبحانه به المؤدّي
إلى معرفته والإيمان به ومحبيته والاستدلال على صدق رُسله فيما أخبروا به عنه
من أسمائه وصفاته وأفعاله وعقابه وثوابه ، لا النظر الذي يوجب تعلّق الناظر

(١) الآية ١٨٤ . سورة الاعراف .

(٢) الآيتان ١٧ و ١٨ . سورة الزمر .

(٣) الآية ٦٩ . سورة المؤمنون .

(٤) الآية ٥١ . سورة النجم .

(٥) الآية ٥٥ . سورة الزمر .

بالصورة التي يَحْرُمُ عليه الاستمتاع بها نظراً ومباشرة ، فهذا النظر الذي أمر الله سبحانه وتعالى صاحبه بغضّ بصره ، هذا مع أن القوم لم يُبْتَكُوا بالمُرْدَان ، وهم كلوا أشرف نفوساً ، وأطهر قلوباً من ذلك ، فإذا أمرهم بغضّ أبصارهم عن الصورة التي تباح لهم في بعض الأحوال خشية الافتتان ، فكيف النظر إلى صورة لا تباح بحال ؟ ثم يقال لهذه الطائفة : النظر الذي ندب الله إليه نظرٌ يثاب عليه الناظر ، وهو نظرٌ موافق لأمره ، يقصد به معرفة ربه ومحبته ، لا النظرُ الشيطاني . ويشبه هذا الاستدلال استدلال بعض الزنادقة المنتسبين إلى الفقه على حِلِّ الفاحشة بملوك الرجل بقوله تعالى : (إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)^(١) ، ومعتقد ذلك كافرٌ حلالُ الدم بعد قيام الحجة عليه ، وإنما تسترت هذه الطائفة لمواها وشهواتها ، وأوهمت أنها تنظر عبرةً واستدلالاً ، حتى آل ببعضهم الأمرُ إلى أن ظنّوا أن نظرهم عبادةٌ ، لأنهم ينظرون إلى مظاهر الجمال الإلهي ، ويزعمون أن الله سبحانه وتعالى عن قول إخوان النصاري يظهر في تلك الصورة الجميلة ، ويعملون هذا طريقاً إلى الله ، كما وقع فيه طوائف كثيرةٌ من يدعى المعرفة والسلوك .

قال شيخنا رحمه الله تعالى :^(٢) وكفرٌ هؤلاء شرٌّ من كفر قوم لوط ، وشرٌّ من كفر عبّاد الأصنام ، فإن أولئك لم يقولوا : إن الله سبحانه يتجلى في تلك الصورة ، وعِبَادُ الأصنام غاية ما قالوه : (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)^(٣) ، وهؤلاء قالوا : نعبدهم لأن الله ظهر في صُورهم . وحكى لي شيخنا : أن

(١) الآية ٦ سورة المؤمنون . والآية ٣٠ . سورة المعارج .

(٢) هو شيخه أبو العباس أحمد بن تيمية .

(٣) الآية ٣ سورة الزمر .

رجلاً من هؤلاء مرَّ به شابٌّ جميلٌ فجعل يُتبعه بصره ، فأنكر عليه جليسُ له وقال : لا يَصُحَّ هذا المثلُك ، فقال : إني أرى فيه صفاتٍ معبودى وهو مَظَاهِرُ من مظاهر جماله ، فقال : لقد فعلت به وصنعت ، فقال : وإن . قال شيخنا : فلن الله أمةً معبودها مَوَطُّوْها . قال : وسئل أفضلُ متأخريهم العفيفُ التَّلَسَّاسَى ققيل له : إذا كلَّك الوجود واحداً فما الفرق بين الأخت والابنت والأجنبية حتى تحِلَّ هذه ؟ فقال : الجميعُ عندنا سواء ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا : حرامٌ ، ققلنا : حرامٌ عليكم^(١) . ومن هؤلاء الزنادقة من يخصّ ذلك ببعض الصُّور ، فيؤلا من جنس النصارى بل هم إخوانهم ، فالنظر عند هؤلاء إلى الصُّور المحرّمة عبادة ، ويشبه أن يكون هذا الحديث من وضع بعض هؤلاء الزنادقة ، أو مجّان المُساق ، وإلا فرسول الله صلى الله عليه وسلم برىء منه . وسئل شيخنا عن يقول : النظر إلى الوجه الحسن عبادة ، ويروى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فهل ذلك صحيحٌ أم لا ؟ فأجاب بأن قال : هذا كذبٌ باطل ، ومن روى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم أو ما يشبهه فقد كذب عليه صلى الله عليه وسلم ، فإن هذا لم يروِه أحدٌ من أهل الحديث لا بإسناد صحيح ولا ضعيف بل هو من الموضوعات ، وهو مخالفٌ لإجماع المسلمين . فإنه لم يقل أحدٌ إن النظر إلى المرأة الأجنبية والصبيّ الأمرد عبادة . ومن زعم ذلك ، فإنه يُستتاب فإن تاب وإلا قُتل ، فإن النظر منه ماهو حرامٌ ، ومنه ماهو مكروهٌ ، ومنه ماهو مباحٌ والله أعلم . وأما الحديث الآخر ، وهو : « أَطُوبُوا الْخَيْرَ مِنْ »

(١) ما نظن إلا أن هذه الكلمة مكذوبة على العفيف فلايس من المعقول أن يقولها مع ما قيل من أنه كان من الأولياء الصالحين .

حَسَانِ الْوُجُوهِ^(١) » فهذا وإن كان قد رُوِيَ بإسناد إلا أنه باطلٌ لم يصحَّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولو صحَّ لم يكن فيه حجةٌ لهذه الطائفة ، فإنه إنما أمر بطلب الخير منهم لا بطلب وحالهم ونيل المحرم منهم ، فإن الوجه الجميل مَظَنَّةُ الفعل الجميل ، فإن الأخلاق في الغالب مناسبةٌ للخلقِ بينهما نسبٌ قريب ، وأما أمر النبي صلى الله عليه وسلم للمخاطب بأن ينظر إلى الخطوبة فذلك نظرٌ للحاجة ، وهو مأمور به أمرٌ استجباب عند الجمهور ، وأمرٌ إيجاب عند بعض أهل الظاهر ، وهو من النظر المأذون فيه لمصلحة راجحة ، وهو دخول الزوج على بصيرة وأبعد من ندمه ونفرتة عن المرأة ، فالنظر المباح أنواعٌ هذا أحدُها بخلاف النظر إلى الصورة المحرمة .

فصل

وأما ما ذكره السمعاني عن الشافعي — رحمه الله تعالى — فن تحريف الناقل . والسائل لم يذكر لفظ الشافعي ، والبيتان هكذاها :

سألت الفتى المكى في تراويرٍ ونظرةٍ مشتاق الفؤاد جُنَاح
فقال معاذ الله أن يُذهبَ التقى تلاصُقُ أكبادٍ بهنَّ جِرَاح

فهذا السائل هو الذى ذكر السؤال والجواب ، وهو مجهول لا يُعرَف هل هو ثقة أم لا ؟ ثم إن الجواب لا يدلُّ على مقصود هذه الفرقة بوجه ما ، بل هو حجةٌ عليها فإنه نهى أن يُذهبَ التقى تلاصُقُ هذه الأكباد ، فكأنه قال :

(١) فى أدب الدنيا والدين للماوردي : سئل ابن عائشة عن قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا الخواص من حسان الوجوه » فقال : معناه من أحسن الوجوه التى تحمل . وقال شارحه . أى المطلقة المستبشرة وجوههم ، وقيل : من له بشر عند الطلب وإن لم يكن جميل الوجه .

لا تتلاصق هذه الأكباد لثلاثا يُذهب تلاصقها التقي ، فالتلاصقُ المذكور فاعلٌ ،
والتقي مفعولٌ ، فكأنه قال : لا يفعل لثلاثا يُذهب التلاصقُ التقي . وجوابُ
آخرُ وهو أن هذا التلاصقُ إنما يكون غير مذهبٍ للتقي إذا كان في عشق
مباح بل مستحبٌ كعشق الزوجة والأمة^(١) .

وأما ما ذكرنا عن سعيد بن المسيب — رحمه الله تعالى — فقد أجاب عنه
سعيد نفسه ، فإنه لما مرَّ به مُرَحِّيةُ هذا السائل — وكان من بني كلاب —
قال سعيد : هذا من أ كذب العرب ، قيل : كيف يا أبا محمد ؟ قال : أليس
الذي يقول :

سألت سعيد بن المسيب مفتي المدينة هل في حبِّ دَهِماء^(٢) من وِزْر
فقال سعيد بن المسيب إنما تُتَلام على ما تستطيع من الأمر
كذب والله ما سألتني عن شيء من هذا قطُّ ولا أفتيته . وإذا كان هذا
جواب سعيد في مثل هذا فما جوابه لمن سأله أن يقبل حبًّا أجنبيًّا كلَّ يوم
وليلةٍ عشرة ؟ فقبح الله الفسقة الكذابين على العلماء لاسيما على مثل سعيد ،
فهو لاء كلِّهم فسقةٌ كاذبون أرادوا تنفيق فسقيم بالكذب على علماء وقتهم ،
كما نفق الفاسق أبو نؤاس كذبه على إسحاق بن يوسف الأزرق . قال عبد الله

(١) وردت هذه النصّة في طبقات السبكي : عن الربيع بن سليمان وفيها قال
الربيع : فأنكرت على الشافعي أن يفتي لحديث بمثل هذا فقلت : يا أبا عبد الله تفق
بمثل هذا لمثل هذا الشاب ؛ فقال لي : يا أبا محمد ، هذا رجل هاشمي قد عرس في
هذا الشهر ، يعني شهر رمضان ، وهو حديث السن ، فسأل هل عليه جناح أن
يقبل أو يضم من غير وطء فأفتيته بهذا ؟ قال الربيع : فتبعت الشاب فسألته عن
حالهِ فذكر لي أنه مثل ما قال الشافعي ، قال : فما رأيت فِراسة أحسن منها .
(٢) الدهماء : السوداء : والشفة الدهماء : الخالصة الحمراء وعامة الناس
وسوادهم .

ابن محمد بن عائشة : أتيت إسحاق بن يوسف الأزرق يوماً ، فلما رأني بكى ، قلت : ما يبكيك ؟ قال : هذا أبو نوح أس ، قلت : ماله ؟ قال : ياجارية ، اثنتى بالقرطاس فإذا فيه مكتوب :

ياساحر المقلتين والجدير وقاتلى منه بالمواعيد
توعدنى الوصل ثم يخلفني ويلاه من مخلف لموعودى
حدثنى الأزرق المحدث عن شمير وعوف عن ابن مسعود
لا يخلف الوعد غير كافرة أو كافر في الجحيم مصفود

كذب والله على وعلى التابعين وعلى الصحابة . ولو صح عن سعيد لم يكن لكم فيه حجة فإن سعيداً أمره بالصبر أولاً ، ومراقبة الله وخوف سطوته ومخالفة السقاة ، ثم أمره بتقيل خد من يحبه كل يوم عشر مرات ، وهذا قطعاً إنما أراد به من يحل له تقيله من زوجة أو سُرّية ، فأمره أن يمتاض يقبلتها من لا يحل له ، ولا يظنُّ بعلماء الإسلام غير هذا إلا مفراطاً في الجهل أو متهم على الدين .

وأما ذكره المبرّد عن الأعرابي الذي سأل الملقى المكى عن القبلة في رمضان فقال : للزوجة سبع والخلة ثمان فهذا المستنقى والملقى لا يعرف واحداً منهما حتى يقبل خبره ، ولو صح ذلك وعُرف المستنقى والملقى لكانت الخلة هي أمتة الجيلة ، وهى التى يحلّ تقيلها ثمانياً فأكثر .

وأما أن يفتى أحد من أهل الإسلام بأنه يحلّ تقيل المرأة الأجنبية المحرمة عليه ثمانياً في رمضان أو غيره فعاذ الله من ذلك ، وهكذا حكم الأثر الذى ذكره الخطيب في كتابه رواه مالك ، ولا يظن بعالم أنه تمنى أن يقبل امرأة أجنبية وهو محرم بيطن دنى ، فإن القبلة المذكورة تعرّض الحرج للفساد وتبطله عند طائفة ، فإن صح هذا فإنما أراد امرأته أو أمتة .

وأما الأثر الذي ذكره الحاكم في مناقب الشافعي — رحمه الله تعالى —
فليس بين الحاكم وبين الربيع من يحتج به . ويدل على أن القصة كذب ظاهر
أن المستفتى زعم أن الشافعي أجاب بقوله : فقال لي المفتي وفاضت دموعه .
وهذا إنما هو حكاية المستفتى قول المفتي فن هو الحاكم عن الشافعي ؟ فدعوا
هذه الأكاذيب والترهات .

وأما ما ذكرتم عن عمرو بن سفيان ابن بنت جامع فمن ذكر هذا عن عمرو
ابن سفيان ؟ ومن هو عمرو بن سفيان ابن بنت جامع بن مَرْخِيَّةَ هذا ؟ وهذا
موضعُ البيتين المشهورين :

سألنا عن ثَمَالَةَ كُلِّ حَى^١ فقال القائلون ومن ثَمَالَةَ^(١)

فقلتُ محمدُ بنُ يزيدٍ منهم فقالوا زدنا بهمُ جَهْلَهُ

وهل يحل لأحد أن يصدق عن مالك والليث بن سعد أنهما أجازا تقبيل
خَدَ المرأة الأجنبية المعشوقة أو خَدَ الأمرد الجليل الصورة ؟ هذا وقصة مالك مع
الذي ضمَّ صبيًّا إليه فألقى بضربه ستمائة سوطٍ فمات ، فقال له أبو الفتي :
قتلت ابني ، فقال : قتله الله . فمن هذا تشديده وفتواه هل يفتي بجواز تقبيل
خُدود المُرْد الحسان ؟ نعم ما حرّم الرحمن قُبْلَةَ عاشقٍ يحلُّ لمعشوقه مواصلةً ،
ولا قُبْلَةَ الرجل خَدَ ولده كما قبل الصديق — رضى الله عنه — خَدَ ابنته عائشة
رضى الله عنها ، ورأى أعرابيُّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقبّل أحد ابني ابنته
فقال : وإنكم لتُتَبَّلون الصبيان ؟ إن لي عشرةً من الولد ما قبّلتهم ، فقال :

(١) في ترجمة المبرد لابن خلكان : ثَمَالَةُ واسمه عوف بن أسلم بطن من
الأزد . وذكر النالي في الأمالى : لأنها لعبد الصمد بن المزدل وأورد هذين البيتين
وبعدهما ثالث قال : ويقال : إن هذه الأبيات للمبرد وكان يشتهر أن يشتهر بهذه
التميلة فصنع هذه الأبيات فشاعت وحصل له مقصوده من الاشتهار .

« أَوْ أَمْلِكُ لَكَ إِنْ نَزَعَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَائِكَ » (١) ؟

وأما صاحبُ كتابِ رُسْتاقِ الاتِّفانِ وهو شاعرُ المصريِّين فلعمُرُ اللهِ لقد أفسدت إذ أسندت ، فإنه الفاسقُ الماجنُ المسىُّ أبا الرِّقْعَمَقِ (٢) ، ولكن لا يُنكر هذا اللَّتَنُ بهذا الإسناد ، فإنه لا يليقُ إلا به .
وأما قصة إبراهيم بن المدبرِّ عن أبي بكر بن عيَّاش فقلَّ غيرُ مُصدِّقٍ عن قائلٍ غيرِ معصوم .

وأما ما ذكرُوا عن الإمامِ أحمد — رحمه الله تعالى — فوالذي لا إلهَ غيره إنه لَمَنْ أَقْبَحَ الكَذِبَ عليه ، ولو أن هذا الكاذبَ الفاسقَ ذُقَ هذه الكَذِبَةُ بغيره لراجَ أمرُها بعضَ الرَّواجِ ، ولكن من شدَّةِ جهلِهِ نَقَّحَهَا بِأحمد ابن حنبلٍ وهو كمن نسب إليهِ القولَ بأن القرآن مخلوقٌ ، أو تقدِّمَ على عَلى أبي بكر ، أو تقدِّمَ الرأى على السُّنَّةِ ، وأمثالَ ذلك ، وكذلك ما ذكره عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى ، ولو صحَّ لم يكن فيه حجةٌ لهذه الطائفة ، فإنه قال : لا إثمَ فيه إذا كانت لعشرٍ وأربع ، ولم يقل إذا كانت أجنبية ، ونحن نقول بما قال أبو حنيفة — رحمه الله تعالى — إذا كان المشرق حلالاً .

وأما ما ذكر عن الطحاوى فلا نعلم صحته ، وإن صحَّ فإنما أراد به التقبيلَ المباح ، فإن الرجلَ قد يُبتلى بهجر زوجته أو أمته له فيسأل أطباء الدين وأطباء الجسم وأطباء الحب عن دوائه ، فيجيبه كلٌّ منهم بما يقتضى علمه وما عنده ، وقد شكى مُعَيْثُ زوجُ بَرِيرَةَ حَبَّه لما فشع عندها النبي صلى الله عليه وسلم أن

(١) من حديثين رواهما البخارى ومسلم .

(٢) هو أحمد بن محمد الانطاكى له ترجمة في يتيمة الدهر للشمالى ووفيات الاعيان لابن خلصكان .

تراجعه فلم تفعل^(١)، وشكى إليه رجلٌ أن امرأته لا تردُّ يدَ لأمسٍ فقال :
 طلقها ، فقال : إني أخاف أن تتبعها نفسى ، فقال : اغتتمع بها . ذكره الإمام أحمد
 والنسائي . قال بعض أهل العلم : راعى النبي صلى الله عليه وسلم دفع أعلى المفسدين
 بأدناها ، فإنه لما شكى إليه أنها لا تردُّ يدَ لأمسٍ أمره بطلاقها ، فلما أخبره عن
 حبها وأنه يخاف أن لا يصبرَ عنها ولعلَّ حبه لما يدعوه إلى معصية أمره أن يسكها
 مداواةً لقلبه ودفعاً للمفسدة التى يخافها باحتمال المفسدة التى شكى منها . وأجاب
 أبو عبيدة عنه بأنها كانت لا تردُّ يدَ لأمسٍ يطلب منها السطاء ، فكانت
 لا تردُّ يدَ من سألها شيئاً من مال الزوج ، وردَّ عليه هذا التأويلُ بأنه لا يقال
 لطالب العطاء لأمسٍ وإنما يقال له ملتمس . وأجابت طائفة أخرى عنه بأن طرأ
 للمعصية على النكاح لا توجب فسادَه . وقال النسائي : هذا الحديث مُنكر .
 وعندى أن له وجهاً غيرَ هذا كله ، فإن الرجل لم يشكُ من المرأة أنها تزنى
 بكل من أراد ذلك منها ، ولو سأل عن ذلك لما أقره رسول الله صلى الله عليه
 وسلم على أن يقيمَ مع بغيٍّ ويكونَ زوجَ بغيٍّ دُيُوثاً^(٢) ، وإنما شكى إليه أنها
 لا تجذبُ نفسها من لاعبها ووضع يدَه عليها أو جذب ثوبها ونحو ذلك ، فإن
 من النساء من تلين عند الحديث واللعب ونحوه . وهى حصانٌ^(٣) عفيفةٌ إذا
 أريد منها الزنى ، وهذا كان عادةً كثيرٍ من نساء العرب ولا يُعدُّونَ
 ذلك عيباً ، بل كانوا فى الجاهلية يرون للزوج النصفَ الأسفلَ والعشيق
 النصفَ الأعلى .

فَللحِبِّ مَا ضَمَّتْ عَلَيْهِ نَقَابُهَا وَلِلْبَعْلِ مَا ضَمَّتْ عَلَيْهِ الْمَازِرُ

(١) رواه البخارى وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائي وابن ماجه .

(٢) الديوث : الذى يقرد على أهله .

(٣) المرأة الحصان : المتزوجة والمفيدة .

والمقصود أن القوم كانوا مع العاشق على معشوقه إذا كان يُباح له وصائله ،
وسنذكر ذلك في باب مساعدة العشاق بالمباح من التَّلاق إن شاء الله تعالى .

وأما ما ذكرنا عن شيوخ المعتزلة وشيوخ الواسطيين ، فأما أبو عثمان
المذكور وهو عمرو بن عبيد ، وواصل وهو واصل بن عطاء ، وهما شيخا القوم
ولو أفتيا بذلك لكانت فتيا من مبتدعين مذمومين عند السلف والخلف ،
فكيف والخبر بذلك رجلٌ مجهولٌ من المعتزلة كذب على من يعظهما المعتزلة
لينفق فسئمه ؟

وأما قصة محمد بن داود الأصماني فغايتها أن تكون من سعيه للعفو المغفور ،
لا من عمله المشكور ، وسلط الناس بذلك على عرضه ، والله يغفر لنا وله ، فإنه
تعرض بالنظر إلى السقم الذي صار به صاحب فراش ، وهذا لو كان ممن يُباح
له لكان نقصاً وعبثاً ، فكيف من صبيٍّ أجنبيٍّ ؟ وأرضاه الشيطان بحبه والنظر
إليه عن مواسلته ، إذا لم يطمع في ذلك منه ، فقال منه ما عرّف أن كيده
لا يتجاوزه وجعله قدوة لمن يأتيهم به بعده كأبي محمد بن حزم الظاهري وغيره ،
وكيد الشيطان أدق من هذا .

وأما أبو محمد فإنه على قدر بُبسه وقنوته في التمسك بالظاهر وإغائه للمعاني
والمناسبات والحكم والعِلل الشرعية انماح في باب العشق والنظر وسماع الملاحى
الحُرمة ، فوسّع هذا الباب جدّاً وضيق باب المناسبات والمعاني والحكم الشرعية
جدّاً ، وهو من انحرافه في الطرفين حين ردّ الحديث الذي رواه البخاري في
محيجه في تحريم آلات اللغو بأنه معلى غير مُسنَد ، وخفي عليه أن البخاري
لقي من علّقه عنه وسمع منه ، وهو هشام بن عمار ، وخفي عليه أن الحديث قد
أسنده غير واحد من أئمة الحديث غير هشام بن عمار ، فأبطل سنةً صحيحةً

ثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا مطعن فيها بوجه^(١) .

وأما من حاكمتونا إليه وهو شيخ الإسلام ابن تيمية فنحن راضون بحكمه ، فأين أباح لكم النظرَ الحرام وعشقَ المزدان والنساء الأجانب ؟ وهل هذه إلا كذبٌ ظاهر عليه ؟ وهذه تصانيفه وفتاواه كلها ناطقة بخلاف ما حكيتموه عنه ؟ وأما الفتيا التي حكيتموها فكذب عليه لا تناسب كلامه بوجه ، ولولا الإطالة لذكرناها جميعها حتى يعلم الواقف عليها أنها لاتصدُر عن دونه فضلا عنه ، وقلت لمن أوقفني عليها : هذه كذب عليه لا يشبه كلامه ، وكان بعض الأمراء قد أوقفني عليها قديما وهي بخط رجلٍ متهم بالكذب ، وقال لي : ما كنت أظن الشيخَ برقة هذه الحاشية ، ثم تأملتُها فإذا هي كذبٌ عليه ، ولولا الإطالة لذكرنا من فتاويه ما يبين أن هذه كذب .

وأما ما ذكرتم من مسألة التزام أدنى المفسدين لدفع أعلاها ، فنحن لاننكر هذه القاعدة بل هي من أصح قواعد الشريعة ، ولكن الشأن في إدخال هذه الصورة فيها . بل نحاكمكم إلى هذه القاعدة نفسها فإن احتمال مفسدة ألم الحب مع غض البصر وعدم تقبيل المحبوب وضمه ونحو ذلك أقل من مفسدة النظر والتقبيل ، فإن هذه المفسدة تجرُّ إلى هلاك ألقاب وفساد الدين ، وغاية ما يُقدَّر من مفسدة الإمساك عن ذلك شتمُ الجسد أو الموتُ تقاديا عن التعرض للحرام ، فأين إحدى المفسدين من الأخرى ؟ على أن النظر والقُبلة

(١) الحديث الذي يشير إليه هو قوله صلى الله عليه وسلم : « ليسكون من أمتي أقوام يستحلون الحر (أي الفرج) والحرير والخمر والممازف ويلبسون أقوام إلى جنب علم يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم لحاجة فيقولوا إرجع إلينا غداً فيبيتهم الله تعالى ويضع العلم ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة » .

والضمّ لا يمنع السقم والموت الحاصل بسبب الحبّ ، فإنّ العشق يزيد بذلك ولا يزول .

فما صبا بة مشتاقٍ على أملٍ من الوصال كمشتاقٍ بلا أمل
ولا ريب في أن محبة من له طمع أقوى من محبة من يئس من محبوبة ،
ولهذا قال الشاعر :

وأبرحُ ما يكونُ الحبُّ يوماً إذا دنتِ الديارُ من الديارِ
فإن قيل : فقد أباح الله سبحانه للمضطر الميتة والدم والحَمَ الخنزير ، وتناولها
في هذه الحال واجبٌ عليه . قال مسروق والإمام أحمد - رحمهما الله تعالى - :
من اضطرَّ إلى أكل الميتة فلم يأكل فمات دخل النار ، فعناية النظرة والقُبلة
والضمة أن تكون محرمةً ، فإذا اضطرَّ العاشق إليها فإن لم تكن واجبةً فلا
أقل من أن تكون مباحة ، فهذا قياسٌ واعتبارٌ صحيح ، وأين مفسدة موتِ
العاشق إلى مفسدة ضمة ولثمه ؟

فالجواب أن هذا يتبين بذكر قاعدة ، وهي أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل
في العبد اضطراراً إلى الجماع بحيث إن لم يفعله مات ، بخلاف اضطراره إلى
الأكل والشرب واللباس ، فإنه من قوام البدن الذي إن لم يباشره هلك ، ولهذا
لم يُبيح من الوطء الحرام ما أباح من تناول النذاء والشراب المحرّم ، فإن هذا
من قبيل الشهوة واللذة التي هي تنمة وفضلة ، ولهذا يمكن الإنسان أن يعيش
طول عمره بغير تزوّج وغير تَسَرُّعٍ ، ولا يمكنه أن يعيش بغير طعام ولا شرابٍ ،
ولهذا أمر النبي صلى الله عليه وسلم الشباب أن يداووا هذه الشهوة بالصوم ، وقال
تعالى عَنْ عَشَاقِ الْعُرْدَانِ : (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ

النساء) (١) فأخبر أن الحامل على ذلك مجرد الشهوة لا الحاجة فضلاً عن الضرورة ، والشهوة المجردة لا تلتحق بالضروريات ولا بالحاجات ، والحمية عنها خشية إفضائها إلى مرض أصعب منها جار مجرى الحمية عن تناول ما يضر من الأطعمة والأشربة ، وذلك لا تدعو الضرورة إلى تناوله وإن كانت النفس قد تشتهيه ، فالقبلة والنظر والضم ونحوها جار مجرى تناول الفاكهة المضرّة والزفرة المضرّة للحموم ومن به مرض يضره معه تناول ذلك ، فإذا قال المريض : أنا إن لم أتناول ذلك وإلا خشيت الموت لم يكن صادقاً في قوله ، وإنما الحامل له على ذلك مجرد الشهوة ، وربما زاد تناول ذلك في مرضه ، فالطبيب الناصح لا يفسح له فيه ، فكيف يفسح الشارع الحكيم الذي شريعته غاية طبّ القلوب والأديان وبها تحفظ صحّتها وتدفع مبادئها الفاسدة في تناول ما يزيد الداء ويقويه ويمسده ؟ هذا من الحال ، بل الشريعة تأمر بالجمية عن أسباب هذا الداء خوفاً من استحكامه وتولّد داء آخر أضعب منه .

وأما مسألة من خاف تشقّق أنثيين وأنه يباح له الوطء في رمضان ، فهذا ليس على إطلاقه ، بل إن أمكنه إخراج مائه بغير الوطء لم يجز له الوطء بلا نزاع ، وإن لم يمكنه ذلك إلا بالوطء المباح فإنه يجزى مجرى الإفطار لعذر المرض ثم يقضى ذلك اليوم ، والإفطار بالمرض لا يتوقّف على خوف الهلاك ، فكيف إذا خاف تلف عضو من أعضائه القاتلة ، بل هذا نظير من اشتدّ عطشه وخاف إن لم يشرب أن يحدث له داء من الأدوية ، أو يتلف عضو

(١) الآية ٨١ سورة الاعراف ، والآية ٥٥ سورة النمل وفيها (أنتم) .

من أعضائه ، فإنه يجوز له الشرب ثم يقضى يوماً مكانه . فإن قيل : فلو اتفق له ذلك ولم يكن عنده إلا أجنبية هل يباح له وطؤها لثلاث تنلث أنثياه ؟ قيل : لا يباح له ذلك ، ولسكن له أن يخرج ماءه باستمنائه ، فإن تعذر عليه فهل يجوز له أن يمكنها من استخراج مائه بيدها ؟ هذا فيه نظر ، فإن أبيع جرى مجرى تطيب المرأة الأجنبية للرجل ومسها منه ماتدعو الحاجة إلى مسه . وكذلك تطيب الرجل للمرأة الأجنبية ومسها ماتدعو الحاجة إليه والله أعلم .

وقد سئل أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الكلؤذاني في رقعة :

قل لأبي الخطاب نجم الهدى وقُدوة العالم في عصره
لا زلت في فتواك مستأمناً من خُدع الشيطان أو مكره
ماذا ترى في رَشَا أَعْيِدَ حاز الألى والدُّرَّ في ثغره^(١)
لم يَحْكِ بدر التَّمَّ في حُسْنِه حتى حكى الزُّبُورَ^(٢) في حُضْرِه
فهل يُجِيزُ الشرعُ تَقْيِيلَه لمستهام خاف من وزره
أم هل عَلَى المشتاق في ضَمِّه من غير إدناء إلى صدره
لِئَمْ إذا مالم يكن مضميراً غير الذى قدَّم من ذكره
فأجاب :

يا أيها الشيخ الأديب الذى قد فاق أهل العصر في شعره
تسأل عن تقْيِيل بدر الدجى وعَطْف رَنْدَيْكَ عَلَى نَحْرِه

(١) الرشا : ولداً ظلية إذا قوى ومشى . والاغيد : المتثنى في لين ونعومة ، واللى : سمرة في الشفة تستحسن . وشفة لمياء : لطيفة رقيقة اللحم .
(٢) الزبور والزبار : حشرة أليمة اللسع ، وهو أيضاً : الخفيف الظريف .
والحضر : عدو في وثب ، وارتفاع الفرس في وثبه .

هل ورد الشرعُ بتحليله لمستهامٍ خاف من وزيره
من قارف الفتنة ثم ادعى الـ عصمة قد نافق في أمره
هل فتنهُ المرء سوى الضمِّ والتـ قبيح للحبِّ على نغره
وهل دواعي ذلك المشتكى إلا عناقُ البدر في خِدره
وبذلُه ذاك لمشتاقه يزرى على هاروت في سِجره
ولا يُميزُ الشرعُ أسبابَ ما يُورطُ المسلم في حظره
فانجُ ودع عنك صداع الهوى عماك أن تسلم من شره
هذا جوابُ الكَلَوَزَانِيَّ قد جاءك يرجو الله في أجره

فهذا جواب أهل العلم، وهو مطابق لما ذكرناه، والله تعالى أعلم.

وسئل الإمام أبو الفرج بن الجوزي - رحمه الله - بأبيات :

يا أيها العالمُ ماذا ترى في عاشقٍ ذاب من الوجدِ
من حبِّ ظبيٍّ أغيدٍ أهيفٍ سهلٍ المُخَيَّا حسنِ القدِ
فهل ترى تقييسه جازراً في القمـ والعينين والحدِ
من غير ما فُحشٍ ولا ريبةٍ بل بعناقٍ جائزٍ المدِ
إن كنت ما تفتي فإني إذا أصبح من وجدى وأستعدي

فكتب - رحمه الله تعالى - الجواب :

يا ذا الذي ذاب من الوجدِ وظل في ضرٍّ وفي جَبدِ
إسمع فدتك النفس من ناصحٍ بنصحه يَهْدِي إلى الرُّشدِ
لو صحَّ منك العشقُ ما جئني تسألني عنه وتستعدي
فالعاشقُ الصادقُ في حبه ما باله يسأل ما عندي

عَبيِّه العِشْقُ فَمَا إِنْ يُرَى	يُعِيدُ فِي العِشْقِ وَلَا يُبْدَى
وَكُلُّ مَا تَذَكَّرَ مُسْتَفْتِيًا	حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى العَبْدِ
إِلَّا لِمَا حَلَّاهُ رَبُّنَا	فِي الشَّرْعِ بِالإِبْرَامِ وَالْعَقْدِ
فَعَدَّ مِنْ طُرُقِ الهَوَى مُعْرِضًا	وَقَفَ بِيَابِ الوَاحِدِ الفَرْدِ
وَسَلَّهَ يَشْفِيكَ وَلَا يَبْتَلَى	قَلْبَكَ بِالتَّعْذِيبِ وَالصَّدِّ
وَعَفَّ فِي العِشْقِ وَلَا تُبْدِهِ	وَأَصْبِرْ وَكَاتِمِ غَايَةَ الجُهِدِ
فَإِنْ نَمَّتْ مُحْتَسِبًا صَابِرًا	تَقَرَّ غَدَاً فِي جَنَّةِ الخُلْدِ

الباب العاشر

في ذكر حقيقة النفس وأوصافه وكلام الناس فيه

قالدى عليه الأطباء قاطبة أنه مرض وسواسى شبيهة بالماليخوليا ، يجلبه
المرء إلى نفسه بتسايط فكره على استحسان بعض الصور والسمائل ، وسببه
النفاسى الاستحسان والفكر ، وسببه البدنى ارتفاع بخار ردىء إلى الدماغ
عن مَنى محتقن ، ولذلك أكثر ما يعترى العزّاب ، وكثرة الجماع تزيد به بسرعة .
وقال بعض الفلاسفة : العشق طمع يتولّد فى القلب ويتحرك وينمى ، ثم
يتربى ويمتدح إليه مواد من الحرص ، وكلها قوى ازداد صاحبها فى الاحتياج
واللجاج والتماهى فى الطمع والحرص على الطلب ، حتى يؤدبه ذلك إلى الغم
والقلق ، ويكون احتراق الدم عند ذلك باستحالته إلى السوداء والتهاب
الصفراء وانقلابها إليها . ومن غلبة السوداء يحصل له فساد الفكر ، ومع فساد
الفكر يكون زوال العقل ورجاء مالا يكون وتمنى مالا يتم حتى يؤدّى إلى
الجنون ، فيئذ ربما قتل العاشق نفسه ، وربما مات غمّا ، وربما نظر إلى معشوقه
فمات فرحاً ، وربما شهق شهقة فتختنق رُوحه فيبقى أربعة وعشرين ساعة فيظن
أنه قد مات ، فيدفن وهو حي ، وربما تنفس الصعداء فتختنق نفسه فى تامور^(١)
قلبه ، وينضم عليها القلب ولا ينفرج حتى يموت ، وتراه إذا ذكر له من يهواه
هرب دمه واستحال لونه . وقال أفلاطون : العشق حركة النفس الفارغة .
وقال أرسطاطاليس : العشق عى الحس عن إدراك عيوب المحبوب . ومن هذا
أخذ جرير قوله :

(١) التامور: دم القلب، وقيل كل دم .

فلست براء عيب ذى الودّ كله ولا بعض مافيه إذا كنت راضيا
فعين الرضى عن كل عيب كليله ولكن عين السخط تبدى المساويا
وقال أرسطو : العشق جهل عارض صادف قلبا فارغا لا شغل له من تجارة
ولا صناعة . وقال غيره : هو سوء اختيار صادف نفسا فارغة .
قال قيس بن اللوح :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا
وقال بعضهم : لم أر حقا أشبه بباطل ، ولا باطلا أشبه بحق من العشق ،
هزله جد ، وجده هزل ، وأوله لعب ، وآخره عطب . وقال الجاحظ : العشق
اسم لما فصل عن المحبة ، كما أن السرف اسم لما جاوز الجود ، والبخل اسم
لما جاوز الاقتصاد ، فكل عشق يسمى حبا ، وليس كل حب يسمى عشقا ،
والحبة جنس والعشق نوع منها . ألا ترى أن كل محبة شوق ، وليس كل
شوق محبة ؟ وقالت فرقة أخرى : العشق هو الاستهيام^(١) والتضرع والأودان
بالمعشوق ، والوجد هو الحب الساكن ، والهوى أن يهوى الشيء فيتبعه غيا
كان أو رشدا ، والحب حرف ينتظم هذه الثلاثة . وقال المأمون ليحيى بن
أكرم : ما العشق ؟ فقال : سوانح تسنح المرء فيهم بها قلبه وتؤثرها نفسه .
فقال له يمامة بن أشرس : اسكت يا يحيى ، إنما عليك أن تجيب فى مسألة
طلاق ، أو تحريم صاد ظليما ، فأما هذه فمن مسائلنا نحن ، فقال له المأمون : قل
يا يمامة : قال : العشق جليس متمتع ، وأليف مؤنس : وصاحب ملك .
مسالكة لطيفة ، ومذاهبه غامضة ، وأحكامه جارية ، ملك الأبدان وأرواحها ،

(١) كذا . والاستهيام : الهيام : وهو جنون العشق .

والقلوب وخواطرها ، والعقول وآراءها ، قد أعطى عنان طاعتها ، وقوة تصرفها
توارى عن الأبصار مدخله ، وعمى في القلوب مسلكه . فقال له المأمرون :
أحسنت يا ثمامة . وأمر له بألف دينار .

وقال بعضهم : قلت لجنون قد أذهب عقله العشق : أجز هذا البيت :
وما الحب إلا شملة قد حث بها عيون الممّا باللحظ بين الجوانح
فقال يديها :

ونار الهوى تخفى وفي القلب فعلها كفعل الذى جاءت به كف قاذح
وقال الأصمى : سألت أعرابياً عن العشق فقال : جل والله عن أن يرى ،
وخفى عن أبصار الورى ، فهو فى الصدور كامن ككُمون الذار فى الحجر ، إن
قدح أورى ، وإن ترك توارى . وقال بعضهم : العشق نوع من الجنون ،
والجنون فنون ، فالعشق فن من فنونه . واحتج بقول قيس^(١) :

قالوا جنت بمن تهوى قلت لهم العشق أعظم مما بالجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما بصرع الجنون فى الحين^(٢)

وقال آخر : إذا امتزجت جواهر النفوس بوصف المشاكاة أنتجت لمح نور
ساطع تستضيء به النفس فى معرفة محاسن المبحشوق فنسلك طريق الوصول إليه .
وقال أعرابى : العشق أعظم مسلكاً فى القلب من الروح فى الجسم ، وأملك
بالنفس من ذاتها ، بطن وظهر فامتنع وصفه عن اللسان ، وخفى نعتة عن البيان
فهو بين السحر والجنون ، لطيف المسلك والكُمون . وقيل : العشق ملك
غشوم^(٣) ، مساط ظلوم ، دانت له القلوب ، وانقادت له الأبواب ، وخضعت

(١) هو قيس بن الملوح المعروف بجنون ليل .

(٢) تقدم هذان البيتان فى صفحة ٤٤

(٣) الغشوم : الذى يحبط الناس ويأخذ كل مافدر عليه .

له النفوس . العقل أسيرُهُ ، والنظرُ رسولُهُ ، واللحظُ لفظُهُ ، دقيقُ المسالكِ ،
عسيرُ المخرجِ . وقيل لآخر : ما تقول في العشق ؟ فقال : إن لم يكن طَرَفًا من
الجنون ، فهو نوعٌ من السحر .

وأما الفلاسفة المشاؤون^(١) فقالوا : هو اتفاق أخلاق ، وتشاكل محبَّاتٍ
وتجانسها ، وشوقُ كُلِّ نفسٍ إلى مُشاكلِها ومجانسها في الخلقة القديمة قبل
إهباطها إلى الأجساد ، قلت : هذا مبنىٌّ على قولهم الفاسد بتقدُّم النفوس على
الأبدان ، وعليه بنى ابنُ سينا قصيدته المشهورة :

* هَبَطَتْ إِلَيْكَ مِنَ الْحُلِّ الْأَرْفَعِ *

وسمعت شيخنا يحكي عن بعض فضلاء المغاربة وهو جمال الدين بن الشريريشي
شارحُ المقامات أنه كان ينكر أن تكون هذه له قال : وهي مخالفة لما قرَّره
في كتبه من أن حدوث النفس الناطقة مع البدن .

وقال آخرون في وصفه : دَقَّ عن الأفهام مَسَاكُهُ ، وَخَفَى عن الأبصار
مَوْضِعُهُ ، وحارت العقول في كيفية تَمَكُّنِهِ ، غير أن ابتداء حركته وعظم سلطانه
من القلب ، ثم يتغشَّى سائرَ الأعضاء فيبدى الرُّعدةَ في الأطراف ، والصفرة في
الألوان ، والضعف في الزَّأْيِ ، واللَّجَلَجَّةَ في الكلام . والزلَّالَ والعثار ، حتى
يُنْسَبَ صاحبه إلى الجنون . وقيل لأبي زهير المديني : ما العشق ؟ قال : الجنون
والذلُّ وهو داء أهل الظَّرف . ونظر عاشقٍ إلى معشوقه فارتعدت فرائضه
وعُشِّيَ عليه ، فقيل لحكيم : ما الذي أصابه ؟ فقال : نظر إلى من يحبه فانفرج
له قلبه فتحرك الجسم بانفراج القلب . فقيل له : نحن نحبُّ أولادنا وأهلنا ولا

(١) المشاؤون : أتباع أرسطو . وقيل : لقبوا به لأنه كان يعلمهم وهم مشاة ،
أو لأن محل التعليم كان يسمى بالمشى . وفي تاج المروس للزبيدي : المشائيون : فرقة
من الحكماء كانوا يمشون في ركاب أفلاطون .

يصيننا ذلك ، فقال : تلك محبة العقل وهذه محبة الروح ، قال :
وما هو إلا أن يراها فُجَاءَةً فتصطك رِجلاه ويسقط للجنب
وقال : العشق ملكٌ مسلطٌ على قهر النفوس وأسر القلوب ، قال الشاعر :
مَلَكَ القلوبَ فأصبحت في أسره وبودّها. أن لا يُفكَّ إيسارُها
وقال أعرابي في وصفه : بالقلب وثبته ، وبالنفوس وجبته (١) ، وبالأحشاء
ناره ، وضائر الأعضاء خدامه ، فالقلب من العاشق ذاهلٌ ، والدمع منه
هامل (٢) . والجسم منه نازل . مرور الليالي تجده ، وإساءة المحبوب لا تنفده .
وقيل : ليس هو موقوفاً على الحسن والجمال ، وإنما هو تشاكل النفوس
وتمازجها في الطباع الخلقة فيها كما قيل :

وما الحبُّ من حُسنٍ ولا من مَلاحةٍ ولكنَّه شئٌ به الروحُ تكلفُ
وقيل : أولُ العشق عَناءٌ ، وأوسطه سُقمٌ ، وآخره قتل . كما قال
ابن الفارض رحمه الله :

هو الحبُّ فاسلمَ بالحشام الموى سَهْلُ فما اختاره مُضَيٌّ به وله عَمَلُ
وعش خالياً فالحبُّ أوله عَنَى (٣) وأوسطه سُقمٌ وآخره قتلُ

(١) وجبته : خفقته واضطرابه .

(٢) هملت العين : فاضت وسالت .

(٣) في الديوان : فالجب راحته عنا . وأوله سقم . . . الخ .

الباب الحادي عشر

في العشق هل هو اضطراري خارج عن الاختيار أو أمر اختياري واختلف
الناس في ذلك وذكر الصواب فيه

فنعول : اختلف الناس في العشق هل هو اختياري أو اضطراري خارج عن
مقدور البشر ؟ فقالت فرقة : هو اضطراري وليس باختيارى ، قالوا : وهو بمنزلة
مجبة الظمان للماء البارد ، والجائع للطعام ، وهذا مما لا يُملك .

قال بعضهم : والله لو كان لى من الأمر شىء ما عذبتُ عاشقاً ، لأن ذنوبَ
العُشَّاق اضطرارية ، فإذا كان هذا قوله فيما تولد عن العشق من فعل اختياري فما
الظن بالعشق نفسه ؟ وقال أبو محمد بن حَزْم : قال رجلٌ لعمر بن الخطاب رضى
الله عنه : يا أمير المؤمنين ، إنى رأيت امرأةً فعشقتها ، فقال عمر : ذلك مما لا يُملك .
وقال كامل فى سَلْمَى :

يلومونى فى حُبِّ سَلْمَى كأنما يرَوْنَ الهوى شيئاً تَمَيَّمتُهُ^(١) عندا
ألا إنما الحبُّ الذى صدَّعَ الحشا قضاءً من الرحمن يَبْلُو به العبدَ

وقال التيمي فى كتاب امتزاج الأرواح : سئل بعض الأطباء عن العشق
فقال : إن وقوعه بأهله ليس باختيارٍ منهم ، ولا بمرصهم عايله ، ولأنه لأكثرهم
فيه ، ولكن وقوعه بهم كوقوع العِلَلِ الدُّنْفَةِ . والأمراض المُتَنَفِّة ، لا فرق
بينه وبين ذلك . وقال للدائنى : لام رجلٌ رجلاً من أهل الهوى فقال : لو
صحَّ لذى هوّى اختياراً لاختار أن لا يهوى . ويدل على ذلك من السنة ما رواه

(١) تيمم الشيء : تعمدته وارتجاه .

البخارى فى صحيحه من قصة بريرة أن زوجها كان يمشى خلفها بعد فراقها له وقد صارت أجنبيةً منه، ودموعه تسيل على خديّه، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يَا عَبَّاسُ أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثِ بَرِيرَةَ وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا ؟ ثُمَّ قَالَ لَهَا : لَوْ رَاجَعْتَنِي ، فَقَالَتْ : أَتَأْمُرُنِي ؟ فَقَالَ إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ ، قَالَتْ : لَأَحَاجَّةٌ لِي فِيهِ . » ولم ينهه عن عشيقها فى هذه الحال ، إذ ذلك شئ لا يملك ولا يدخل تحت الاختيار . وقال جامع :

سألت سعيد بن المسيّب مفتى آل مدينة هل فى حبّ دُهماءٍ من وزر
فقال سعيد بن المسيّب إنما يلام على ما يُستطاع من الأمر^(١)

قالوا : والعشق نوعٌ من العذاب ، والعاقِلُ لا يختار عذاب نفسه ، وفى هذا قال المؤمّل :

شفّ المؤمّل يومَ الحيرة النظرُ لبيت المؤمّل لم يُخلَقْ له بصَرُ
يكفى المحبّين فى الدنيا عذابهم والله لا عدّ بتهنّم بعدها سقرُ
فيقال : إنه سمى بعد هذا . وقال آخر : ليس الهوى إلى أراى قيمته ،
ولا إلى العقل فيذركه ، ثم أنشد :

ليس خطبُ الهوى بخطب يسير لا يُنبئكَ عنه مثلُ خير^(٢)
ليس أمرُ الهوى يُدبّر بالرأى ولا بالقياس والتفكير
إنما الأمرُ فى الهوى خطراتٌ مُخَدِّثاتُ الأمور بعد الأمور
وقال القاضى أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن سلمان النوقاتى^(٣) فى كتابه

(١) تقدم هذان البيتان وفيهما : تلام .

(٢) قيل أنها لعميلة بنت المهدي ؛ حكاه الصولى كما فى تزيين الاشواق .

(٣) نوقات : محلة بسجستان يقال لها : دنوها فمربت .

« محنة الظراف » : العشاقُ معذورون على الأحوال ، إذ العشق إنما دهاهم عن غير اختيار ، بل اعتراهم عن جبر واضطرار ، والمرء إنما يلام على ما يستطيع من الأمور ، لا على المتعصى عليه والمقدور . فقد قيل : إن الحامل كانت ترى يوسف عليه الصلاة والسلام فتضع حملها ، فكيف ترى هذه وضعت ؟ أباختيار كان ذلك أم باضطرار ؟ قال غيره : وهؤلاء النسوة قطعن أيديهن لما بدا لهن حسن يوسف عليه السلام وما تمكّن حبه من قلوبهن ، فكيف لو شفنّ حباً ؟ وكان مصعبُ بنُ الزُّبير إذا رآته المرأة حاضت لحسنه وجهاله . قال فيه الشاعر :

إنما مصعبٌ شهابٌ من الآلهة تجلّت عن وجهه الظلماء

ومن هاهنا أخذ أحمد بن الحسين الكندي المتنبي قوله :

تق الله واسترّ ذا الجمال ببرقعٍ فإن لحّت حاضت في الخدور العواتق^(١)

فإذا كان هذا من مجرد الرؤية فكيف بالحبة التي لا تمكّنك ؟ وقال هشام ابن عروة عن أبيه : مات بالمدينة عاشقٌ فصلّى عليه زيدُ بن ثابت ، فقيل له في ذلك فقال : إني رَحِمْتُهُ . ورؤى أبو السائب الخزومي - وكان من العلم والدين بمكان - متعلّقاً بأستار الكعبة وهو يقول : اللهم أرحم العاشقين وقو قلوبهم واعطف عليهم قلوبَ المعشوقين ، فقيل له في ذلك فقال : والله لكدّعا لهم أفضلُ من عُمرَةٍ من الجمرانة^(٢) ثم أنشد :

يا هجرُ كفّ عن الهوى ودع الهوى للعاشقين يطيبُ يا هجرُ
ماذا تريدُ من الذين جفونهم قرّحى وحشّو قلوبهم ججرُ

(١) في ديوان المتنبي : خف الله . والعواتق : الشابات من النساء .

(٢) الجمرانة : موضع بين مكة والطائف على سبعة أميال من مكة .

مُتَبَلِّلِينَ^(١) من الهوى ألوانهم مما يُبْحِنُّ قلوبهم صُفْرُ
وسوابقُ العَبَرَاتِ فوق خدودهم دررٌ تَقِيضُ كأنها قَطْرُ
وَيُذَكِّرُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّ بِجَارِيَةٍ تَتَخَنَّى:

هَلْ عَلَى وَيْحِكَ إِنْ هَوَيْتُ مِنْ حَرَجٍ
فَتَبَسَّمْ وَقَالَ: «لَا حَرَجَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»^(٢)، قالوا: وفدقنسر كثيرٌ من السَّافِ
قوله تعالى: (رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ)^(٣) بالعشق . وهذا لم يريدوا
به التخصيص ، وإنما أرادوا به التمثيلَ وَأَنَّ العَشْقَ من تحمیل مالا يُطَاق . وللمراد
بالتحمیل هاهنا التحمیلُ القَدَرِيُّ لا الشرعيُّ الأَمْرِيُّ . قالوا: وقد رأينا جماعةً
من العشَّاق يطوفون على مَنْ يدعرونهم أَنْ يعافِيهم الله من العشق ، ولو كان
اختياراً لأزالوه عن نفوسهم . ومن هاهنا يتبيَّن خطأ كثيرٍ من العاذلين ،
وعَذْلُهُمْ في هذه الحال بمنزلة عَذْلِ المريض في مرضة ، قال :

(١) المتبلد : المتردد المتحير الساقط إلى الأرض من الضعف .
(٢) في الرسالة التشيرية جاء : وقدروى أن رجلاً أنشد بين يدي رسول الله
صلى الله عليه وسلم :

أقبلت فلاح لها عارضان كالسبج
أدبرت فقلت لها والفزاد في وهمج
هل على ويحك إن عشقت من حرج
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا . قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري
في شرح الرسالة : هذا حديث موضوع . ويدل قول المؤلف : ويذكر على أنه غير
متأكد من صحة الحديث .

(٣) الآية ٢٨٦ آخر سورة البقرة .

(١٠م - روضة المحبين)

يا عاذلى والأمرُ فى يده هَلَا عَذَلْتَ وفى يدى الأمرُ
وإنما ينبغى العذلُ قبل تعلق هذا الداء بالقلب كما قيل فيه :

يُذَكِّرُنِي حُمِّ وَاَرْمَحُ شَاجِرٍ فَمَا تَزَالُ حُمِّ قَبْلَ التَّقَدُّمِ^(١)

وقالت فرقة أخرى : بل اختيارى تابع لهوى النفس وإرادتها ، بل هو
استحكامُ الهوى الذى مدحَ الله مَنْ نَهَى عَنْهُ نَفْسَهُ فقال تعالى : (وَأَمَّا مَنْ
خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)^(٢)
فبحال أن ينهى الإنسان نفسه عما لا يدخل تحت قدرته .

قالوا : والعشقُ حركةٌ اختياريةٌ للنفس إلى نحو محبوبها ، وليس بمنزلة
الحركات الاضطرابية التى لا تدخل تحت قدرة العبد . قالوا : وقد ذمَّ الله
سبحانه وتعالى أصحابَ المحبة الفاسدة الذين يحبون من دونه أندادا ، ولو كانت
المحبة اضطرابية لما ذموا على ذلك . قالوا : ولأن المحبة إرادة قويّة ، والعبدُ
يُحَمَّدُ وَيُذَمُّ عَلَى إِرَادَتِهِ ، ولهذا يُحَمَّدُ مريدُ الخير وإن لم يفعله ، ويُذَمُّ مريدُ الشرِّ
وإن لم يفعله . وقد ذمَّ الله الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ،
وأخبر أن لهم عذابا أليما . ولو كانت المحبة لا تمليك لم يتوعدهم بالعذاب عَلَى

(١) أى يذكرنى بتلاوة الآية (أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله) وقد اختلف
الرواة فى قائل هذا البيت فبعضهم ينسبه لشريح بن أبى أوفى ، وبعضهم للاشتر
النخعى ، وبعضهم لذيرهما . وهو من أبيات قيلت فى محمد بن طلحة رضى الله عنه
لما طعنه القاتل فذكره القرآن لأن حم على قول قتادة اسم من أسماء
الرقاة .

(٢) الآيتان ٤٠ و ٤١ سورة النازعات

ما لا يدخل تحت قدرتهم . قالوا : والعقلاء قاطبةً مُطِيقُونَ عَلَى لَوْمٍ مِنْ يَحِبُّ
ما يضرُّ بِمَحَبَّتِهِ . وهذا فطرةً فطرَ اللَّهُ عليها الخلقَ ، فلو اعتذرَ بِأَنِّي لَا أملك
قلبي لم يقبلوا له عذراً .

فصل

وفصل النزاع بين الفريقين أن مبادئ العشق وأسبابه اختياريةٌ داخلَةٌ
تحت التكليف ، فإن النظر والتفكير والتعرض للمحنة أسراً اختيارياً ، فإذا
أُتِيَ بالأسباب كان ترتبُ المسبب عليها بغير اختياره كما قيل :

تَوَلَّعَ بِالعشق حتى عَشِقَ فلما استقلَّ به لم يُطِيقْ
رَأَى بِلَجَّةٍ ظَنًّا مَوْجَةً فلما تمكنَ منها غَرِقَ
تَمَنَّى الإِفَالَةَ مِنْ ذَنْبِهِ فلم يستطعها ولم يَسْتَطِيقْ

وهذا بمنزلة السكر من شرب الخمر ، فإن تناول المسكر اختيارى وما يتولد
عنه السكر اضطرارى ، ففى كان السببُ واقعاً باختياره لم يكن معذوراً فيما تولد
عنه بغير اختياره ، ففى كان السببُ محظوراً ، لم يكن السكرانُ معذوراً . ولأرب
أن متابعة النظر واستدامة الفكر بمنزلة شرب المسكر فهو يلام على السبب ،
ولهذا إذا حصل العشق بسببٍ غير محظور لم يُلَمَّ عليه صاحبه ، كمن كان يعشق
امرأته أو جاريته ثم فارقها وبقي عشقها غير مفارقٍ له ، فهذا لا يُلام على ذلك
كما تقدم فى قصة بَرِيرَةَ وَمُغِيثٍ^(١) . وكذلك إذا نظر نظرة فجأة ثم صرف
بصره وقد تمكن العشق من قلبه بغير اختياره ، على أن عليه مُدَافَعَتَهُ وصرفه

(١) انظر الصفحة ١٤٣ .

عن قلبه بضدّه ، فإذا جاء أمره يَغْلِبُهُ فَمِنْكَ لَا يَلَامُ بَعْدَ بَذْلِ الْجَهْدِ فِي دَفْعِهِ . وَمَا
يَبِينُ مَا قَلْنَا أَنْ سَكْرَ الْعَشْقِ أَعْظَمُ مِنْ سَكْرِ الْخمرِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ
عَشَّاقِ الصُّورِ مِنْ قَوْمِ لُوطٍ : (لَعَنَ رَبُّكَ لَأَمِّهِمْ إِنِّي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)^(١)
وَإِذَا كَانَ أَدْنَى السَّكْرَيْنِ لَا يُعْذَرُ صَاحِبُهُ إِذَا تَعَاطَى أَسْبَابَهُ ، فَكَيْفَ يُعْذَرُ
صَاحِبُ السَّكْرِ الْأَقْوَى مَعَ تَعَاطَى أَسْبَابِهِ ؟ وَإِذْ قَدْ وَصَلْنَا إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ
فَلْنَذْكُرْ بِأَبَا فِي سَكْرَةِ الْحُبِّ وَسَبَبِهَا .

(١) الْآيَةُ ٧٢ سُورَةِ الْحَجَرِ .

الباب الثاني عشر

في سكرة العشاء

ولا بدّ قبل الخوض في ذلك من بيان حقيقة السكر وسببه وتولّده فنقول: السكر لذّة يفتيب معها العقل الذي يُعلّم به القولُ ويحصلُ معه التمييز . قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّادَةَ وَأَنْتُمْ سَكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)^(١) فجعل الغاية التي يزول بها حكمُ السكران أن يعلم ما يقول ، فمتى لم يعلم ما يقول فهو في السكر ، وإذا علم ما يقول خرج عن حكمه ، وهذا هو حدُّ السكران عند جمهور أهل العلم .

قيل للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : بماذا يُعلم أنه سكران ؟ فقال : إذا لم يعرف ثوبه من ثوب غيره ، ونعله من نعل غيره . ويُذكر عن الشافعي رحمه الله تعالى أنه قال : إذا اختلط كلامه المنظوم ، وأفشى سرّه المكتوم . وقال محمد بن داود الأصفهاني : إذا عزّبت عنه الهموم ، وباح بسرّه المكتوم ، فالسكر يجمع معنيين : وجود لذّة ، وعدم تمييز ، والذي يقصد السكر قد يقصد أحدهما وقد يقصد كليهما ، فإن النفس لها هوّى وشهواتٌ تلند يادراكها ، والعلم بما في تلك الذات من المفسد العاجلة والآجلة يمنعها من تناولها ، والمنلُ يأمرها بأن لا تفعل ، فإذا زال العقلُ الأمرُ والعلمُ الكاشف انبسطت النفس في هواها ، وصادفت مجالا واسعا .

وحرّم الله سبحانه وتعالى السكر اشقيين ذكرها في كتابه من قوله :

(١) الآية ٤٢ سورة النساء .

(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)^(١) فأخبر الله سبحانه أنه يوجب المفسدة الناشئة من النفس بواسطة زوال العقل ، ويمنع المصلحة التي لا تتم إلا بالعقل .

وقد يكون سبب السكر ألماً كما يكون لذّة . قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)^(٢) وقد يكون سببه قوة الفرح يادرأك المحبوب بحيث يختلط كلامه ، وتتغير أفعاله بحيث يزول عقله ، وربما قتله الفرح بسبب طبيعته وهو انبساط دم القلب انبساطاً خارجاً عن العادة ، والدم حامل الحارّ الغريزي فيبرد القلب بسبب انبساط دمه فيحدث الموت .

وقد جرى هذا لأحمد بن طولون أمير مصر فإنه مرّ بصياد في يوم بارد وعنده بُنى له ، فرق عليهما ، وأمر غلامه أن يدفع إليه ما معه من الذهب ، فصبه في حِجره ومضى ، فاشتدّ فرحه به فلم يحمل ماورد عليه من الفرح ففقد مكانه ، فعاد الأمير من شأنه فوجد الرجل ميتاً والصبي يبكي عند رأسه فقال : من قتله ؟ فقال : مرّ بنا رجلٌ — لاجزاه الله خيراً — فصب في حِجر أبي شيخاً فقتله مكانه ، فقال الأمير : صدق نحن قتلناه . أتاه الغني وهلة

(١) الآية ٩٤ سورة المائدة .

(٢) أول سورة الحج .

واحدة^(١) فَعَجَزَ عن احتمالها فقتله ، ولو أعطيناه ذلك بالتدريج لم يقتله
فخرّض الصبيَّ عَلَى أن يأخذ الذهب فأبى وقال : والله لا أمسك شيئاً
قتلى أبى .

والمقصودُ أن السكرَ يوجب اللذّة ويمنع العلم ، فنه السكرُ بالأطعمة
والأشربة ، فإن صاحبها يحصلُ له لذّةٌ وسرورٌ بها يحمله عَلَى تناولها لأنها
تغيب عنه عقله فتغيب عنه المعلوم والغموم والأحزان تلك الساعة ، ولكن
يُفْلِطُ في ذلك فإنها لا تزول ولكن تتوارى ، فإذا صحا عادت أعظم ما كانت
وأوفره ، فيدعوه عودُها إلى العود كما قال الشاعر :

وكأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتَ مِنْهَا بِهَا
ومن الناس من يقصدها بمنفعة البدن وهو غالط ، فإنه يترتب عليها من
المضرة المتولدة عن السكر ما هو أعظم من تلك المنفعة بكثير ، واللذّة الحاصلةُ
بذكر الله والصلاة عاجلاً وآجلاً أعظم وأبقى وأدفع للهموم والغموم
والأحزان .

وتلك اللذّة أجابُ شيء للهموم والغموم عاجلاً وآجلاً ، ففي لذّة
ذكر الله والإقبال عليه والصلاة بالقلب والبدن من المنفعة الشريفة العظيمة
السالمة عن المفسد الدافعة للمضار غنىً وعوضاً ، للانسان الذى هو إنسانٌ
عن تلك اللذّة الناقصة القاصرة المانعة لما هو أكلٌ منها ، الجالبة للألم
أعظم منها .

(١) وهلة واحدة : أى دفعة واحدة .

فصل

ومن أسباب السكر حبُّ الصَّوَرِ ، فإنه إذا استحكَّ الحبُّ وقوى أسكر الحبَّ ، وأشعارُهم بذلك مشهورة كثيرة ولا سيما إذا اتصل الجماعُ بذلك الحبَّ ، فإن صاحبه ينقص تمييزه أو يعدم في تلك الحالة بحيث لا يميز ، فإن انضاف إلى ذلك السكر سكرُ الشراب بحيث يجتمع عليه سكرُ الهوى وسكرُ الخمر وسكرُ لذة الجماع فذلك غايةُ السكر . ومنه ما يكون سببه حبُّ المال والرئاسة وقوة الغضب ، فإن الغضب إذ قوى أوجب سكرًا يقرب من سكر الخمر .

ويدخل ذلك في الإغلاق الذي أبطل النبي صلى الله عليه وسلم وقوع الطلاق فيه بقوله : « لا طلاقَ في إغلاق » ^(١) رواه أبو داود وقال : أظنه الغضب . وفسره الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى أيضاً بالغضب .

وما يدل على صحة ذلك قوله تعالى : (وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ) ^(٢) قال السلف في تفسيرها : هو الرجل يدعو على نفسه وأهله في وقت الغضب من غير إرادة منه لذلك ، فلو استجاب الله دعاءه لأهلكه وأهلك من دعا عليه ، ولكن لرحمته لما علم أن الحامل له على ذلك سكر الغضب لا يحيب دعاءه .

ومن هذا قول الواجد لراحلته بعد يأسه منها وإيقانه بالهلاك : اللهم أنت

(١) في الجامع الصغير : « لا طلاق ولا عتاق في إغلاق » ، قال : رواه أحمد في مستنده وأبو داود وابن ماجه والحاكم ، وكذلك أورده المؤلف في رسالته : « إغاثة اللفهان في حكم طلاق النضبان » .
(٢) الآية ١١ . سورة يونس .

عبدى وأنا ربك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أخطأ من شدة فرح الفرج »^(١) ولم يكن بذلك كافراً لعدم قصد . وذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك تحقيقاً لشدة الفرح الذى أفضى به إلى ذلك . وإنما كانت هذه الأشياء قد توجب السكر لأن السكر سببه ما يوجب اللذة القاهرة التى تغمر العقل ، وسبب اللذة إدراك المحبوب ، فإذا كانت المحبة قوية وإدراك المحبوب قوياً والعقل ضعيفاً حدث السكر ، لكن ضعف العقل يكون تارة من ضعف المحبة وتارة من قوة السبب الوارد ، ولهذا يحصل من السكر للمبتدئين فى إدراك الرئاسة والمال والعشق والخمر مالا يحصل لمن اعتاد ذلك وتمكن فيه .

فصل

ومن أقوى أسباب السكر الموجبة له سماع الأصوات المطربة من جهتين : من جهة أنها فى نفسها توجب لذة قوية ينغمر معها العقل ، ومن جهة أنها تحرك النفس إلى نحو محبوبها كائناً ما كان ، فيحصل بتلك الحركة الشوق والطلب مع التخيل للمحبيب وإدناء صورته إلى القلب واستيلائها على الفكرة لذة عظيمة تغمر العقل ، فتجتمع لذة الألحان ولذة الأشجان ، ولهذا يقرن المعنيون بهذه اللذات سماع الألحان بالشراب كثيراً لئلا يكمل لهم السكر بالشراب والعشق والصوت المطرب ، فيجدون من لذة الوصال وسكره فى هذه الحال مالا يجدونه بدونها .

فالخمر شراب النفوس ، والألحان شراب الأرواح ، ولا شيئاً إذا اقترن بها من الأقوال ما فيه ذكر المحبوب ووصف حال الحب على مقتضى الحال التى

(١) من حديث رواه مسلم .

هو فيها ، فيجتمع سماعُ الأصوات الطَّيِّبَةِ وإدراكُ المعاني المناسبة ، وذلك أقوى بكثيرٍ من اللذَّة الحاصلة بكل واحدٍ منها على انفراده ، فتستولي اللذَّة على النفس والروح والبدن أتمَّ استيلاء فيحدث غايةُ السكر . فكيف يدَّعي العذرَ مَنْ تعاطى هذه الأسباب ويقول : إن ماتولَّد عنها اضطراريٌّ غيرُ اختياريٍّ وبالله التوفيق .

البَابُ الثَّانِي عَشَرَ

في أنه اللازمة ثابتة للمحببة في السكمان والانعقاد

فكلما قويت المحبة قويت اللذة بإدراك المحبوب ، وهذا الباب من أجل
أبواب الكتاب وأنعمها . ونذكر فيه بيان معرفة اللذة وأقسامها وسرايتها فنقول :
أما اللذة ففسرت بأنها إدراك لللائم كما أن الألم إدراك للمنافي . قال شيخنا :
والصواب أن يقال إدراك لللائم سبب اللذة ، وإدراك للمنافي سبب الألم ،
فاللذة والألم ينشآن عن إدراك لللائم والمنافي ، والإدراك سبب لهما ، واللذة أظهر
من كل ما تعرف به فإنها أمر وجداني ، وإنما تعرف بأسبابها وأحكامها .
واللذة والبهجة والسرور وقرّة العين وطيب النفس والنعيم الفاظٌ مُتقاربة
للمعنى ، وهى أمرٌ مطلوبٌ فى الجملة ، بل ذلك مقصود كلِّ حى ، وذلك أمرٌ
ضرورىٌّ من وجوده ، وذلك فى المقاصد والغايات بمنزلة الحسّ والعلوم البديهية
فى اللبائىء والمقدّمات ، فإن كلِّ حى له علم وإحساس ، وله عمل وإرادة ،
وعلم الإنسان لا يجوز أن يكون كعلم نظريّاً استدلالياً لاستحالة الدور والتسلسل ،
بل لابدّ له من علم أولّه بديهى بيده النفس ويتبدى فيها ، فذلك يُسمى
بديهياً وأولياً ، وهو من نوع ما تُضطرُّ إليه النفس ويُسمى ضرورياً . فإن
النفس تُضطرُّ إلى العلم تارةً وإلى العمل أخرى ، وكذلك العمل الاختيارى
للمرادى له مرادٌ ، فذلك المراد إما أن يُراد لنفسه أو لشيء آخر ، ولا يجوز أن
يكون كلُّ مرادٍ مراداً لغيره حذراً من الدور والتسلسل ، فلا بدّ من مرادٍ
مطلوبٍ محبوبٍ لنفسه ، فإذا حصل المطلوب المراد المحبوب فاقتران اللذة

والنعمة والفرح والسرور وقرّة العين به على قدر قوّة محبته وإرادته والرغبة فيه ، وذلك أمرٌ ذوقِيٌّ وجدِيٌّ ، ولهذا يغلب على أهل الإرادة والعمل من السالكين اسمُ الذوق والوجد لما في وجود المراد المطلوب من الذوق والوجد الموجب للفرح والسرور والنعيم . فهاهنا ثلاثة أنواع من الأسماء متقاربة المعاني ، أحدها : الشهوةُ والإرادةُ والميل والطلب والمحبة والرغبة ونحوها ، الثاني : الذوقُ والوجد والوصولُ والظفر والإدراك والحصولُ والتَّيْلُ ونحوها ، الثالث : اللذةُ والفرح والنعيم والسرور وطيب النفس وقرّة العين ونحوها ، وهذه الأمور الثلاثة متلازمة .

فصل

وإذا كانت اللذة مطلوبيةً لنفسها فهي إنما تَذَمُّ إذا أعقبت ألماً أعظم منها أو منعت لذةً خيراً منها ، ومُتَحَمِّدٌ إذا أعانت على اللذة الدائمة المستقرة وهي لذةُ الدار الآخرة ونعيمها الذي هو أفضلُ نعيمٍ وأجله كما قال الله تعالى : (وَلَا تُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) ^(١) ، وقال تعالى : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) ^(٢) ، وقال تعالى : (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) ^(٣) ، وقال تعالى : (وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) ^(٤) ، وقال العارفون بتفاوت ما بين الأمرين لفرعون ،

(١) الآيتان ٥٦ و ٥٧ . سورة يوسف .

(٢) الآية ٣٠ . سورة النحل .

(٣) الآيتان ١٦ و ١٧ . سورة الأعلى .

(٤) الآية ٦٤ . سورة النكبات .

(فَأَقْضَ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السُّجْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) ^(١) ،
والله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لدار القرار وجعل اللذة كلها بأسرها فيها
كما قال الله تعالى : (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ) ^(٢) ، وقال
تعالى : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) ^(٣) ، وقال النبي صلى
الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ
وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ بَلَّهَ مَا أَطْلَعْتُمْ » ^(٤) « أى غير
ما اطلعتم عليه ، وهذا هو الذى قصده الناصح لقومه الشفيق عليهم حيث قال :
(يَا قَوْمِ أَتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ . يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا
مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) » ^(٥) فأخبرهم أن الدنيا متاعٌ يُتَمَتَّعُ بها
إلى غيرها . والآخرة هى المستقر والغاية .

فصل

وإذا عُرِفَ أَنَّ لَذَاتِ الدُّنْيَا وَنَعِيمَهَا مَتَاعٌ وَوَسِيلَةٌ إِلَى لَذَاتِ الدَّارِ الْآخِرَةِ
وَلَذَلِكَ خُلِقَتْ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعٍ

(١) الآيتان ٧٢ و ٧٣ سورة طه .

(٢) الآية ٧١ سورة الزخرف .

(٣) الآية ١٧ سورة السجدة .

(٤) رواية البخارى ومسلم والترمذى ببعض اختلاف فى الزيادة الأخيرة
وهى لم ترد فى رواية البخارى .

(٥) الآيتان ٣٨ و ٣٩ سورة المؤمن .

الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ» (١) فَكُلُّ لَذَّةٍ أُعَانَتْ عَلَى لَذَاتِ الدَّارِ الْآخِرَةِ فَهِيَ
مَحْبُوبَةٌ مَرْضِيَّةٌ لِلرَّبِّ تَعَالَى ، فَصَاحِبُهَا يَلْتَذُّ بِهَا مِنْ وَجْهَيْنِ : مِنْ جِهَةٍ تَنْعَمُهُ
وَقُرَّةَ عَيْنِهِ بِهَا ، وَمِنْ جِهَةٍ يُصَالِحُهَا لَهُ إِلَى مَرْضَاةِ رَبِّهِ وَإِفْضَائِهَا إِلَى لَذَّةٍ أَكْمَلَ
مِنْهَا ، فَهَذِهِ هِيَ اللَّذَّةُ الَّتِي يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَسْمِيَ فِي تَحْصِيلِهَا ، لَا اللَّذَّةُ الَّتِي تُتَعَبُّهُ
غَايَةُ الْأَلَمِ وَتَقْوَتْ عَلَيْهِ أَعْظَمَ اللَّذَاتِ ، وَلِهَذَا يَثَابُ لِلْمُؤْمِنِ عَلَى كُلِّ مَا يَلْتَذُّ بِهِ
مِنَ الْمُبَاحَاتِ إِذَا قَصَدَ بِهِ الْإِعَانَةَ وَالتَّوَصُّلَ إِلَى لَذَّةِ الْآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا ، فَلَا نِسْبَةَ
بَيْنَ لَذَّةِ صَاحِبِ الزَّوْجَةِ أَوْ الْأَمَةِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي يُحِبُّهَا وَعَيْنُهُ قَدْ قَرَّتْ بِهَا ، فَإِنَّهُ
إِذَا بَاسَرَهَا وَالتَّذُّ قَلْبُهُ وَبَدَنُهُ وَنَفْسُهُ بِوَصَالِهَا أُثِيبَ عَلَى تِلْكَ اللَّذَّةِ فِي مُقَابَلَةٍ
عَقُوبَةٍ صَاحِبِ اللَّذَّةِ الْحَرَمَةِ عَلَى لَذَّتِهِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، «وَفِي
بُضْعٍ أَحَدِكُمْ أَجْرٌ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتُهُ وَيَكُونُ لَهُ
فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ : أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي الْحَرَامِ أَكَانَ عَلَيْهِ وَزْرٌ؟ قَالُوا : نَعَمْ
قَالَ : فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ يَكُونُ لَهُ أَجْرٌ» (٢) .

وَعَلِمَ أَنَّ هَذِهِ اللَّذَّةَ تَتَضَاعَفُ وَتُتَزَايِدُ بِمَحَسَبِ مَا عِنْدَ الْعَبْدِ مِنَ الْإِقْبَالِ
عَلَى اللَّهِ وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لَهُ وَالرَّغْبَةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، فَإِنَّ الشَّهْوَةَ وَالْإِرَادَةَ
الْمُنْقَسِمَةَ فِي الصُّوَرِ اجْتَمَعَتْ لَهُ فِي صُورَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَالْخُوفُ وَالْهَمُّ وَالنَّعْمُ
الَّذِي فِي اللَّذَّةِ الْحَرَمَةِ مَعْدُومٌ فِي لَذَّتِهِ ، فَإِذَا اتَّفَقَ لَهُ مَعَ هَذَا صُورَةٌ جَمِيلَةٌ
وَرَزَقَ حُبَّهَا وَرَزَقَتْ حُبَّهَ وَانْصَرَفَتْ دَوَاعِي شَهْوَتِهِ إِلَيْهَا ، وَقَصُرَتْ بَصَرُهُ عَنْ

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ قَالَ السَّيُوطِيُّ : وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَالنَّسَائِيُّ .

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَسَيَّأَتِي بَعْضُهُ مَعَزُورَاتِيغِيحَهُ لِلنَّسَائِيِّ وَالْبُخَارِيِّ : الْجَمَاعُ أَوْ الْفَرَجُ

نَفْسُهُ وَعَقْدُ الزَّوْاجِ وَهُوَ أَيْضًا يَبْقَى الطَّلَاقُ كَمَا هُوَ .

النظر إلى شواها ونفسه عن التطلُّع إلى غيرها فلا مناسبة بين لذته ولذته صاحب الصورة المحرمة . وهذا أطيب نعيم يُنالُ من الدنيا ، وجعله النبي صلى الله عليه وسلم ثالثَ ثلاثة بها يُنالُ خيرُ الدنيا والآخرة وهي : قلبٌ شاكِر ، ولسانٌ ذاكِر ، وزوجةٌ حسنة إن نظر إليها سرته ، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله ، فالله المستعان .

وقال القاسم بن عبد الرحمن : كان عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقرأ القرآن فإذا فرغ قال : أين العزَّاب ؟ فيقول : ادنوا مني ثم قولوا : اللهم ارزقني امرأة إذا نظرتُ إليها سرتني ، وإذا أمرتها أطاعتني ، وإذا غيبت عنها حفظتني في نفسي ومالي .

والألم والحزنُ والهمُّ والنمُّ ينشأ من عدم العلم بالمحبوب النافع ، أو من عدم إرادته وإيثاره مع العلم به ، أو من عدم إدراكه والظفر به مع محبته وإرادته ، وهذا من أعظم الألم . ولهذا يكون ألم الإنسان في البرزخ^(١) وفي دار الحيوان^(٢) بنوات محبوبه أعظم من ألمه بفواته في الدنيا من ثلاثة أوجه ، أحدها : معرفته هناك بكامل ما فاته ومقداره ، الثاني : شدة حاجته إليه وشوق نفسه إليه مع أنه قد حِيلَ بينه وبينه كمال قال الله تعالى : (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ)^(٣) ، الثالث : حصول ضده المؤلم له . فليتأمل العاقلُ هذا الموضع وليُنزل نفسه منزلة مَنْ قد فاته أعظم محبوبٍ وأنفعه وهو أفقرُ شيءٍ وأحوجُه إليه فواتاً لا يرجي تدارُكُه وحصل على ضده ، فيألم من مصيبةٍ ما أوجعها ، وحالةٍ ما أظلمها ،

(١) البرزخ : الحاجز بين شيئين ، وما بين الموت والبعث ، فمن مات فقد دخل البرزخ . قال تعالى : (ومن وراءهم برزخ إلى يوم يبعثون) .
(٢) دار الحيوان : هي الدار الآخرة .
(٣) آخر آية من سورة سبأ .

فأين هذه الحال من حالة مَنْ يلتذُّ في الدنيا بكل ما يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى من الأكل والشرب واللباس والنكاح وشفاء الغيظ بقهر العدو وجهاد في سبيله، فضلاً عما يلتذُّ به من معرفة ربه وحبه له وتوحيده والإثابة إليه والتوكل عليه والإقبال عليه وإخلاص العمل له والرضا به وعنه ، والتفويض إليه وفرح القلب وسروره بقربه والأنس به والشوق إلى لقائه كما في الحديث الذي صححه ابن حبان والمحاكم : « وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّفَارِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ »^(١) وهذه اللذة لا تزال في الدنيا في زيادة مع تنقيصها بالعدو الباطن من الشيطان والهوى والنفس والدنيا والعدو الظاهر ، فكيف إذا تجرّدت الروح وفارقت دار الأحزان والآفات واتصلت بالرفيق الأعلى (مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا . ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً)^(٢) . فإذا أفضى إلى دار النعيم فهناك من أنواع اللذة والبهجة والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فبؤساً وتمساً للنفوس الوضيعة الدنيئة التي لا يهزها الشوق إلى ذلك طرباً ، ولا تتقد نار إرادتها لذلك رغباً ، ولا تعبد عما يصدُّ عن ذلك رهباً ، فبصائرهما كما قيل :

خَقَافِشُ أَعْشَاهَا النَّهَارُ بِضَوْئِهِ وَلَاءُ مَهْمَا قِطَعَ مِنَ اللَّيْلِ مَظْلَمٌ^(٣)
تَجُولُ حَوْلَ الْحُشِّ ، إِذَا جَالَتِ النَّفُوسُ الْعُلُويَّةُ حَوْلَ الْعَرْشِ ، وَتَنْدَسُ
فِي الْأَحْجَارِ ، إِذَا طَارَتِ النَّفُوسُ الزَّكِيَّةُ إِلَى أَعْلَى الْأَوْكَارِ .

(١) تقدم مطولاً ومعرّواً إلى مسند أحمد في الصفحة ٣٠ .

(٢) الآيتان ٦٨ و ٦٩ . سورة النساء .

(٣) الخفاش : الطوطا ط يبصر في الليل ويمسى في النهار والجمع خفافيش .
ولامها : وافقها . والقطط بالسكسر : ظلمة آخر الليل أو الظلمة منه .

فلم ترَ أشنال الرجال تفاوتوا إلى الفضل حتى عد ألف بواحد

فصل

وكل لذة أعقب ألمًا أو منعت لذةً أكلَ منها فليست بلذةً في الحقيقة وإن غالطت النفس في الالتذاذ بها، فأى لذةٍ لا كل طعام شهى مسموم يقطع أمعاءه عن قريب؟ وهذه هي لذات الكفار والنساء ق بلوهم في الأرض وفسادهم وفرحهم فيها بغير الحق ومرحهم . وذلك مثل لذة الذين اتخذوا من دون الله أولياء يحبونهم كحب الله، فنالوا بهم مودةً بينهم في الحياة الدنيا، ثم استحالت تلك اللذة أعظم ألمٍ وأمره . ومن ذلك لذة العقائد الفاسدة والفرح بها، ولذة غلبة أهل الجور والظلم والعدوان والزنى والسرقة وشرب المسكرات، . وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لم يمكّنهم من ذلك لخير يريد بهم، إنما هو استدراج منه لينالهم به أعظم الألم قال الله تعالى: (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) (١) وقال تعالى: (فَلَا تَعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) (٢) .

فصل

وأما اللذة التي لا تُعقب ألمًا في دار القرار ولا توصل إلى لذةٍ هناك فهي لذة باطلة، إذ لا منفعة فيها ولا مضرة، وزمنها يسير ليس لتمتع النفس بها قدر وهي لابد أن تشغل عما هو خير وأنفع منها في العاجلة والآجلة وإن لم تشغل

(١) الآيتان: ٥٥ و ٥٦ . سورة المؤمنون .

(٢) الآية ٥٦ . سورة التوبة .

غن أصل اللذة في الآخرة وهذا القسم هو الذي عنه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «كُلُّ لَهْوٍ يَلْمُؤُ بِهِ الرَّجُلُ فَهُوَ بَاطِلٌ إِلَّا رَمْيُهُ بِتَوَسُّيِهِ وَتَأْدِيبُهُ قَرَسَهُ وَمُلَاعَبَتُهُ أَهْلَهُ فَإِنَّهُمْ مِنْ الْخَلْقِ»^(١) (رواه مسلم) ولهذا كانت لذة اللعب بالدف في العرس جائزة فإنها تعين على النكاح ، كما تعين لذة الرمي بالقوس وتأديب الفرس على الجهاد ، وكلاهما محبوب لله . فما أعان على حصول محبوبه فهو من الحق ، ولهذا عدم ملاعبة الرجل امرأته من الحق لإعانتها على مقاصد النكاح الذي يحبه الله سبحانه وتعالى ، وما لم يُعِنْ على محبوب الرب تعالى فهو باطل لأفائدة فيه، ولكن إذا لم يكن فيه مضرة راجعة لم يُحَرِّمْ ولم يُنَه عنه، ولكن إذا صد عن ذكر الله وعن الصلاة صار مكروهاً بغيضاً للرب عز وجل مقيتاً عنده إما بأصله وإما بالتجاوز فيه . وكل ما صد عن اللذة المطلوبة فهو وبال على صاحبه ، فإنه لو اشتغل حين مباشرته له بما ينزعه ويَجْلِبُ له اللذة المطلوبة الباقية لكان خيراً له وأنفع .

ولما كانت النفوس الضعيفة كنفوس النساء والصبيان لا تنقاد إلى أسباب اللذة المعظمى إلا بإعطائها شيئاً من لذة اللهو واللعب بحيث لو فطمت عنه كل الطعام طلبت ما هو شر لها منه رخص لها من ذلك فيما لم يرخص فيه لغيرها . وهذا كما دخل عمر بن الخطاب رضى الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده جوار يضرب بالدف فأسكتهم لدخوله وقال « هذا رَجُلٌ لَا يُحِبُّ الْبَاطِلَ »^(٢) فأخبر أن ذلك باطل ولم يمنعه من أن يترتب لمن

(١) غير موجود في صحيح مسلم ، وقال الرافى في تخريج أحاديث الإحياء : رواه أصحاب السنن الأربعة .

(٢) رواه الإمام أحمد في قصة أخرى ليس فيها ذكر الدف والجوارى بل قاله صلى الله عليه وسلم للأسود بن سريع وكان ينشده شعراً .

عليه من المصلحة الراجحة ، وَيَتَرُكُنْ به مفسدة أرجح من مفسدته ، وأيضاً فيحصل لهم من التألم بتركه مفسدة هي أعظم من مفسدته ، فتمكينهم من ذلك من باب الرحمة والشفقة والإحسان ، كما مكن النبي صلى الله عليه وسلم أبا عمير من اللعب بالمصنور بمحضرة^(١) ، ومكن الجاريتين من الغناء بمحضرة^(٢) ، ومكن عائشة رضي الله عنها من النظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد^(٣) ، ومكن تلك المرأة أن تضرب على رأسه بالدف^(٤) ونظائر ذلك . فأين هذا من اتخاذ الشيوخ المشار إليهم المقتدى بهم ذلك ديناً وطريقاً مع التوسع فيه غاية التوسع بما لا ريب في تحريمه ؟ ونظير هذا إعطاء النبي صلى الله عليه وسلم المؤلفة قلوبهم من الزكاة والغنيمة لضعف قلوبهم عن قلوب الراسخين في الإيمان من أصحابه ، ولهذا أعطى هؤلاء ومنع هؤلاء وقال : أَلِكُلُّهُمْ إِلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْغَنَاءِ وَالْخَيْرِ ، ونظير هذا مزاحه صلى الله عليه وسلم مع مزاحه كان يمزح معه من الأعراب والصبيان والنساء تطييباً لقلوبهم ، واستجلاباً لإيمانهم ، وتقريراً لهم . وفي مراسيل الشعبي أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على أصحاب الدركلة فقال : « خذوا يا بني أرفدة^(١) حَتَّى تَعْلَمَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى أَنَّ فِي دِينِنَا فَسْحَةً » (ذكره أبو عبيد وقال : الدركلة : لعبة العجم) فالنبي صلى الله عليه وسلم يذل للنفوس من الأموال والمنافع ما يتألفها به على الحق المأمور به ويكون البذل مما يلتذ به الآخذ ويحببه ، لأن ذلك وسيلة إلى غيره ، ولا يفعل

(١) البخارى ومسلم والترمذى .

(٢) هو فى الصحيحين .

(٣) ربما يشير بذلك إلى إلهاد النساء عند قدوم رسول الله صلى الله عليه قال الحافظ السراق : رواه البيهقي فى دلائل النبوة وليس فيه ذكر للدف والألحان .

(٤) أرفدة : أبو الجبش . والحديث رواه الجرائدى فى اعتدال القلوب وفى الصحاح بلفظ جدوا .

ذلك مع من لا يحتاج إليه كالمهاجرين والأنصار ، بل يبذل لهم أنواعاً أخر من الإحسان إليهم ، والمنافع في دينهم ودنياهم . ولما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ممن لا يجب هذا الباطل ولا سماعه ، ولا يحتاج أن يُتَأَلَّفَ بما يُتَأَلَّفُ به غيره ، وليس مأوراً بما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم من التأليف على الإيمان به ، وطاعته بكل طريق - كان إعراضه عنه كلاً بالنسبة إليه ، وحال النبي صلى الله عليه وسلم أكمل .

فصل

إذا عُرف هذا فاقسام الذات ثلاثة : لذة جُبانِيَّة ، ولذة خيالية وَهْمِيَّة ، ولذة عقلية رُوحَانِيَّة .

فاللذة الجُبانِيَّة لذة الأكل والشرب والجماع ، وهذه اللذة يشترك فيها مع الإنسان الحيوان البهيم ، فليس كمال الإنسان بهذه اللذة لمشاركة أبقص الحيوانات له فيها ، ولأنها لو كانت كلاً لكان أفضل الإنسان وأشرفهم وأكملهم أكثرهم أكلاً وشرباً وجاعاً ، وأيضاً لو كانت كلاً لكان نصيب رسل الله وأنبيائه وأوليائه منها في هذه الدار أكل من نصيب أعدائه . فلما كان الأمر بالضد تبين أنها ليست في نفسها كلاً ، وإنما تكون كلاً إذا تضمنت إعانة على اللذة الدائمة العظمى كما تقدم .

فصل

وأما اللذة الوهمِيَّة الخيالية فلذة الرئاسة والتعاضد على الخلق والفخر والاستطالة إليهم .

وهذه اللذة وإن كان طالِبُها أشرفَ نفوساً من طلاب اللذة الأولى فإن آلامها وما توجبه من المفسد والمضار أعظمُ من التذاذ النفس بها ، فإن صاحبها منتصبٌ لمعاداة كل من تعاظم وترأس عليه . ولهذا شروطٌ وحقوقٌ تفوت على صاحبها كثيراً من لذاته الحسيّة ، ولا يتم إلا بتحمّل مشائى وآلام أعظم منها . فليست هذه فى الحقيقة بلذة وإن فرحت بها النفس وسُرّت بحصولها . وقد قيل : إنه لاحتمية اللذة فى الدنيا وإنما غايتها دفعُ آلام كما يُدفع ألم الجوع والعطش وألم الشهوة بالأكل والشرب والجماع . ولذلك يُدفع ألم الخمول وسقوطُ القدر عند الناس بالرئاسة والجاه . والتحقيقُ أن اللذة أمرٌ وجودى يستلزم دفع الألم بما بينهما من التضاد .

فصل

وأما اللذة العقليةُ الروحانيةُ فهى كلذة المعرفة والعلم والاتصاف بصفات الكمال من الكرم والجود والعفة والشجاعة والصبر والحلم والبرورة وغيرها ، فإن الالتذاذ بذلك من أعظم اللذات ، وهو لذّة النفس الفاضلة العُلوية الشريفة ، فإذا انضمت اللذة بذلك إلى لذّة معرفة الله تعالى ومحبته وعبادته وحده لا شريك له والرضا به عوضاً عن كل شيء ولا يتعوّض بغيره عنه فصاحب هذه اللذة فى جنّة عاجلةٍ نسبتُها إلى لذات الدنيا ، كنسبة لذّة الجنة إلى لذّة الدنيا ، فإنه ليس للقلب والروح ألذُّ ولا أطيبُ ولا أحلى ولا أنعم من محبة الله والإقبال عليه وعبادته وحده وقرّة العين به والأنس بقربه والشوق إلى لقائه وبرؤيته ، وإن مثقال ذرّة من هذه اللذة لا يُعدّل بأمثال الجبال من لذات الدنيا ولذلك كان مثقالُ ذرّةٍ من إيمانٍ بالله ورَسُولِهِ يُخَلِّص من الخلود فى دار الآلام

فكيف بالإيمان الذى يمنع دخولها؟ قال بعض العارفين: مَنْ قَرَّتْ عَيْنُهُ بِاللَّهِ قَرَّتْ بِهِ كُلُّ عَيْنٍ ، وَمَنْ لَمْ تَقَرَّ عَيْنُهُ بِاللَّهِ تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ عَلَى الدُّنْيَا حَسَرَاتٍ ، وَيَكْفَى فِي فَضْلِ هَذِهِ اللَّذَّةِ وَشَرَفِهَا أَنْهَا تُخْرِجُ مِنَ الْقَلْبِ أَلَمَ الْحَسْرَةِ عَلَى مَا يَفُوتُ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَأَلَّمُ بِأَعْظَمِ مَا يَلْتَذُّ بِهِ أَهْلُهَا ، وَيَفِرُّ مِنْهُ فِرَارَهُمْ مِنَ اللَّوْمِ . وَهَذَا مَوْضِعُ الْحَاكِمِ فِيهِ الذَّوْقُ لَا يَجُودُ لِسَانُ الْعَالَمِ . وَكَانَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ يَقُولُ : مَسَاكِينُ أَهْلِ الدُّنْيَا خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَذُوقُوا طَيِّبَ نَعِيمِهَا ، فَيَقَالُ لَهُ : وَمَا هُوَ ؟ فَيَقُولُ : مَحَبَّةُ اللَّهِ وَالْأُنْسُ بِهِ وَالشَّوْقُ إِلَى لِقَائِهِ وَمَعْرِفَةُ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ .

وَقَالَ آخَرُ : أَطْيَبُ مَا فِي الدُّنْيَا مَعْرِفَتُهُ وَمَحَبَّتُهُ ، وَالَّذِي مَاتَ فِي الْآخِرَةِ رُؤْيَاهُ وَسَمَاعُ كَلَامِهِ بِلَا وَاسْطَةٍ .

وَقَالَ آخَرُ : وَاللَّهِ إِنَّهُ لَيَمُرُّ بِالْقَلْبِ أَوْقَاتٌ أَقُولُ فِيهَا : إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ لِنَهْمٍ لِنَى عَيْشٍ طَيِّبٍ . وَأَنْتَ تَرَى مَحَبَّةَ مَنْ فِي مَحَبَّتِهِ عَذَابُ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ كَيْفَ تَوْجِبُ لِمُصَاحِبِهَا لَذَّةً يَتَمَنَّى أَنَّهُ لَا يَفَارِقُهُ حُبُّهُ كَمَا قَالَ شَاعِرُ الْحَمَاسَةِ :

تَشَكَّى الْحَبِيبُ الصَّبَابَةَ لَيَتَنَى تَحْمَلْتُ مَا يَلْتَقُونَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحْدَى^(١)
فَكَانَتْ لِقَابِي لَذَّةُ الْحَبِّ كُلُّهَا فَلَمْ يَلْتَقِهَا قَبْلِي مَحَبَّةٌ وَلَا بَعْدِي

قَالَتْ رَابِعَةٌ : شَغَلُوا قُلُوبَهُمْ بِحُبِّ الدُّنْيَا عَنْ اللَّهِ ، وَلَوْ تَرَكُوهَا لَجَالَتْ فِي الْمَلَكُوتِ ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَيْهِمْ بِطَرَائِفِ الْفَوَائِدِ . وَقَالَ سَلَمُ الْخُلَوَاصِ : تَرَكْتُمُوهُ وَأَقْبَلْتُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَلَوْ أَقْبَلْتُمْ عَلَيْهِ لَأَتَيْتُمُ الْعِبَائِبَ . وَقَالَتْ أَمْرَأَةٌ مِنْ

(١) تقدم هذا البيت في الصفحة ٢٢ .

العابادات: لو طالعت قلوب المؤمنين بفكرها ما دُخِر لها في حُجُب الغيوب من خير الآخرة لم يَصِفْ لها في الدنيا عيش ، ولم تَقَرَّ لها في الدنيا عين . وقال بعض المحبين : إن حُبَّه عز وجل شغل قلوب مُحِبِّيه عن التلذُّذ بمحبة غيره ، فليس لهم في الدنيا مع حبه عز وجل لذة تُداني محبته ، ولا يؤمِّنون في الآخرة من كرامة الثواب أكبر عندهم من النظر إلى وجه محبوبهم . وقال بعض السلف : مامن عبد إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا ، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة ، فإذا أراد الله بعبد خيراً ففتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بهما من اللذة والنعم ما لا خطر له مما وعدَّ به مَنْ لا أصدق منه حديثاً ، وإذا أراد به غير ذلك تركه على ما هو عليه ثم قرأ : (أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)^(١) ولو لم يكن للقلب المشتغل بمحبة غير الله المعرض عن ذكره العقوبة إلا صدؤه وقسوته وتعطيله عما خُلِقَ له لسكفى بذلك عقوبة .

وقد روى عبد العزيز بن أبي رَوَّاد عن نافع عن ابن عمر رضی الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ تَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيدُ ، قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمَا جِلاؤُهَا ؟ قَالَ : « تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ »^(٢) وقال بعض العارفين : إن الحديد إذا لم يُستعمل غَشِيَهُ الصدأ حتى يفسده ، كذلك القلب إذا عَطِلَ من حب الله والشوق إليه وذِكْرِهِ غَايَبَهُ الجَهْلُ حتى يَمِيتَهُ وَيُهْلِكَهُ . وقال رجل للحسن : يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي ، قال : أَذِيبُهُ بِالذِّكْرِ . وأبعدُ القلوب من الله القلب القاسي ، ولا يُذهب قساوته إلا حُبُّ مَتَانٍ ، أو خوفٌ مزعج ، فإن قيل : ما السبب الذي لأجله ياتئذ الحُب بمحبه وإن لم

(١) الآية ٢٤ سورة محمد .

(٢) في شرح الإحياء لم حافظ المراقى قال : رواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف .

يظفر بحميمه ؟ قيل : الحب يوجب حركة النفس وشدة طلبها ، والنفس خلقت متحركة بالطبع كحركة النار ، فالحب حركتها الطبيعية ، فكل من أحب شيئاً من الأشياء وجد في حبه لذة وروحاً ، فإذا خلا عن الحب مطلقاً تعطلت النفس عن حركتها وثقلت وكسبت وفارقتها خفة النشاط. ولهذا تجد السكالي أكثر الناس همّاً وغماً وحزناً ، ليس لهم فرح ولا سرور ، بخلاف أرباب النشاط والجدة في العمل أي عمل كان ، فإن كان النشاط في عملهم عالمون بحسن عواقبه وحلاوة غايته ، كان التذاذهم بحبه ونشاطهم فيه أقوى . وبالله التوفيق .

الباب الرابع عشر

فيمن صدق العشق وتمناه ، وغبط صاحبه علي ما أوتي من مناه

هذا موضع انقسم الناس فيه قسمين ، وربما كان الشخص الواحد فيه مجموع
الحالتين . فقسم مدحوا العشق وتمنّوه ورغبوا فيه ، وزعموا أن من لم يذق
طعمه لم يذق طعم العيش . قالوا : وقد تبين أن كمال اللذة تابع لكمال الحب
فأعظم الناس لذة بالشئ أكثرهم محبة له ، وقد تقدّم تقريره . قالوا : وقد
حبّب الله سبحانه وتعالى إلى رُسُلِهِ وأنبيائه نساءهم وسرايرهم ، فكان آدم
أبو البشر شديد المحبة لحواء ، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه خلق زوجته منه
ليسكن إليها . قالوا : وحبه لها هو الذي حمّله على موافقتها في الأكل من
الشجرة . قالوا : وأول حب كان في هذا العالم سبب آدم لحواء وصار ذلك
سنة في ولده في المحبة بين الزوجين . قالوا : وهذا داود من محبته للنساء جمع
بين مائة امرأة . وكذلك ابنة سليمان . قالوا : وقد عاب اليهود — عليهم لعائن
الله — رسول الله صلى الله عليه وسلم محبة النساء وكثرة تزواجه ، فأنزل الله سبحانه
وتعالى ذبا عن رسوله صلى الله عليه وسلم وإخباراً بأن ذلك من فضله وإنعامه
عليه : (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُنْكَاهَ عِزِّيلَ^(١)) . قالوا : وقد كان عند إبراهيم
خليل الرحمن أبجل النساء سارة ، ثم تسرى بهاجر وكانت المحبة لها . قال سعد
ابن أبي وقاص رضي الله عنه : كان إبراهيم الخليل يحب سرّيته هاجر محبة

(١) الآية ٥٣ . سورة النساء .

شديدة ، وكن يزورها في كل يوم على البراق من الشام من شغفه بها .
قال الخرائطي : حدثنا نصر بن داود ، حدثنا الواقدي ، عن محمد بن صالح ،
عن سعد بن إبراهيم ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه فذكره ، وقد ثبت في
الصحيح من حديث الشعبي عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : بعثني
رسول الله صلى الله عليه وسلم على جيش وفيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ،
فلما رجعت قلت : يا رسول الله ، من أحب الناس إليك ؟ قال : وما تريد ؟
قلت : أحب أن أعلم . قال : عائشة ، قلت : إنما أعني من الرجال ، قال :
أبوها^(١) وذكر مبارك بن فضالة عن علي بن زيد عن عنته عن عائشة ، أن فاطمة
رضي الله عنهم ذكروها عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها : يا بُنَيَّةُ إنها حبيبة
أيك . وأصل الحديث في الصحيح من حديث الليث عن ابن شهاب عن محمد
ابن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها قالت : أرسل أزواج النبي صلى الله
عليه وسلم فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم إليه ، فدخلت وهو مضطجع معي
في مِرْطَى^(٢) ، فقالت : يا رسول الله ، إن أزواجك يسألنك العدل في ابنة
أبي قحافة ، وأنا شاكته ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَلَسْتِ
مُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ ؟ » قالت : بلى ، قال : فَأَجِبِي هَذِهِ^(٣) وثبت في الصحيح من
حديث حماد بن سلمة عن أيوب عن أبي قلابة عن عبد الله بن يزيد عن عائشة
رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَقْسِمُ بين نسائه فيعدل

(١) رواه البخاري ومسلم بنحوه .

(٢) المِرْطَى : كساء من خز أو صوف أو كتان يؤتز به ويتنعم به المرأ
وجمه مروط .

(٣) رواه مسلم والنسائي .

ويقول : « اللَّهُمَّ هَذَا فِعْلِي فِيمَا أَمَلْتُ فَلَا تَلْزِمْنِي فِيمَا تَسَلَّكَ وَلَا أَمَلْتُ »^(١)
يريد صلى الله عليه وسلم أنه يطبق العدل بينهن في النفقة عليهن والقسم بينهن ،
وأما التسوية بينهن في المحبة فليست إليه ولا يملكها .

وقال ابن سيرين : سألت عبيدة^(٢) عن قوله تعالى : (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ
تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ)^(٣) فقال : يعني الحب والجماع .

وقال ابن عباس : لا يستطيع أن يبدل بينهن في الشهوة ولو حرص .

وقال أبو قيس مولى عمرو بن العاص : بعثني عمرو إلى أم سَلَمَةَ فقالت :
سألتها أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل أم لا ؟ فقلت لا
فقل لها إن عائشة رضي الله عنها حدثتنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان
يقبلها وهو صائم ، فسألتها فقالت : لا ، فأخبرنا بما قال عبد الله^(٤) ، فقالت
أم سلمة رضي الله عنها إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى عائشة
رضي الله عنها لم يتأكل عنها ، أما أنا فلا . وقال بيان الشعبي : أتاني رجل
فقال : كل أمهات المؤمنين أحب إلا عائشة ، فقلت : أما أنت فقد خالفت
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانت عائشة رضي الله عنها أحبهن إلى قلبه .

وقال مصعب بن سعد : فرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأمهات
المؤمنين رضي الله عنهن عشرة آلاف عشرة آلاف ، وزاد عائشة ألفين وقال :

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه وجاء في
تفسير الفرطبي ج ٥ « اللهم هذه قسمتي »

(٢) هو عبيدة السلماني كما جاء في تفسير الفرطبي

(٣) الآية ١٢٩ . سورة النساء .

(٤) كذا . ولعل الصواب أبو عبد الله أو عمرو والثابت في صحيح مسلم أنه صلى
الله عليه وسلم كان يقبل أم سلمة وهو صائم .

إنها حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان مسروق إذا حدث عن عائشة رضى الله عنها يقول : حدثتني الصديقَةُ بنت السديق حبيبة رسول رب العالمين المبرأة من فوق سبع سموات . قال أبو محمد بن -زم : وقد أحب من الخلفاء الزائدين والأئمة المهذبين كثير .

قال الخرائطي : واشترى عبد الله بن عمر -بارية رومية فكان يحبها حباً شديداً ، ف وقعت ذات يوم عن بقله له فجعل يمسح التراب عن وجهها ويفديها . وكانت تقول له : أنت قالون ، تمنى جيد ، ثم إنها هربت منه فوجد عليها وجداً شديداً وقال :

قد كنت أحسبني قالون فانسرفت فالיום أعلم أني غير قالون
وقصة مغيب وعشقه بريرة حتى إنه كان يطوف وراءها ودموعه تسيل
على خديه^(١) في الصحيح . وكان عروة بن أذينة شيخ مالك من العلماء
الثقات الصلحاء وقفت عليه امرأة قتالت : أنت الذي يقال له الرجل الصالح
وأنت تقول :

إذا وجدت لهيب الحب في كيدي عمدت نحو سقاء القوم ابتعد
هذا بردت ببرد الماء ظاهره فمن نار على الأحشاء تتقد^(٢)
وكان محمد بن سيرين ينشد :

إذا خدرت رجلى تذكرت من لها فناديت لبني باسمها ودعوت
دعوت التي لو أن نفسي تطيعني لألقيت نفسي نحوها وقضيت^(٣)

(١) تقدمت هذه القصة في الصفحة ١٤٣ .

(٢) تقدم هذان البيتان بتغيير في اللفظ في الصفحة ٤٦ ولم ينسبا إلى قائلهما .

(٣) البيتان لقيس بن ذريح .

وقال صالح عن ابن شهاب : حدثني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن ابن مسعود رضى الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في قريب من ثمانين رجلاً ليس فيهم إلا قرشي ، والله ما رأيت صنعة وجوه قط أحسن من وجوههم يومئذ ، قال : فذكروا النساء فتحدثوا فيهن وتحدثت معهم حتى أحييت أن نسكت ، قالوا : ولولا لئانة الحب ولذته ما تمناه المتنون . وقال شاعر الجاسة :

تَشَكَّى الحَبَّوْنَ الصَّبَابَةَ لِيَنِي تَحَلَّتْ مَا يَلْتَمُونَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحَدَى
فَكَانَتْ لِقَلْبِي لَذَّةُ الْحَبِّ كُلِّهَا فَلَمْ يَلْقَهَا قَبْلِي عَمَبٌ وَلَا بَسْدِي^(١)

قالوا : والعشقُ للبَّاحُ مما يؤجر عليه الماشقُ كما قال شريك بن عبد الله — وقد سئل عن العشاق — فقال : أشدُّهم سبباً أعناهم أجراً . وصدق والله إذا كان المَعشوقُ ممن يحبُّ اللهُ للماشقِ قربةً ووصله . وقالت امرأة :

لَنْ يَقْبَلَ اللَّهُ مِنْ مَعْشُوقَةٍ عَمَلًا يَوْمًا وَمَا شَقَّهَا كَهَفَاكَ مَهْجُورٍ
لَيْسَتْ بِمَأْجُورَةٍ فِي قَتْلِ عَاشِقِهَا لَكِنْ عَاشِقَهَا فِي ذَلِكَ مَأْجُورٌ

ونحن نقول : متى باتت مهاجرة لفراش عاشقها الذي هو بعلها لعنتها الملائكة حتى تصبح . قالوا : والعشقُ يسنى التل ويذهب الهم ويبعث على حسن اللباس وطيب الطعام ومكارم الأخلاق ويعلى اللمعة ويحمل على طيب ارائحة وكرم العشرة وحفظ الأدب والرؤفة ، وهو بلاء الصالحين ومحنة العابدين ، وهو ميزان العقول وجلاء الأذهان ، وهو خاق الكرام كما قيل :

وَمَا أَحْيَيْتُهَا فُحْشًا وَلَكِنْ رَأَيْتُ الْحَبَّ أَخْلَاقَ الْكَرَامِ
قالوا : وأرواحُ العشاقِ عَطَرَةُ لَيْفَةٍ ، وأبدانهم رَقِيقَةٌ ضَعِيفَةٌ ، وأزواجهم

(١) تقدم هذان البيتان في المصنعة ١٦٦ .

بطيئة الاقياد لمن فادها ، حاشا سكنها الذي سكنت إليه ، وعمدت حبها عليه .
وكلامهم ومناديتهم تزيد في القول ، وتحرك النفوس ، وتطرب الأرواح ،
وتلهو بأخبارهم أولو الألباب .

فلحاديث العشاق زينة مجالسهم ، وروح محادثتهم ، ويكفي أن يكون
الأعرابي الذي لا يُذكر مع الملوك ولا مع الشجعان الأبطال يعشق ويشتهر
بالمشق فيذكر في مجالس الملوك والخلفاء ومن دونهم ، وتدوّن أخباره
وتروى أشعاره ، ويبقى له المشق ذكرًا مخلدًا . ولولا العشق لم يُذكر له اسم
ولم يُرفع له رأس .

وقال بعض العقلاء : العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان ، إن تركته
ضرتك ، وإن أكلته كثرت منه قتلك .

وقال ابن عبد البر في كتابه « بهجة المجالس » : وجد في صحيفة لبعض
أهل الهند : العشق ارتياحٌ جُمِل في الروح ، وهو معنى تُنتجُه النجوم في
مطارح شعاعها ، ويتولد في الطباع بوصلة أشكالها ، وتقبّلُه الروح بلطف
جوهرها ، وهو يُعدّ جلاء القلوب ، وصيقل الأذهان ما لم يُفْرِط ، فإذا أفرط
صار سقماً قاتلاً ، ومرَضاً مُنْهَكاً^(١) لا تنفذ فيه الآراء ، ولا تنفع فيه الحيل ،
والعلاج منه زيادة فيه .

وقال أعرابي : هو أنيس النفس ، ومحادث العتل ، يُجِثُّ الضمائر ، وتقدمه
الجوارح . وقال عبد الله بن طاهر أمير خراسان لولده : اعشقوا تظرفوا ، وعشقوا
تشرّفوا . وقال قدامة : وصفه بعض البلغاء فقال : يشجع الجبان ، ويسخّي
الخييل ، ويصقّ ذهن البليد ، ويفصح لسان العيى ، ويبعث حزن العاجز ،

(١) كذا .. والصواب ناهكاً لأن فعله ثلاثي: أي مضنياً .

وَيَذِلُّ لَهُ عِزُّ الْمُلُوكِ ، وَتُضَدَّعُ لَهُ صَوْلَةٌ^(١) الشُّجَاعِ ، وَهُوَ دَاعِيَةُ الْأَدَبِ ، وَأَوَّلُ
بَابٍ تَفْتَقُّ بِهِ الْأُذْهَانُ وَالْبَطْنَ ، وَتُسْتَخْرَجُ بِهِ دَقَائِقُ الْمَسَايِدِ وَالْحِيلِ ، وَإِلَيْهِ
تُسْتَرْوَحُ الْمَهْمُ ، وَتَسْكُنُ نَوَافِرُ الْأَخْلَاقِ وَالشَّيْمِ ، يُمْتَنِعُ جَانِبُهُ ، وَيُؤْنَسُ أَلْفُهُ .
وَلَهُ مَرُورٌ بِحَوْلِ فِي النُّفُوسِ ، وَفَرَحٌ يَسْكُنُ فِي الْقُلُوبِ . وَقِيلَ لِبَعْضِ الرُّسَاءِ :
ابْنُكَ قَدْ عَشِقَ ، فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، الْآنَ رَقَّتْ حِرَاشِيهِ ، وَلَقَلَّغَتْ مَعَانِيهِ ، وَمَلَكَتْ
إِشَارَاتُهُ ، وَظَرُفَتْ حَرَكَاتُهُ ، وَحَسُنَتْ بَهَارَاتُهُ ، وَجَادَتْ رَسَائِلُهُ ، وَجَلَّتْ شِمَائِلُهُ ،
فَوَاطِبَ عَلَى الْمَلِيحِ ، وَاجْتَنِبِ الْقَبِيحِ .

وقيل لآخر ذلك فقال : إِذَا عَشِقَ لَطْفٌ وَظَرُفٌ وَدَقٌّ وَرَوٌّ . وقيل
لبعضهم : متى يكون الفتى بايعاً ؟ قال : إِذَا صُنِّفَ كِتَابًا ، أُرِ وَصِفَ هَوًى أَوْ
حَبِيبًا . وقيل لسعيد بن أسلم : إِنْ ابْنُكَ شَرَعَ فِي الرَّقِيقِ مِنَ الشَّرِّ : فَقَالَ :
دَعُوهُ يَظْرُفُ وَيَنْطَفُ وَيَلْعَافُ . وقال المعباس بن الأحنف :

وَمَا النَّاسُ إِلَّا الْمَاشِقُونَ ذُورَ الْهَوَى وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يُحِبُّ وَيَمُشِقُ
وقال الحسين بن مُمَايِرَ :

إِنْ الْعَوَانِي جَنَّةٌ رِيحَانُهَا نَضِرُ الْحَيَاةَ فَأَيْنَ عَنْهَا تَعْرِفُ^(٢)
لَوْلَا مَلَا حَتَمَنَّا مَا كَانَتْ لَنَا دُنْيَا نَلْدُّ بِهَا وَلَا تَتَصَرَّفُ
وقال غيره :

وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي نَعِيمِهَا وَأَنْتَ وَحِيدٌ مَفْرَدٌ غَيْرُ عَاشِقٍ
وقال آخر :

هَلْ الْمَيْشُ إِلَّا أَنْ تَرُوحَ وَتَعْتَدِي وَأَنْتِ بِكَأْسِ الْعَشِقِ فِي النَّاسِ نَهْوَانُ

(١) الصولة: السطوة في الحرب ونحوها ويقال: هو ذو صولة : مقدم

(٢) عزفت نفسه عن الشيء : انصرفت عنه وزهدت فيه .

وقال المطوى :

مادنتُ بالحب إلا والحب دينُ الكرام

وقال آخر :

نظرتُ إليها نظرةً فمَوَّيَّتها ومن ذالهُ عقلٌ سليمٌ ولا يَهْوِي

وقال آخر :

وما سرَّني أني خلتُ من الهوى ولو أن لي ما بين شرقٍ ومغرب

وقال آخر :

وما تَلَفْتُ إلا من العشقِ مُهْجَتِي وهل طاب عيشٌ لا سرىء غيرِ عاشق

وقال آخر :

ولا خيرٌ في الدنيا بغيرِ صبايةٍ ولا في نعيمٍ ليس فيه حبيبٌ

وقال الكُمَيْت :

ماذاق بُؤْسَ مَمِيشَةٍ ونعيمَها فيما مضى أحدٌ إذا لم يَمَشِقْ

أَلْعَشْقُ فيه حلاوةٌ ومرارةٌ فاسأل بذلك من تطعم أَوْذُوقِ

وقال آخر :

وما طابت الدنيا بغيرِ محبةٍ وأى نعيمٍ لا سرىء غيرِ عاشق

وقال آخر :

أُسْكُنْ إلى سَكَنِ تَلَذُّ بِحَبِّهِ ذهب الزمانُ وأنت خالٍ مفرد

وقال آخر :

إذا أنت لم تَمَشِقْ ولم تَذُرِ ما الهوى فأنت وعيِّدٌ في الفلاةِ سواه

وقال آخر :

إذا أنت لم تَمَشِقْ ولم تَذُرِ ما الهوى فكن حَجَرًا من لابسِ الصخرِ جَلَمَدا

وقال آخر :

إذا أنت لم تَعْشَقْ ولم تَدْرِ ما الموى فقم فاعتلف تَبِنًا فأنت حِمَارُ

وقال آخر :

إذا لم تَذُقْ في هذه الدار صَبَوةً^(١) فموتك فيها والحياةُ سواه

وقال الأقرعُ بنُ مُعَاذٍ :

ولا خيرَ في الدنيا إذا أنت لم تَرُزْ حبيباً ولا وافي إلىك حبيبُ

وقال آخر :

وماذا نَطمَعُ العيش من لم يكن له حبيبٌ إليه يطمئنُ وَيَسْكُنُ
وقال علي بن أبي كثير لابن أبي الزرقاء : هل عشقت قطَّ حتى تكاتب
وتراسل وتواعد ؟ قال : لا ، فقال : لا يبيعُ منك شيء . وكان لبعض الملوك ولدٌ
واحدٌ ساقطُ الهِمَّةِ دنىء النفس فاطر ، فأراد أن يُرَشِّحَهُ لملك فسلط عليه الجوارى
والقيان^(٢) فعشَقَ منهنَّ واحدةً ، فأعلمَ بذلك الملكُ فسرَّ وأرسل إلى المعشوقة
أن تجيئَ عليه وقولن : إني لأُصلِّحُ إلا لملكٍ أو عالم ، فلما قالت له ذلك أخذ في
التعلُّم وما عليه الملوك من أدوات الملك حتى برع في ذلك . وقال للرزبانى : سئل
أبو نُوَافِل هل يسلم أحدٌ من العشق ؟ قال : نعم الجُلْفُ^(٣) الجاني الذي ليس له
فضلٌ ولا عنده فهم ، فأما من في طبعه أدنى ظَرْفٍ أو معه دَمَانَةٌ أهل الحجاز
وظَرْفُ أهل العراف فيبيها . وقال علي بن عبدة : لا يخلو أحدٌ من صَبَوةٍ إلا
أن يكون جاني الخِلْقَةِ ناقصاً أو منقوص الهِمَّة أو على خلاف تركيب الاعتدال .

(١) الصبوة : الشوق والحنين والميل إلى الحبيب .

(٢) جمع قينة : الامة المغنية ، وقيل الامة مغنية كانت أو غير مغنية .

(٣) الجلف : الغليظ الجاني واللاحق .

(١٢م - روضة المحبين)

قالوا: ولا يكمل أحد قط إلا من عشقه لأهل الكمال وتشبه بهم . فالعالم يبلغ في العلم بحسب عشقه له ، وكذلك صانع كل صناعة وحرفة . ويكفي أن العاشق يرتاح الكريم الأخلاق والأفعال والشم لتحمد شمائله عند معشوقه كما قال :

ويرتاح للمعروف في طالب العلى لتحمد يوماً عند ليلى شمائله^(١)
وقال أبو المغضاب : رأيت في الطواف فتى نحيف الجسم بين الضعف يلود ويتعوذ ويقول :

وددت بأن الحب يجمع كله فيقذف في قلبي وينغلق الصدر
فلا ينقضي ما في فؤادي من الهوى ومن فرسى بالحب أو ينقضي العمر

قلت : يافتي ، أما لهذه البديهة^(٢) حرمة تمنعك عن هذا الكلام ؟ فقال : بلى والله ولكن الحب ملأ قلبي بفرح التذكر ، ففاضت الفكرة في سرعة الأوبة^(٣) إلى من لا يشذ عنه معرفة ما بي ، فتمنيت المني . والله ما يسرني ما بقلبي منه ما فيه أمير المؤمنين من الملك ، وإنى أدعو الله أن يثبتني في قلبي عرسى ، ويجعله ضجيجي في قبري ، دريت به أو لم أذر . هذا دعائي أو أنصرف من حبيتي ، ثم بكى ، فقلت : ما يبكيك ؟ قال : خوف أن لا يستجاب دعائي ، وله قصدت وفيه رغبة مما يعطى الله منائر خلقه . ثم مضى . قالت هذه الفرقة ، وغاية ما يقدر في أمر العشق أنه يقتل صاحبه كما هو معروف عند جماعة من العشاق . وقد قال سويد بن سعيد الجدياني حدثنا علي بن مسهر ، عن أبي يحيى القتات ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه

(١) الشمائل جمع شمال : الأخلاق والميل .

(٢) البنية : السكبة المشرفة .

(٣) الأوبة : الرجعة .

وسلم أنه قال : « مَنْ عَشِقَ فَكَتَمَ وَعَفَّ وَصَبَرَ فَاتَ قَهْوُ شَهِيدٍ ^(١) » رواه عن سُوَيْدٍ جَمَاعَةٌ . وقال الخطيب : حدثنا أبو الحسن علي بن أيوب إمامنا منه حدثنا أبو عبد الله المرزباني وابن حَيَّوِيَّةَ وابن شاذان قالوا : حدثنا أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة نِظَاوِيَّةَ قال : دخلت على محمد بن داود الأصبهاني في مرضه الذي مات فيه فقالت له : كيف تجدك ؟ فقال : حبٌّ من تعلم أو رثي ماترى . فقلت : ما منعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه ؟ فقال : الاستمتاع على وجهين : أحدهما النظر للمباح ، والثاني اللذة المحظورة . فأما النظر للمباح فأورثني ماترى ، وأما اللذة المحظورة فإنه منعه منها ما حدثني أبي ، حدثنا سويد بن شعيب ، حدثنا علي بن مسهر ، عن أبي يحيى البَقَّاتِ ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ عَشِقَ وَكَتَمَ وَعَفَّ وَصَبَرَ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ » . قال الحاكم أبو عبد الله : إنما أُلْتَمَجِبَ من هذا الحديث ، فإنه لم يحدث به غير سُوَيْدٍ ، وهو وداود بن علي وابنه أبو بكر ثقات . ثم رواه الخطيب : حدثنا الأزهرى ، حدثنا الممّا في بن زكريا ، حدثنا قُطَيْبَةُ بن الفضل بن إبراهيم الأنصارى ، حدثنا أحمد بن محمد بن مسروق ، حدثنا سُوَيْدٌ ، حدثنا ابن مسهر ، عن هشام بن عُرْوَةَ ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً . ورواه الزُّبَيْرُ بن بَكَّارٍ عن عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون ، عن عبد العزيز بن أبي حازم ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم به . ولفظه : « مَنْ عَشِقَ قَعَفَ فَاتَ قَهْوُ شَهِيدٍ » رواه أبو بكر محمد ابن جعفر بن سهل الخرائطي في كتاب اعتلال القلوب . حدثنا أبو يوسف يعقوب بن عيسى من ولد عبد الرحمن بن عوف ، عن الزُّبَيْرِ فذَكَرَهُ ، فخرج سُوَيْدٌ

عن عُمدة التفرّد به، على أنه لو تفرّد به فهو ثقة، احتجّ به مسلم في صحيحه . وقال عبد الله بن أحمد : قال لي أبي : أكتب عنه حديث ضحّام . وقال البغوي : كان حافظاً وكان أحمد ينتقي لولديه عليه صالح وعبد الله ، فكانا يختلفان إليه . وقال مسلم : ثقة ثقة . وقال أبو حاتم الرازي ويعقوب بن شيبه : هو صدوق . وأكثر ما عيب به التّدليس^(١) وقد صرح هاهنا بالتّحديث ، وعيب بأنه ذهب بصره في آخر عمره ، فربما أدخل عليه هذا الحديث في كتبه ، ولكن رواية الأكاثر عنه هذا الحديث كان قبل ذهاب بصره ، لأنه إنما عمى في آخر عمره ، وليس هذا بقادر في حديثه .

قلت : وهذا حديث باطل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعاً لا يشبه كلامه ، وقد صحّ عنه أنه عدّ الشهداء ستّاً^(٢) فلم يذكر فيهم قتيل العشق شهيداً ولا يمكن أن يكون كلُّ قتيلٍ بالعشق شهيداً فإنه قد يعشق عشقاً يستحقّ عليه العقوبة . وقد أنكر حفاظ الإسلام هذا الحديث على سُويد وقد تكلم الناس فيه ، قال ابن المديني : ليس بشيء والضرير إذا كان عنده كتب فهو عيب شديد . وقال يعقوب بن شيبه : صدوق مضطرب الحفظ ولا سيما بعد ما عمى . وقال البخاري : كان قد عمى فيلقن بما ليس من حديثه . وقال أبو أحمد الجرجاني : هذا الحديث أحد ما أنكر على سُويد ، وأنكره البيهقي وأبو الفضل ابن طاهر وأبو الفرج بن الجوزي وأدخله في كتابه الموضوعات .

ولما رواه أبو بكر الأزرق عن سُويد عاتبه عليه ابن الرّزبان فأسقط ذكر

(١) التّدليس في البيع : كتمان عيب السلعة عن المشتري . وجاء في القاموس المحيط أن التّدليس في الإسناد هو أن يحدث عن الشيخ الأكبر ولعله ما رآه وإنما سمعه من هو دونه أو من سمعه منه ونحو ذلك .

(٢) كذا .. ولعله : ستة

النبي صلى الله عليه وسلم منه . وكان سؤيد إذا سئل عنه لا يرفعه ، وهذا أحسنُ
أحواله أن يكون موقوفاً . ولذلك رواه أبو محمد الحسين القارى من حديث
أبي سعد البقال : عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله . وأما سياق
الخطيب له من حديث هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضى الله عنها فلا
يشكُّ من شَمِّ رَأْمَةِ الحديث أن هذا باطل على هشام عن أبيه عن عائشة ، ولا
يحتمل هذا المتنُ هذا الإسناد بوجه ، والتحاكم في ذلك إلى أهل الحديث لا إلى
العارين الغرباء منه . والظاهر أن ابن مسروق سرقه وغيرَ إسناده . وأما حديث
الزبير بن بكار فن روايه يعقوب بن عيسى وهو ضعيف لا تقوم به حجة قد
ضعفه أهل الحديث ونسبوه إلى الكذب .

الباب الخامس عشر

فيمى ذم العشق وتبرسم به وما المنج به كل فريب على صفة مذهبه

قال الله تعالى إخباراً عن المؤمنين : (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا)^(١) وقد أثنى الله عليهم سبحانه بهذا الدعاء الذى سألوه فيه أن لا يحمّلهم ما لا طاقة لهم به ، وقد فُسر ذلك بالعشق ، وليس المراد اختصاصه به بل المراد أن العشق مالا طاقة للعبد به . وقال مكحول : هو شدة المودة^(٢) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَا يَلْبَغِي لِلرَّءِءِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ »^(٣) . قال الإمام أحمد : تفسيره أن يتعرض من البلاء لما لا يطيق ، وهذا مطابق لحال العاشق ، فإنه أدلّ الناس لمعشوقه ولما يحصل به رضاه ، والحبُّ مبناه على الذل والخضوع لل محبوب كما قيل :

إِخْضَعْ وَذِلَّ إِنْ تَحِبَّ فَلَيْسَ فِي شَرِّهِ الْمَوَى أَنْفُ يُشَالُ وَيُعْقَدُ^(٤)
وقال آخر :

مَسَاكِينُ أَهْلِ الْعَشْقِ حَتَّى قُبُورِهِمْ عَلَيْهِمْ تَرَابُ الذِّلِّ بَيْنَ الْمَقَابِرِ

-
- (١) آخر سورة البقرة . والإصر : التكاليف الشاقة ، سميت إصرّاً لأنها تمنع المكاف وتغرقه عن القيام بما كلفه .
(٢) الذلة : غلبة الشهوة وشدتها .
(٣) فى مسند الامام أحمد (ج ٥ ص ٥٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان بلفظ : « لَا يَلْبَغِي السُّلْمُ .. الخ » .
(٤) شال : إرتفع . وشال ميزان فلان : غلب فى المفاخرة ونحوها .

وقال آخر :

قالوا عهدناك ذا عزّ قُلت لهم لا يعجب الناس من ذلّ المحبين
لا تنكروا ذلّة العشاق إنهم مستعدّون بريق الحبّ راضون
قالوا : وإذا اقتحم العبدُ بحرَ العشق ولعبت به أمواجه فهو إلى الهلاك
أدنى منه إلى السلامة ، كما ذكر الخرائطي أنه كان بالمدينة جاريةً ظريفةً فهويّت
رجلاً من قرشيّ ، وكان لا يفارقها ولا تفارقه قلبها ، وزاد حبّها له فسَمِمت ،
وجعل مولاهم لا يُعَبِّأ بشكواها ولا يرق لها ، حتى هامت على وجهها ومزقت
ثيابها وأفضت^(١) إلى أمرٍ عظيمٍ . فلما رأى ما صارت إليه عاجلها فلم ينفع فيها
العلاج ، وكانت تدور في السكك بالليل وتقول :

الحبُّ أوّل ما يكون للجاجة^(٢) تأتي به وتسوقه الأقدارُ
حتى إذا اقتحم الفتى الجُجج^(٣) الهوى جاءت أمورٌ لا تُطْلَق كِبَارُ
من ذا يُطِيق كما نطيق من الهوى غَلَبَ العزاه وباحت الأسرارُ
قال الخرائطي : وأنشدني بعض أصحابنا :

الحبُّ أوّلُ شيءٍ يهيم به قلبُ المحبِّ فيُنَلِّق الموت كاللَّعِبِ
يكون مبدؤه من نظرةٍ عَرَضَتْ وَمَزَجَةٍ أَشْعَلَتْ في القلب كَاللَّهَبِ
كالنار مبدؤها من قدحةٍ^(٤) فإذا تضرّمت أحرقت مستجمع الحطّابِ

(١) أفضى به إلى كذا : بلغ وانتهى به إليه .

(٢) اللجاجة : التمادي في العناد .

(٣) اللجج جمع لجة : معظم الماء ويقال : لجة الماء ولجة الظلام .

(٤) القدحة بالكسر : اسم لاقتداح النار . وضرمت النار وأضرمتها : أشعلها
وأوقدها وألهبها .

قالوا: وكيف يُمدَح أمرٌ يمنع القرار ، ويسلب المنام ، ويولِّد العقل ،
ويُحدث الجنون ، بل هو نفسه جنون ، كما قال بعض الحكماء: الجنون فنون ،
والعشق فنٌّ من فتونه ، كما قال بعض العشاق :

قالوا جُنِنْتُ بمن تهوى فقلت لهم ألعشق أعظمُ مما بالجائنين
ألعشقُ لا يستفيق الدهرَ صاحبه وإنما يُصرِّع الجنونُ في الحين^(١)

قالوا: وكم من عاشق أٌتلف في معشوقه ماله وعِرْضه ونفسه ، وضيع أهله
ومصالح دينه ودنياه . قال الزُّبَيْرُ بن بكار : جاءت بدويةٌ إلى أُختٍ لها
فقلت : كيف بك من حبِّ فلان ؟ قالت : حرَّك والله حُبُّه الساكنَ ، وسكَّنَ
المتحرِّك ، ثم أنشأت تقول :

فلو أنَّ مابى بالخصى فلقَ الخصى وبارئٍ لم يُسمعْ لهنَّ هُبُوبُ
ولو أنَّى أسْتَغْفِرُ اللهَ كلما ذكرتْكَ لم تُكْتَبْ على ذنوبُ

فقلت : والله لأسأله كيف هو من حبك ، فجاءته فسأله فقال : إنما الهوى
هوانٌ ولكنه خولِفَ باسمه ، وإنما يَعْرِفُ ذلك من استَبَكَّتْهُ المَعَالِمُ والطلول^(٢)
وأنشد أبو الفضل الربيعي :

قد أمطرت عيني دما فدمأؤها بعد الدُّموع من الجفون هَوَامِلُ
كيف العزاه ولا يزال من الضنى في الجسم منى والجوانح نازلُ
كأننى على زَمَنِ مضى تجتازنى فيه صروفُ الدهر وهى عَوَاقِلُ
قالوا : والعشق هو الداء الدوى^(٣) الذى تذوب معه الأرواح ، ولا يقع معه

(١) تقدما في الصفحتين ١٣٩ و ١٤٤ .

(٢) جمع طلال : هو ما بقى شاخصا من آثار الديار ونحوها

(٣) الدوى : الشديد المهلك .

الارتياح ، بل هو بحرٌ مَنْ رَكِبَهُ غَرِقَ ، فإنه لا ساحل له ولا نجاة منه ، وهو الذى قال فيه القائل :

وما أحدٌ فى الناس يُحَمَّدُ أمرُهُ فيوجد إلا وهو فى الحب أحق
وما أحدٌ ما ذاق بُؤْسَ معيشَةٍ فيعشق إلا ذاقها حين يعشق
وقال العباس بن الأحنف :

ويجَ الحبين ما أشقى نفوسَهُم إن كان مثلُ الذى بى بالحبيبتنا
يَشْقَوْنَ فى هذه الدنيا بعشقتهم لا يُرْزَقُونَ به دُنْيَا ولا دِينَا
وقال آخر :

أَلْعَشْقُ مَشْغَلَةٌ عن كل صالحةٍ وَسَكْرَةُ الْعَشْقِ تَنْفِي لَذَّةَ الْوَسَنِ^(١)
وقال محمد بن أبى محمد اليزيدى :

كيف يطيق الناس وصف الهوى وهو جليلٌ ما له قَدْرُ
بل كيف يصفو لحليف الهوى عيشٌ وفيه البينُ والهجرُ
وقال محمد بن أمية :

قرينُ الحب يَأْنَسُ بالهموم وَيُكْثِرُ فِكْرَةَ الْقَلْبِ السَّهْمِ
وأعظمُ ما يكون به اغتباطاً على خَطَرٍ ومُطْلَعٍ عَظِيمِ
وقال أبو تمام :

أما الهوى فهو العذابُ فإن جرت فيه النوى فأليم كلُّ عذاب
وقال ابن أبى حَصِينَةَ .

والعشقُ يُجْتَذِبُ النُفُوسَ إلى الردى بالطبعِ واحْتِدَى لمن لم يعشق

وقال ابن المعتز :

الحب داءٌ عُضالٌ لا دواء له يحار فيه الأطباء النحارير^(١)
قد كنت أحسب أن العاشقين غلوا في وصفه فإذا بالقوم تقصير
وقال أعرابي :

ألا ما الهوى والحب بالشئ هكذا يذل به طوع اللسان فيوصف
ولكنه شئ قضى الله أنه هو الموت أو شئ من الموت أعنف
فأولُه سقمٌ وآخره ضنى وأوسطه شوق يشف^(٢) ويتلف
وروعٌ وتسهيّدٌ وهمٌ وحسرة ووجدٌ على وجدٍ يزيد ويضعف
وقال عبد المحسن الصوري :

ما الحب إلا مسالكٌ خمارٌ عسيرُ النجاة وموطئٌ زلق
وقال آخر :

وكان ابتداءه الذي بي مجونا فلما تمكن أسمى جنونا
وكنت أظن الهوى هيناً فلاقيت منه عذاباً مهيناً
وقالت امرأة :

رأيت الهوى حلوا إذا اجتمع الشملُ ومراً على المهجران لابل هو القتلُ
فمن لم يذق للهجر طعماً فإنه إذا ذاق ملع الحب لم يدّر ما الوصلُ
وقد ذقت طعمه على القرب والنوى فأبعده قتلٌ وأقربه خبيل^(٣)

(١) عضال : شديد أعياء الأطباء . والنحارير جمع نحير : العالم المتقن .

(٢) يشف : يسقم ويضنى .

(٣) الخبيل : فساد العقل .

قالوا : والعشق يترك الملك مملوكا ، والسلطان عبداً ، كما قال الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل وكان ملك الأندلس :

ظلّ من قَرَطٍ حُبّه مملوكا ولقد كان قبل ذلك مليكا
تركتّه جاذِرٌ^(١) القصر صبياً مستهماً على الصعيد تريكا
يجعل الخدّ واضعاً فوق رُبٍ للذي يجعل الحرير أريكا
هكذا يحسن التذلل بالحرّ إذا كان في الهوى مملوكا

وقال الرشيد وقد عشق ثلاث جوارٍ من جواريه سه ويقال : إنه المأمون :-
ملك الثلاث الأنسات عِناني وحلّان من قلبي بكل مكات
مالى تطاوعنى البرية كلُّها وأطيعهنّ وهنّ فى عصيانى
ماذاكَ إلا أن سلطان الهوى وبه قورين أعزّ من سلطانى
وقال بعض الملوك^(٢) فى جارية له عشقها وكانت كثيرة التّجنى عليه :

أما يكفيك أنك تملكينى وأن الناس كلّهم عيىدى
وأنت لو جهِدتِ على تلافى لقلت من الرضا أحسن زىدى
وقال ابن طاهر ملك خراسان :

فانى وإن حنت إليك ضمائرى فاقدرُ حُبّي أن يذلّ له قدرى
وقال ابن الأحمر ملك الأندلس :

أياربه الخدر التى أذهبت نُسكى^(٣) على كل حالٍ أنت لا بُدّ لى منك
فأما بذلّ وهو أليقّ بالهوى وإما بعزّ وهو أليقّ بالملك

(١) جمع جؤذر : البقرة الوحشية .

(٢) هو هارون الرشيد كما سيأتى فى الباب الثامن والعشرين .

(٣) النسك : العبادة .

قالوا : وكم من هرب من الحب إلى مظان التلّف ليتخلّص من التلّف بالتلّف. قال دُعَيْل الشاعر : كنت بالثغر فنودي بالنفير ، فخرجت مع الناس فإذا بفَيْي يَجُرُّ رَحْمَه بين يديّ فالتفت فنظر إلى فقال : أنت دُعَيْل ؟ قلت : نعم ، قال : اسمع مِنِّي ، ثم أنشدني فقال :

أنا في أُمْرِي رِشَادٍ بين غَزْوٍ وَجِهَادٍ
بَدَنِي يَغْزُو عَدُوِّي وَالْبُحْيُ يَغْزُو فُؤَادِي

ثم قال : كيف ترى ؟ قلت : جيد والله ، قال : فوالله ما خرجت إلا هارباً من الحب ، ثم قاتل حتى قتل . وقال أصرم بن حميد :

مَنْ قَوْمٌ تُلِينُنَا الْحَدَقَ النَّجْبِلُ عَلَى أَنَّا نُلِينُ الْحَدِيدَا
طُوعَ أَيْدِي الظُّبَاءِ تَقْتَادُنَا الْعَيْبِينَ وَتَقْتَادُ بِالطَّعَانِ الْأَسُودَا
تَتَّقِي سَخَطَنَا الْيَاسُوتُ وَنُخْشِي صَوْلَةَ الْخَشْفِ حِينَ يَيْدِي الصَّدُودَا^(١)
وَتَرَانَا عِنْدَ الْكُرِيهَةِ أَحْرَا رَأَوْفِي السَّلْمِ لِلْغَوَانِي عَيْبِدَا
قالوا : ورأينا الداخل فيه يتمنى منه الخلاص ، ولات حين مناص ، قال الخرائطي : أنشدني أبو جعفر العبدى :

إِنَّ اللَّهَ نَجَّانِي مِنَ الْحَبِّ لَمْ أَعُدْ إِلَيْهِ وَلَمْ أَقْبَلْ مَقَالََةَ عَاذِلِي
وَمَنْ لِي بِمَنْجَاةٍ مِنَ الْحَبِّ بَعْدَ مَا رَمَتْنِي دَوَاعِي الْحَبِّ بَيْنَ الْحَبَائِلِ
وقال أبو عبيدة : الحبائل الموت ، قال : وأنشدني أبو عبيد الله بن الدولابي :
دَعَوْتُ رَبِّي دَعَاءً فَاسْتَجَابَ لَهُ كَمَا دَعَا رَبَّهُ نُوحٌ وَأَيُّوبُ
أَنْ يَنْزِعَ الدَّاءَ مِنْ صَدْرِي وَيَجْعَلَهُ فِي صَدْرِ سَلَمَى وَحَمَلُ الدَّاءِ تَعْطِيبُ

(١) الصولة : السطوة والقدرة والنهر . الخشف : ولد الظبية أول ما يولد يستوى فيه الذكر والأنثى .

أو يَشْفِ^(١) قلبي سريعاً من حبابه فلا أحن إذا حزن المطَّارِبُ

فالوا: وكم أ كبت فتنة العشق رؤوساً على مناخرها في الجحيم ، وأسلمتهم إلى مقاساة العذاب الأليم ، وجرعتهم بين أطباق النار كنؤوس الجحيم ، وكم أخرجت من شاء الله من العلم والدين ، كحروج الشعرة من العجين ، وكم أزال من نعمة ، وأحلت من نقمة ، وكم أنزلت من معقل عزه عزيزاً فإذا هو من الأذلين ، ووضعت من شريف رفيع القدر والمنصب فإذا هو في أسفل السافلين ، وكم كشفت من عورة ، وأحدثت من روعة ، وأعقت من ألم ، وأحلت من ندم ، وكم أضرمت من نار حسرات أحرقت فيها الأكباد ، وأذهبت قدراً كان للبعد عند الله وفي قلوب العباد ، وكم جابت من جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء ، قل أن يفارقها زوال نعمة ، أو فجأة نقمة ، أو تحويل عافية ، أو طروق بليّة ، أو حدوث رزية ، فلو سألت النعم ما الذي أزالك ؟ والنعم ما الذي أدالك^(٢) ؟ والهموم والأحزان ما الذي جلبك ؟ والعافية ما الذي أبعدك وجنبك ؟ والسّتر ما الذي كشفك ؟ والوجه ما الذي لأذهب نورك وكشفك ؟ والحياة ما الذي كدرك ؟ وشمس الإيمان ما الذي كورك^(٣) ؟ وعزة النفس ما الذي أذلّك ؟ وبالهوان بعد الإكرام بذلك ؟ لأجابتك بلسان الحال اعتباراً ، إن لم تُجِبْ بالمقال حواراً .

هذه والله بعضُ جنایات العشق على أصحابه لو كانوا يعقلون ، (فتاك بيوتهم خاوية بما ظالموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون)^(٤) ويكفي اللبيب

(١) كذا . ولا وجه لحذف الياء إلا للضرورة .

(٢) أدالك : جعل لك القلبة .

(٣) الشمس كورت : أفلت واضمحلت . قال تعالى في سورة التكوين (إذا الشمس كورت) .

(٤) الآية ٥٢ . سورة النمل .

موعظة واستبصاراً ، ماقصه الله سبحانه وتعالى عليه في سورة الأعراف في شأن أصحاب الهوى المذموم تحذيراً واعتباراً ، فبدأ سبحانه وتعالى بهوى إبليس الحامل له على التكبر عن طاعة الله عز وجل في أمره بالسجود لآدم ، فعمله هوى النفس ، وإتجاؤه بها على أن عصي أمره ، وتكبر على طاعته ، فكان من أمره ما كان ، ثم ذكر سبحانه هوى آدم حين رغب في الخلود في الجنة وحمله هواه على أن أكل من الشجرة التي نهى عنها ، وكان الحامل له على ذلك هوى النفس ومحبتها للخلود ، فكان عاقبة ذلك الهوى والشهوة إخراجها منها إلى دار التعب والنصب . وقيل : إنه إنما أكل منها طاعةً لحواء ، فعمله حبه لها أن أطاعها ودخل في هواها ، وإنما توصل إليه عدوه من طريقها ؟ ودخل عليه من بابها . فأول فتنة كانت في هذا العالم بسبب النساء .

ثم ذكر سبحانه فتنة الكفار الذين أشركوا به مالم ينزل به سلطاناً ، وابتدعوا في دينه مالم يشرعه ، وحرّموا زينتة التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، وتعبدوا له بالفواحش وزعموا أنه أمرهم بها ، واتخذوا الشياطين أولياء من دونه ، والحامل لهم على ذلك كله الهوى والحب الفاسد ، وعليه حاربوا رسوله ، وكذبوا كتبه ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم وأهلهم دونه حتى خسروا الدنيا والآخرة . ثم ذكر سبحانه وتعالى قصة قوم نوح وما أصارهم إليه الهوى من العرق في الدنيا ودخول النار في الآخرة . ثم ذكر قصة عاد وما أفضى إليهم بهم الهوى من الهلاك الفظيع والعقوبة المستمرة . ثم قصة قوم صالح كذلك ، ثم قصة المشاققة أئمة الفساق ، وناكحى الذكران وتاركى النسوان ، وكيف أخذهم وهم في خوضهم يلعبون ^(١) وقطع دابرهم

(١) خاضوا في الحديث : تفاوضوا فيه ، ومن المجاز فلان يخوض في الكلام إذا تكلم فيه على غير هدى . وفي سورة الأنعام (ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) أى في باطلهم يتشاغلون .

وهم في سكر عشقهم يعمّون ، وكيف جمع عليهم من العقوبات ما لم يجمعه على أمة من الأمم أجمعين ، ونجعلهم سلفاً لإخوانهم اللوطية من المتقدمين والمتأخرين ، ولما تجرأوا على هذه المعصية ومردوا^(١) ، ونهجوا لإخوانهم طريقاً وقاموا بأمرها وقعدوا، ضجّت الملائكة إلى الله من ذلك ضجيجاً، وعجّت الأرض إلى ربها من هذا الأمر عجيجاً ، وهربت الملائكة إلى أقطار السموات ، وشكّتهم إلى الله جميع الخلوقات ، وهو سبحانه وتعالى قد حكم أنه لا يأخذ الظالمين إلا بعد إقامة الحجة عليهم ، والتقدّم بالوعد والوعيد إليهم ، فأرسل إليهم رسوله الكريم يحذرهم من سوء صنيعهم ، وينذرهم عذابه الأليم ، فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة على رؤوس الملأ منهم والأشهاد ، وصاح بها بين أظهرهم في كل حاضر وباد . وقال فكان في قوله لهم من أعظم الناصحين : (أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ)^(٢) ثم أعاد لهم القول نصحاً وتحذيراً ، وهم في سكرة عشقهم لا يعقلون ، (إِنَّكُمْ كَأْتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ)^(٣) فأجاب المشاق جواباً من أركس في هواه وغيبه فقايله بعشقه مفتون . و (قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)^(٤) فلما أن حان الوقت للمعلوم وجاء ميقات نفوذ القدر المحتوم ، أرسل الرحمن تبارك وتعالى تمام الإنعام والامتحان إلى بيت لوط ملائكة في صورة البشر ، وأجهل ما يكون من السور ، وجاءوه في صورة الأضياف النزول بذى الصدر الرحيب ، (يَسِىءُ بِهِمْ

(١) مرد على الشيء يرد: مرن عليه وتدرّب ومهر فيه، وأكثر ما يستعمل في الأمر .

ومرد الإنسان والشيء طمان فهو وارد : عتاوان دادى الشر وتجرأ فى الآفام، وفى سورة

الروبة (ومن أهل المدينة مردوا على النفاق) .

(٣ ، ٢) الآيتان ٨٠ و ٨١ سورة الاعراف .

(٤) الآية ٥٦ - سورة النمل

وَضَافَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ^(١) وجاء الصريح إلى اللوطية أن لوطاً قد نزل به شباب لم يَنْظُرْ إلى مثل حُسْنِهِمْ وجمالهم الناظرون ، ولا رأى مثليهم الرّاؤون ، فنادى اللوطية بعضهم بعضاً أن هلموا إلى منزل لوط ففيه قضاء الشهوات ، ونيل أكبر اللذات (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ) ^(٢) . فلما دخلوا إليه وهجموا عليه قال لهم وهو كظيم من الهم والنم وقلبه بالحزن عميد : (يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَعْفٍ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ) ^(٣) فلما سمع اللوطية مقالته أجابوه جواب الفاجر المجاهر العنيد : (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ) ^(٤) فقال لهم لوط مقالته المضطهد الوحيد : (لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) ^(٥) . فلما رأت رسل الله ما يقاسي نبيه من اللوطية كشفوا له عن حقيقة الحال وقالوا : هوّن عليك ، (يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْرِحُوا إِلَيْكَ) ^(٦) فسرّ نبي الله سرور الحب وافاه النمرج بغتة على يد الحبيب ، وقيل له : (فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِتَطْعَمٍ مِنَ الْإِيلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا تَكُ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ) ^(٧) ولما أبوا إلا سراودته عن أضيافه ولم يروا حق الجار ضرب جبريل بجناحه على وجوههم فغمس منهم الأعين وأعمى الأبصار ، فخرجوا من عنده غمياً ناكثاً يتحسسون ويقولون : ستعلم غداً ما يحل بك أيها

الجنون . فلما انشقَّ عمودُ الصبح جاء النداء من عند ربِّ الأرباب ، أن اخسف
بالأمة اللوطيَّة وأذِقْهم أليم العذاب ، فاقتلع القوىَّ الأمين جبريلُ مدانهم على
ريشةٍ من جناحه ورفعها في الجوِّ حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم ، وصياح
ديكتهم ثم قلبها فجعل عاليها سافلها وأتبعوا الحجارة من سجِّل وهو الطين
المستحجر الشديد ، وخوف سبجانه إخوانهم على لسان رسوله من
هذا الوعيد ، فقال تعالى : (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةٍ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ
بَبَعِيدٍ)^(١) فهذه عاقبة اللوطيَّة عُشَّاقِ الصُّور وهم السلف وإخوانهم بعدم
على الأثر .

وإن لم يكونوا قوم لوطٍ بعينهم	فما قوم لوطٍ منهم يبيد
وإنهم في الخسف ينظرونهم	على موردٍ من مهلةٍ وصيد
يقولون لا أهلاً ولا مرحباً بكم	ألم يتقدّم ربكم بوعيد
قبلوا بلى لكنكم قد سننتم	صراطاً لنا في العشق غير حميد
أتينا به الذُّكر أن من عشقنا لهم	فأوردنا ذا العشق شرّاً ورود
فأنتم بتضعيف العذاب أحق من	متابعكم في ذاك غير رشيد
فقالوا وأنتم زُسلكم أنذرتكم	بما قد لقيناه بصدقٍ وعيد
فما لكم فضلٌ علينا فكلنا	نذوق عذاب الهون ^(٢) جدّاً شديد
كما كلنا قد ذاق لذةً وصلهم	وجمعنا في النار غير بعيد

وكذلك قوم شعيبٍ إنما حملهم على بخس المكيال والميزان فرط محبتهم
للنال ، وغلبهم الهوى على طاعة نبيهم حتى أصابهم العذاب .

(١) الآيتان ٨٢ ، ٨٣ . سورة هود . ومسومة : معلقة بعلامة .

(١) الهون : الخزي . قال تعالى : (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون)
أي ذى الخزي . (١٣ م — روضة المحبين)

وكذلك قوم فبرعن حملهم الهوى والشهوة وعشقُ الرئاسة على تكذيب موسى حتى آل بهم الأمرُ إلى ما آل . وكذلك أهلُ السبت الذين مُسخوا قردةً إنما أتوا من جهة محبة الحيطان وشهوة أكلها والحرص عليها . وكذلك الذى آتاه الربُّ تبارك وتعالى آياته (فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)^(١) وقال تعالى : (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَسَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ)^(٢) وتأمل قوله تعالى : (آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا) فأخبر أن ذلك إنما حصل له بإيتاء الرب له لا بتحصيله هو . ثم قال : (فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا) ولم يقل فسلخناه بل أضاف الانسلاخ إليه وعبر عن براءته منها بلفظة الانسلاخ الدالة على تخاذه عنها بالكلية ، وهذا شأنُ الكافر . وأما المؤمن ولو عصى الله تبارك وتعالى ما عصاه فإنه لا ينسلخ من الإيمان بالكلية ، ثم قال : (فَأَتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ) ولم يقل فتبعه . فإن في أتبعه إعلاماً بأنه أدركه ولحقه ، كما قال الله تعالى : (فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ)^(٣) أى لحقوهم ووصلوا إليهم ثم قال : (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا) فى ذلك دليل على أن مجرد العلم لا يرفع صاحبه ، فهذا قد أخبر الله سبحانه أنه آتاه آياته ولم يرفعه بها ، فالرفعة بالعلم قدر زائد على مجرد تعلمه ، ثم أخبر الله عز وجل عن السبب الذى منعه أن يُرفع بها ، فقال : (وَلَسَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) . وقوله : (أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ) أى سكن إليها ونزل بطبعه إليها ، فكانت نفسه أرضية سفلية لاسماوية علوية ، وبحسب ما يُخلد العبد إلى الأرض يهبط من السماء ، قال سهل : قسم الله الأعضاء من الهوى ، لكل عضوٍ منه حظاً . فإذا مال عضوٌ

(٢١١) الآيتان ١٧٤ و ١٧٥ سورة الاعراف .

(٣) الآية ٦٠ : سورة البقرة

منها إلى الهوى رجع ضرره إلى القلب . وللنفس سبع حُجُب سَمَويّة وُسُبع^(١) حُجُب أَرْضِيّة ، فكُلما دُفِن العبدُ نَفْسَهُ أَرْضاً أَرْضاً سَمَواً سَمَواً ، فإذا دُفِن النفسَ تَحْتَ الثرى ، وَصَلَ القلبُ إِلَى العرش . ثم ذَكَرَ سُبْحانَهُ مَثَلَ المَتَّبِيعِ لِهَوَاهِ كَمَثَلِ السَّكَلَبِ الَّذِي لَا يَفَارِقُهُ اللَّهْثُ فِي حَالَتَيْ تَرْكِهِ وَالْحَمْلِ عَلَيْهِ ، فَهَكَذَا هَذَا لَا يَفَارِقُهُ اللَّهْثُ عَلَى الدُّنْيَا رَاغِباً وَرَاهِباً .

والمقصودُ أن هذه السورة من أولها إلى آخرها في ذكر حال أهل الهوى والشهوات وما آل إليه أمرهم ، فالعشقُ والهوى أصلُ كُلِّ بَلِيّة . قال عَدِيُّ ابن ثابت : كان في زمن بني إسرائيل راهبٌ يعبد الله حتى كان يؤتى بالجنائين يُعوّذهم^(٢) فيبرأون على يديه ، وإنه أتى بامرأة ذاتِ شرفٍ من قومها قد جُنَّتْ ، وكان لها إخوةٌ فأَتَوْهُ بِهَا فلم يزل الشيطانُ يزين له حتى وقعَ عليها فحملت ، فلما استبانَ حَمْلُهَا لم يزل يخوفه ويزين له قتلها حتى قتلها ودفنها ، فذهب الشيطانُ في صورة رجل حتى أتى بعض إخوتها فأخبره بالذي فعل الراهب ، ثم أتى بقية إخوتها رجلاً رجلاً ، فجعل الرجلُ يلقي أخاه فيقول : والله لقد أتاني آتٍ فذكر لي شيئاً كبيراً على ذكره فذكر ذلك بعضهم لبعض حتى رفعوا ذلك إلى ملكهم ، فسار الناس إليه حتى استزلوه من صومعته فأقرّ لهم بالذي فعل ، فأمر به فصلب ، فلما رُفِعَ عَلَى الخَشَبَةِ تَمَثَّلَ لَهُ الشيطانُ فقال : أنا الذي زينْتُ لك هذا وألقيتك فيه ، فهل أنت مُطِيعِي فيما أقول لك وأُخْلِصُكَ ؟ قال :

(١) كذا .. بتذكير العدد والاشهر تأنيثه .

(٢) يعوذهم : يرقمهم ، وعوذه تعويذاً وأعاده إعادة : دعا له بالحفظ ورقاه .

والمعوذة : الرقية يرقى بها الإنسان من فزع أو جنون لأنه يعاذ بها ، وهي التي تكتب وتعلق على الإنسان من المين والفزع والجنون .

نعم ، قال : تسجدلى سجدة واحدة ، فسجدله وقتل الرجل ، فهو قول الله تعالى :
(كَسَلَ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)^(١) .

وقال واصل مولى أبي عيينة : دخلت على محمد بن سيرين فقال لي : هل
تزوجت ؟ فقلت : لا ، قال : وما يمنعك ؟ قلت : قلة الشيء ، قال : تزوج
عبد الله بن محمد بن سيرين ولا شيء له فرزقه الله .

ثم حدث أن امرأة من بنى إسرائيل يقال لها ميسونة خاضت إلى حبرين^(٢)
من بنى إسرائيل فعلقاها قال : وكان كل واحد منهما يكتم صاحبة ما يجذ منها ،
فأخبرا أنها في حائط^(٣) تغسل ، قال : فجاءا فتسورا عليها الحائط . فلما رأتهما
دخلت غمرأ^(٤) من الماء فوارت نفسها ، فقالا لها : إنك إن لم تفعلى غدونا فثمدنا
عايك بالزور ، فأبت فشهدا عليها . فلما قربت ليقام عليها الحد نزل الوحي على
دانيال بتكذيبهما ، فهذا بعض فتنة العشق .

وقد روى شعبة عن عبد الملك بن عمير قال : سمعت مصعب بن سعد
يقول : كان سعد يعلمنا هذا الدعاء ويذكره عن النبي صلى الله عليه وسلم :

(١) الآية ١٦ . سورة الحشر .

(٢) الخبر بالفتح والكسر : واحد أخبار اليهود . وهو أيضاً المالم ، وقيل
المالغ من العلماء .

(٣) الحائط : البستان .

(٤) الغمر : الماء الكثير .

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّسَاءِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ »^(١) .

وقال الحسن بن عرفة : حدثنا أبو معاوية الضرير عن ليث ، عن طاوس ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إنه لم يكن كفرٌ من مضى إلا من قبل النساء وهو كفر من بقي أيضا .

وقد روى سفيلان بن عيينة ، عن سليمان التيمي ، عن أبي عثمان النهدي ، عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا تَرَكَتُ عَلَى أُمَّتِي بَعْدِي أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ »^(٢) .

وروى أبو إسحاق ، عن هبيرة بن يريم ، عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي أَنْ تُحْمَرُ وَالنِّسَاءُ »^(٣) . وقال علي بن حرب : حدثنا سفيلان ابن عيينة ، عن علي بن زيد ، عن سعيد بن المسيب قال : « مَا أَيْسَ الشَّيْطَانُ مِنْ أَحَدٍ قَطُّ إِلَّا أَنَّهُ مِنْ قَبْلِ النِّسَاءِ » .

وروى سفيلان بن حسين ، عن يعلى بن مسلم ، عن سعيد بن جبيرة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « قِيلَ لَأَدَمَ مَا حَلَّكَ عَلَى أَكْلِ الشَّجَرَةِ ؟ قَالِ : يَا رَبِّ زَيَّنْتَ لِي حَوَاءَ ، قَالَ : فَإِنِ قَدْ عَاقَبْتُهَا لَا تَحْمِلُ إِلَّا كَرَهَا ، وَلَا تَضَعُ إِلَّا كَرَهَا ، وَأَدَمِيَّتُهَا فِي الشَّهْرِ مَرَّتَيْنِ » .

(١) رَوَاهُ الْخَرَائِطِيُّ فِي اعْتِلَالِ الْقُلُوبِ . كَمَا قَالَ السَّيْوِيُّ .

(٢) تَقْدِمُ تَخْرِيجِهِ فِي الصَّفْحَةِ ٩٦ .

(٣) تَقْدِمُ تَخْرِيجِهِ فِي الصَّفْحَةِ ٩٦ .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما — أو غيره — : « أول فتنة بنى إسرائيل كانت من قبل النساء » .

قالوا : ويكفى . من مضرّة العشق ما اشتهر من مصارع العشاق ، وذلك موجود في كل زمان .

فهذا بعض ما احتجّت به هذه الفرقة لقولها . ونحن نعتقد للحكم بين الطائفتين باباً مستقلاًّ بعون الله تعالى .

الباب السادس عشر

فى الحكم بين المرفقين . وفصل المراع بين الطائفتين

فنعول : العشق لا يُحمد مطلقاً ولا يُذمّ مطلقاً، وإنما يُحمد ويُذمّ باعتبار متعلّقه ، فإن الإرادة تابعة لمرادها ، والحبّ تابعٌ للمحسوب ، ففى كاف المحبوب مما يُحبّ لذاته أو وسيلةً توصّله إلى ما يُحبّ لذاته، لم تُذمّ المبالغة فى محبته بل تمحمد . وصلاخُ حال الحبّ كذلك بحسب قوّة محبته .

ولهذا كان أعظم صلاح العبد أن يصرف قوى حبه كلّها لله تعالى وحده بحيث يحبّ الله بكلّ قلبه وروحه وجوارحه ، فيؤخّذ محبوه ويؤخّذ حبه ، وسياقى إن شاء الله تعالى فى باب توحيد المحبوب أن المحبة لا تصحّ إلا بذلك ، فتوحيد المحبوب أن لا يتعدّد محبوبة^(١) ، وتوحيد الحبّ أن لا يبقى فى قلبه بقية حبّ حتى يبذلها له ، فهذا الحبّ وإن سى عشقاً فهو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرّة عينه ، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواها ، وأن تكون محبته لغير الله تابعة لمحبة الله ، فلا يجب إلا الله ، كما فى الحديث الصحيح : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَمَنْ كَانَ يُحِبُّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي السُّكْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُبْلَى فِي النَّارِ »^(٢) فأخبر أن

(١) الضمير هنا عائد على محذوف وهو المحب .

(٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى . كما جاء فى تفسير الوصول .

العبد لا يجد حلاوة الإيمان إلا بأن يكون الله أحب إليه مما سواه ، ومحبة رسول الله هي من محبته ، ومحبة المرء إن كانت لله فهي من محبة الله ، وإن كانت لغير الله فهي منقصة لمحبة الله مُضَعِفة لها ، وتصدق هذه المحبة بأن يكون كراهته لأبغض الأشياء إلى محبوبه وهو الكفر بمنزلة كراهته لإلقائه في النار أو أشد . ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة ، فإن الإنسان لا يقدم على محبة نفسه وحياته شيئاً ، فإذا قدم محبة الإيمان بالله على نفسه بحيث لو خيّر بين الكفر وإلقائه في النار لاختار أن يلقي في النار ولا يكفر كان الله أحب إليه من نفسه ، وهذه المحبة هي فوق ما يمدده سائر المشاق والحبين من محبة محبوبهم ، بل لا نظير لهذه المحبة كما لا مثل لمن تعلقت به وهي محبة تقتضي تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد ، وتقتضي كمال الذل والخضوع والتعظيم والإجلال والطاعة والالتقياد ظاهراً وباطناً ، وهذا لا نظير له في محبة مخلوق ولو كان المخلوق من كان .

ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره في هذه المحبة الخاصة كان مشركاً شركاً لا يفترقه الله كما قال الله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ)^(١) والصحيح أن معنى الآية والذين آمنوا أشد حبا لله من أهل الأنداد لأنادهم كما تقدم بيانه أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلاً ، كما لا يماثل محبوبهم غيره . وكل أذى في محبة غيره فهو نعيم في محبته ، وكل مكروه في محبة غيره فهو قرّة عين في محبته .

ومن ضرب لمحبة الأمثال التي هي في محبة المخلوق للمخلوق كالوصل والهجر والتجنى بلا سبب من الحب وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه علواً كبيراً فهو مخطئ ، أقبح الخطأ وأفحشه ، وهو حقيق بالإبعاد والمقت . والآفة إنما هي من

(١) الآية ١٦٥ . سورة البقرة .

نفسه وقلة أدبه مع محبوبه ، والله تعالى نهى أن يضرب عباده له الأمثال فهو لا يقاس بخلقه . وما ابتدع من ابتدع إلا من ضرب الأمثال له سبحانه . فأصحاب الكلام المحدث المبتدع ضربوا له الأمثال الباطلة في الخير عنه وما يوصف به ، وأصحاب الإرادة المنحرفة ضربوا له الأمثال في الإرادة والطلب . وكلاهما على بدعة وخطأ .

والعشق إذا تعاقب بما يحبه الله ورسوله كان عشقاً ممدوحاً مثاباً عليه . وذلك أنواع : أحدها محبة القرآن بحيث يغني بسماعه عن سماع غيره ، ويهيم قلبه في معانيه ومراد المتكلم سبحانه منه ، وعلى قدر محبة الله تكون محبة كلامه ، فمن أحب محبوباً أحب حديثه والحديث عنه كما قيل :

إن كنت تزعم حبي فلم هجرت كتابي
أما تأملت ما فيه من لذيذ خطابي

وكذلك محبة ذكره سبحانه وتعالى من علامة محبته ، فإن الحب لا يشبع من ذكر محبوبه ، بل لا ينساه فيحتاج إلى من يذكره به . وكذلك يحب سماع أوصافه وأفعاله وأحكامه ، فعشق هذا كله من أنفع العشق ، وهو غاية سعادة العاشق ، وكذلك عشق العلم النافع ، وعشق أوصاف الكمال من الكرم والجود والعفة والشجاعة والصبر ومكارم الأخلاق ، فإن هذه الصفات لو صوّرت صوراً لكانت من أجمل الصور وأبهّاها ، ولو صوّر العلم صورة لكانت أجمل من صورة الشمس والقمر ، ولكن عشق هذه الصفات إنما يناسب الأنفس الشريفة الزكية ، كما أن محبة الله ورسوله وكلامه ودينه إنما تناسب الأرواح العلوية ، السامية الزكية ، لا الأرواح الأرضية الدنية ، فإذا أردت أن تعرف قيمة العبد وقدره فانظر إلى محبوبه ومراده . واعلم أن العشق المحمود لا يعرض فيه شيء من الآفات المذكورة .

بقي هاهنا قسم آخر ، وهو عشق محمود يترتب عليه مفارقة المعشوق ، كن
 يعشق امرأته أو أمته فيفارقها بموت أو غيره فيذهب المعشوق ويبقى العشق كما
 هو ، فهذا نوع من الابتلاء إن صبر صاحبه واحتسب نال ثواب الصابرين ،
 وإن سخط وجزع فاته معشوقه وثوابه ، وإن قابل هذه البلوى بالرضا والتسليم
 فدرجته فوق درجة الصبر . وأعلى من ذلك أن يقابلها بالشكر نظراً إلى حسن
 اختيار الله له ، فإنه ما يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له ، فإذا علم أن
 هذا القضاء خير له اقتضى ذلك شكره لله على ذلك الخير الذي قضاه له ، وإن لم
 يعلم كونه خيراً له فليسلم للصادق المصدق في خبره المؤكد باليمين حيث يقول :
 « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَقْضِي اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ قَضَاءٍ إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ
 إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ
 خَيْرًا لَهُ وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُ مُؤْمِنٌ » ^(١) . وإيمان العبد يأمره بأن يعتقد بأن
 ذلك القضاء خير له ، وذلك يقتضى شكر من قضاه وقدّره وبالله التوفيق :

(١) رواه مسلم والامام أحمد بدين قسم .

الباب السابع عشر

في استجاب نحر الصور الجميلة للوصال الذي يحبه الله ورسوله

قال الله تعالى تعالى عقيب ذكره ما أحلَّ لعباده من الزوجات والإماء وما حرَّم عليهم : (يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا . يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخِاقَ الْإِنْسَانِ ضَعِيفًا)^(١) أي لا يصبر عن النساء ، كما ذكر الثوري عن ابن طاووس عن أبيه (وخلق الإنسان ضعيفًا) . قال : إذا نظر إلى النساء لم يصبر ، وكذلك قال غير واحد من السلف . ولما كانت الشهوة في هذا الباب غالبية لا بدَّ أن توجب ما يوجب التوبة ، كرَّر سبحانه وتعالى ذكر التوبة مرتين ، فأخبر أنَّ مُتَّبِعِي الشهوات يريدون من عباده أن يميلوا مَيْلًا عَظِيمًا ، وأخبر سبحانه وتعالى أنه يريد التخفيف عنكم لضعفنا ، فأباح لنا أن ننكح ما طاب لنا من أطايب النساء أربعا ، وأن نتسرَّى من الإماء بما شئنا .

ولما كان العبد له في هذا الباب ثلاثة أحوال : حالة جهلٍ بما يحلُّ له ويحرُّم عليه ، وحالة تقصير وتفريط ، وحالة ضعفٍ وقلة صبر ، قابل سبحانه جهل عبده بالبيان والهدى ، وتقصيره وتفريطه بالتوبة ، وضعفه وقلة صبره بالتخفيف .

(١) الآيات ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ . سورة النساء .

وقال عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه : حدثنا أبو معمر ، حدثنا يوسف بن عطية ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ وَحُبِّ إِلَى النِّسَاءِ وَالطَّيِّبِ . الْجَانِعُ يَشْبَعُ وَالظَّمْآنُ يَرْوَى وَأَنَا لَا أَشْبَعُ مِنْ حُبِّ الصَّلَاةِ وَالنِّسَاءِ . وأصله في صحيح مسلم بدون هذه الزيادة^(١) .

وفي صحيح مسلم من حديث عُرْوَةَ عن عائشة رضى الله عنها قالت^(٢) : « لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بنى المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار في السهم لثابت بن قيس بن الشَّامِ أُولَ ابْنِ عَمِّ لَه ، فكَاتَبَتْ عَلَى نَفْسِهَا ، وَكَانَتْ امْرَأَةً جَمِيلَةً حُلُوءَةً لَا يَرَاهَا أَحَدٌ إِلَّا أَخَذَتْ بِنَفْسِهَا ، فَأَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْتَعِينُهُ عَلَى كِتَابَتِهَا^(٣) . قالت : فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُهَا عَلَى بَابِ الْحِجْرَةِ فَكَرِهْتُهَا ، وَعَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرَى مِنْهَا مَا رَأَيْتُ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنَا جَوِيرِيَّةُ بِنْتِ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي ضِرَّارٍ سَيِّدِ قَوْمِهِ . وَقَدْ أَصَابَنِي مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَمْ يَخَفْ عَلَيْكَ ، فَوَقَعْتُ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ الشَّامِ أُولَ ابْنِ عَمِّ لَه ، فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْتَعِينُهُ . قَالَ : « قَهْلُ لَكَ فِي غَيْرِ ذَلِكَ ؟ » قالت : وما هو ؟

(١) في المسند والنسائي والحاكم والطبراني في الكبير والبيهقي في السنن مع تغيير في الفقرات كما جاء في الجامع الصغير للسيوطي .

(٢) الحديث بهذا السياق غير موجود في صحيح مسلم ولكنه جاء في كتاب مناقب أمهات المؤمنين المحب الطبري . وفي المواهب اللدنية أن الذي أخرجه هو أبو داود وزاد شارح المواهب أحمد . وكلاهما من حديث لابن اسحاق .

(٣) كاتب العبد : كتب على نفسه بشمته فإذا سعى وأداه عتق .

قال : « أَقْضِي كِتَابَتَكَ وَأَتَزَوَّجُكَ » قالت : نعم يا رسول الله قد فعلت .
 وخرج الخبرُ إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج جويرية بنت
 الحارث ، فقال الناس : أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسلوا ما بأيديهم .
 قالت : فلقد أُعْتِقَ بِتَزْوِيهِهَ إِيَّاهَا مِائَةُ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ ، فَمَا أَعْلَمُ
 امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَهً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا .

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : خرج سهمي يوم جلولاء جارية كأنَّ
 عنقها إبريق فضة ، فما ملكت نفسي أن قمت إليها فقبلتها .

وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه قال : « قدم رسول الله صلى
 الله عليه وسلم خَيْبَرَ فلما فتح الله عليه الحِصْنَ ، ذُكِرَ لَهُ جَالُ صَفِيَّةَ بِنْتِ حِمْيَرٍ
 وَقَدْ قُتِلَ زَوْجُهَا وَكَانَتْ عَرُوسًا ، فَاصْطَفَاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ ،
 فَخَرَجَ بِهَا حَتَّى بَلَغَ اسْدَ الرُّوحَاءِ ^(١) فَبَنَى بِهَا ^(٢) ثُمَّ صَنَعَ خَيْسًا ^(٣) فِي نَظْعٍ ^(٤) صَغِيرٍ ،
 ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « آذِنْ مَنْ حَوْلَكَ » فَكَانَتْ تِلْكَ وَلِيمةَ
 رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى صَفِيَّةَ ، ثُمَّ خَرَجْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَوِّسِي ^(٥) لَهَا وَرَاءَهُ بَعَاءَةٌ ، ثُمَّ يَجْلِسُ عِنْدَ بَعِيرِهِ فَيَضَعُ رِكْبَتَهُ

(١) في صحيح البخارى وغيره : سد الصهباء وهو الاذواب . والروحاء
 بالمهمله : مكان قريب من المدينة وليست قرب خيبر ، فالاذواب أنها الصهباء ، وهي
 على بريد من خيبر ، قاله ابن سعد وغيره .

(٢) بنى بها وعاليها : دخل بها .

(٣) الخيس : تمرأ قط وسمن تخلط وتمجن وتسمى كالثرید وقد يجعل
 عوض الافط الدقيق والفتيت .

(٤) الطع وفيه أربع لغات : بساط من آدم .

(٥) يحورى لها : أى يجعل لها حورية وهي كساء محشو ، يدار حوال سنام
 البعير تركبه المرأة .

فَتَضَعُ صَفِيَّةُ رِجْلَهَا عَلَى رِكْبَتِهِ حَتَّى تَرْكَبَ . وَعِنْدَ أَبِي دَاوُدَ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ قَالَ :
وَقَعَ فِي مَهْمٍ دَرَحِيَّةٌ جَارِيَةٌ جَمِيلَةٌ . فَاشْتَرَاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْعَةِ
أَرْوُسَ ، ثُمَّ دَفَعَهَا إِلَى أُمِّ سَلِيمٍ تُصَنِّعُهَا وَتَهَيِّئُهَا وَتَعْتَدُّ فِي بَيْتِهَا ، وَهِيَ صَفِيَّةُ
بِنْتُ حَيٍّ .

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : حَجَّ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ وَمَعَهُ خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ ،
وَكَانَ خَالِدٌ هَذَا مِنْ رَجَالَاتِ قُرَيْشِ الْمُعَدُوْدِينَ ، وَكَانَ عَظِيمَ الْقَدْرِ عِنْدَ عَبْدِ الْمَلِكِ
فَبَيْنَمَا هُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ إِذْ بَصُرَ رَمْلَةً بِنْتَ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ فَعَشَقَهَا عَشَقًا
شَدِيدًا ، وَوَقَعَتْ بِقَلْبِهِ وَقَوْعًا مَتَمَكِّنًا ، فَلَمَّا أَرَادَ عَبْدُ الْمَلِكِ الْقُفُولَ هَمَّ خَالِدٌ
بِالتَّخَلُّفِ عَنْهُ ، فَوَقَعَ بِقَلْبِ عَبْدِ الْمَلِكِ تَهْمَةٌ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ عَنْ أَمْرِهِ ، فَقَالَ :
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، رَمْلَةٌ بِنْتُ الزُّبَيْرِ ، رَأَيْتُهَا تَطُوفُ بِالْبَيْتِ فَأَذْهَلَتْ عَقْلِي ، وَاللَّهِ
مَا أَبْدَيْتُ إِلَيْكَ مَا بِي حَتَّى عَيَّلَ صَبْرِي . وَلَقَدْ عَرَضْتُ النَّوْمَ عَلَى عَيْنِي فَلَمْ يَقْبَلْهُ ،
وَالسُّكُوءَ عَلَى قَلْبِي فَامْتَنَعَ مِنْهُ . فَأَطَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ التَّعَجُّبَ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ : مَا كُنْتُ
أَقُولُ إِنْ الْهَوَى يَسْتَأْسِرُ مِثْلَكَ ، قَالَ : فَإِنِّي لِأَشَدُّ تَعَجُّبًا مِنْ تَعَجُّبِكَ مِنِّي .
وَلَقَدْ كُنْتُ أَقُولُ : إِنْ الْهَوَى لَا يَتِمَكَّنُ إِلَّا مِنْ صَنَفَيْنِ مِنَ النَّاسِ : الشُّعْرَاءَ
وَالْأَعْرَابَ . أَمَّا الشُّعْرَاءُ فَإِنَّهُمْ أَلْزَمُوا قُلُوبَهُمُ الْفُسْكَرَ فِي النِّسَاءِ وَوَصَفْنَهُ وَالتَّغَزُّلَ
فَمَا لَطَبَهُمْ إِلَى النِّسَاءِ فَضَعُفَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ دَفْعِ الْهَوَى فَاسْتَسْلَمُوا إِلَيْهِ مُنْقَادِينَ . وَأَمَّا
الْأَعْرَابُ ، فَإِنْ أَحْدَهُمْ بِخُلُوِّ بَأْسَرَاتِهِ فَلَا يَكُونُ الْغَالِبَ عَلَيْهِ غَيْرُ حُبِّهَا ، وَلَا يَشْغَلُهُ
عَنْ شَيْءٍ ، فَضَعُفُوا عَنْ دَفْعِ الْهَوَى فَتَمَكَّنَ مِنْهُمْ . لَمَّا رَأَيْتَ نَظْرَةً حَالَتْ بَيْنِي
وَبَيْنَ الْحَزْمِ ، وَحَسَنْتُ عِنْدِي رُكُوبَ الْإِثْمِ ، مِثْلَ نَظَرْتِي هَذِهِ . فَتَبَسَّمَ عَبْدُ الْمَلِكِ
فَقَالَ : أَفَكُلُّ هَذَا قَدْ بَلَغَ بِكَ ؟ فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا عَرَفْتَنِي ^(١) هَذِهِ الْبَلِيَّةُ قَبْلَ وَقْتِي

(١) عَرَفْتَنِي الْبَلِيَّةُ : غَشِيْتَنِي .

هذا . فوجه عبد الملك إلى الزبير يخطب رَمْلَةً على خالد ، فذكروا لها ذلك فتالت : لا والله أو يطلّق نساءه ، فطلق امرأتين كانتا عنده ، وظمن^(١) بها إلى الشام وكان يقول :

أليس يزيد الشوقُ في كل ليلةٍ وفي كل يومٍ من حبيبتنا قرباً
خليلي مامن ساعة تذكّرانيها من الدهر إلا فرّجت عنى الكربا
أحبّ بنى العوّام طراً لحيها ومن أجّلها أحببت أخوالها كلّها
تجول خلاخيلُ النساء ولا أرى رَمْلَةً خلّت خلا يحول ولا تُقلب^(٢)

وذكر الخرائطي : أن بشر بن مروان كان إذا ضرب البعث^(٣) على أحده من جنده ثم وجدته قد أخلّ بمركزه أقامه على كرسى ثم سهر يديه في الحائط ، ثم انتزع الكرسي من تحت رجله ، فلا يزال يباشط حتى يموت . وأنه ضرب البعث على رجل عاشق حديث عهد بعمرس ابنة عمه ، فلما صار في مركزه كتب إلى ابنة عمه كتاباً ، ثم كتب في أسفله :

لولا مخافةُ بشرٍ أو عقوبته وأن يرى بعدذا في الكف مسجراً
إذا لعطّلت نفسي ثم زرتكم إن الحب إذا ما اشتاق زوّار
فلما ورد عليها الكتاب أجابته عنه ، ثم كتبت في أسفله :

(١) ظعن : سار وارتحل . والظمينة الهودج كانت فيه امرأة أولم تكن والظمينة أيضاً المرأة مادامت في الهودج .

(٢) يجول : يتحرك ويضطرب لسعته . والقلب بالضم : سوار المرأة ، يكون نظاماً واحداً .

(٣) ضرب عليه البعث : أوفده وأمره بالسفر إلى أحد الثغور أو مركز من المراكز .

ليس الحبُّ الذي يخشى العقابَ ولو كانت عقوبته في فَجْوَةِ النارِ
بل الحبُّ الذي لا شيء يُفزعُه أو يَسْتَقِرُّ ومن يهواه في الدارِ
فلما قرأ الكتابَ قال : لاخير في الحياة بعد هذا . وأقبل حتى دخل المدينة
فأتى بشرَ بنَ مروان في وقت غَدائه ، فلما فرغ من غَدائه أُدخل عليه فقال :
ما الذي دعاك إلى تعطيل ثورك ؟ أما سمعت النداء ؟ فقال : اسمع عذري فإما
عفوت وإما عاقبت . فقال : ويلك وهل لك من عذري ؟ فقصَّ عليه قصته وقصة
ابنة عمه فقال : أولى لكما . يا غلام ، خط على اسمه من البعث وأعطه عشرة
آلاف درهم والمحق بآبنة عمك .

سهرتُ ومن أهدى لي الشوقَ نائم وعذب قاي بالهوى وهو سالم
فواحسرتا حتى متى أنا قائلُ لمن لامي في حبِّكم أنت ظالمُ
وحتى متى أخفى الهوى وأسرَّه وأدفنُ شوقي في الحشا وأكاتمُ
أريد الذي قد سرَّكم بمساءتي ليتغفلَ واشٍ أو ليُعذرَ لأنهم
وقال آخر :

بي لابهما ما أقامى من تجنُّيا ومن جوى^(١) الحبِّ في الأحشاء أفديها
واللهُ يعلمُ أني لا أسرُّ بأن تلقى من الوجد مالاقيته فيها
خوفَ البكاء كما أبكى فتتركني أبكى على كبدى طورا وأبكيها

وقال العباس بن هشام الكلبي : ضرب عبد الملك بن مروان بعثما إلى
اليمين فأقاموا سنين ، حتى إذا كان ذات ليلة وهو بدمشق قال : والله لأعسنَّ
الليلة مدينة دمشق ولأسمعن الناسَ ماذا يقولون في البعث الذي أغزيت فيه

(١) الجوى : الحُرقة وشدة الوجد .

رجالهم، وأغرمتهم أموالهم، فبينما هو في بعض أزقتها إذهو بصوت امرأة قائمة
تصلي فتسمع إليها، فلما انصرفت إلى مضجعها قالت: اللهم مسير النجيب^(١)،
ومُنزل الكتب، ومعطى الرغب^(٢)، أسألك أن تردّ لي غائبى فتكشف به
همى، وتقرّ به عينى، وأسألك أن تحكم بينى وبين عبد الملك بن مروان الذى
فعل بنا هذا، ثم أنشأت تقول:

تطاولَ هذا الليلُ فالعينُ تَدْمَعُ	وأرقني حزنٌ لقلبي مُوجِعُ
فَبِتُّ أَقاسى الليلِ أُرعى نُجُومَه	وبات فؤادى بالجوى يَتَقَطَّعُ
إذا غاب منها كوكبٌ فى مَغْيِهِ	لَمَحْتُ بَعينى كوكباً حينَ يَطْلُعُ
إذا ما ذكَّرتُ الذى كانَ بيننا	وجدتُ فؤادى حَسرةً يَتصدَّعُ
وكلُّ حبيبٍ ذا كَرٍّ لحبيبه	يُرَجِّى لِقاه كلَّ يومٍ ويَطْمَعُ
فذا العرشُ فَرَّجَ ما ترى من صِبايَ	فأنت الذى يدعو العبادُ فيسمعُ
دعوتك فى السراءِ والخُرِّ دعوةٌ	على حاجةٍ بينَ الشراسيفِ ^(٣) تَلذَّعُ

فقال عبد الملك لحاجبه: تعرف هذا المنزل؟ قال: نعم هذا منزل يزيد بن
سنان. قال: فما المرأة منه؟ قال: زوجته، فلما أصبح سأل كم تصبر المرأة عن
زوجها؟ قالوا: ستة أشهر.

(١) النجيب جمع نجبية: خيار الإبل.

(٢) الرغب: المطلوب والمرغوب فيه.

(٣) الشراسيف: جمع شرسوف: وهو الطرف اللين من الضلع مما يلي
البطن.

وقال جرير بن حازم عن، يعلى بن حكيم، عن سعيد بن جبير قال : كان عمر ابن الخطاب رضى الله عنه إذا أمسى أخذ ذرته ثم طاف بالمدينة ، فإذا رأى شيئاً ينكره أنكره ، فبينما هو ذات ليلة يمس إذ مرّت بامرأة على سطح وهي تقول :

تطاول هذا الليل وأخضل^(١) جانبه وأرقني أن لا خليلاً إلا عبته
فوالله لو لا الله لأربّ غيرُهُ لحرك من هذا السرير جوانبه
خافة ربي والحياه يصدني وأكرم بلى أن تُنال مراكبه

ثم تنفست الصعداء وقالت : لَمَّا نَ عَلَى عَرِ بْنِ الْخَطَّابِ مَا لَقِيتُ اللَّيْلَةَ ، ففُضِرَ بَابُ الدَّارِ فَقَالَتْ : مِنْ هَذَا الَّذِي يَأْتِي إِلَى امْرَأَةٍ مُغِيبَةٍ^(٢) هَذِهِ السَّاعَةُ ؟ فَقَالَ : افْتَحِي ، فَأَبَتْ ، فَلَمَّا أَكْثَرَ عَلَيْهَا قَالَتْ : أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ بَلَغَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لِعَاقَبَكَ ، فَلَمَّا رَأَى عِفَافَهَا قَالَ : افْتَحِي فَأَنَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَتْ : كَذَبْتَ مَا أَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، فَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ وَجَهَرَ لَهَا فَعَرَفَتْ أَنَّهُ هُوَ ، فَفَتَحَتْ لَهُ فَقَالَ : هَيْهَ كَيْفَ قُلْتَ ؟ فَأَعَادَتْ عَلَيْهِ مَا قَالَتْ ، فَقَالَ : أَيْنَ زَوْجُكَ ؟ قَالَتْ : فِي بَيْتٍ كَذَا وَكَذَا ، فَبَعَثَ إِلَى عَامِلِ ذَلِكَ الْجَنْدِ أَنْ سَرَّحَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ قَالَ : اذْهَبْ إِلَى أَهْلِكَ . ثُمَّ دَخَلَ عَلَى حَفْصَةَ ابْنَتِهِ فَقَالَ : أَيُّ بُدَيَّةٍ كَمْ تَصِيرُ الْمَرْأَةُ عَنْ زَوْجِهَا ؟ قَالَتْ : شَهْرًا وَاثْنَيْنِ وَثَلَاثَةَ ، وَفِي الرَّابِعِ يَنْفَدُ الصَّيْرُ ، فَعَمِلَ ذَلِكَ أَجَلًا لِلْبَيْعِ . وَهَذَا مُطَابِقٌ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

(١) اخضل الليل : أظلم .

(٢) امرأة مغيبة : التي غاب زوجها .

مُدَّةُ الإيلاء^(١) أربعة أشهر ، فإنه سبحانه وتعالى علم أن صبر المرأة يضعف بعد الأربعة، ولا تحمل قوَّةُ صبرها أكثرَ من هذه المدَّة ، فجعلها أجلاً للمولى ، وخيرها بعد الأربعة إن شاءت أقامت معه ، وإن شاءت فسخت نكاحه . فإذا مضت الأربعة أشهر عيِّلَ صبرُها . قال الشاعر :

ولما دعوتُ الصبرَ بعدك والبكا أجاب البكا طوعاً ولم يُجبِ الصبرُ

(١) الإيلاء في اصطلاح الشرع أن يحلف الزوج على ألا يقرب زوجته أربعة أشهر فأكثر ويقال : آلى من زوجته إيلاء . قال تعالى : (للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر) أى يقسمون ألا يقربوا نساءهم .

الباب الثامن عشر

فى أنه دواء الحبيين ، فى كمال الوصال الذى أباه رب العالمينه

قد جعل الله شيجانه وتعالى لكل داء دواء ، ويسرّ الوصال إلى ذلك الدواء شرعاً وقدراً ، فمن أزال التداوى بما شرعه الله له ، واستعان عليه بالقدّر وأتى الأثر من بابه صادف الشفاء ، ومن طلب الدواء بما منعه منه شرعاً وإن امتحنه به قدراً فقد أخطأ طريق المداواة ، وكان كالتداوى من داء بداء أعظم منه ، وقد تقدّم حديث طاووس عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَمْ يَرِ لِمُتَحَابِّينِ مِثْلُ النَّكَاحِ »^(١) . وقد اتفق رأى العقلاء من الأطباء وغيرهم فى مواضع الأدوية أن شفاء هذا الداء فى التقاء الرّوحين والتصاق البدن . وقد روى مسلم فى صحيحه من حديث أبى الزبير عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة فألقى زينب فقضى حاجته منها^(٢) وقال : « إِنَّ الْفَرْجَ أَثْقَلُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ وَتُدِيرُ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ امْرَأَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَلْيَاتِ أَهْلَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ يَرُدُّ مَا فِي نَفْسِهِ » . وذكر إسماعيل بن عيَّاش ، عن سُرخيل بن مسلم عن أبى مسلم الخولانى رحمه الله أنه كان يقول : يامعشر خولان زوجوا شبابكم وإماءكم فإن الغلة أمر عارم^(٣) فأعدّ وعدّها ، واعلموا أنه ليس لمنعظ إذن . يريد أنه إذا

(١) تقدم ذكره فى صفحة ٨٤ بلفظ التزويج .

(٢) لم يكن ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم بمراة زينب لأنه وجد فى نفسه شيئاً حين رأى المرأة ولكنه فعله لتقتدى به الامة فى التول .

(٣) عارم : شديد ، قاس ، لا يطاق

استأذن عليه فلا إذن له . وذكر العتيبي أن رجلاً من ولد عثمان ورجلاً من ولد الحسين خرجا يريدان موضعاً لهما ، فنزلا تحت مَرَجَةٍ^(١) فأخذ أحدهما فكتب عليها :

خبرينا خُصِصْتَ بالغيث يَاسِرُ حُ بَصْدُقٍ وَالصَّدَقُ فِيهِ شِفَاءُ
وكتب الآخر :

هل يموت المحب من أَلَمِ الحُبِّ يَشْفِي من الحبيب اللقاء
ثم مضيا ، فلما رجعا وجدا مكتوباً تحت ذلك :
إن جهلاً سَوَّأَكَ السَّرْحَ عَمَّا ليس يوماً عليك فيه خَفَاءُ
ليس للعاشق المحب من الحُبِّ سوى لَذَّةِ اللقاء شِفَاءُ
وقال أبو جعفر العذري :

أَسْكُرُ الْمَوِيَّ أَرْوَى الْعَظْمَى وَمَقْصِلِي إِذَا سَكَرَ التَّدْمَانُ مِنْ لَذَّةِ الْخَمْرِ
وَأَحْسَنُ مِنْ قَرْعِ الْمَثَانِي وَتَقْرِهَا تَرَاجِيعُ صَوْتِ الثَّغْرِ يُقَرِّعُ بِالثَّغْرِ^(٢)
ولما دعوتُ الصَّبْرَ بَعْدَكَ وَالْبَكَاءُ أَجَابَ الْبَكَاءُ طَوْعاً وَلَمْ يُجِبِ الصَّبْرُ^(٣)
وقال عبد الله بن صالح : كان الليث بن سعد إذا أراد الجماع خلا في منزله
في داره ودعا بثوب يقال له : المَرَكَّانُ ، وكان يَلْبَسُهُ إِذَا ذَاكَ ، وكان إذا خلا في
ذلك المنزل عِلِمَ أنه يريد أمراً ، وكان إذا غَشِيَ أَهْلَهُ^(٤) قال : اللهم شُدِّلِي أَصْلَهُ ،

-
- (١) المَرَجَةُ : شجرة عظيمة طويلة ، وجمعها سرح .
(٢) المَثَانِي من الأوتار : الذي بعد الأول . الترجيع : تردد الصوت في قراءة أو أذان أو غناء أو رمز أو غير ذلك مما يترنم به .
(٢) تقدم هذا البيت وحده في صفحة ٢١١ .
(٤) غشى أهله : أتاها ، وغشى المرأة وتغشاها : دخل بها وبجامعها .

وارفع لي صدره ، وسهل عليّ مدخله ومخرجه ، وارزقني لذّته ، وهب لي ذريّةً
صالحةً تقاتلن في سبيلك . قال : وكان جهّوَرِيًّا فكان يُسمع ذلك منه (رضي
الله عنه) .

وقال الخرائطي : حدّثنا عمار بن وثيمة قال : حدّثني أبي قال : كان
عبد الله بن ربيعة من خيار قریش صلاحاً وعفةً ، وكان ذَكَرُهُ لا يَرَقُدُ فلم يكن
يشهد لقریش خيراً ولا شراً ، وكان يتزوَّج المرأة فلا تمكث معه إلا أياماً
حتى تهرب إلى أهلها ، فقالت زينب بنت عمر بن أبي سلمة : ما لهنّ يهربن من
ابن صهنّ ؟ قيل لها : إنهنّ لا يُطِيقُنَّهُ ، قالت : فما يمنعه مني ؟ فأنا والله العظيمة
الخلق ، الكبيرة العجز ، الفخمة الفرج ، قال : فتزوَّجها ، فصبرت عليه ، وولدت
له ستة من الولد .

وقال رشيد بن سعد ، عن زهرة بن معبد ، عن محمد بن المنكدر أنه كان
يدعو في صلاته : اللهم قو لي ذَكَرِي فَإِنْ فِيهِ صَلاحاً لأهلي . وقال حماد بن
زيد ، عن هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين قال : كان لأنس بن مالك غلامٌ
وكان شنيخاً كبيراً ، فرافعته امرأته إلى أنسٍ وقالت : لا أُطيقه ، ففرض له عليها
سنة في اليوم والليلة .

وقال عليّ بن عاصم : حدّثنا خالدُ الحذاء قال : لما خلق الله آدم وخلق
حواء قال له : يا آدم اسكن إلى زوجك ، فقالت له حواء : يا آدم ما أُطيبَ
هذا ! زدنا منه . وفي الصحيح أن سنيان بن داود عليهما السلام طاف في ليلةٍ
واحدة كلّ تسعين امرأة . وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان
يطوف كلّ نساءه في الليلة الواحدة وهنّ تسع نسوة ، وربما كان يطوف عليهنّ
بفسل واحد ، وربما كان يفتسل عند كل واحدةٍ منهنّ .

وقال المروزيّ : قال أبو عبد الله — يعني أحمد بن حنبل — ليس العزوبة

من أمر الإسلام في شيء . النبي صلى الله عليه وسلم تزوج أربع عشرة ومات عن تسع ، ولو تزوج بشراً بن الحارث كتم أمره ، ولو ترك الناس النكاح لم يكن غزو ولا حجاج ولا كذا ولا كذا ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يصبح وما عندهم شيء ، ومات عن تسع ، وكان يختار النكاح ويحث عليه ، ونهى عن التبطل^(١) ، فمن رغب عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم فهو على غير الحق ، ويعقوب في حزنه قد تزوج ووُلد له ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال : « حُبِّبَ إِلَيَّ النَّسَاءُ » . قلت له : فإن إبراهيم بن أدهم يحكى عنه أنه قال : أروعة صاحب العيال فما قدرت أن أتم الحديث^(٢) حتى صاح بي وقال : وقعت في بُنَيَات^(٣) الطريق ، أنظر ما كان عليه محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثم قال : بكاء الصبي بين يدي أبيه يطلب منه الخبز أفضل من كذا وكذا . آين يلحق المتعبد العزب ؟ انتهى كلامه .

وقد اختلف الفقهاء هل يجب على الزوج بمجموعة امرأته ؟ فقالت طائفة : لا يجب عليه ذلك ، فإنه حق له فإن شاء استوفاه ، وإن شاء تركه : بمنزلة من استأجر داراً إن شاء سكنها ، وإن شاء تركها .

وهذا من أضعف الأقوال ، والقرآن والسنة والعرف والقياس يرُدُّه . أما القرآن فإن الله سبحانه وتعالى قال : (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ ، بِالْمَعْرُوفِ^(٤)) فأخبر أن للمرأة من الحق مثل الذي عليها ، فإذا كان الجماع حقاً للزوج عليها ، فهو حق على الزوج بنص القرآن ، وأيضاً فإنه سبحانه وتعالى أمر الأزواج أن

(١) التبطل : الانقطاع عن الدنيا إلى الله ، والتفرغ للعبادة ، وترك النكاح . ومنه قوله تعالى « وتبطل إليه تبتيلاً » .

(٢) تنمته كما في الإحياء : أفضل من جميع ما أنا فيه .

(٣) بنية المريق طريق صنير يتشعب من الجادة .

(٤) الآية ٢٢٨ . سورة البقرة .

يعاشروا الزوجات بالمعروف ، ومن ضدّ المعروف أن يكون عنده شابة شهوتها تعدل شهوة الرجل أو تزيد عليها بأضعاف مضاعفة ولا يذيقها لذّة الوطء مرّة واحدة . ومن زعم أن هذا من المعروف كفاه طبعه ردّا عليه . والله سبحانه وتعالى إنما أباح للأزواج إمساك نسائهم على هذا الوجه لا على غيره، فقال تعالى : (فَإِمْسَاكُ بَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ)^(١) .

وقالت طائفة : يجب عليه وطؤها في العمر مرّة واحدة ليستقرّ لها بذلك الصّدق . وهذا من جنس القول الأوّل، وهذا باطل من وجه آخر ، فإن المقصود إنما هو المعاشرة بالمعروف ، والصّدق دخل في العقد تعظيماً لحُرْمَتِهِ وفتحاً بينه وبين السفاح^(٢) . فوجوب المقصود بالنكاح أقوى من وجوب الصّدق .

وقالت طائفة ثالثة : يجب عليه أن يطأها في كلّ أربعة أشهر مرّة، واحتجوا على ذلك بأن الله سبحانه وتعالى أباح للمولى ربّص أربعة أشهر وخيّر المرأة بعد ذلك ، إن شاءت أن تقيم عنده ، وإن شاءت أن تفارقه . فلو كان لها حق في الوطء أكثر من ذلك لم يجعل للزوج تركه في تلك المدة ، وهذا القول وإن كان أقرب من القوانين اللذين قبله فليس أيضاً بصحيح ، فإنه غير المعروف الذي لها وعليها . وأما جعل مدة الإيلاء أربعة أشهر فنظر آمنه سبحانه للأزواج فإن الرجل قد يحتاج إلى ترك وطء امرأته مدة لعارض من سفر أو تأديب أو راحة نفس أو اشتغال بهم ، فجعل الله سبحانه وتعالى له أجلاً أربعة أشهر . ولا يلزم من ذلك أن يكون الوطء مؤقتاً في كلّ أربعة أشهر مرّة .

وقالت طائفة أخرى : بل يجب عليه أن يطأها بالمعروف ، كما ينفق عليها

(١) الآية ٢٢٩ . سورة البقرة .

(٢) السفاح : الفجور . وقيل (تزوج المرأة سفاحاً) أي بغير سنة ولا

كتاب .

ويكسوها ويعاشرها بالمعروف ، بل هذا عمدة المعاشرة ومقصودها ، وقد أمر الله سبحانه وتعالى أن يعاشرها بالمعروف . فالوطء داخل في هذه المعاشرة ولا بد ، قالوا : وعليه أن يشبعها وطئاً إذا أمكنه ذلك كما عليه أن يشبعها قوتاً . وكان شيخنا رحمه الله تعالى يرجح هذا القول ويختاره .

وقد حَضَّ النبي صلى الله عليه وسلم على استعمال هذا الدواء ورغب فيه وعاقب عليه الأجر وجعله صدقةً لفاعله فقال : « فِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ » (١) . ومن تراجم النساء على هذا : الترغيب في المباشرة ، ثم ذكر هذا الحديث ، ففي هذا كمال اللذة ، وكمال الإحسان إلى الحبيبة ، وحصول الأجر ، وثواب الصدقة ، وفرح النفس ، وذهابُ أفكارها الرديئة عنها ، وخفة الروح ، وذهابُ كثافتها وغَلظها ، وخفة الجسم ، واعتدالُ المزاج ، وجلبُ الصحة ودفع المواد الرديئة ، فإن صادف ذلك وجهاً حسناً ، وَخُلُقاً دَمِثاً (٢) ، وعشاقاً وافرأ ، ورغبةً تامةً ، واحتساباً للثواب ، فذلك اللذة التي لا يعادلها شيء ، ولا سيما إذا وافقت كلها فإنها لا تسكُل حتى يأخذ كلُّ جزء من البدن بقسطه من اللذة ، فتلذذ العين بالنظر إلى المحبوب ، والأذن بسماع كلامه ، والأنفُ بِشَمِّ رائحته ، والشمُّ بتقبيله ، واليد بلمسه . وتمتلك كلُّ جارية على ما يطلبه من لذتها ، وتقابل من المحبوب ؛ فإن فقد من ذلك شيء لم تزل النفسُ متطلعةً إليه ، متقاضيةً له ، فلا تسكنُ كلَّ السكون ، ولذلك تسمى المرأة سَكَنًا لسكون النفس إليها ، قال الله تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا) (٣) ولذلك فضِّل

(١) تقدم مطولاً في الصفحة ١٥٨ وجاء في القاموس المحيط أن البضع بالضم الجماع أو الفرج نفسه، والمهر، والطلاق ، وعقد النكاح ضد ، والمباشرة : الجماع .
(٢) دمث دمثاً : لان وسهل ، ودمشت المرأة دماثة : سهل خلقتها .
(٣) الآية ٢١ . سورة الروم .

جماعُ النهار على جماع الليل ، والسبب آخر طبيعي ، وهو أن الليل وقت تبرد فيه الحواس وتطلب حظها من السكون ، والنهار محل انتشار الحركات كما قال الله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا)^(١) وقال الله تعالى : (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ)^(٢) وتمام النعمة في ذلك فرحة الحب برضاء ربه تعالى بذلك ، واحتساب هذه اللذة عنده ، ورجاء تثقيل ميزانه ، ولذلك كان أحب شيء إلى الشيطان أن يفرق بين الرجل وبين حبيبه ، ليتوصل إلى تعويض كل منهما عن صاحبه بالحرام كما في السنن عنه صلى الله عليه وسلم : « أَبْغَضُ الْخُلَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الطَّلَاقُ »^(٣) . وفي صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ إِبْلِيسَ يَنْصِبُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْثُ سَرَايَاهُ^(٤) فِي النَّاسِ فَأَقْرَبُهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ مَا زِلْتُ بِهِ حَتَّى زَنَيْتُ فَيَقُولُ يَتُوبُ فَيَقُولُ الْآخَرُ مَا زِلْتُ بِهِ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ فَيَذَرْنِيهِ وَيَلْزِمُهُ وَيَقُولُ : نَعَمْ أَنْتَ . نَعَمْ أَنْتَ » فهذا الوصال لما كان أحب شيء إلى الله ورسوله كان أبغض شيء إلى عدو الله ، فهو يسعى في التفريق بين المتحابين في الله المحبة التي يحبها الله ، ويؤلف بين الائتين في المحبة التي يبغضها الله ويسخطها . وأكثرُ العشاق من جنسده وعسكره ، ويرتقى بهم الحال حتى

(١) الآية ٤٧ سورة الفرقان . والنوم سباتاً : أى راحة وسكوناً ، أو جعلناه كالموت . وجعل النهار نشوراً : أى زمن اليقظة التي تشبه الانبعاث بعد الموت .

(٢) الآية ٦٧ سورة يونس .

(٣) رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم . كما قال السيوطي

(٤) سراياه : جنوده وجيوشه والسرية قطعة من الجيش .

يصير هو من جندهم وعسكرهم، يقود لهم، ويزين لهم الفواحش، ويؤلف بينهم عليها كما قيل :

عجبت من إبليس في تمخوته وقبح ما أظهر من منبرته
تاه على آدم في سجدة وصار قواداً لدريته^(١)

وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم الشباب الذين هم مظنة العشق إلى أنفع أدويتهم . ففي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج » .
وفي لفظ آخر ذكره أبو عبيد : حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : « عليكم بالباءة » . وذكر الحديث ، وبين اللغزين فرق فإن الأول يقتضى أمر العزب بالتزويج ، والثاني يقتضى أمر المتزوج بالباءة ، والباءة : اسم من أسماء الوطاء . وقوله : « من استطاع منكم الباءة فليتزوج » فسرت الباءة بالوطاء وفسرت بؤن النكاح ، ولا ينافي التفسير الأول إذ المعنى على هذا مؤن الباءة ثم قال : « ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » فأرشدهم إلى الدواء الشافى الذى وضع لهذا الأمر ، ثم قلهم عنه عند العجز إلى البدل وهو الصوم فإنه يكسر شهوة النفس ويضيق عليها مجارى الشهوة ، فإن هذه الشهوة تقوى بكثرة الغذاء وكيفيته ، فكيفية الغذاء وكيفيته يزيدان في توليدها ، والصوم يضيق عليها ذلك فيصير بمنزلة وجاء الفحل^(٢) ، وقل من أدام الصوم لإومات شهوته أو ضعفت

(١) البيتان لأبي نواس .

(٢) وجاء الفحل : دق عروق خصيتيه بين حجرين ولم يخرجهما ، أورضهما حتى تنفضخا فيسكون شبيها بالخصاء .

جدا ، والصوم المشروع يُعَدُّ لها . واعتدالها حسنة بين سيئتين ، ووسط بين طَرَفَيْن مذمومين ، وهما العُتَّة والغُلَّة الشديدة المُفْرِطَة ، وكلاهما خارج عن الاعتدال وكلا طَرَفَيْن قصد الأمور ذميم ، وخير الأمور أوساطها ، والأخلاقُ الفاضلة كلها وسط بين طَرَفَيْن إفراطٍ وتفريطٍ ، وكذلك الدين المستقيم وَسطٌ بين انحرافين ، وكذلك السُّنَّة وَسطٌ بين بدعتين ، وكذلك الصواب في مسائل النزاع إذا شئت أن تحظى به فهو القول الوسط بين الطرفين المتباعدَيْن ، وليس هذا موضع تفصيل هذه الجملة ، فإننا لم نقصد له وبالله التوفيق .

الباب التاسع عشر

في ذكر فضيلة الجمال ، وميل النفوس إليه على كل حال

إعلم أن الجمال ينقسم قسمين : ظاهر وباطن ، فالجمال الباطن هو المحبوب لذاته ، وهو جمال العلم والعقل والجود والعفة والشجاعة ، وهذا الجمال الباطن هو محل نظر الله من عبده وموضع محبته ، كما في الحديث الصحيح : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صَوْرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ »^(١) . وهذا الجمال الباطن يزين الصورة الظاهرة وإن لم تكن ذات جمال ، فتكسو صاحبها من الجمال والمهابة والحلاوة بحسب ما اكتسبت رُوحه من تلك الصفات ، فإن المؤمنَ يُعطَى مهابةً وحلاوةً بحسب إيمانه ، فمن رآه هابه ، ومن خالطه أحبه . وهذا أمر مشهود بالعيان ، فإنك ترى الرجلَ الصالحَ المحسنَ ذا الأخلاق الجميلة من أحلى الناس صورةً وإن كان أسوداً أو غيرَ جميل ، ولا سيما إذا رُزق حظاً من صلاة الليل فإنها تنور الوجه وتحسنه .

وقد كان بعضُ النساءَ تكثر صلاة الليل ، فقيل لها في ذلك ، فقالت : إنها تحسن الوجه وأنا أحب أن يحسن وجهي . ومما يدلُّ على أن الجمال الباطنَ أحسنُ من الظاهر أن القلوب لا تنفك عن تعظيم صاحبه ومحبته والميل إليه .

فصل

وأما الجمال الظاهر فزينة خَصَّ الله بها بعضَ الصور عن بعض ، وهي من

(١) في صحيح مسلم .

زيادة الخلق التي قال الله تعالى فيها : (يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ) ^(١) قالوا : هو الصوت الحسن والصورة الحسنة . والقلوب كالمطبوعة على محبته كما هي مفضورة على استحسانه .

وقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ » قالوا : يا رسول الله ، الرجل يحب أن تكون نعله حسنة وثوبه حسناً أفذلك من الكبر ؟ فقال : « لا . إن الله جميلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ . الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ » ^(٢) فبطر الحقَّ جَعَلَهُ ودَفَعَهُ بعد معرفته ، وَغَمْطُ النَّاسِ النظرُ إليهم بين الازدراء والاحتقار والاستصغار لهم . ولا بأس بهذا إذا كان لله . وعلامته أن يكون لنفسه أشدَّ ازدراء واستصغاراً منه لهم . فأمّا إن احتقرهم لعظمة نفسه عنده فهو الذي لا يدخل صاحبه الجنة .

فصل

وكما أن الجمال الباطن من أعظم نعم الله تعالى على عبده فالجمال الظاهر نعمة منه أيضاً على عبده يوجب شكراً ، فإن شكره بتقواه وصيائمه ازداد جلالاً على جماله ، وإن استعمل جماله في معاصيه سبجانه قلبه له شيئاً ظاهراً في الدنيا قبل الآخرة ، فتعود تلك المحاسن وحشةً وقبحاً وشيناً ، وَيَتَفَرُّ عَنْهُ مَنْ رآه ، فكل من لم يَتَّقِ الله عز وجل في حسنه وجماله انقلب قبحاً وشيناً يشينه به بين الناس ، فحسن الباطن يعلو قبح الظاهر ويستره ، وقبح الباطن يعلو جمال الظاهر ويستره . يَحْسَنَ الْوَجْهَ تَوَقَّ الْخُلُقَ ^(٣) لَا تُبْدِلَنَّ الزَّيْنَ بِالشَّيْنِ

(١) أول سورة فاطر .

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي . كما قال النبياني في تيسير الوصول ،

(٣) الخنا : القبح .

وَيَا قَبِيحَ الْوَجْهِ كُنْ مُحْسِنًا لَا تَجْمَعُنْ بَيْنَ قَبِيحَيْنِ

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعُر الناس إلى جمال الباطن بجمال الظاهر كما قال جرير بن عبد الله — وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسميه يوسف هذه الأمة — قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَنْتَ امْرُؤٌ قَدْ حَسَّنَ اللَّهُ خُلُقَكَ فَأَحْسِنْ خُلُقَكَ » ^(١) . وقال بعض الحكماء : ينبغي للعبد أن ينظر كل يوم في المرأة ، فإن رأى صورتَه حسنة لم يَشْنَهَا بقبيح فعله ، وإن رآها قبيحة لم يجمع بين قبح الصورة وقبح الفعل .

ولما كان الجمال من حيث هو محبوباً للنفوس ، مظهراً في القلوب ، لم يبعث الله نبياً إلا جمل الصورة ، حسن الوجه ، كريم الحسب ، حسن الصوت ، كذا قال على بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم أجل خلق الله ، وأحسنهم وجهاً كما قال البراء بن عازب رضى الله عنه وقد سئل : أكان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل السيف ؟ قال : لا بل مثل القمر ^(٢)

وفي صفته صلى الله عليه وسلم : كأن الشمس تجري في وجهه ، يقول واصفه : لم أر قبله ولا بعده مثله .

وقال ربيعة الجُرَشِي : قُسِّمَ الْحُسْنُ نِصْفَيْنِ : فَبَيْنَ سَارَّةَ وَيُوسُفَ نِصْفُ الْحُسْنِ ، وَنِصْفُ الْحُسْنِ بَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ . وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه رأى يوسف ليلة الإسراء وقد أعطى شَطْرَ الْحُسْنِ ^(٣) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحب أن يكون الرسول الذى يرسل إليه حسن الوجه حسن

(١) رواه الديلمى كما جاء في منتخب كنز العمال .

(٢) ذكره البخارى في صحيحه ، ورواه مسلم عن جابر بن سمرة .

(٣) رواه مسلم وأحمد في مسنده . كما جاء في منتخب كنز العمال .

الاسم ، وكان يقول : « إِذَا أُبْرِدْتُمْ إِلَيَّ بَرِيداً فَلْيَكُنْ حَسَنَ الْوَجْهِ حَسَنَ
الاسم »^(١) .

وقد روى الخرائطي من حديث ابن جريج عن ابن أبي مليكة ، عن ابن
عباس رضي الله عنها يرفعه : « مَنْ آتَاهُ اللَّهُ وَجْهاً حَسَنًا وَاسْماً حَسَنًا وَخُلُقًا
حَسَنًا وَجَعَلَهُ فِي مَوْضِعٍ غَيْرِ شَأْنٍ لَهُ فَمَوْ مِنْ صَفْوَةِ اللَّهِ مِنْ خَلْقِهِ » ،
وقال وهب : قال داود : يارب أيّ عبادك أحب إليك ؟ قال : مؤمن حسن
الصورة ، قال : فأى عبادك أبغض إليك ؟ قال كافر قبيح الصورة .

ويذكر عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان
ينتظره نفر من أصحابه على الباب ، فجعل ينظر في الماء ويسوي شعره ولحيته ، ثم
خرج إليهم ، فقالت : يا رسول الله ، وأنت تفعل هذا ؟ قال : « نعم » إذا خرج
الرجل إلى إخوانه فليهيئ من نفسه فإن الله جميل يحب الجمال »^(٢) وقال
يحيى بن أبي كثير : دخل رجل على معاوية غصصاً ، يعني رمص^(٣) العينين ، فخط
من عطائه فقال : ما يمنع أحدكم إذا خرج من منزله أن يتفاهد أديم وجهه ؟
وكانت عائشة بنت طلحة من أجمل أهل زمانها ، أو أجملهم ، فقال أنس بن
مالك : والله ما رأيت أحسن منك إلا معاوية على منبر رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، فقالت : والله لأننا أحسن من النار في عين المقرور في الليلة القارة .

(١) رواه البزار . كما جاء في الجامع الصغير للسيوطي

(٢) تقدمت الفقرة الأخيرة من هذا الحديث في الصفحة ٢٢٢ أما النص فإذ
قول المؤلف في أولها ويذكر ، يدل على التنصيف .

(٣) الغمص : ما يسيل من العين من الرمص . والرمص : وسخ أبيض جامد يجتمع
في موق العين

ودخل عليها أنس يوماً في حاجة فقال : إن القوم يريدون أن يدخلوا عليك
فينظروا إلى جمالك ، قالت : أفلا قلت لي فألبس ثيابي ؟ .

وكان مصعب بن الزبير من أجمل الناس وكان يحسد الناس على الجمال ، فبينما
هو يخطب يوماً إذ دخل ابن جودان من ناحية الأزد ، وكان جميلاً ، فأعرض
بوجهه عن تلك الناحية إلى ناحية أخرى ، فدخل ابن جمران من تلك الناحية ،
وكان جميلاً ، فرمى ببصره إلى مؤخر المسجد ، فدخل الحسن البصري ، وكان
من أجمل الناس ، فنزل مصعب عن المنبر .

وخرج نسوة يوم العيد ينظرون إلى الناس فقبل لمن : من أحسن من مرة
بكن ؟ قلن : شيخ عليه عمامة سوداء ، يعندين الحسن البصري . وأخذ مصعب
ابن الزبير رجلاً من أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه ، فقال الرجل : أيها الأمير ،
ما أقبح من أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنه ، ووجهك هذا الذي
يشتضاء به فأتعلق بأطرافك وأقول : يارب سأل مصعباً فبم قتلتني ؟ فقال
مصعب : أطلقوه . فقال الرجل : أيها الأمير ، اجعل ما وهبت لي من حياتي
في خفص^(١) فقال مصعب : أعطوه مائة ألف درهم ، فقال : إني أشهد الله أن
لعبد الرحمن بن قيس الرقييات^(٢) بصفها ، قال مصعب : ولم ذلك ؟ قال لقوله :
إنما مصعب شهاب من السماء ته تجلت عن وجهه الظلماء
فضحك مصعب وقال : إن فيك لموضعاً للصنعة ، وأمره بالتبوء .

وقال الزبير بن بكار : حدثنا مصعب الزبيري ، حدثنا عبد الرحمن بن
أبي الحسن قال : خرج أبو حازم يرمى الجمار ومعه قوم متعبدون وهو يكلمهم

(١) الخفص : الدعة وسعة المشي .

(٢) كذا .. والذي جاء في الأغاني وغيره أن اسمه عبيد الله .

ويحدثهم ويقصّ عليهم* ، فينما هو يمشى وهم معه إذ نظر إلى فتاة مستترية بخمارها ، ترى الناس بطرفها يميناً ويسرة ، وقد شغلت الناس وهم ينظرون إليها مهوتين ، وقد خبط بعضهم بعضاً في الطريق ، فرآها أبو حازم فقال : يا هذه أتتقى الله فإنك في مشعر^(١) من مشاعر الله عظيم ، وقد فتنت الناس ، فاضربى بخمارك على جيبك فإن الله عز وجل يقول : (وَأَيْضِرْنَ خُمْرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ)^(٢) فأقبلت تضحك من كلامه وقالت : إني والله .

من اللاء لم يحجبجن يبين حسيبة^(٣) وأسكن ليقطن البريء المفعلا^(٤)

فأقبل أبو حازم على أصحابه وقال : تعالوا ندعو الله أن لا يعذب هذه الصورة الحسناء بالنار ، فجعل يدعو وأصحابه يؤمنون^(٥) .

وقال صمرة بن ربيعة ، عن عبد الله بن شوذب : دخلت امرأة جميلة على الحسن البصري فقالت : يا أبا سعيد ، ينبغي^(٥) للرجال أن يتزوجوا على النساء ؟ قال : نعم ، قالت : وعلى مثلي ؟ ثم أسفرت عن وجه لم ير مثله حسناً وقالت : يا أبا سعيد ، لا تُفتتوا الرجال بهذا . ثم ولّت ، فقال الحسن : ما على رجل كانت هذه في زاوية بيته ما فاته من الدنيا !

(١) المشعر : موضع مناسك الحج والمشعر الحرام : جبل بأخر المزدلفة واسمه قروح .

(٢) الآية ٣١ . سورة النور .

(٣) البيت للعرجي .

(٤) في الأغاني للأصفهاني قال : بلغ ذلك سعيد بن المسيب فقال : أما والله لو كان من بعض بنضاء أهل العراق (يريد بهم المتزمتين المتخالفين في الورع) لقال لها : اغربي قمحك الله ! ولكنه ظرف عباد الحجاز .

(٥) لعل الألسب هو : أيحل . كما جاء في تحفة المروس .

وقال عبد الملك بن قُرَيْب^(١) : كنت في بعض مياه العرب فسمعت الناس يقولون : قد جاءت قد جاءت . فتحوّل الناس فقامت معهم ، فإذا جارية قد وردت الماء مارأيت مثلها قط في حسن وجهها وتمام خلقها ، فلما رأيت تشوّف^(٢) الناس إليها أرسلت برّقة^(٣) فكلّما غطت شمساً ، فقلت : لم تمنعينا النظر إلى وجهك هذا الحسن ؟ فأنشأت تقول :

وكنّت متى أرسلت طرّفك رائداً لقابك يوماً أتعبتك المناظرُ
رأيت الذي لا كلّهُ أنت قادرٌ عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

ونظر إليها أعرابي فقال : أنا والله من قلّ صبره ، ثم قال :
أَوْخَشِيَّةَ الْعَيْنِينَ أَيْنَ لَكَ الْأَهْلُ أِبَاتُخَزْنٍ حَلَّوْا أُمَّ مَحَلِّمِ السَّهْلِ
وَأَيَّةَ أَرْضٍ أَخْرَجْتِكِ فَإِنِّي أَرَاكَ مِنَ الْفَرْدَوْسِ إِنْ فُتِّشَ الْأَصْلُ
قَفِي خَبْرَيْنَا مَا طَعِمْتَ وَمَا الَّذِي .

شربت ومن أين استقل بك الرجل^(٤) ؟
لأن علامات الجنان مُبَيِّنَةٌ عليك وإن الشَّكْلَ يشبهه الشَّكْلُ
تناهيت حسناً في النساء فإن يكن لبدر الدُّجَى نسلٌ فَأَنْتِ لَهُ نَسْلُ
وقال آخر^(٥) :

يَا مُنْسَى الْحَزُونَ أَحْزَانَهُ لِمَا أَتَتْهُ فِي الْمَعْرِينَا
إِسْتَقْبَلْتَنَّ بِمِثَالِهَا فَمَنْ يَضْحَكُن وَيُكِينَا

(١) هو الأصمعي (أبو سعيد عبد الملك بن قريب)

(٢) تشوّف : نظر وأطلع .

(٣) استقل بك الرجل : جاء وقدم .

(٤) هو أبو نواس الحسن بن هانيء ، ورواية الأغانى :

يَا مُنْسَى الْمَأْتَمِّ أَحْزَانَهُ لِمَا أَتَاهُمْ فِي الْمَعْرِينَا

تحق لهذا الوجه أن يزدهى^(١) عن حزنه من كان محزوناً
وقال آخر :

أن يرى مكان البدر إن أفل^(٢) البدر وقوى مقام الشمس ما استأخر الفجر
ففيك من الشمس المنيرة ضوءها وليس لها منك التبسم والغفر
وقال آخر :

رقادى ياطرفى عليك حرام فخل دموعاً فيضهن سجام^(٣)
ففى الدمع لطف لئلا صباية لها بين أحناء الضلوع ضرام^(٤)
ويا كبدى الحرى^(٥) التى قد تصدءت من الوجد ذوبى ما عليك ملام
ويا وجه من ذلت وجوه أعزة له وزهى عزاً فليس يرام
أجبر مستجيراً فى الهوى باسطاً إليك يديه والعيون نيام
وذكر الخرائطى عن بعض العلويين قال : بينا أنا عند الحسن بن هانىء
وهو ينشد :

ويلى كل سود العيون النهى الضمر البطون
الناطقات عن الضمير ر لنا بالسنة الجفون
فوقف عليه أعرابى ومعه بُذِيه فقال : أعد على ، فأعاد عليه فقال : يا ابن
أخى ، ويلك أنت وحدك من هذا ؟ ويلى أنا وأنت ، وويل ابنى هذا ، وويل
هذه الجماعة ، وويل جيراننا كلهم .

(١) يزدهى : يتيه بحسنه ، ويحمل من رآه وكان محزوناً على نسيان حزنه .

(٢) أفل : غاب .

(٣) سجام : سائل بكثرة .

(٤) الضرام : لهب النار .

(٥) الحرى : التى يبيت من مرض أو حزن .

وقال الخرائطي : حدثنا يموت بن المزروع ، حدثنا محمد بن حميد ، حدثنا محمد بن سلمة قال : حدثني أبي قال : أتيت عبد العزيز بن المطلب أسأله عن بيعة الجن للنبي صلى الله عليه وسلم بمسجد الأحزاب ما كان بدوها ، فوجدته مستلقيا يتغنى :

فما روصة بالحزن طيبة الثرى يميع الندى جثجاها وعراها^(١)
 بأطيب من أردان عزّة موهنا وقد أوقدت بالمندل الرطب نارها^(٢)
 من الخفرات البيض لم تلق شقوة وبالحسب المكنون صافر نجارها^(٣)
 فإن برزت كانت لعينيك قرّة وإن غبت عنها لم يعمك عارها

فقلت له : أتغنى أصلحك الله وأنت في جلالك وشرفك ؟ فقال : أما والله لأحلتها ركبان نجد ، قال : فوالله ما أكثرت بي وعاد يتغنى :

فما طيبة أدماء خفاقة الحشا تجوب بظلمتها متنون الخماثل^(٤)
 بأحسن منها إذ تقول تدللا وأدمعها تذرّين مشو للكل
 تتمتع بذا اليوم القصير فإنه رهين بأيام الصدود الأطاول
 قال : فندمت على قولي وقلت له : أصلحك الله أتحدثني في هذا بشيء ؟
 قال : نعم حدثني أبي قال : دخلت على سالم بن عبد الله بن عمر رضى الله عنهم
 وأشعب يغنيه :

- (١) الحزن من الأرض : ما غلظ. ويميع الندى يلقيه عنه. والجثجات : نبات
 سهل له زهرة صفراء طيبة الريح. والعرار جمع عرارة : بهار طيب الرائحة.
 (٢) المندل : العود الطيب الرائحة .
 (٣) الخفرات جمع خفرة : وهي الشديدة الحياء. والنجان : الأصل والحسب
 (٤) أدماء : شديدة السمرة. والظلف : الظفر المشقوق للظبية والبقرة ونحوهما
 والمتون جمع متن : الظهر .

مغيرية كالبدر سُنَّةُ وجهها مطهرةُ الأثواب والعِرضُ وافرُ
لها حسبُ ذاكِ وعِرضُ مهذبٌ وعن كل مكروه من الأمر زاجرُ
من اتلفتِ البيض لم تلقَ ريبةً ولم يستميلها عن تقى الله شاعرُ
فقال له سالم : زدني، فغناه :

ألمت بنا والليل داج كأنه جناحُ غرابٍ عنه قد انفضَّ القطارُ
فقلت أطرارُ نوى في رحالنا وما احتملت ليلي سوى طيبها عطرا
فقال له سالم : والله لولا أن تتداوله الرواة لأجزلت جائزتك فإنك من
هذا الأمر بمكان .

قال الخرائطي : حدثنا العباس بن الفضل ، عن بعض أصحابه قال : حججت
سنة من السنين فإني لبالرَّبذة^(١) إذ وقفت علينا جاريةٌ على وجهها بُرُقعٌ فقالت .
يا معشرَ الحجيج ، نَفَرٌ من هُذَيْل ، ذهب بنعمهم السيل ، وقعدت بهم الأيام ،
ماهم مُنْجعة^(٢) ، فنراقبُ فيهم الدار الآخرة ويعرف لهم حق الأخوة ؟ جزاه الله
خييراً . قال : فرضخنا لها ، فقلت لها : هل قلت في ذلك شيئاً ؟ فأنشأت تقول :

كف الزمان توشدتنا عنوةً شلت أناملها عن الأعراب
قومٌ إذا حلَّ العفاة^(٣) بياهم ألفوا نوافلهم بنغير حساب
فقلنا لها : لو أمتعتينا بالنظر إلى وجهك ، فكشفت البرقع عن وجه
لا والله لا تهتدى العقول لوصفه ، فلما رأتنا قد بهتتنا لحسنها أنشأت تقول :

(١) في معجم ياقوت : الربذة : قرية من قرى المدينة .

(٢) النجعة : طلب الكلاء ، ومساقط النيث ، وقصد ذى المعروف المعروفه

(٣) العفاة : الذين افتقروا لايسألون .

الدهرُ أبدى صفحةً قد صانها أبواى قبل تمرس الأيام^(١)
 فتمتعوا بعيونكم فى حسنها وانتهوا جوارحكم عن الآثام
 ثم انصرفت . وكان محمد بن حميد الطوسى يهوى جارية فأرسل إليها مرة
 أترجة^(٢) فبكت بكاء شديداً ، فقيل لها : يوجه إليك من تحببته بهدية
 فبيكين هذا البكاء ؟ فغفت :

أهدى له أحبابه أترجةً فبكى وأشفق من عيانة زاجر^(٣)
 خاف التلونَ والفراقَ لأنها لوان باطنها خلاف الظاهر
 فلما جاءه الرسول أخبره عنها بما أغاظه ، فكتب إليها :^(٤)

ضيعت عهداً فنى لغيبك حافظٍ فى حفظه عجبٌ وفى تضييعك
 وصددت عنه وما له من حيلةٍ إلا الوقوفُ إلى أوان رجوعك
 إن تقتليه وتذهبي بجماله فبحسن وجهك لا بحسن صنيعك
 فلما واقبها الرقعةً بكت حتى راحها من حولها ثم اندفعت تقول :

هل لعينى إلى الرقاد شفيعٌ إن قلبى من السقام مرُوع
 لا ترانى بجلتُ عنك بدمعٍ لا وحق الحبيب مالى دمرعُ
 إن قلبى إليك صبٌّ حزينٌ فاستراحت إلى الأنين الضلوع
 ليس فى العطف يا حبيبى بدعٌ إنما هجر من يُحب بدع

(١) تمرس الأيام : نارسة نوائبها وفواجعها .

(٢) الأترجة : نوع من الليمون يجلو اللون ويزيل الكاف .

(٣) عيانة الخير : زجرها . وهو أن تعتبر بأسمائها ومساقطها فتفamel أو تتشامم .

(٤) الشعر لابن أبى عيثة .

ثم كتبت إليه : أنا مملوكة لا أملك من أمرى شيئاً ، فإذا كان لك في حاجة فاشترني لأكون طوعاً يدريك ، فاشترها فمكثت عنده وكانت من أحظى إيمانه ، حتى قتل في وقعة بآبك الخراساني ، فكانت تتمثل في رثائه بقول أبي تمام :

محمد بن حميد أخلقت ريمه أريق ماء المألى مذ أريق دمه
رأيت بهجاء السيف محتدياً^(١) في النوم بدرأجلت عن وجهه ظلمه
قلقت والدمع من حزن ومن كمد يجرى انسكاباً على الخدين منسجماً
ألم تمت يا شقيق النفس مذ زمن فقال لي لم يمّت من لم يمّت كرمه

فصل

وهذا فصل في ذكر حقيقة الحسن والجمال ما هي ؟ وهذا أمر لا يدرك إلا بالوصف ، وقد قيل : إنه تناسب الخلقة واعتدالها واستواءها . ورب صورة متناسبة الخلقة ، وليست في الحسن هناك . وقد قيل : الحسن في الوجه والملاحظة في العينين . وقيل : الحسن أمر مركّب من أشياء : وضاعة وصباحة وحسن تشكيّل وتخطيط ودموية في البشرة . وقيل : الحسن معنى لا تناله العبارة ، ولا يحيط به الوصف ، وإنما للناس منه أوصاف أمكن التعبير عنها . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الذروة العليا منه ، ونظرت إليه عائشة رضي الله عنها يوماً ثم تبسّمت ، فسألها مِمّ ذلك ؟ فقالت : كأن أبا كبير الهدليّ إنميا عنّاك بقوله :

(١) نجاد السيف : حامله . واحتى : جلس على أليتيه وضم نخذه وساقيه إلى بطنه بذراعيه ليستند . ويقال احتى الثوب : اشتمل به وأداره على ظهره وساقيه .

وَمَبْرَأٍ مِنْ كُلِّ غَيْرِ حَيْضَةٍ وَفَسَادٍ مُرْضِعَةٍ وَدَاءٍ مُغِيلٍ^(١)
وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى أُسْرَةٍ وَجْهَهُ بَرَقَتْ كِبَرُكَ الْعَارِضِ الْمُتَهَالِلِ^(٢)

ولقي بعضُ الصحابةِ راهباً فقال : صف لي محمداً كأنني أنظر إليه فإني رأيت
صفته في التوراة والإنجيل ، فقال : لم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير ، فوق
الربعة ، أبيض اللون مُشرباً بالحجارة جَمَداً ليس بالقَطَطِ ، جَعَتَهُ إلى شَحْمَةِ أُذُنِهِ ،
صَنَتِ الْجَبِينَ ، وَاضَحَ الْخَدَّ ، أَدْعَجَ الْعَيْنَيْنِ ، أَقْنَى الْأَنْفَ ، مَفَاجِ الثَّنَائِيَا ، كَانَ
عُنُقُهُ بِإِرْبَقٍ فَضَّةً ، وَوَجْهُهُ كدَارَةِ الْقَمَرِ ، فَاسَلَّمَ الرَّاهِبُ^(٣) . وفي صفة هند بن
أبي هالة له صلى الله عليه وسلم : لم يكن بالطويل المَمَقَطِ ، ولا بالقصير المتردد .
كَانَ رَبْعَةً مِنْ الرِّجَالِ ، وَلَمْ يَكُنْ بِالْجَمْدِ الْقَطَطِ وَلَا بِالسَّبَطِ ، وَلَمْ يَكُنْ بِالْمُطَهَّمِ
وَلَا بِالْمُسَكَّنِ ، وَكَانَ فِي الْوَجْهِ تَدْوِيرٌ ، أبيض مُشربٌ أَدْعَجُ الْعَيْنَيْنِ ، أَهْدَبُ
الْأَشْفَارِ ، جَلِيلُ الْمَشَاشِ وَالْكُتَدِ ، شَتْنُ الْكَفَيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ ، دَقِيقُ الْمَسْرُوبَةِ ، إِذَا
مَشَى تَقَلَّعَ كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ ، وَإِذَا التَفَتَ التَفَتَ جَمِيعاً . كَانَ الشَّمْسُ تَجْزِي

(١) غير الحيض : بقايا دمه . وأضاف الفساد إلى المرضعة لأنه أراد الفساد
الذي يكون من قبلها . والمغيل من الغيل : وهو اللبن الذي ترضعه المرأة ولدها وهي
خامل ويروى : وداء معضل ، قاله التبريزي في شرح الحاشية . والحديث في الحلية
لأبي نعيم .

(٢) الأسرة جمع سرار : وهي خطوط الجبهة . والعارض : السحاب يعترض في الأفق
والمتهال : المتلائي .

(٣) البائن : المفرط في الطول . والقَطَطُ : القصير الجمعد وكان شعره عليه الصلاة
وسلام بين الجمعدة والسنبطة كما سيأتي بعد هذا . والجمعة : الشعر المجموع على
الرأس ، وقيل الشعر مطلقاً . والصلت : الواسع . والأدعج : الشديد سواد العين
في شدة بياضها والقنا : طول الأنف ودقة أرنبتها وحذب في وسطه . الفلاج : تباعد
ما بين الثنايا والرباعيات خلقة . ودائرة النمر : هالته والحديث مذكور بنحوه في
مختخب كنز العمال وقال : رواه ابن عساكر .

في وجهه . وكان صلى الله عليه وسلم مع هذا الحسن قد أُلقيت عليه المحبة والمهابة ،
فمن وقعت عليه عيناه أحبه وهابه ^(١) وكل الله سبحانه له مراتبَ الجمال ظاهراً
وباطناً . وكان أحسنَ خلق الله خلقاً وخلُقاً ، وأجملهم صورةً ومعنى . وهكذا
كان يوسف الصديق صلى الله عليه وسلم . ولهذا قالت امرأة العزيز للنسوة لما
ارْتَبَهْنَ إِيَّاهُ لِيُعْذِرُنَّهَا فِي مُحَبَّتِهِ : (قَدْ لَكِنَّ الَّذِي لُمْتُنْنِي فِيهِ) ^(٢) أى هذا
هو الذى فتننت به وشغفت بحبه ، فمن يلومنى على محبته وهذا حسن منظره ؟ ثم
قالت : (وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ) ^(٣) أى فنع هذا الجمال ، فباطنه
'حسن' من ظاهره ، فإنه في غاية العفة والنزاهة والبعد عن الخنا ، والمحبة وإن
غُيِبَ محبوبه فلا يجرى لسانه إلا بحساسنه ومدحه . ويتعلق بهذا قوله تعالى في
صفة أهل الجنة : (وَلَقَّاهُمْ نَفْرَةً وَسُرُوراً) ^(٤) فجعل ظواهرهم بالنضرة
وبواطنهم بالسرور ، ومثله قوله : (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) ^(٥)
فإنه لا شئ أشهى إليهم وأقرّ أعيونهم ، وأنعم لبواطنهم من النظر إليه ، فنضّر
وجوههم بالحسن ، ونعمّ قلوبهم بالنظر إليه . وقريب منه قوله تعالى : (وَحُلُّوا

(١) الحديث رواه الترمذى في الشمائل على غير هذا الوجه . الممنط : المفرط
الطول . والمتردد : الداخل بعضه في بعض ، وأما المتلهم (أى الضخم) : الكثير
اللحم ، والمسكثم : المدور الوجه ، والمشرّب : الذى في بياضه حمرة ، والأهدب :
الطويل الأشفار ، المشاش : يريد رموس المناكب ، والكند : مجتمع الكتفين وهو
الكاهل ، والشن : الغليظ الأصابع ، والمسربة : هو الشعر الدقيق الذى كأنه
قضييب من الصدر إلى السرة ، والتقلع : أن يمشى بقوة ، والصبيب : الحدور .

(٢) الآية ٣٢ . سورة يوسف

(٣) الآية ٣٢ . سورة يوسف .

(٤) الآية ١١ . سورة الدهر .

(٥) الآيتان ٢٢ و ٢٣ . سورة القيامة .

أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ^(١) فهذا زينة الظاهر ثم قال : (وَسَعَاءُ لَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا)^(١) أى مُطَهَّرًا لبواطنهم من كلّ أذى . فهذا زينة الباطن . ويشبهه قوله تعالى : (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا)^(٢) فهذا زينة الظاهر ثم قال : (وَلِبَاسُ الْقَوَى ذَلِكَ خَيْرٌ)^(٣) فهذا زينة الباطن . وينظر إليه من طرف خفي قوله تعالى : (وَزَيْنًا أَلَمَّا ، أَلَدُنِيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا)^(٤) فزين ظاهرها بالمصابيح ، وباطنها بحفظها من الشياطين . وقريب منه قوله تعالى : (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ الْقَوَى)^(٥) فذكر الزاد الظاهر والزاد الباطن . وهذا من زينة القرآن الباطنة المضافة إلى زينة ألفاظه وفصاحته وبلاغته الظاهرة . ومنه قوله تعالى لآدم : (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى)^(٦) فقابل بين الجوع والعرى دون الجوع والظمأ ، وبين الظمأ والضحى دون الظمأ والجوع ، فإن الجوع عرى الباطن وذله ، والعرى جوع الظاهر وذله . فقابل بين نفى ذلّ باطنه وظاهره ، وجوع باطنه وظاهره ، والظمأ حرّ الباطن ، والضحى حرّ الظاهر ، فقابل بينهما . وسئل المتنبى عن قول امرئ القيس :

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلذِّمَّةِ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَكَعْبَاءَ ذَاتِ خَلْخَالِ

(١) الآية ٢١ . سورة الدهر .

(٢) الآية ٢٥ . سورة الأعراف .

(٣) الآية ١٢ . سورة فصلت .

(٤) الآية ١٩٧ . سورة البقرة .

(٥) الآيتان ١١٨ و ١١٩ . سورة طه .

(٦) الآية ١٢٩ . سورة البقرة .

ولم أَسْبِ الزَّقِّ الرُّوَّى ولم أقل نَحْلِي كَرَّى كَرَّةً بعد إجمال^(١)
 فقيل له: إنه عيب عليه مقابلة سَبِي الزَّقِّ الرُّوَّى بالسكر، وكان الأحسن
 مقابلته بتبطن الكاعب جمعاً بين اللذتين، وكذلك مقابلة ركوب الجواد للسكر
 أحسن من مقابلته لتبطن الكاعب فقال: هل الذي أتى به أحسن فإنه قابل
 مَرَكُوبَ الشجاعة بمَرَكُوبِ اللذة واللهو، فهذا مَرَكُوبُ الطرب وهذا مَرَكُوبُ
 الحرب والطلب، وكذلك قابل بين السبأين، سبأ الزَّقِّ وسبأ الرق.

قلت. وأيضاً فإن الشارب يفتخر بالشجاعة كما قال حسان:
 ونشربها ففتر كنا ملوكاً وأسدأ ما يُمْنُهُمُنا اللقاء^(٢)
 وهذه جملة اعتراضية من ألعاف الإعتراض^(٣).

وقيل: الحسن ما استنطق أفواه الناظرين بالتسبيح والتهليل كما قيل:
 ذى طلعة سبجان فالق صبحه ومعاطف جلت دين الفارس
 وقال علي بن أبيهم:

طلعت فقال الناظرون إلى تصويرها ما أعظم الله
 ودنت فلما سامت خجلت والتف بالتفاح خنداها
 وكان دمع الرمل^(٤) أسفلها وكان غصن البان أعلاها

(١) سبأ الخروا سبأها: شراها ليشربها والسبأ: الخمر، والسبأ بتشديد الباء: بيعها. والروى: الكثير المروى والزق: وعاء من جلد يحز شعره ولا ينف للشراب وغيره.

(٢) نهته فلاناً عن الشيء: كفه عنه وزجره. وهذا البيت قاله حسان قبل أن يسلم. ولم يشرب الخمر بعد إسلامه.

(٣) لعله يشير إلى أن ما ذكره من أمثلة التقابل ليست من مقصود الكتاب لكنها لا تخو من فائدة يحلو بها الخطاب

(٤) الدعص: قطعة من الرمل مستديرة.

حتى إذا ثَمَلَتْ بنشوتها قرأت كتاب الباه عيناها
وقال آخر :

ذو صورةٍ بَشْرِيَّةٍ قَمَرِيَّةٍ تسنطق الأفواه بالتسبيح
وقال آخر :

وإذا بدت في بعض حاجتها تسنطق الأفواه بالتسبيح
وقال بشار :

تُلْقَى بتسبيحةٍ من حسن ماخُلقت وتستغز حشا الرائي بإرعاد
ولى من أبيات :

يا صورةَ البدر ولا الذى صَوَّرَ ليس البدرُ يحكيك
مُنَى عَلَى المين ولا تبخلى بنظرةٍ فالعين تفديك
وإن تخرَّجت لهذا فكم قد سبَّح الرحمن رأييك
هذا بهذا فازجى أجر من إن غبت عنه ظلَّ ييكك

قال ابن شبرمة : كفاك من الحسن أنه مشتقٌّ من الحسنه . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إذا تم يياض المرأة في حسن شعرها فقد تمَّ حسنُها . وقالت عائشة رضى الله عنها : البياضُ شَطْرُ الحسن . وقال بعض السلف : جعل الله البهاء والهج مع الطول ، والدهاء ، الدَّمامة مع القصر ، والخير فيما بين ذلك .

ومما يُذَمُّ في النساء المرأةُ القصيرةُ الفايضة وهي التي عنها الشاعر بقوله :

وأنت التي حبيت كلَّ قصيرةٍ إلى ولم تشمرْ بذاك القصائر
عنيت قصيراتِ الحجال^(١) ولم أَرِدْ قِصَارَ النِّسَاءِ شرُّ النساءِ البَحَاتِر

(١) الحجال جمع حجل : ساتر كالقبة يزين بالثياب والستور للعروس .

والبحائر : هن النساء القصار الغلاظ . وبعضهم يبالغ في هذا حتى يفضل
المهازيل على السمان .

أنشد الزمخشري :

لأعشق الأبيض المنفوخ من سمين لكنني أعشق السمر المهازيلاً
إني امرؤ أركب المهر المضمّر في يوم الرهان فدعني واركب الفيل
وطائفة تفضل السمان وتقول : السمن نصف الحسن ، وهو يستر كل عيب
في المرأة ويبدى محاسنها . وخيار الأمور أوساطها .

ومما يستحسن في المرأة طول أربعة وهن : أطرافها^(١) ، وقامتها ، وشعرها ،
وعنقها . وقصر أربعة : يدها ، ورجلها ، ولسانها ، وعينها^(٢) ، فلا تبذل ماني
بيت زوجها ، ولا تخرج من بيتها ، ولا تستطيل بلسانها . ولا تطمح بعينها .
وبياض أربعة : لونها ، وفرقها ، وثغرها ، وبياض عينها . وسواد أربعة :
أهدابها ، وحاجبها ، وعينها ، وشعرها . وحررة أربعة : لسانها ، وخذها ، وشفتها
مع لفس^(٣) ، وإشراب بياضها بحمرة . ودقة أربعة : أنفها ، وبنانها ، وخصرها ،
وحاجبها . وغلظ أربعة : ساقها ، وممصمها ، وعجيزتها ، وذلك منها . وسعة
أربعة : جبينها ، ووجهها ، وعينها ، وصدرها . وضيق أربعة : فمها ،
ومنخرها ، وخرق أذنها ، وذلك منها . فهذه أحق النساء بقول كثير :
لو أن عزة خاضت شمس الضحى في الحسن عند موفقٍ لقضى لها

(١) الأطراف هنا : اليدين والرجلان .

(٢) لعله أراء بها المعاني لا الأعيان فلماذا أعقبا بتفسير وبيان .

(٣) اللامس : سواد مستحسن في باطن الشفة .

وقال آخر :

لو أبصرَ الوجهَ منها وهو منهزمٌ ليلاً وأعداؤه من خلفه وقفا
وقال آخر :

يا طيبَ مرعى مُقلّةٍ لم تخفِ بوجنتيهما زَجَرَ حُرّاس
حلت بوجهٍ لم يفيض ماؤه ولم تخضه أعينُ الناس^(١)
وقال آخر :

فلم يزل خدّها رُكنًا ألوذ به والخالُ في خدّها يغنى عن الحجر
وقول الآخر وأنشده للبرّد :

وأحسنُ من ربعٍ ومن وصفِ دِمْنَةٍ ومن جَبَلٍ طَيٍّ ومن وصفكم سلماً^(٢)
تَلَا حُظُّ عَيْنِي عاشقينَ كلاهما له مُقلّةٌ في خد معشوقه ترغى
وأنشد ثعلب :

خُرَاعِيَةِ الْأَطْرَافِ مُرِيَّةً الْحَشَا فَرَارِيَةِ الْعَيْنَيْنِ طَائِيَّةً الْقَمَرِ
وَمَكِّيَّةً فِي الطَّيِّبِ وَالْعِطْرِ دَائِمًا تَبَدَّتْ لَنَا بَيْنَ الْحَطِيمِ وَزَمَرَمِ
ثم قال : وصفها بما يستحسن من كل قبيلة .

وقال صالح بن حسان يوماً لأصحابه : هل تعرفون بيتاً من الغزل في امرأة
خَفِيرة ؟ قلنا : نعم بيتٌ لحاتم في زوجته ماوية :
يضيء لها البيتُ الظليلُ خصاصة^(٣) إذا هي يوماً حاولت أن تبسماً

(١) لم يفيض ماؤه : لم ينضب . وغاض الماء : غار وقل ونقص . ولم تخفله
الاعين : لم تقتحمه .

(٢) الدمنة : آثار الدار أو الناس . وسلع : جبل في المدينة .

(٣) الخصاص جمع خصاصة : وهي الحرق أو الفرجة والخلل في الباب وغيره

قال : ما صنعتُم شيئًا ، قلنا : فبيتُ الأعشى :
 كانِ مِشيتَها من بيت جارتِها مرُّ السحابة لاريث ولا عجل
 قال : جعلها تدخل وتخرج ، قلنا : يا أبا محمد ، فأى بيت هو ؟ قال : قول
 أبى قيس بن الأُسَلت :
 ويكرمها جارأتها فيزُرُها وتعتل عن إتيانِهن فتُعذَر
 قلت : وأحسن من هذا كله ما قاله إبراهيم بن محمد الملقَّب بِنِفْطَوِيَّة
 رحمه الله :

وخبرها الواشون أن خيالها إذا نمت يُغشي مضجعي ووسادي
 تخفُّرها فرطُ الحياء فأرسلت تعيرني غَضْبي بطول رقادي
 وما يستحسن في المرأة رقة أديمها^(١) ، ونعومة مَلَمَسِه كما قال قيس بن ذريح :
 تعلق رُوحى رُوحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نطافاً^(٢) وفي المهد
 فزاد كما زدنا فأصبح نائماً فليس وإن متنا بمَنَفَصِ العهد
 والسكنه باني على كل حادثٍ ومؤنسنا في ظلمة القبر واللحد
 يكاد مسيلُ الماء يخرش جلدُها إذا اغتسات بالماء من رقة الجلد
 قلت : ومن اللبالة في معنى البيت الأخير قولُ أبى نُواس :
 تَوَهَّهْ قَلْبِي فَأَصْبَحَ خَدُّهُ وفيه مكانُ الوَهْمِ من نظاري أثرُ
 ومرَّ بِتَلْبِي خاطرٌ فجرحتُه ولم أرَ جِسْمًا قَطْ يجرحه الفكرُ
 وصالحه كَفِّي فَأَلَمَ كَفُّهُ فن غز كَفِّي في أنامله عقر^(٣)

(١) أديمها : جلدها .

(٢) جمع نطفة : ماء الرجل والمرأة . وهي أيضاً الماء الصافي قل أو كثر .

(٣) عقر : جرح .

ولى من أبيات :

يُدعى الحريرُ أديمها مِن مَّسَّةٍ فَأَدِيمُهَا مِنْهُ أَرْقُ وَأُلْغَمُ

فصل

. فيا أيها العاشق سمعته قبل طرفة فإن الأذن تعشق قبل العين أحياناً ، وحيش
الحبة قد يدخل المدينة من باب السمع كما يدخلها من باب البصر . والمؤمنون
بشتاقون إلى الجنة وما رأوها ، ولو رأوها لكانوا أشدَّ لها شوقاً ، والصَّرورة^(١)
يكاد قلبه يذوب شوقاً إلى رؤية البيت الحرام . فإن شأقتك هذه الصفات وأخذت
بقلبك هذه الحاسن :

فاسمُ بعينيك إلى نِسْوَةٍ مُهُورُهُنَّ الْعَمَلُ الصَّالِحُ
وَحَدَّثَ النَّفْسَ بِعَشْقِ الْأُلَى فِي عَشْقِهِنَّ الْمَتَجَرُّ الرَّابِحُ
وَابْعَثْ عَلَى الْوَصْلِ فَقَدْ أَمَكَنْتَ أَسْبَابَهُ وَوَقَّتْهَا رَائِحُ

فصل

وقد وصف الله سبحانه حُورَ الجنة بأحسن الصفات ، وحلَّاهن بأحسن
الحلَى ، وشوق الخطَّاب إليهنَّ حتى كأنهم يرونهنَّ رؤية العين . قال الطبراني :
حدَّثنا بكر بن مهمل الدميّاطي . حدَّثنا عمرو بن هشام البيروني ، حدَّثنا سليمان
ابن أبي كريمة ، عن هشام بن حسان ، عن الحسن ، عن أمه ، عن أمِّ سلمة رضي
اللهُ عنها قالت : قلت يا رسول الله أخبرني عن قول الله عزَّ وجلَّ : (حُورٌ
عِينٌ)^(٢) قال : « حُورٌ بِيضٌ ، عَيْنٌ ضِحْكُهُنَّ الْعَيُونُ . شعر الحُوراء بِمَنْزِلَةِ

(١) الصَّرورة : الذي لم يحج .

(٢) الآية ٢٢ . سورة الواقعة .

جَنَاحِ النَّسْرِ» قلت : أخبرني عن قوله عز وجل : (كَأَمْثَالِ الْأُنثُرِ الْمَسْكُونِ)^(١) . قال : « صفاؤهنَّ صفاء الدَّرِّ الذي في الأصداف الذي لم تَمَسَّهُ الأيدي » قلت : يارسول الله أخبرني عن قوله : (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ)^(٢) . قال : « خَيْرَاتُ الْأَخْلَاقِ حِسَانُ الْوُجُوهِ » قلت : أخبرني عن قوله : (كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَسْكُونٌ)^(٣) . قال : « رِفَّتُهُنَّ كَرِقَّةُ الْجِلْدِ الذي رَأَيْتَ في داخلِ الْبَيْضَةِ مِمَّا يَلِي الْقَشِيرَ وهو الْغَرَقِيُّ » . قلت : يارسول الله أخبرني عن قوله عز وجل : (عُرُبًا أَتْرَابًا)^(٤) . قال : « هُنَّ اللَّوَاتِي قُبِضْنَ في دارِ الدُّنْيَا مَجَازِرَ رُمُصًا مُنْطَاقًا خَلَقَهُنَّ اللَّهُ بعدَ الْكَبِيرِ لِيُجْلِسَهُنَّ عَذَارَى عُرُبًا مُتَعَشِّقَاتٍ مُتَحَبِّبَاتٍ أَتْرَابًا على ميلاد واحد » . قلت : يارسول الله نساء الدُّنْيَا أَفْضَلُ أم الْحُورِ الْعَيْنِ ؟ قال : « بل نساء الدُّنْيَا أَفْضَلُ من الْحُورِ الْعَيْنِ كَفَضْلِ الظَّهَارَةِ عَلَى الْبَطَانَةِ » . قلت : يارسول الله وبِمِ ذَلِكْ ؟ قال : « بِصَلَاتِهِنَّ وَصِيَامِهِنَّ وَعِبَادَتِهِنَّ » اللَّهُ أَلْبَسَ اللَّهُ وُجُوهُهُنَّ النُّورَ ، وَأَجْسَادَهُنَّ الْحَرِيرَ ، بَيْضُ الْأَلْوَانِ ، خُضْرُ الثِّيَابِ . صُفْرُ الْحُلِيِّ ، يَجْلَمِرُهُنَّ الدَّرُّ ، وَأَمْشَاطُهُنَّ الذَّهَبُ يَقْلُنَّ : نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَمُوتُ ، نَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلَا نَبْأَسُ أَبَدًا . نَحْنُ الْمَقِيَّاتُ فَلَا نَنْظُنُّ أَبَدًا ، أَلَا وَنَحْنُ الرَّاغِبَاتُ فَلَا نَسْخَطُ أَبَدًا ، طُوبَى لِمَنْ كُنَّا لَهُ وَكَانَ لَنَا » قلت : يارسول الله الْمَرْأَةُ مِمَّا تَتَزَوَّجُ الزَّوْجِينَ وَالثَّلَاثَةَ وَالْأَرْبَعَةَ ثُمَّ تَمُوتُ فَتَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَيَدْخُلُونَ مَعَهَا ، مَنْ يَكُونُ زَوْجَهَا ؟ قال : « يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهَا تُخَيَّرُ فَتُخْتَارُ أَحْسَنَهُمْ خُلُقًا فَتَقُولُ : أَيْ رَبِّ إِنْ هَذَا كَانَ أَحْسَنَهُمْ مَعِيَ خُلُقًا في دارِ الدُّنْيَا فَزَوِّجْنِيهِ ، يَا أُمَّ سَلَمَةَ ذَهَبَ

(١) الآية ٢٣ . سورة الواقعة .

(٢) الآية ٧٠ . سورة الرحمن .

(٣) الآية ٤٩ سورة الصافات .

(٤) الآية ٢٧ سورة الواقعة .

حسنُ الخلقِ يُخَيِّرُ الدنيا والآخرة (١) .

فصل

وقد وصفهنَّ الله عزَّ وجلَّ بأنَّهنَّ كواعب ، وهو جمع كاعِبٍ ، وهى المرأة التى قد تكعَّبَ ثديها واستدار ولم يتدَلَّ إلى أسفل ، وهذا من أحسن خلق النساء ، وهو ملازمٌ لِسِنَّ الشَّباب . ووصفهنَّ بالْحُور وهو حسن ألوانهنَّ وبياضه ، قالت عائشة رضى الله عنها : البياضُ نصف الحسن . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إذا تمَّ بياضُ المرأة فى حسن شعرها فقد تمَّ حسنُها ، والعرب تمدح المرأة بالبياض . قال الشاعر :

بَيْضٌ أَوْ اَنْسٌ مَا هَمَّنَ بَرِيئَةً كَطَبَاءِ مَكَّةَ صَيْدُهُنَّ حَرَامٌ
يُحْسِنُ مِنْ لَيْنِ الْحَدِيثِ زَوَانِيًا وَيَصُدُّهُنَّ عَنِ الْخَلْفِ الْإِسْلَامُ

والعَيْنُ جَمْعُ عَيْنَاءٍ ، وهى المرأة الواسعة العين مع شدة سوادها وصفاء بياضها وطول أهدابها وسوادها . ووصفهنَّ بأنَّهنَّ خَيْرَاتٌ حسان وهو جمع خَيْرَةٍ ، وأصلها خَيْرَةٌ بالتشديد كطَبِيبَةٍ ثم خَفَّفَ الحرف ، وهى التى قد جَمَعَتِ الحاسن ظاهراً وباطناً فكَمَّلَ خَلْقَهَا وَخُلُقَهَا فَهِنَّ خَيْرَاتِ الْأَخْلَاقِ حسان الوجوه ، ووصفهنَّ بالطَّهَارَةَ فَقَالَ : (وَلَهُمْ فِيهَا أَرْوَاحٌ مُطَهَّرَةٌ) (٢) طَهْرُنَّ مِنَ الْحَيْضِ وَالْبَوْلِ وَالتَّبَجُّرِ (٣)

(١) ذكره المؤلف فى كتابه حادى الأرواح وعقب عليه بقوله : تفرد به سليمان بن أبى كريمة ضعفه أبو حاتم وقال ابن عدى : عامة أحاديثه مناكير ولم أر للبتقدمين فيه كلاماً ، ثم ساق هذا الحديث من طريقه وقال : لا يعرف إلا بهذا السند .

(٢) الآية ٢٥ سورة البقرة . والآية ٥٦ بغير وار . سورة النساء .

(٣) التَّجْوُ : ما يخرج من البطن من ريح وغازط .

وكلُّ أذى يكون في نساء الدنيا ، وطهرت بواطنهن من الغيرة وأذى الأزواج وتجنبن عليهم وإرادة غيرهم ، ووصفن بأنهن مقصورات في الخيام ، أى ممنوعات من التبرج والتبذل لغير أزواجهن ، بل قد قصرن على أزواجهن لا يخرجن من منازلهم ، وقصرن عليهم فلا يردن سواهم ، ووصفن سبحانه بأنهن قاصرات الطرف ، وهذه الصفة أكمل من الأولى ، ولهذا كن لأهل الجنتين الأولتين ، فالمرأة منهن قد قصرت طرفها على زوجها من محبتها له ورضاها به ، فلا يتجاوز طرفها عنه إلى غيره كما قيل :

أذود سوام الطرف^(١) عنك وماله على أحدي إلا عليك طريق

وكذلك حال المقصورات أيضاً لكن أولئك مقصورات ، وهؤلاء قاصرات ووصفن سبحانه بقوله : (أَبْكَاراً . عُرُباً أَتْرَاباً)^(٢) وذلك لفضل وطء البكر وحلاوته ولذا ذنه على وطء الثيب^(٣) . قالت عائشة رضى الله عنها : يارسول الله لو مررت بشجرة قد رعى منها وشجرة لم يرع منها ففى أيهما كنت ترزع بعيرك ؟ فقال : « فى التى لم يرع منها^(٤) » تعنى أنه لم يتزوج بكراً غيرها . وصح عنه أنه قال لجابر لما تزوج امرأة ثيباً : « هلاً بكراً تلاعبيها وتلاعبيك^(٥) ؟ » فإن قيل : فهذه الصفة تزول بأول وطء فتعود ثيباً ، قيل :

(١) سوام الطرف : النظر يحوم حولها .

(٢) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ . سورة الواقعة .

(٣) الثيب : تذكر وتؤنث . والرجل الثيب هو الذى دخل بامرأة ، والمرأة الثيب هى التى دخل بها .

(٤) أخرجه مسلم وأبو حاتم كما جاء فى مناقب أمهات المؤمنين الحب الطبرى . ورتعت البعير : أكلت ماشاءت .

(٥) رواه الشيخان وأبو دواد والترمذى والنسائى . كما جاء فى تيسير الوصول .

الجواب من وجهين : أحدهما أن المقصود من وطء البكر أنها لم تذق أحداً قبل وطئها فتزرع محبته في قلبها ، وذلك أكمل لدوام العشرة فهذه بالنسبة إليها ، وأما بالنسبة إلى الواطئ فإنه يرعى روضة أنف لم يرعها أحد قبله ، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله : (لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْفَ لَمْ يَرْعَها أَحَدٌ قَبْلَهُ)^(١) ثم بعد هذا تستمر له لذّة الوطء حال زوال البكارة . والثاني أنه قد روى « أن أهل الجنة كلما وطئ أحدُهم امرأة عادت بكراً كما كانت ، فكما أتاها وجدها بكراً »^(٢) . وأما العُربُ فجمع عروب ، وهي التي جمعت إلى حلاوة الصورة حسن التأنى والتبعل والتجيب إلى الزوج بدلتها وحديثها وحلاوة منطقتها وحسن حركاتها ، قال البخاري في صحيحه : وأما الأتراب فجمع ترب يقال : فلان تربى ، إذا كنتما في سن واحد ، فمن مستويات في سن الشباب لم يقصر بهن الصغر ، ولم يزربهن الكبر ، بل شئن سن الشباب . وشبههن تعالى بالؤلؤ المكنون ، وبالبيض المكنون وبالياقوت والمرجان . فخذ من اللؤلؤ صفاء لونه وحسن بياضه ونعومة ملمسه ، وخذ من البيض المكنون وهو المصون الذي لم تنله الأيدي اعتدال بياضه وشو به بما يحسنه من قليل صفره ، بخلاف الأبيض الأمق^(٣) المتجاوز في البياض ، وخذ من الياقوت والمرجان حسن لونه في صفائه وإشراجه ييسر من الحرمة .

بها

(١) الآيتان ٥٦ و ٧٤ . سورة الرحمن .

(٢) رواه الطبري في معجمه وسيأتي قريباً .

(٣) الأمق : الأبيض الناصع البياض بفسير حرمة ، وهو معيب

في لون الإنسان .

فصل

فاسمع الآن وصفهم عن الصادق المصدوق ، فإن مالت النفس وحدتتك بالخطبة وإلا فالإيمان مدخول^(١) . فروى مسلم في صحيحه من حديث أيوب ، عن محمد بن سيرين قال : إما تفاخروا وإما تذاكروا ، الرجال في الجنة أكثر أم النساء ؟ فقال أبو هريرة رضي الله عنه : أو لم يقل أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ كَلِيلَةَ الْبَدْرِ وَالَّتِي تَلِيهَا عَلَى أَضْوَاءِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ ائْتَتَانِ يُرَى مِنْهُنَّ سَوْقُهُمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ وَمَا فِي الْجَنَّةِ أَعَزَبُ » .

وقال الطبراني في معجمه : حدثنا أحمد بن يحيى الحلواني والحسن بن علي القسري قالا : حدثنا سعيد بن سليمان : حدثنا فضل بن مرزوق ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ صُورَةُ الْقَمَرِ كَلِيلَةَ الْبَدْرِ ، وَالزُّمَرَةُ الدَّائِيَةُ عَلَى أَحْسَنِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِزْجَتَانِ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ عَلَى كُلِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ حَلَّةً يُرَى مِنْهُنَّ سَوْقُهُمَا مِنْ وَرَاءِ لُحُومِهِمَا وَحَلَلِهِمَا كَمَا يُرَى الشَّرَابُ الْأَخْمَرُ فِي الرَّجَاجَةِ الْبَيْضَاءِ) . قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي : هذا عندي على شرط الصحيح .

(١) مدخول : داخله الفساد .

وفي الصحيحين من حديث همام بن مننبة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلَا يَمْتَخِطُونَ فِيهَا وَلَا يَتَغَوَّطُونَ فِيهَا ، آتَتْهُمْ وَأَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَتَجَارِمُهُمُ الْأَلْوَةُ ^(١) وَرَشَتْهُمْ الْمِسْكُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يُرَى مَخْضُ سَاقِيهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحَسَنِ ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بِكُرَّةٍ وَعَشِيَّةٍ » .

وقال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده : حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا الخرزج بن عثمان السعدي ، حدثنا أبو أيوب مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قِيدُ سَوْطٍ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلُهَا مَعَهَا ، وَلَقَابُ قَوْسٍ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلُهَا مَعَهَا . وَلَنْصِيفُ امْرَأَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلُهَا مَعَهَا » قال : قلت : يا أبا هريرة وما النّصيف ؟ قال : الخمار فإذا كان هذا قدر الخمار فما قدر لابه ؟

وقال ابن وهب : أخبرنا عمرو أن دَرَّاجاً أبا السّمح حدّثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ الرَّجُلَ فِي الْجَنَّةِ كَتَأْتِيهِ امْرَأَةٌ تَضْرِبُ عَلَى مَنْكِبِهِ فَيَنْظُرُ وَجْهَهُ فِي خَدِّهَا أَصْفَى مِنَ الْمِرْآةِ وَإِنْ أَذْنِي لَوْ لَوْدَةٍ [عَلَيْهَا] كَتَضَىءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَتَسَلَّمُ عَلَيْهِ فَيُرَدُّ [عَلَيْهَا] السَّلَامُ وَيَسْأَلُهَا مَنْ أَنْتِ فَتَقُولُ أَنَا

(١) الألوة : العود المسبدي الذي يتبخّر به . قال الأصمعي : أراها فارسية

الزَّيْدُ ، وَإِنَّهُ لَيَسْكُونُ عَلَيْهَا سَبْعُونَ ثَوْبًا أَذْنَاهَا مِثْلُ النِّعَمَانِ فَيَنْقُذُهَا
بَصَرَهُ حَتَّى يَرَى مُخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءَ ذَلِكَ وَإِنَّ عَلَيْهِمُ التَّيْجَانَ وَإِنَّ أَدْنَى
لُؤْلُؤَةٍ عَلَيْهَا لَتُنْضِي ۚ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ . وبعض هذا الحديث في
جامع الترمذى وهو على شرطه .

وفي صحيح البخارى من حديث أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال « لَعَذْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا
وَأَقَابُ^(١) قَوْسٍ أَحَدِكُمْ أَوْ مَوْضِعُ قَيْدِهِ — يَعْنِي سَوْطُهُ — خَيْرٌ مِنَ
الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلَوْ أَطْلَعْتَ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ لَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا
رِيحًا وَأَضَاءً مَا بَيْنَهُمَا وَلَنَصِيفُهُمَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » .

وفي المسند من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي
صلى الله عليه وسلم : « لِلرَّجُلِ مِنْ [أَهْلِ] الْجَنَّةِ زَوْجَتَانِ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ
عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً يَرَى مُخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءَ الثِّيَابِ » .

وقال ابن وهب : حدثنا عمرو أن دَرَّاجًا أبا السَّمْحِ حَدَّثَهُ عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ ،
عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « إِنْ
أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً الَّتِي لَهُ ثَمَانُونَ أَلْفَ خَادِمٍ وَاثْنَانِ وَسَبْعُونَ زَوْجَةً
وَيُنْصَبُ لَهُ قُبَّةٌ مِنَ لُؤْلُؤٍ وَزَبَرْجَدٍ وَيَأْقُوتٍ كَمَا بَيْنَ الْجَابِيَةِ وَصَنْعَاءَ »
(رواه الترمذى) .

وفي معجم الطبرانى من حديث أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« خُلِقَ الْخُورُ الْعَيْنُ مِنَ الزَّعْفَرَانِ^(٢) » .

(١) قاب القوس : ما بين مقبضه وطرفه .

(٢) ذكره المؤلف في كتابه حادى الأرواح بسند الطبرانى وقال : قال =

فصل

«إِنْ أُرِدْتَ سَمَاعَ غَنَائِهِمْ فَاسْمَعْ خَبْرَهُ الْآنَ . فَنَفِي مَعْبُومِ الطَّبْرَانِيِّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنْ أَزْوَاجُ أَهْلِ الْخَنَةِ لَيُغْنَيْنَ أَزْوَاجَهُنَّ بِأَخْسَنِ أَصْوَاتٍ مَا سَمِعَ أَحَدٌ قَطُّ . إِنْ رَمَا يُغْنَيْنَ بِهِ : نَحْنُ الْخَيْرَاتُ الْحَسَنَاتُ ، أَزْوَاجُ قَوْمٍ كَرَامٍ ، يَنْظُرُونَ بِقُرَّةِ أَعْيَانٍ . وَإِنْ رَمَا يُغْنَيْنَ بِهِ : نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَمُتُّهُ ، نَحْنُ الْأَمِنَاتُ فَلَا نَخَفْنَهُ ، نَحْنُ الْمُقِمَاتُ فَلَا نَطْعَنُهُ . وَقَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى . (فَهْمٌ فِي رَوْضَةِ يُخْبِرُونَ) ^(١) إِنَّهُ السَّمَاعُ الطَّيِّبُ وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ مِنَ الْخَبَرَةِ .

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْبَغَوِيُّ : حَدَّثَنَا عَلِيُّ ، أَنبَأَنَا زُهَيْرٌ ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ ، عَنْ عَاصِمٍ ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا) ^(٢) حَتَّى إِذَا انْتَهَوْا إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهَا وَجَدُوا عِنْدَهُ شَجَرَةً يَخْرُجُ مِنْ تَحْتِهَا سَاقِيَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ، فَعَمِدُوا إِلَى إِحْدَاهَا فَكَأَنَّمَا أَمْرُوا بِهِ فَشَرِبُوا مِنْهَا فَأَذْهَبَ اللَّهُ مَا فِي بَطُونِهِمْ مِنْ قَذَى أَوْ أَدَى أَوْ بَأْسٍ ، ثُمَّ عَمِدُوا إِلَى الْأُخْرَى فَتَطَهَّرُوا مِنْهَا فَجَرَتْ عَلَيْهِمْ نَضْرَةُ النِّعَمِ ، وَلَمْ تَتَغَيَّرْ أَشْعَارُهُمْ بَعْدَهَا أَبَدًا وَلَمْ تَشْعَثْ ^(٣) رُؤُوسُهُمْ كَأَنَّمَا أَذْهَنُوا بِالْذَّهَانِ ، ثُمَّ انْتَهَوْا إِلَى [خَزَنَةٍ] ^(٤)

== الطَّبْرَانِيُّ : لَا يَرَوِي إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ ، تَفَرَّدَ بِهِ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ هَارُونَ ثُمَّ ذَكَرَهُ مِنْ طَرُقٍ أُخْرَى مَوْقُوفَةً وَقَالَ : وَلَا يَصِحُّ رَفْعُ الْحَدِيثِ وَحَسْبُهُ أَنْ يَصِلَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ .

(١) الْآيَةُ ١٥ . سُورَةُ الرُّومِ .

(٢) الْآيَةُ ٧٣ . سُورَةُ الزُّمَرِ .

(٣) تَشَعَّتْ : تَغَيَّرَتْ أَوْ تَنَشَّطَتْ .

(٤) زِيَادَةُ مِنَ الزَّوْجِ لَابْنِ حَجَرَ الْبَيْهَقِيِّ .

الجنة فقالوا : (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)^(١) ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما يطيف ولدان أهل الدنيا بالحميم ، يقدّم عليهم من غيبته فيقولون له : أبشر بما أعدّ الله تعالى لك من الكرامة ، ثم ينطلق غلامٌ من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول : جاء فلان باسمه الذي كان يدعى به في الدنيا قالت : أنت رأيته ؟ قال : أنا رأيته وهو باثرى فيستخفّ إحداهنّ الفرح حتى تقوم على أسكفة^(٢) بابها ، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذا جندل^(٣) اللؤلؤ فوقه صرّح أخضر وأحمر وأصفر من كل لون ، ثم رفع رأسه فنظر إلى سقفه فإذا مثل البرق ولولا أن الله عزّ وجلّ قدره لآلم^(٤) أن يذهب بصره ، ثم طأطأ رأسه فإذا أزواجه وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابى^(٥) مبثوثة ، ثم اتكأوا فقالوا : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ)^(٦) ثم ينادى منادٍ : تَحْيَوْنَ فَلَ تَمُوتُونَ أَبَدًا ، وتقيمون فلا تظعنون أبدًا ، وتَصِحُّون فلا تمرضون أبدًا^(٧) .

وفي سنن ابن ماجه عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَلَا هَلْ مُشِعْتُ لِلْجَنَّةِ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا هِيَ وَرَبُّ السَّعْبَةِ نُورٌ يَتَلَأَلُ وَرِيحَانَةٌ تَهْتَزُّ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ وَنَهْرٌ مُطَرِّدٌ وَبَمَرَةٌ

(١) الآية ٧٣ . سورة الزمر .

(٢) الأسكفة : عتبة الباب .

(٣) الجندل : الصنجر العظيم .

(٤) ألم : أوشك أن يذهب بصره .

(٥) النمارق : جمع نمرقة : الرساءد الصغيرة .

(٦) والزرابى : جمع زربية : الطنافس المخملة والبسط .

(٧) الآية ٤٣ . سورة الأعراف .

(٨) جاء في الزواجر لابن حجر معزواً إلى ابن أبي الدنيا

نَضِيبَةً وَزَوْجَةً حَسَنَاءَ جَمِيلَةً وَحُلُلًا كَثِيرَةً وَمَقَامًا فِي أَرْضٍ فِي دَارٍ سَلِيمَةٍ
وَقَاكِهَةً وَخُضْرَةً وَحَبْرَةً وَنِعْمَةً فِي مَحَلَّةٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ». قالوا : نعم يا رسول الله ،
نَحْنُ الْمُشْمَرُونَ لَهَا ، قال : « قولوا إن شاء الله » . فقال القوم : إن شاء الله
تعالى .

فصل

فهذا وصفهنَّ وحسنهنَّ فاسمع الآن لذةً وصالحنَّ وشأنه، ففي مسند أبي يعلى
الموصلي من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم فذكر حديثاً طويلاً وفيه : « فَأَقُولُ يَا رَبِّ وَعِدْتَنِي الشَّفَاعَةَ فَشَفَعْتَنِي فِي
أَهْلِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فيقول الله تعالى قد شَفَعْتُكَ وَأَذِنْتُ لَهُمْ فِي دُخُولِ
الْجَنَّةِ » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ
مَا أَتَمُّ فِي الدُّنْيَا بِأَعْرَفَ بِأَزْوَاجِكُمْ وَمَسَاكِينِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِأَزْوَاجِهِمْ
وَمَسَاكِينِهِمْ فَيَدْخُلُ رَجُلٌ مِنْهُمْ عَلَى ثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِمَّا يُنْشِئُ اللَّهُ
وَيُذَنِّبِينَ مِنْ وَلَدِ آدَمَ أَهْمَا فَضْلٌ عَلَى مَنْ أَنْشَأَ اللَّهُ بَعِيدَتَهُمَا اللَّهُ فِي الدُّنْيَا
يَدْخُلُ عَلَى الْأُولَى مِنْهُمَا فِي عُرْفَةٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ عَلَى سَرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلٍ
بِاللُّؤْلُؤِ عَلَيْهِ سَبْعُونَ زَوْجًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ وَإِنَّهُ لَيَضَعُ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهَا
ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى يَدَيْهَا مِنْ صَدْرِهَا وَمِنْ وَرَاءِ ثِيَابِهَا وَجِلْدِهَا وَلِحْيَافِهَا وَإِنَّهُ لَيَنْظُرُ
أَحَدُكُمْ إِلَى السَّلَكِ فِي قِصْبَةِ الْيَاقُوتِ كَبِدُهُ لَهَا مِرْآةٌ — يعني وكَبِدُهُ هَالَهُ مِرْآةٌ —
فَبَيْنَا هُوَ عِنْدَهَا لَا يَمْلُهَا وَلَا تَمْلُهُ وَلَا يَأْتِيهَا مِنْ مَرَّةٍ إِلَّا وَجَدَهَا عَذْرَاءً مَا يَنْفَرُ
ذِكْرُهُ وَلَا يَشْتَكِي قُبُلُهَا ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ نُودِيَ إِنَّا قَدْ عَرَفْنَا أَنَّكَ لَا تَمْلُ
وَلَا تَمْلُ إِلَّا أَنَّهُ لَا مَنِيَّ وَلَا مَنِيَّةَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَكَ أَزْوَاجٌ غَيْرُهَا فَيَخْرُجُ
فَيَأْتِيَهُنَّ وَاحِدَةً وَاحِدَةً كَمَا جَاءَ وَاحِدَةً قَالَتْ : وَاللَّهِ مَا فِي الْجَنَّةِ شَيْءٌ

أحسن منك وما في الجنة شيء أحب إلي منك . وهذا قطعة من حديث الصور الطويل الذي رواه إسماعيل بن رافع^(١) .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ للمؤمن في الجنة نخيمة من لؤلؤة واحدة تجوِّف طوله ستون ميلاً للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً » . رواه البخاري وقال : ثلاثون ميلاً .

وفي جامع الترمذي من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يُعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من النساء » قلت : يا رسول الله ويُطبق ذلك ؟ قال : « يُعطى قوة مائة » قال : هذا حديث صحيح غريب .

وفي معجم الطبراني من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قيل : يا رسول الله هل نصل إلى نسائنا في الجنة ؟ فقال : « إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء » وفي لفظ : قلنا يا رسول الله ننضى إلى نسائنا في الجنة ؟ فقال : « إي والذي نفسي بيده إن الرجل لينة في العداة الواحدة إلى

(١) ذكر المؤلف هذا الحديث في كتابه حادي الأرواح وقال : تفرد به إسماعيل بن رافع وقد روى له الترمذي وابن ماجه وضعفه أحمد ويحيى وجماعة . وقال الدارقطني وغيره : متروك الحديث ، وقال ابن عدي : عامة أحاديثه فيها نظر وقال الترمذي : ضعفه بعض أهل العلم وسمعت محمداً - يعني البخاري - يقول : هو ثقة مقارب الحديث . وقال لي شيخنا أبو الحجاج الحافظ : هذا الحديث بمجموع من عدة أحاديث ساقه إسماعيل أو غيره هذه السياقة وما تضمنه معروف في الأحاديث والله أعلم . وذكر قطعة منه في موضع آخر من الكتاب وعقب عليها بهذا وزاد قوله : قلت : ولكن إذا روى مثل هذا ما يخالف الأحاديث الصحيحة لم يلتفت إلى روايته . وأيضاً فالرجل الذي روى عنه القرظي لا يدرى من هو .

مِائَةِ عَذْرَاءَ . قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي : ورجال هذا الحديث عندي على شرط الصحيح .

وفي حديث ثقيط العقيلي الطويل الذي رواه الطبراني وعبد الله بن أحمد في السنة وغيرهما أنه قال : قلت يا رسول الله : أَوَلَنَا فِيهَا أَزْوَاجٌ مُصْلِحَاتٌ ؟ قال : « الصَّالِحَاتُ لِلصَّالِحِينَ تَلْدُوْنَهُنَّ مِثْلَ لَدَائِكُمْ فِي الدُّنْيَا وَيَلْدُوْنَكُمْ غَيْرَ أَنْ لَا تَوَالِدُ » .

وذكر ابن وهب عن عمرو بن الحارث ، عن دراج ، عن عبد الرحمن بن حُبَيْرَةَ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : أُنْعَمُ فِي الْجَنَّةِ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ دَحْمًا دَحْمًا ^(١)) ، فَإِذَا قَامَ عَنْهَا رَجَعَتْ مُطَهَّرَةً بِكَرٍّ . قال الحافظ أبو عبد الله : دراج اسمه عبد الرحمن بن سميان المصري ، وثقه يحيى بن معين ؛ وأخرج عنه أبو حاتم بن حبان في صحيحه وكان بعض الأئمة ينكر بعض حديثه والله أعلم .

وفي معجم الطبراني من حديث أبي التوكل ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِنْ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا جَامَعُوا نِسَاءَهُمْ عُدْنَ أَبْكَارًا) .

وفيه أيضاً من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : هل يتناكح أهل الجنة ؟ فقال : (بَدَّكَرٍ لَا يَمَلُّ وَشَهْوَةٍ لَا تَنْقُطُ دَحْمًا دَحْمًا) .

وفيه أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : أيجامع أهل الجنة ؟ قال : (دَحْمًا دَحْمًا وَلَسَكِنْ لَا مَنِيَّ وَلَا مَنِيَّةَ) .

(١) جاء في التماموس المحيط : دحه دحماً : دفعه شديداً . والمرأة : نسكها والدحم : الأصل .

من قصيدة للمؤلف في وصف الحور^(١)

يا خاطبَ الحور الحسان وطالبًا لوصالهنَّ بجنة الحَيَّوَانِ
لو كنتَ تدري من خطبت ومن طلبت بذلت ما تحوى من الأمانِ
أو كنتَ تعرف أين مسكنها جعلت السعى منك لها على الأجفانِ
أسرع وحثَّ السيرَ جُهدك إنما مسراك هذا ساعة لزمانِ
فاعشق وحدث بالوصال النفسَ وابذل مهرها مادمت ذا إمكانِ
واجعل صيامك دون لقاءها ويوم الوصل يومَ الفطر من رمضانِ
واجعل نعوتَ جمالها المادى وسر نحو الحبيب ولستَ بالمتوانِ
واسمع إذن أوصافها ووصالها واجعل حديثك ربةَ الإحسانِ
يا من يطوف بكعبسة الحسن التي حُفَّتْ بِذَلِكَ الحجر والأركانِ
ويظلُّ يسعى دائماً حول الصفا ومُحَسَّرٌ مسعاه كلَّ أوانِ
ويرومُ قربان الوصال على مَنى وانخيفُ يحجبه عن القربانِ
فلذا تراه مُحرِّماً أبداً ومو ضعُ حلَّةٍ منه فليس بدانِ
يبغى التمتع مفرداً عن حبه متجرداً يبغى شفيحَ قرانِ
ويظلُّ بالجمرات يرمى قلبه هذى مناسكه بكل زمانِ
والناس قد قَضَوْا مناسكهم وقد حثوا ركائبهم إلى الأوطانِ
وحدثت بهم همٌّ لهم وعزائمٌ نحو المنازل ربةَ الإحسانِ
رفعت لهم في السبر أعلامُ الوصال فشعروا يا خيبة الكسلانِ
ورأوا على بُعيد خياماً مُشرفاً تشرقاتِ النور والبرهانِ
فتيسموا تلك الخيام فأنسوا فيهنَّ أقماراً بلا نقصانِ

(١) هي قطعة من قصيدة المؤلف في السنة سماها : « الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية » .

من قاصرات الطرف لا تبغى سوى محبوبها من ضائر الشبان
قَصَرَتْ عليه طَرْفُهَا من حسنه والطرفُ منه مُطْلَقٌ بأمان
ويحار منه الطرف في الحسن الذي قد أعطيت فالطرف كالخيران
ويقول لما أن يشاهد حسنها سبجان معلى الحسن والإحسان
والطرف يشرب من كؤوس جمالها فتراه مثل الشارب النشوان
كملت خلائقها وأكمل حسنها كالبدر ليلَ الست بعد ثمان

* * *

والشمس تجري في محاسن وجهها والليل تحت ذوائب الأغصان
فيظل يعجب وهو موضع ذلك من ليل وشمس كيف يجتمعان
ويقول سبجان الذي ذا صنعه سبجان متقن صنعة الإنسان
لا الليل يدرك شمسها فتغيب عنه حتى الصباح الثاني
والشمس لا تأتي بطرد الليل بل يتصاحبان كلاهما أخوان
وكلاهما مرآة صاحبه إذا ماشاء يُبصر وجهه يريان
فيري محاسن وجهه في وجهها وترى محاسنها به بيمان
حجر الخلدود تغورهن لآلي سود العيون فواتر الأجفان
والبرق يبدو حين يبتسم ثغرها فيضيء سقف القصر بالجدران
ريانة الأعطاف من ماء الشبا ب فعضنها بالماء ذر جريان
لما جرى ماء النعم بفضنها حل الثمار كثيرة الألوان
فالورد والتفاح والرمان في غصن تعالي غارس البستان
والقد منها كالقضيبي اللذن في حسن القوام كأوسط القضبان
في مغرس كالعاج تحسب أنه عالي النقا^(١) أو واحد الكُثبان
لا الظاهر يلحقه وليس تُدريها بلواحق البطن أو بدوان

(١) النقا : الكثيب من الرمل .

أَكْنَهْنَ كَوَاعِبِرْ وَنَوَاهِدْ فَتُدْرِيهِنَّ كَأَحْسَنِ الرُّمَانِ
 وَالْجِيدِ ذُو طُولٍ وَحَسَنِ فِي بَيَا ضِيٍّ وَاعْتِدَالٍ لَيْسَ ذَا نَصْرَانِ
 يَشْكُو الْحِلْيَةَ بَعَادَهُ فَلَهُ مَدَى السَّيَامِ وَشَمَاسٌ مِنَ الْمَجْرَانِ
 وَالْمَعْصَمَانِ فَإِنْ تَشَأْ شَبَّهْنِمَا بِسَبِيكَتَيْنِ عَايِهْمَا كَكَفَّانِ
 كَالزُّبْدِ لَيْثًا فِي نَعُومَةٍ مَائِسٍ أَصْدَافُ دُرٍّ دَوَّرَتْ بَوَازَانَ
 وَالصَّدْرُ مَتَسَعٌ عَلَى بَطْنٍ لَهَا وَالْخَصْرُ مِنْهُمَا مَغْرَمٌ بِثَمَانَ
 وَعَلَيْهِ أَحْسَنُ سُرْقَةٍ هِيَ زِينَةُ اللَّبْنِ قَدْ غَارَتْ مِنَ الْأَعْكَانِ^(١)
 حُقٌّ مِنَ الْعَاجِ اسْتَدَارَ وَحَشَوَهُ حَبَّاتُ مَسْكٍ جَلٌّ ذُو الْإِتْقَانِ
 وَإِذَا نَزَلَتْ رَأَيْتَ أَمْرًا هَائِلًا نَمَالًا لِلصِّفَاتِ عَلَيْهِ مِنْ سُلْطَانِ
 لَا الْحَيْضُ يَغْشَاهُ وَلَا بَوْلٌ وَلَا شَيْءٌ مِنَ الْآفَاتِ فِي النَّسْوَانِ
 فَخِذَانِ قَدْ حَفَّاهُ حَرَسًا لَهُ لُجْنَابُهُ فِي عِزَّةٍ وَصِيْبِيَانِ
 قَامَا بِخِدْمَتِهِ هُوَ السُّلْطَانُ يَسْنِمَا وَحَقٌّ طَاعَةُ السُّلْطَانِ
 وَهُوَ الْمَطَاعُ إِذَا هُوَ اسْتَدْعَى الْحَبِيبَ أَتَاهُ طَوْعًا وَهُوَ غَيْرُ جَبَانِ
 وَجَمَاعُهَا فَهُوَ الشِّفَاءُ لَصَبِّهَا فَالْصَّبُّ مِنْهُ لَيْسَ بِالضَّجْرَانِ
 وَإِذَا أَتَاهَا عَادَتِ الْحَسَنَاءُ بِكِسْرٍ أَمْثَلِ مَا كَانَتْ مَدَى الْأَزْمَانِ
 وَهُوَ الشَّهَى أَلَدُّ شَيْءٍ هَكَذَا قَالَ الرَّسُولُ لِمَنْ لَهُ أُذُنَانِ
 يَارَبِّ غَفْرًا قَدْ طَلَفَتْ أَقْلَامُنَا يَارَبِّ مَعْدَرَةً مِنَ الطُّغْيَانِ
 أَقْدَامُهَا مِنْ فَضَّةٍ قَدْ رُكِّبَتْ مِنْ فَوْقِهَا سَافَانِ مَلْتَفَانِ
 وَالسَّاقُ مِثْلُ الْعَاجِ مَلُومٌ بِهِ مُخُّ الْعِظَامِ تَنْسَالُهُ الْعَيْنَانِ
 وَالرَّيْحُ مَسْكٌ وَالْجَسُومُ نَوَاعِمُ وَاللَّوْنُ كَالْيَاقُوتِ وَالْمَرْجَانِ
 وَكَلَامُهَا يَسِي الْعُقُولَ بِنَعْمَةٍ زَادَتْ عَلَى الْأَوْتَارِ وَالْعِمْدَانِ
 وَهِيَ الْعَرُوبُ بِشَكْلِهَا وَبَدَلَهَا وَتَحْبُّبُ الزَّوْجِ كُلِّ أَوَانِ

(١) جمع عكنة : الملى الذى فى البطن من السم.

أترابُ سين* واحدٍ متائلٍ سنُ الشباب لأجلُ الشبان
بكر* فلم يأخذ بكارتها سوى الـ محبوب من إنيس ولا من جان
يُعطي للمجاميعُ قُوَّةَ المائة التي اجـ تمت لأقوى واحد الإنسان
ولقد أتانا أنه يَغشى بيو م واحد مائة من النسوان
ورجاله شرط الصحيح رَوَّوا لهم فيه وذا في معجم الطبراني
وبذاك فُسر شغلهم في سورة من بعد فاطر^(١) يا أخا العرفان
* * *

هذا دليلٌ أن قدر نساءهم متفاوتت بتفاوتِ الإيمان
وبه يزول توهم الإشكال عن تلك النصوص بمنة الرحمن
في بعضها مائة أتى وأتى بها سبعون أيضاً ثم جاثنتان
فتفاوتت الزوجات مثل تفاوت الـ درجات فالأمران مختلفان
وبقوة المائة التي حصلت له أفضى إلى مائة بلا خوران
وأعقهم في هذه الدنيا هو الـ أقوى هناك زهده في الفاني
فاجمع قواك لما هنا وغضمة لك الطرف واصبر ساعة لزمان
ما هنا والله ما يسوى قُلا مة ظفر^(٢) واحدة من النسوان
ونصيفها خير من الدنيا وما فيها إذا كانت من الأثمان
لا تؤثر الأدنى على الأعلى فإن تفعل رجعت بذلة وهوان
وإذا بدت في حلة من لبسها وتمايلت كتمايل النسوان
تهتز كالنصن الرطيب وحله وردت وتفتاح على رُمان
وتبخترت في مشيها ويمحق ذا لك لملها في جنة الرضوان

(١) يشير إلى قوله تعالى في سورة يس: (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون) فقد فسر كثير من السلف الشغل في هذه الآية بافتضاض الأبكار.

(٢) قلامة الظفر: ما سقط منه.

ووصائف من خلفها وأمامها
كلبدر ليلة تمَّ قد حُفَّ في
فلسانه وفؤاده والطرف في
تستعلق الأفواه بالتسبيح إذ
والقلب قبل زفافها في عرسه
حتى إذا واجهته تقابلا
لسل المتيم هل يحل الصبر عن
وسل المتيم أين خلف صبره
وسل المتيم كيف حاله وقد
من منطق رقت حواشيه ووجه
وسل المتيم كيف عيشته إذا
يتماقطان لآلئاً منشورة
وسل المتيم كيف مجلسه مع آل
وتدور كاسات الرحيق عليهما
يتنازعان الكأس هذا مرة
فيضمها وتضمه أرايت مَع
غاب الرقيب وغاب كل منكد
أتراهما ضجَّرين من ذا العيش لا
باعشقا هانت عليه نفسه
أترى يليق بماقل بيع الذي
وعلى شمائلها وعن أيما
غسق الدجى بكواكب الميزان^(١)
دهش وإعجاب وفي سبحات
تبدو فسبحات العظيم الشأن
والعرس إثر العرس متصلان
أرايت إذ يتقابل القمران
ضم وتقبل وعن فئات
في أي واد أم بأي مكان
ملئت له الأذنان والعينان
كم به الشمس من جرَّان
وها على فرشيهما خلوات
من بين منظوم كنظام جمان^(٢)
محبوب في رُوح وفي ريمان^(٣)
بأ كف أقمار من الولدان
والخود أخرى ثم يتكلمان
شوقين بعد البعد يلتقيان
وها بثوب الوصل مشتعلان
وحياة ربك ماها ضجران
إذ باعها غبنا بكل هوآن
يبقى - وهذا وصفه - بالفاني

(١) النسق : أول ظلمة الليل . والدجى : الظلمة .

(٢) جمع جملة نوبة تعمل من النص كالدارة .

(٣) روح وريمان : في راحة وترحم (رحمة) .

الباب العثرون

في علامات المحبة وشواهدا

وقبل الخوض في ذلك لابد من ذكر أقسام النفوس ومحابها فنقول :
النفوس ثلاثة : نفس سَماوية عُلوية ، فحبتها منصرفة إلى المعارف
واكتساب الفضائل والكمالات الممكنة للإنسان واجتناب الرذائل ، وهي
مشغوفة بما يقربها من الرفيق الأعلى ، وذلك قوتها وغذاؤها ودواؤها ، فاشتغالها
بغيره هو دأؤها .

ونفس سَبعية غضبية ، فحبتها منصرفة إلى القهر والبغى والعلو في الأرض
والتكبر والرئاسة على الناس بالباطل ، فلنتها في ذلك وشغفها به .

ونفس حيوانية شهوانية ، فحبتها منصرفة إلى المأكل والمشرب والمنكح ،
وربما جمعت الأمرين فانصرفت محبتها إلى العلو في الأرض والفساد كما قال الله
تعالى : (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً
مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)^(١) .

وقال في آخر السورة : (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ
عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)^(٢) ، والحب في هذا العالم
دأر بين هذه النفوس الثلاثة ، فأى نفس منها صادفت ما يلائم طبعها
استحسنته ومالت إليه ولم تصغ فيه لعاذل ولم تأخذها فيه لومة لائم . وكل قسم

(٢٠١) الآيتان ٨٣ و ٨٤ سورة القصص .

من هذه الأقسام يرون أن ما هم فيه أولى بالإيثار ، وأن الاشتغال بغيره والإقبال على سواه غيبٌ وفوات حظٌّ . فالنفسُ السماوية بينها وبين الملائكة والرفيق الأعلى مناسبةٌ طَبِيعِيَّةٌ بها مالت إلى أوصافهم وأخلاقهم وأعمالهم .

فالملائكة أولياء هذا النوع في الدنيا والآخرة ، قال الله تعالى : (إِنِّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَكْفُؤُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ)^(١) .

فالملك يتولى من يناسبه بالنصح له والإرشاد والتثبيت والتعليم وإلقاء الصواب على لسانه ، ودفع عدوه عنه ، والاستغفار له إذا زلَّ ، وتذكيره إذا نسي ، وتسليته إذا حزن ، وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف ، وإيقاظه للصلاة إذا نام عنها ، وإبعاد صاحبه بالخير ، وحضه على التصديق بالوعد ، وتحذيره من الركون إلى الدنيا ، وتقصير أمله وترغيبه فيما عند الله . فهو أنيسه في الوحدة ، ووليّه ومعلمه ومثبتّه ومسكن جأشه ، ومرغبه في الخير ، ومحذّره من الشر ، يستغفر له إن أَسَاءَ ، ويدعوه بالثبات إن أَحْسَنَ ، وإن بات طاهراً يذكر الله بات معه في شِعَارِهِ^(٢) ، فإن قصده عدوّ له بسوء وهو نائم دفعه عنه .

(١) الآيات ٣٠ و ٣١ و ٣٢ سورة فصلت .

(٢) الشعار : ماتحت الدثار من اللباس وهو ما يلي الجسد . وشماثر الحج مناسكه وعلاماته .

فصل

والشياطينُ أولياءُ النوعِ الثاني يخرجونهم من النور إلى الظلمات . قال الله تعالى : (تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ) ^(١) وقال تعالى : (كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ) ^(٢) وقال تعالى : (وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرًا مُّبِينًا . يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا . أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا) ^(٣) ، وقال تعالى : (وَإِذَا قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) ^(٤) .

فهذا النوعُ بين نفوسهم وبين الشياطين مناسبةً طَبِيعِيَّةً ، بها مالت إلى أوصافهم وأخلاقهم وأعمالهم ، فالشياطينُ تتولاها بضدَّ ماتتولى للملائكة لمن ناضبهم ، فتؤزُّمهم إلى المعاصي أَرْأَ ، وترجمهم إليها إزعا جناً لا يستقرُّون معه ويزينون لهم القبايح ويخففونها على قلوبهم ويُحَوِّنُهَا فِي نَفْسِهِمْ ، ويقولون عليها الطاعات وَيُذَبِّطُونَهُمْ ^(٥) عنها وبقبحُوتها في أعينهم ، ويلقون على ألسنتهم أنواع القبيح من الكلام وما لا يفيد ، ويزينونه في أسماع من يسمعه منهم ،

(١) الآية ٦٣ . سورة النحل .

(٢) الآية ٤ . سورة الحج .

(٣) الآيات ١١٨ و ١١٩ و ١٢٠ . سورة النساء .

(٤) الآية ٥٠ . سورة الكهف .

(٥) يُبْطِئُهُ عَنِ الْأَمْرِ ثَبْطًا وَتَثْبِيطًا : عوقه ويطأ به عنه ؛ وفمره الجوهرى

بشغله عنه . ومنه قوله تعالى : (وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ) .

يَبْتَغُونَ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَيَقِيلُونَ^(١) مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَيُشارُ كُونَهُمْ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَنَسَائِهِمْ ، يَأْكُلُونَ مَعَهُمْ ، وَيَشْرَبُونَ مَعَهُمْ ، وَيَجَامَعُونَ مَعَهُمْ ، وَيَنَامُونَ مَعَهُمْ ، قَالَ تَعَالَى : (وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا)^(٢) وَقَالَ تَعَالَى : (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ مُهْتَدُونَ . حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَنِيَّ وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ)^(٣) .

فصل

وأما النوع الثالث فهم أشباه الحيوان ، ونفوسهم أرضية سفلية لا تنبأ بغير شهواتها ولا تريد سواها . إذا عرفت هذه المقدمة فعلامات المحبة قائمة في كل نوع بحسب محبوبة ومراده ، فمن تلك العلامات تعرف من أى هذه الأقسام هو ، فنذكر فصولاً من علامات المحبة التي يُستدل بها عليها :
فمنها : إدمان النظر إلى الشيء وإقبال العين عليه ، فإن العين باب القلب وهي المعبرة عن ضمائره والكاشفة لأسراره . وهي أبلغ في ذلك من اللسان ، لأن دلالتها حالية بغير اختيار صاحبها ، ودلالة اللسان لفظية تابعة لقصده ، فترى ناظر المحب يدور مع محبوبة كيف ما دار ، ويجول معه في النواحي والأقطار كما قال :

أَذُودُ سَوَامِ الطَّرْفِ عَنْكَ وَمَالَهُ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَيْكَ طَرِيقٌ

(١) قال يقيم قِيلاً وقِيلولة : نام واستراح وقت القيلولة وهي نصف النهار .

(٢) الآية ٣٧ . سورة النساء .

(٣) الآيات ٣٦ و ٣٧ و ٣٨ . سورة الزخرف .

بل الحبّ في عين المحب-رب تمثاله ، كما في قلبه شخصه ومثاله كما قيل :
ومن تجبّ أنى أحنّ إليهم وأسأل عنهم من لقيتُ وهم معي
وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي
فالمحب نظره وقف على محبوبه كما قال :
إن يحبوها عن العيون فقد حجبت عيني لها عن البشر

فصل

ومنها : إغضاؤه عند نظر محبوبه إليه ورميه بطرفه نحو الأرض ، وذلك من
مهابته له ، وحيائه منه وعظمته في صدره، ولهذا يستهجن الملوك من يخاطبهم وهو
يُحمد^(١) النظر إليهم ، بل يكون خافض الطرف إلى الأرض . قال الله تعالى مخبراً
عن كمال أدب رسوله في ليلة الإسراء : (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى)^(٢) وهذا
غاية الأدب ، فإن البصر لم يزغ يميناً ولا شمالاً ، ولا طمَحَ متجاوزاً إلى ما هو
رائيه ومقبل عليه كالمُتَشَارِفِ^(٣) إلى ما وراء ذلك ، ولهذا اشتدّ نهى النبي صلى
الله عليه وسلم للمصلي أن يزغ بصره إلى السماء ، وتوعدهم على ذلك بخطف
أبصارهم ، إذ هذا من كمال الأدب مع مَنْ المصلي واقف بين يديه ، بل ينبغي له
أن يقف ناكس الرأس مطرقاً إلى الأرض ، ولولا أن عظمة رب العالمين
سبحانه فوق سماواته على عرشه ، لم يكن فرق بين النظر إلى فوق أو
إلى أسفل .

(١) أحد النظر إليه : نظر متأملاً .

(٢) الآية ١٧ . سورة النجم .

(٣) المتشارف : المتطلع .

فصل

ومنها : كثرة ذكر المحبوب واللَّهَجُ ^(١) بذكره وحديثه ، فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره بقلبه ولسانه . ولهذا أمر الله سبحانه عباده بذكره على جميع الأحوال ، وأمرهم بذكره أخوف ما يكونون فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) ^(٢) والمحبون يفتخرون بذكرهم أحبابهم وقت الخاف ومُلاقاة الأعداء كما قال قائلهم :

ذَكَرْتُكَ وَالْخَطِيءُ يَخْطُرُ بَيْنَنَا وَقَدْ نَهَيْتُمُنَا الْمُتَّقَةَ ^(٣) السَّمُرُ

وقال آخر :

ولقد ذَكَرْتُكَ وَالرَّمَاحُ كَانَهَا أَشْطَانُ بَرٍّ فِي لَبَابِ الْأَدَمِ ^(٤)
فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لَأَنْهَا بَرَقَتْ كِبَارِقُ ثَغْرِكَ الْمُبَسَّمِ
وفي بعض الآثار الإلهية : إن عبدي كلَّ عبدي الذي يذكرني وهو مُلاقٍ قِرْنَهُ ، فعلامة المحبة الصادقة ذكرُ المحبوب عند الرغب والرهب . وقال بعض الحبين في محبته :

يَذْكُرُنِيكَ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ وَالَّذِي أَخَافُ وَأَرْجُو وَالَّذِي أَتَوَقَّعُ

(١) اللهج بالشئ : الولوع به . ولهج به : أغرى به فتأثر عليه .

(٢) الآية ٤٦ . سورة الأنفال .

(٣) الخطي : الرماح ، والثفاف : ما تسوى به الرماح .

(٤) في رواية أخرى .

... والرماح نواهل منى وبيض الهند تقطر من دى
والشطن : الحبل الطويل يستقى به من البئر أو تشد به الدابة . واللبان : ماجرى عليه اللب من الصدر . وموضع القلادة .

ومن الذكر الدّالّ على صدق المحبة سبق ذكر المحبوب إلى قلب المحبّ
ولسانه عند أول يقظة من منامه ، وأن يكون ذكره آخر ما ينام عليه كما
قال قائلهم :

آخر شيء أنت في كل هَجَعَةٍ وأوّل شيء أنت وقت هبوبي^(١)

وذكر المحبوب لا يكون عن نسيان مستحكم فإن ذكره بالقوّة في نفس
المحبّ ، ولكن لضيق المحل به يرد عليه ما يُغيب ذكره ، فإذا زال الوارد عاد
الذكر كما كان ، وأعلى أنواع ذكر الحبيب أن يحبس المحبّ لسانه على ذكره ،
ثم يحبس قلبه على لسانه ، ثم يحبس قلبه ولسانه على شهود مذكوره . وكما أن
الذكر من نتائج الحبّ فالحبّ أيضاً من نتائج الذكر ، فكلّ منهما يشمر الآخر ،
وزرع المحبة إنما يُسقى بماء الذكر ، وأفضل الذكر ما صدر عن المحبة .

فصل

ومن علاماتها الاتقيادُ لأمر المحبوب وإيثاره على مراد المحبّ ، بل يتحدّ -
مرادُ الحبّ والمحبوب . وهذا هو الاتحاد الصحيح لا الاتحاد الذي يقوله إخوان
النصارى من الملاحدة ، فلا اتحاد إلّا في المراد ، وهذا الاتحاد علامة المحبة الصادقة
بحيث يكون مراد الحبيب والمحبّ واحداً ، فليس بمحبّ صادقٍ من له إرادةٌ
تخالف مراد محبوبه منه ، بل هذا مريدٌ من محبوبه لا مريدٌ له ، وإن
كان مريداً له فليس مريداً لمراده . فالحبّون ثلاثة أقسام : منهم من يريد من
المحبوب ، ومنهم من يريد المحبوب ، ومنهم من يريد مراد المحبوب مع إرادته
للمحبوب . وهذا أعلى أقسام المحبّين . وزهدُ هذا أعلى أنواع الزهد ، فإنه قد

(١) الهجعة : نومة خفيفة من أول الليل . وهجع : نام ليلاً . والمحبوب :
الاستيقاظ والانتباه : وهب الرجل من نومه : أنبّه واستيقظ .

زهد في كل إرادة تخالف مراد محبوبه ، وبين هذا وبين الزهد في الدنيا أعظم مما بين السماء والأرض . فالزهد خمسة أقسام : زهد في الدنيا ، وزهد في النفس ، وزهد في الجاه والرئاسة ، وزهد فيما سوى المحبوب ، وزهد في كل إرادة تخالف مراد المحبوب . وهذا إنما يحصل بكمال المتابعة لرسول الحبيب .

قال الله تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)^(١) فجعل سبحانه متابعة رسوله سبباً لمحبتهم له ، وكون العبد محبوباً لله أعلى من كونه محبباً لله ، فليس الشأن أن تحب الله ولكن الشأن أن يحبك الله . فالطاعة للمحبيب عنوان محبته كما قيل :

تَعْصِي الْإِلَهِ وَأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ هَذَا مَحَالٌّ فِي الْقِيَاسِ بِدَيْعٍ
لَوْ كَانَتْ حُبُّكَ صَادِقًا لِأَطَعْتَهُ إِنْ الْحُبُّ لِمَنْ يَحِبُّ مَطِيعٌ

فصل

ومن علاماتها قلة صبر المحب عن المحبوب ، بل ينصرف صبره إلى الصبر على طاعته، والصبر عن معصيته، والصبر على أحكامه، فهذا صبر المحب ، وأما الصبر عنه فصبر الفارغ عن محبته، المشغول بغيره قال :

وَالصَّبْرُ يُحْمَدُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا وَعَنِ الْحَبِيبِ فَإِنَّهُ لَا يُحْمَدُ
فَمَنْ صَبَرَ عَنْ مَحْبُوبِهِ أَذَى بِهِ صَبْرُهُ إِلَى فَوَاتِ مَطْلُوبِهِ . وقال بعض المحبين :

مَا أَحْسَنَ الصَّبْرَ وَأَمَّا عَلَى أَنْ لَا أَرَى وَجْهَكَ يَوْمًا فَلَا
لَوْ أَنَّ يَوْمًا مِنْكَ أَوْ سَاعَةً تَبَاعَ بِالدُّنْيَا إِذَا مَا غَلَا

(١) الآية ٣١ . سورة آل عمران .

فصل

ومنها : الإقبال على حديثه وإلقاء سمعه كله إليه ، بحيث يفرغ لحديثه سمعه وقلبه ، وإن ظهر منه إقبال على غيره فهو إقبال مستعار يستبين فيه التكافؤ لمن يرمته كما قال :

وأديم لحظ محدث ليرى أن قد فهمت وعندكم عقلي
فإن أعوزه حديثه بنفسه فأحب شيء إليه الحديث عنه ، ولا سيما إذا
حدث عنه بكلامه فإنه يقيمه مقام خطابه كما قال القائل : المحبون لشيء ألد لهم
ولقلوبهم من سماع كلام محبوبهم وفيه غاية مطلوبهم ، ولهذا لم يكن شيء ألد
لأهل الحجة من سماع القرآن ، وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه
قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرأ على » ، قلت : أقرأ عليك
وعليك أنزل ؟ قال : إني أحب أن أسمع من غيري ، فقرأت عليه من أول
سورة النساء حتى إذا بلغت قوله تعالى : (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ
وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً)^(١) قال : حسبك الآن ، فرفعت رأسي فإذا
عيناه تذرفان^(٢) . وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا
أمر وأقارناً أن يقرأ وهم يستمعون ، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا دخل عليه
أبو موسى يقول : يا أبا موسى ذكرنا ربنا ، فيقرأ أبو موسى وربما بكى عمر .

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي موسى رضى الله عنه وهو يصلي
من الليل فأعجبه قراءته فوقف واستمع لها ، فلما غدا على رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال : « لَقَدْ مَرَرْتُ بِكَ الْبَارِحَةَ وَأَنْتَ تَقْرَأُ فَوَقَفْتُ وَاسْتَمَعْتُ

(١) الآية ٤٠ . سورة النساء .

(٢) رواه البخاري ومسلم في الصحيحين

لِقِرَاءَتِكَ ، فقال لو أعلم أنك كنت تسمع لحبّرتك لك تحبيراً^(١) والله سبحانه وهو الذى تكلم بالقرآن يأذن ويستمع للقارئ الحسن الصوت من محبته لسماع كلامه منه كما قال صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُ أَشَدُّ أَذْنَا إِلَى التَّارِيءِ الْحَسَنِ الصَّوْتِ مِنْ صَاحِبِ الْقَيْمَةِ إِلَى قَيْمَتِهِ »^(٢) — والأذنُ بفتح الهمزة والذال مصدر أذنَ يأذنُ : إذا استمع . قال الشاعر :

أيها القلبُ تعلَّلْ بدَدْنِ^(٣) إنَّ قلبى فى سماعٍ وأذنٍ

وقال صلى الله عليه وسلم : « زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ »^(٤) ، وغلط من قال : إنَّ هذا من المقلوب وإن المراد زينوا أصواتكم بالقرآن . فهذا وإن كان حقاً فالمراد تحسينُ الصوت بالقرآن . وصح عنه أنه قال : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ »^(٥) وهم من فسرهُ بالغنى الذى هو ضدُّ الفقر من وجوه : أحدها : أن ذلك المعنى إنما يقال فيه استغنى لا تغنى . الثانى : أن تفسيره قد جاء فى نفس الحديث يجر به هذا لفظه قال أحمد : نحن أعلم بهذا من سفيان وإنما هو تحسين الصوت به بحسنة ما استطاع . الثالث : أن هذا المعنى لا يتبادر إلى الفهم من إطلاق هذا اللفظ ولو احتمله ، فكيف وبنية اللفظ لا تحتمله كما تقدّم . وبعد هذا فإذا كان من التغنى بالصوت ففيه معنيان : أحدهما : يجعله له مكان الغناء

(١) أخرجه مسلم وأخرجه أبو يعلى بزيادة كما قال ابن حجر العسقلانى .
وجهره : زينه ونمّنه .

(٢) رواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم والبيهقى فى الشعب . كما قال السيوطى .

(٣) الددن : اللهو واللعب .

(٤) أخرجه البخارى تعليقاً فى الصحيح وأخرجه فى خلق أفعال العباد وأخرجه أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه والدارمى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما والدارقطنى والبزار كما قال ابن حجر .

(٥) رواه البخارى وأحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم . كما قال السيوطى .

لأحمر من محبته له ولم يجد به كما يحب صاحب الغناء لغناؤه ، والثاني : أنه يزينه بصوته ويحسنه ما استطاع كما يزين المتغنى غناؤه بصوته ، وكثير من المحبين ماتوا عند سماع القرآن بالصوت الشجي ، فهو لاء قتلى القرآن ، لا قتلى عشاق المردان^(١) والنسوان .

فصل

ومنها: محبة دار المحبوب وبيته حتى محبة الموضع الذي حل به ، وهذا هو السر الذي لأجله علقت القلوب على محبة الكعبة البيت الحرام، حتى استطاب المحبون في الوصول إليها هجر الأوطان والأحباب . ولذا لم فيها السفر الذي هو قطعة من العذاب . فركبوا الأخطار ، وجابوا المفاوز والقفار ، واحتملوا في الوصول غاية المشاق ، ولو أمكنهم لسعوا إليها على الجفون والأحداق .
نعم أسعى إليك على جفوني وإن بعدت لمسراك الطريق
وسر هذه المحبة هي إضافة الرب سبحانه له إلى نفسه بقوله : (وَظَهَرَ بَيِّنَاتٍ لِلْعَاطِفِينَ)^(٢) .

قال الشاعر :

لما اتسبت إليك صرتُ معظماً وعلوتُ قدراً دون من لم يُنسب
وكل ما نسب إلى المحبوب فهو محبوب (وأنه لما قام عبد الله يدعوه)^(٣)
(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ)^(٤) (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ)^(٥)

(١) جمع أمرد: الغلام الذي طر شاربه وبلغ خروج لحيته ولم تبد .

(٢) الآية ٢٦ . سورة الحج .

(٣) الآية ١٩ . سورة الجن .

(٤) أول سورة الإسراء .

(٥) أول سورة الفرقان .

(وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) ^(١) ومن فهم هذا فهم معنى قوله تعالى: (ببئذ أتخبر) ^(٢) وقول عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم: «لبيك وسعديك واتخبر في يدك والشر ليس إليك» ^(٣) وإذا كان من يحب

فأمثله يحب داره كما قال:

أُسرُّ على الديارِ ديارٍ ليلى أقبل ذا الجدارَ وذا الجدارا
وما حبُّ الديارِ شغفٌ قلبي ولكن حبُّ من سكن الديارا
فكيف بمن ليس كمثل شيء ومن ليس كمثل محبته محبة؟

فصل

ومنها: الإسراع إليه في السير، وحثُّ اتركاب نحوه، وطىُّ المنازل في الوصول إليه، والاجتهاد في القرب والدنو منه، وقطع كل قاطعٍ يقطع عنه، وإطراح الأشغال الشاغلة عنه، والزهد فيها، والرغبة عنها، والاستهانة بكل ما يكون سبباً لفضبه ومقته وإن جلّ، والرغبة في كل ما يدنى إليه وإن شقّ، قال الشاعر:

ولو قلت طأ في النار أعلم أنه رضا لك أو مُدْنٍ لنا من وصالك
لقدّمت رجلى نحوها فوطئتها هدّى منك لى أوضلة من ضالك

فصل

ومنها: محبة أحباب المحبوب وجيرانه وخدّامه وما يتعلّق به، حتى حرفته . ساعتها وآنيته وطعامه ولباسه قال:

(١) الآية ٢٢ . سورة البقرة .

(٢) الآية ٢٦ . سورة آل عمران .

(٣) رواه مسلم وغيره وإيس فيه والشر ليس إليك .

أحبُّ بنى العوّام طراً لجنبها ومن أجلبها أحببت أخوالها كلّياً^(١)
وقال آخر :

يشتاق واديهـا ولولا حبُّكم ما شاقه وادٍ زهت أزهاره
وقال الآخر :

فيا ساكني أكناف^(٢) طيّبة كلّكم إلى القلب من أجل الحبيب حبيب
وفي أخبار العشاق أن عاشقاً عشق السراويلات من أجل سراويل معشوقه
فوجد في تركته اثنا عشر حملاً وفردة من السراويلات (ذكره البصري) ،
وعشق آخر الهاوونات من أجل صوت هاوون محبوبته ، فوجد في تركته غدة
آلاف منها ، وعند الناس من هذا عجائب كثيرة . وكان أنس بن مالك رضى
الله عنه يحبّ الدباء^(٣) كثيراً لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم يتبعها من
جوانب القصعة .

فصل

ومنها : قصر الطريق حين يزوره ، ويوافي إليه كأنها تطوى له ، وطولها
إذا انصرف عنه وإن كانت قصيرة قال :

وكنْتُ إذا ماجئت ليلي أزورها أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها
من الخفّرات البيض ودّ جليسها إذا ما انقضت أحدى^(٤) لوتعيدها

(١) تقدم ذكر هذا البيت في صفحة ٢٠٧

(٢) جمع كنف . الناحية ، والجانب ، والظل .

(٣) الدباء : القرع .

(٤) الأحدى : ما يتحدث به ، والجمع أحاديث .

وقال آخر :

والله ما جئتكم زائراً إلا وجدت الأرض تطوى لى
ولا أثنى عزى عن بابكم إلا تسرّت بأذنى
وقال آخر :

وإذا قت عنك لم أمش إلا مشى عان^(١) يقاد نحو الفناء
وإذا جئت كنت أسرع فى السيرة من الطير نازلاً فى الهواء
وقال الآخر :

وتدنو الطريق إذا زرتكم وتبعد إذ أثنى راجعا

فصل

ومنها : انجلاء همومه وغمومه إذا زار محبوبه أو زاره، وعودها إذا فارقه
كما قال :

يزور فتنجلى عني همومي لأن جلاء حزني فى يديه
ويمضى بانسرة حين يمضى لأن حوائتى فيها عليه
ومن المعلوم أنه ليس للمحب فرحة ولا سرور ولا نعيم إلا بمحبوبه ،
وبفارقة محبوبه عذابه الآجل والعاجل .

فصل

ومنها : البهت^(٢) والروعة التى تحصل عند مواجهة الحبيب أو عند سماع
ذكره، ولا سيما إذا رآه فجأة أو طلع عليه بغتة كما قال الشاعر :

(١) عان : أسير أو ذليل أو خاضع . وعنا له يعنوا : خضع وذلل .
(٢) البهت : الدهشة والحيرة .

فما هو إلا أن أراها فجأةً فأنهت حتى ما أكاد أجيب
فأرجع عن رأي الذي كان أولاً وأذكر ما أعددت حين تغيب
وقال آخر :

فما هو إلا أن يراها فجأةً فتصطك رجلاه ويسقط للجنب
وربما اضطرب عند سماع اسمه فجأةً كما قال :

وداع دعا إذ نحن بالتخيف من مقي فهبج أشجان الفؤاد وما يدرى
دعا باسم ليلي غيرها فكأنما أطار بليلى طائراً كان في صدرى

وقد اختلف في سبب هذه الروعة والفرع والاضطراب فقيل : سببه أن
للمحبيب سلطاناً على قلب محبيه أعظم من سلطان الرعية ، فإذا رآه فجأة راعه
ذلك كما يرتاع من يرى من يعظمه فجأة ، فإن القلب معظم لمحبيه خاضع له ،
والشخص إذا فتحه المعظم عنده راعه ذلك . وقيل : سببه انفراج القلب له ،
ومبادرته إلى تلقيه فيهرب الدم منه فيبرد ويرعد ويحدث الاصفرار
والرعدة ، وربما مات . وبالجملة فهذا أمر ذوق وجداني ، وإن لم
يُعرف سببه .

فصل

ومنها : غيرة المحبوبة وعلى محبوبه ، فالغيرة له أن يكره ما يكره ، ويغار إذا
عصى محبوبه وانتهك حتمه وضيع أسرته . فهذه غيرة الحب حقاً ، والدين كله
تحت هذه الغيرة .

فأقوى الناس ديناً أعظمهم غيرة ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في
الحديث الصحيح : « أتعجبون من غيرة سعد لأننا أغير منه والله أغير
(١٨ م — روضة المحبين)

مُنَى» (١) فحُبُّ الله ورسوله يغار الله ورسوله على قدر محبته وإجلاله ، وإذا خلا قلبه من الغيرة لله ورسوله فهو من المحبة أخلى وإن زعم أنه من المحبين ، فكذب من ادعى محبة محبوبٍ من الناس وهو يرى غيره يتهلك حرمة محبوبه ويسعى في أذاه ومساخطه ويستهمين بحقه ويستخف بأمره وهو لا يغار لذلك . بل قلبه بارد ، فكيف يصبح لعبد أن يدعى محبة الله وهو لا يغار لمحارمه إذا انتهكت ، ولا لحقوقه إذا ضيعت . وأقل الأقسام أن يغار له من نفسه وهواه وشيطانه ، فيغار لمحبوبه من تفریطه في حقه وارتكابه لمعصيته .

وأذا تحلّت هذه الغيرة من القلب تحلّت منه المحبة ، بل تحلّ منه الدين وإن بقيت فيه آثاره وهذه الغيرة هي أصل الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي الحاملة على ذلك ، فإن خلت من القلب لم يجاهد ولم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر ، فإنه إنما يأتي بذلك غيرةً منه لربه ، ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى علامة محبته ومحبوبته الجهاد فقال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَئِيْمَةً ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (٢) .

فصل

وأما الغيرة على المحبوب فإنما تُحمدُ حيث يُحمد الاختصاص بالمحبوب ويُذمّ الاشتراك فيه شرعاً وعقلاً كغيرة الإنسان على زوجته وأُمّته والشيء

(١) رواه الشيخان وغيرهما .

(٢) الآية ٥٧ . سورة المائدة ،

الذى يختصُّ هو به ، فيغار من تعرُّض غيره لذكره ومشاركته له فيه ، وهذه الغيرة تختصُّ بالخلق ولا تُنصَّوَر في حقِّ الخالق ، بل المحبُّ لربه يحبُّ أن الناس كلهم يحبُّونه ويذكرونه ويعبدونه ويحمِّدونه ، ولا شيء أقرَّ لعينه من ذلك ، بل هو يدعو إلى ذلك بقوله وعمله .

ولما لم يميز كثيرٌ من الصوفية بين هاتين الغيرتين وقع في كلامهم تضييقٌ قبيح . وأحسن أمره أن يكون من السعي المغفور لا للشكور . وكان بعض جهلهم إذا رأى من يذكر الله أو يحبه يغار منه وربما سكَّته إن أمكنه ويقول : غيرة الحبِّ تحملنى على هذا ، وإنما ذلك حسدٌ وبغىٌ وعدوانٌ ونوعٌ معاداةٍ لله ، ومُراغمةٍ لطريق رسله أخرجوها في قالب الغيرة ، وشبهوا محبة الله بمحبة الصُّور من المخلوقين .

ولا ريب أن هذه الغيرة محمودة في محبة من لا تحسُن مشاركة المحبِّ فيه ، وسيأتى ذلك في باب الغيرة على المحبوب .

فصل

ومنها : بذلُ المحبِّ في رضا محبوبه ما يقدر عليه مما كان يتمتع به بدون المحبة ، والمحبُّ في هذا ثلاثة أحوال : أحدها بذله ذلك تكلُّماً ومشقةً وهذا في أوَّل الأمر ، فإذا قويت المحبة بذله رضا وطوعاً ، فإذا تمكَّنت من القلب غاية التمكن بذله سؤالاً وتضرُّعاً كأنه يأخذه من المحبوب ، حتى إنه ليبتذل نفسه دون محبوبه كما كان الصحابة رضی الله عنهم يَتَّقون رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجرب بنفوسهم حتى يصرَّعوا حوله :

ولى فواذ إذا لجَّ^(١) الغرامُ به هام اشتياقاً إلى لُقيا مُعَذِّبه

(١) لجَّ : تهادى .

يَفْدِيكَ بِالنَّفْسِ صَبًّا^(١) لَوْ يَكُونُ لَهُ أَعْزُّ مِنْ نَفْسِهِ شَيْءٌ فَدَّاهُ بِهِ
وَمَنْ آتَرَ مَحْبُوبَهُ بِنَفْسِهِ فَبِوَالِدِهِ اللَّهِ أَسْنَدُ إِذْ بَارَأَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (النَّبِيُّ
أَوَّلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ)^(٢) وَلَا يَتِمُّ لَهُمْ مَقَامُ الْإِيمَانِ حَتَّىٰ يَكُونَ الرَّسُولُ
أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَضِلَا عَنْ أَبْنَائِهِمْ وَأَبَائِهِمْ كَمَا صَحَّ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ
وَالذَّاسِ أَجْمَعِينَ »^(٣) وَقَالَ لَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ
إِلَىَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي فَقَالَ : « لَا يَأْمُرُ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ
مِنْ نَفْسِكَ » قَالَ : فَوَاللَّهِ لَأَنْتَ الْآنَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي فَقَالَ : « الْآنَ
يَأْمُرُ »^(٤)

فَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنًا مَحَبَّةَ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ فَكَيْفَ بِمَحَبَّتِهِ سُبْحَانَهُ ؟ وَهَذَا النَّوعُ
مِنَ الْحَبِّ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ شَرْعًا وَلَا قَدْرًا، وَإِنْ وَجَدَ فِي النَّاسِ
مَنْ يَثْوُرُ بِمَحْبُوبِهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هُوَ لِمَحَبَّةٍ غَرَضُهُ مِنْهُ ، فَمَحَلُّهُ مَحَبَّةٌ
غَرَضُهُ عَلَى أَنْ يَذَلَّ فِيهِ نَفْسُهُ وَمَالُهُ ، وَابْتِغَاءُ مَحَبَّتِهِ لِذَلِكَ الْمَحْبُوبِ لِنِزَاتِهِ بَلْ
لِغَرَضِهِ مِنْهُ ، وَهَذَا الْمَحْبُوبُ لَهُ مِثْلٌ وَلِمَحَبَّتِهِ مِثْلٌ ، وَأَمَّا مَحَبَّةُ اللَّهِ لَيْسَ لَهَا مِثْلٌ
وَلَا لِلْمَحْبُوبِ مِثْلٌ ، وَلِهَذَا حَكَّمَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فَقَالُوا^(٥) : هَذِهِ أَمْوَالُنَا بَيْنَ يَدَيْكَ فَاحْكَمْ فِيهَا بَمَا

(١) الْعَصَبُ : الْعَاشِقُ الْمَشْتَقُ وَالصَّبَابَةُ : الشُّوقُ ، وَقِيلَ رِقَّةً ، وَقِيلَ حَرَارَةً
وَقِيلَ رِقَّةً الْهَوَى وَالْوَلَعُ الشَّدِيدُ بِالشَّيْءِ .

(٢) الْآيَةُ ٦ . سُورَةُ الْأَحْزَابِ ،

(٣) رَوَاهُ الشَّيْخَانُ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةٍ وَأَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ . كَمَا فِي الْجَامِعِ
الصَّغِيرِ لِلسَّيُوطِيِّ .

(٤) فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ بِبَعْضِ اخْتِلَافٍ .

(٥) الْقَائِلُ هُوَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ . رَوَاهُ أَصْحَابُ السَّيْرِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ مَطُولًا وَرَوَاهُ
مُسْلِمٌ مُخْتَصَرًا .

شئت ، وهذه نفوسنا بين يديك لو استعرضت بنا البحر لخضناه ، نقاتل
بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك . قال قيس بن صيرمة
الأنصاري :

نوى في قریشٍ بضعَ عشرةَ حِجَّةً يذكرُّ لو يَلْقَى حبيباً مؤاتيا
ويعرض في أهل المواسم نفسه فلم يرَ من يؤوى ولم يرَ داعيا
فلما أتانا واستقرت به النوى وأصبح مسروراً بطيبةً راضيا^(١)
بذلنا له الأموال من حل مالنا وأنفسنا عند الوغى والتأسيا^(٢)
نعادى الذى عادى من الناس كلهم جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا
ونعلم أن الله لا ربَّ غيره وأن رسولَ الله أصبح هاديا
فالحب وصفه الإيثار، والمدعى طبعه الاستئثار .

فصل

ومنها : سروره بما يُسرُّ به محبوبه كائنًا ما كان ، وإن كرهته نفسه
فيكون عنده بمنزلة الدواء الكريه ، يكرهه طبعاً ويحبّه لما فيه من الشفاء .
وهكذا الحب مع محبوبه ، يُسرُّ ما يرضى به محبوبه وإن كان كريهاً لنفسه .
وأما من كان واقفاً مع ماتشبهه نفسه من مراضى محبوبه فليست محبته صادقة ،

(١) هذا البيت ملقح هنا من بيتين هما :

فلما أتانا أظهر الله دينه فأصبح مسروراً بطيبة راضيا
والنبي صديقاً واطمأنت به النوى وكان له عوناً من الله باديا
وقد وردت هذه الأبيات في سيرة ابن هشام بزيادة واختلاف
(٢) الوغى : الحرب والجلبة . وآسيته بنفسى : سويته بها .

بل هي محبة معلولة ، حتى يُسرَّ بما ساءه وسرَّه من مراضى محبوبه ، وإذا كان هذا موجوداً في محبة الخلق بعضهم لبعض فالحبيب لذاته أولى بذلك . قال أبو الشيص :

وقف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي متأخراً عنه ولا متقدماً
وأهنتني فأهنت نفسي جاهداً ما من يهون عليك ممن يُكرم
أشبهت أعدائي فصرتُ أحبهم إذ كان حظي منك حظي منهم
أجد اللامة في هواك لذينة حباً لذكرك فلتلني اللوم
وقريب من هذا البيت الأخير قول الآخر :

لئن ساءني أن نلتني بمساءة لقد سرَّني أني خطرتُ ببالك^(١)
وقال الآخر :

صدودك عني إن صددتِ سرُّني ولم أرَ قبلي عاشقاً سرَّ بالصد
سرَّرتُ به أني تيقنتُ أنما دعاك إليه رغبة منك في ودي
ولو كنت فيه ترهدين لساء^(٢) ولكنما عتَبُ الحب من الوجد
فيا فرحة لي إذ رأيتك تفتبي^(٣) على لذنبي فكان مني على عمد
وقال الآخر :

أهوى هواها وطول البعد يعجبها فالبعد قد صار لي في حبها أرباً
فن رأى والهأ قبلي أخا كلِّ ينأى إذا حُبَّه من أرضه قرباً

(١) تقدم هذا البيت مع غيره في صفحة ٧٢ وفيه : وإن ساءني .

(٢) كذا.. ولعل الصواب : لساءني .

(٣) كذا.. ولا وجه لذف النون

وقريب من هذا قول أحمد بن الحسين^(١) :

يا من يَعِزُّ علينا أن نفارَقهم وجداننا كلَّ شيء بعدكم عَدَم
إن كان سرُّكم ما قال حاسدنا فما لجرُح إذا أرضاكم أَلَمْ

واهتدم^(٢) بعضهم هذا فقال :

يا من يَعِزُّ علينا أن نُفِيتَ بهم إذ بُعدنا عنهم قد صار قصْدَم
إن كان يرضيكم هذا البعاد فما فيه لصَبِّكم جَرَحٌ ولا أَلَمْ
ولعمْرُ الله أكثر هذه دعاوى لاحقية لها، والصادقُ منهم يخبر عن علمه
وإرادته ، لاعت حاله وصفته . ولقد أحسن القائل^(٣) :

رَضُوا بالأمانى وأبتلوا بمحظوظهم وخاضوا بحار الحب دعوى وما ابتلوا
فهم في السرى لم يبرحوا من مكانهم
وما ظعنوا^(٤) في السير عنه وقد كلوا

وإن كان هذا هو وصف قائلها بعينه وحاله فإنه خاض بحار الحب وما ابتل
فيه له قدم ، وأخبر عن نفسه عند انكشاف غطاءه وطلب الرسل له لقدومه على
ربه فقال وصدق^(٥) :

إن كان منزلي في الحب عندكم ما قد لقيتُ فقد ضيعت أياي
أمنيةً ظفرت نفسي بها زماناً فالיום أحسبها أضغاث أحلام^(٦)

(١) هو أبو الطيب المتلبي .

(٢) الاهتدام : نوع من السرقات الشعرية .

(٣) هو ابن الفارض .

(٤) ظعنوا : ساروا وارتحلوا .

(٥) هو ابن الفارض .

(٦) أضغاث الأحلام : ما يدخل بعضها في بعض وليست كالصحيحة ولا
تأويل لها لعدم تبيينها . وفي سورة يوسف (قالوا أضغاث أحلام) .

وهذه حال كل من أحبَّ مع الله شيئاً سواه فإنه إلى هذه الغاية يصير ولا بدَّ ، وشيئوا له إذا انكشف الغطاء أنه إنما كان مغروراً بخدوعاً بأمنية ظفرت نفسه بها مدَّة حياته ثم انقطعت وأعقبت الحسرة والندامة . قال الله تعالى : (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَتْخَلَّتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَظِيمَةٍ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)^(١) فالأسباب التي تقطعت بهم هي الوصل والعلاق والمودات التي كانت لغير الله وفي غير ذات الله ، وهي التي يقدَّم إليها سبحانه فيجعلها هباء منثوراً ، فكل محبةٍ لغيره فهي عذابٌ على صاحبها وحسرةٌ عاينه إلا محبته ومحبة ما يدعو إلى محبته ، ويعين على طاعته ومرضاته ، فهذه هي التي تبقى في القلب يوم تُبلى السرائر كما قال :

سبقى لكم في مضمَر القلب والحشا سريرة حبٍّ يوم تُبلى السرائر
وقال آخر :

إذا تصدَّع شملُ الوصل بينهم فلمحبِّين شملٌ غيرُ منصدع
وإن تقطع حبُّ الوصل يومئذٍ فلمحبِّين حبٌّ غيرُ منقطع

فصل

ومنها : حبُّ الوحدة والأنس بالخلوة والتفرُّد عن الناس وكأن المحبة قد ثبتت على ذلك ، فلا شيء أحلى للمحب الصادق من خلوته وتفرُّده ، فإنه إن ظفر بمحبوبه أحبَّ خلوته به ، وكره من يدخل بينهما غاية الكراهة ،

(١) الآيتان ١٦٦ و ١٦٧ سورة البقرة .

ولهذا السرّ - والله أعلم - أمر النبي صلى الله عليه وسلم بردّ المارّ بين يدي المصلي حتى أمر بقتاله، وأخبر أنه لو يدرى ما عليه من الإثم لسكان وقوفه أربعين خيراً له من مروره بين يديه^(١) ولا يجد ألم المرور وشدّة إلاق قلب حاضر بين يدي محبوبه مقبل، وقد ارتفعت الأغيار بينه وبينه، فرور المارّ بينه وبين ربه بمنزلة دخول البغيض بين الحبّ ومحبوبه . وهذا أمر الحالك فيه الذوق فلا ينكره إلا من لم يدق .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : مرور المارّ بين يدي المصلي يذهب نصرت أجره . (ذكره الإمام أحمد) وأيضاً فإنّ المحبّ يستأنس بذكر محبوبه وكونه في قلبه لا يفارقه ، فهو أنيسه وجلسه لا يستأنس بسواه ، فهو مستوحش لمن يشغله عنه . وحدّثنى تقي الدّين بن شقير ، قال : خرج شيخ الإسلام ابن تيمية يوماً فخرجت خلفه ، فلما انتهى إلى الصحراء وانفرد عن الناس بحيث لا يراه أحد سمعته يتمثّل بقول الشاعر^(٢) :

وأخرج من بين البيوت لعلّني أحدث عنك القلب بالسرّ خالياً
فخلوة المحبّ محبوبه غايه أمتيته ، فإن ظفّر بها وإلاّ خلا به في سرّه
وأوحشه ذلك من الأغيار . وكان قيس بن الملوّح إذا رأى إنساناً هرب منه ، فإذا أراد أن يدنو منه ويحادثه ذكر له ليلى وحديثها فيأنس به ويسكن إليه . وينبغي للمحب أن يكون كما قال يوسف لإخوته وقد طلب منهم أخاهم : (فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ)^(٣) .

إِذَا لَمْ تَكُنْ فَيَكُنْ سَعْدِي فَلَا أَرَى لَكِنَّ وَجُوهًا أَوْ أُغْيَبَ فِي لَحْدِي
(١) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه . كما جاء في

الجامع الصغير للسيوطي .

(٢) هو بمنون ليلى كما جاء في تزيين الاسواق للأنطاكي .

(٣) الآية ٦٠ . سورة يوسف .

فصل

ومنها: اشتكاه المحب لمحبوبه وخضوعه وذلك له ، والمحبة مبنية على الذل ، ولا يأنف العزيز الذي لا يذل لشيء من ذله لمحبوبه ، ولا يعدّه نقصاً ولا عيباً ، بل كثير منهم يعدّ ذله عزّاً كما قال :

إذا كنت تهوى من تحب ولم تكن ذليلاً له فاقراً السلام على الوصل
تذل لمن تهوى لتكسب عزّة فكم عزّة قد نالها المرء بالذل
وقال الآخر :

إخضع وذل لمن تحب فليس في شرع الهوى أنف يشال ويعقد^(١)
وقال الآخر :

ويعجبنى ذلّ لديك ولم يكن ليُعجّبنى لولا محبتك الذلّ
وقال آخر :

يلدّ له ذلّ الهوى وخضوعه ولولا الهوى مالدّ للعاقل الذلّ
وقال الآخر :

مساكين أهل الحب حتى قبورهم عليها ترابّ الذلّ دون المقابر^(٢)
ومنى استحك الذلّ والمحبة صار عبودية ، فيصير قلب المحبة معبداً
لمحبوبه ، وهذه الرتبة لا يليق أن تتعلق بمخلوق ، ولا تصلح إلا لله وحده .

(١) تقدم هذا البيت في صفحة ١٨٢

(٢) د د د د د ١٨٢

فصل

ومنها : امتدادُ النَّفْسِ وتردُّدُ الأنفاسِ وتصاعدها . وهذا نوعان :
أحدهما : ما يقارنه حزنٌ ولهفٌ^(١) كما قال القائل :
رُبَّ لَيْلٍ أَمَدَّ مِنْ نَفْسِ الْعَا شَقَّ طَوْلًا قَطَعَتْهُ بِاتِّحَابِ
وقال آخر :

تردُّدُ أنفاسِ المحبِّ يَدُلُّنَا عَلَى كُنْهِ^(٢) مَا أَخْفَاهُ مِنْ أَلَمِ الْحَبِّ
إِذَا خَطَرَاتُ الْحَبِّ خَامَرْنَ قَلْبَهُ تَنْفَسُ حَتَّى ظَلَّ مُتَصَدِّعَ الْقَلْبِ
والثاني : ما يكون سببه طرباً ولذّةً . وسببُ وجودِ الذَّوْعَيْنِ انحصارُ القلبِ
وافتراجه بسببِ الواردِ الذي ورد عليه فأحدثَ لِلنَّفْسِ الذي تروحه عليه الرِّتَّةَ
كَيْفِيَّةً مُؤْذِيَةً وطلبِ إخراجها فهو تنفُّسُ الصُّعْدَاءِ ، وأما تنفُّسُ الراحةِ فإن
القلبَ ينبسطُ بعد انقباضه فيدفعُ الهواءَ المحيطَ به فيطلبُ الخروجَ .

فصل

ومنها : هجرُهُ كُلِّ سَبَبٍ يُقْصِيهِ مِنْ مَحْبُوبِهِ وَيُبْغِضُهُ لِلْحُبُوبِ ، وارتياحُهُ
لِكُلِّ سَبَبٍ يُدْنِيهِ مِنْهُ وَيُسْتَحْمَدُ بِهِ عِنْدَهُ إِذَا بَلَغَهُ عَنْهُ . وفي البابِ عجائبُ
لِلْمُحِبِّينَ ، فكثيرٌ مِنْهُمْ هَجَرَ طَعَامًا أَوْ لِبَاسًا أَوْ أَرْضًا أَوْ صِنَاعَةً أَوْ حَالَةً مِنْ
الْحَالَاتِ كَانَ مَحْبُوبَهُ يَمْتَنُّهَا فَلَمْ يَعُدْ إِلَيْهَا أَبَدًا ، وَلَمْ تَطَاوَعِ نَفْسُهُ بِفَعْلِهِ الْبَتَّةَ .
وكثيرٌ مِنْهُمْ حَمَلَ الْحَبَّ عَلَى اكْتِسَابِ الْمَعَالِي وَالْفَضَائِلِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يَعْلَمُ أَنَّ
الْحُبُوبَ يُعْظِمُهُ وَيُحِبُّهُ . وهذا نوعانِ أَيْضًا :

(١) اللفف : التحسر .

(٢) السكته : جوهر الشيء وحقيقته وغايته وقدره .

أحدهما : أن يكون المحبوب مؤثراً لذلك محباً له ، فالمحب يبذل جهده فيه لينال منه أعلاه إن أمكنه ، فإن كان المحبوب مشغوقاً بجمع المال أثر ذلك في محبة شغفاً أشد من شغفه ، وإن كان مشغوقاً بالعلم اجتهد المحب في طلبه أشد من اجتهداه ، وإن كان مشغوقاً بحرفة أو صناعة حرص المحب على تعلمها إن وجد إلى ذلك سبيلاً ، وإن كان مشغوقاً بالنوادر والحكايات الحسان والأخبار المستحسنة بالغ المحب في تحفظها ، فالمحبة النافعة أن تقع على عشق كامل يحملك عشقه على طلب السكال ، والبلية كل البلية أن تبتلى بمحبة فارغ بطل صفير من كل خير فيحملك حبه على البشبه به .

والثاني : أن يكون المحبوب فارغاً من محبة ذلك وإيثاره ، ولكن المحبة تستخرج من قلب المحب عزماً وإرادة وحرصاً على ما يعظم به في عين المحبوب وقلبه ، فتجده من أحرص الناس على ذلك بحسب استعداده كما قيل :

ويوتاح للمعروف في طلب العلى لتحمّد يوماً عند ليلي شمائله^(١)
: وهذا قد يكون له سبب آخر وهو معاداة الناس له وتنقصهم إياه وإزدرائهم به ، فيجمله الانتحاء لنفسه والغيرة لها ومحبتها على المنافسة في المعالي واكتساب الحمد ، وهذا من شرف النفس وعزّها كما قيل :

من كان يشكر للصديق فإننى أحبو بصالح شكرى الأعداء
هم صيروا طلب المعالى ديدنى حتى وطئت بنعلى الجوزاء^(٢)
ولربما انتفع الفتى بعدوه والسّم أحياناً يكون شفاء
وقال الآخر :

عداى لهم فضل على ومنّة فلا أعدم الرحمن عنى الأعاديا

(١) جمع شمال : أخلاقه وطباعه .

(٢) الدين : العادة لدأب . والجوزاء : برج من أبراج السماء .

همُ بمَحْثُوا عَنْ زَلَّتِي فَاجْتَنَبْتُهَا وَهمُ نَافِسُونِي فَأَكْتَسَبْتُ الْمَعَالِيَا

فصل

ومنها : الاتفاق الواقع بين المحبِّ والمحبوب ، ولا سيما إذا كانت المحبةُ
محبةً مشاكَّلةً ومناسبةً ، فكثيراً ما يمرض المحبُّ بمرض محبوبه ويتحرك
بحركته ولا يشعر أحدهما بالآخر ، ويتكلم المحبوب بكلامٍ فيتكلم المحبُّ به
بعينه اتفاقاً ، فانظر إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمَرَ بن الخطاب رضى الله
عنه يوم أُلْحِدَ يَدِيَّةٌ لِمَا قَالَ لَهُ : « أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَعَدَوْنَا عَلَى الْبَاطِلِ ؟ » قَالَ :
بلى ، قَالَ : « فَعَلَّامَ نُعْطَى الدِّينِيَّةَ فِي دِينِنَا ؟ » فَقَالَ : « إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ
نَاصِرِي وَلَسْتُ أَغْصِيهِ » فَقَالَ : أَلَمْ تَكُنْ تَحْدِثُنَا أَنَا نَأْتِي الْبَيْتَ فَنُطَوِّفُ بِهِ ؟
فَقَالَ : « قُلْتُ لَكَ إِنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ ؟ » قَالَ : لَا ، قَالَ : « فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ
بِهِ » . ثُمَّ جَاءَ أَبَا بَكْرٍ الصَّدِيقَ رضى الله عنه فقال له : « يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ
وَعَدَوْنَا عَلَى الْبَاطِلِ ؟ » قَالَ : بلى ، قَالَ : (فَعَلَّامَ نُعْطَى الدِّينِيَّةَ ^(١) فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ
وَلَا يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا ؟) فَقَالَ لَهُ : إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ وَهُوَ نَاصِرُهُ وَلَيْسَ يَعْصِيهِ ، قَالَ :
أَلَمْ يَكُنْ يَحْدِثُنَا أَنَا نَأْتِي الْبَيْتَ فَنُطَوِّفُ بِهِ ؟ قَالَ : أَفَأَلَمْ يَكُنْ تَأْتِيهِ الْعَامَ ؟ قَالَ :
لَا ، قَالَ : فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُعْطَوٌّ بِهِ . فَأَجَابَ عَلَى جَوَابِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه
وسلم حرفاً بحرف من غير تواطؤٍ ولا تشاعر ، بل موافقةً محبةً للمحبوب . وهكذا
وقع في صحيح البخاري ، ووقع في بعض المغازي أنه أتى أَبَا بَكْرٍ أَوَّلًا فَقَالَ لَهُ
ذَلِكَ ، ثُمَّ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بَعْدَهُ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ .
قَالَ الشَّهْمِيُّ : وَهَذَا هُوَ الْأَوَّلَى وَيُشَبَّهُ أَنْ يَكُونَ الْمُحْفَظُ ، فَإِنَّهُ لَا يُظَنُّ
بِعَمْرِ رضى الله عنه أَنْ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ لَهُ قَوْلًا فَلَا يَرْضَى بِهِ

(١) الدنية والدنى : الحفير ، الضعيف ، الساقط .

حتى يأتي أبا بكر رضى الله عنه بعد ذلك والشبهة عنده لم تنزل فبيعيدها عليه ، ولا يُظنُّ ذلك بعمر رضى الله عنه . ولعمري لقد نزع أبو القاسم بذنوبٍ صحيح ، ولكن المحفوظ هو الذى وقع فى البخارى ، وعليه عامة أهل السير والمسانيد والسنن . وأما ما نسب إليه عمر رضى الله عنه فقد أُجيب عنه بأنه كان يرجو النسخ وموافقة ربه له فى ذلك كما تقدم له أمثالها ، فإنه كان يقول القول فينزل به الوحي ، والثانى أن المقام كان مقام محنةٍ وابتلاءٍ عَجَزَ عنه صبرُهُ أكثر الصحابة ولم يتسع له بطنهم ، وداخلهم من الهم والقلق والتحرُّق على أعدائهم أمرٌ عظيم . ولهذا لما أمرهم أن يحلقوا رؤوسهم وينحروا بذنوبهم لم يقم منهم رجلٌ واحدٌ حتى دخل صلى الله عليه وسلم على أمِّ سَلَمَةَ مُغَضَّبًا فقالت له : من أغضبك أغضبه الله ، فقال : « وَمَا لِي لَا أَغْضِبُ وَأَنَا أَمْرٌ بِالْأَمْرِ فَلَا أُتَّبَعُ ^(١) ؟ » وهذا يردُّ تأويلَ من تأوله على أن القوم كانوا محسنين فى ذلك التثبُّت ، وأنهم كانوا ينتظرون النسخ فلا لوم عليهم . وهذا خطأ قبيحٌ من هذا المعتذر ، بل كانت المبادرة إلى امتثال أوامره صلى الله عليه وسلم أولى بهم ، ولو كانوا محسنين فى التأخير لما اشتدَّ غضبه عليهم ولكان أولى منهم بانتظار النسخ ، بل هذا من سعيهم المغفور الذى غفره الله لهم بكمال إيمانهم ونصحهم لله ورسوله ، وعَدَرَهُمُ الله سبحانه لقوَّة الوارد وضعفهم عن حمله حتى لم يحمله عمر رضى الله عنه فى قوَّته وشدة ، واحتمله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وكان جوابهما من مشكاة ^(٢) واحدة .

ولما احتمل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحكم السكونى الأمري

(١) رَوَاهُ بِمَجْهَوِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ وَأَحَدٌ فِي مُسْنَدِهِ .

(٢) الْمَشْكَاةُ : الْكُوَّةُ غَيْرُ النَّافِذَةِ . وَقِيلَ الْإِنْبُوءَةُ فِي وَسْطِ الْقَنْدِيلِ . قَالَ تَعَالَى

(مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْلَاةٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ) .

الذى حكم الله له به ورضى به وأقر به ودخل تحته طوعاً وإقياداً - وهو الفتح الذى فتح الله له - أثابه الله عليه بأربعة أشياء : مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وإتمام نعمته عليه ، وهدايته صراطاً مستقيماً ، ونصر الله له نصراً عزيزاً . وبهذا يقع جواب السؤال الذى أورده بعضهم ها هنا فقال : كيف يكون حكم الله له بذلك علّة لهذه الأمور الأربعة إذ يقول الله تعالى : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا . لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)^(١) الآية ، وجوابه ما ذكرنا أن تسليمه لهذا الحكم والرضا به والافتقار له والدخول تحته أوجب له أن آتاه الله ذلك ، والمقصود إنما هو ذكر الاتفاق بين المحب والمحبوب ، وهذا الذى جرى للصديق رضى الله عنه من أحسن المواقفة ، ومن هذا موافقة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه لربه تعالى فى عدة أمور قالها فنزل بها الوحي كما قال . وتقوى هذه المرافقة حتى يعلم المحب بكثير من أحوال محبوبه وهو غائب عنه ، وهذا بحسب تعلّق المهمة به وتوجّه القلب إليه واتحاد مراده بمراده ، وربما اقتضى ذلك اتفاقهما فى المرض والصحة والفرح والحزن وألحلق ، فإن كان مع ذلك بينهما تشابه فى الخلق الظاهر فهو الغاية فى الاتفاق . ولنقتصر من العلامات على هذا القدر وبالله التوفيق .

(١) أول سورة الفتح .

الباب الحادي والعشرون

في اقتضاء المحبة أفراد الحبيب بالحب وعدم التفرُّك بينه وبين غيره فيه

هذا من موجبات المحبة الصادقة وأحكامها ، فإن قوى المحبة متى انصرفت إلى جهة لم يبقَ فيها مَنَسَعٌ لغيرها . ومن أمثال الناس : « ليس في القلب حُبَّان ، ولا في السماء رَبَّان » ومتى تقسَّمت قوى الحب بين عدَّة محالَّ ضُعُفت لِمَحَالَّة وتأمل قوله سبحانه وتعالى : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنْ كَانَ اللَّهُ كَانَ عَلَيْهِ حَكِيمًا . وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنْ كَانَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ^(١)) كيف أمره بتقواه للتعصُّم لإفراده بامتناله أمره ونهيه محبةً له وخشيةً ورجاءً ، فإن التقوى لا تتم إلاً بذلك ، واتباع ما أوحى إليه المتضمن لتركه ماسوى ذلك واتباع المَنَزَلِ خاصة ، وبالتوكل عليه وهو يتضمن اعتماد القلب عليه وحده وثقته به وسكوته إليه دون غيره . ثم أتبع ذلك بقوله : « مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ^(٢) » فأنت تجد تحت هذا اللفظ أن القلب ليس له إلاً وجهٌ واحدة إذا مال بها إلى جهة لم يَمَلْ إلى غيرها ، وليس للعبد قلبان يطيع الله ويتبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما والآخر لغيره ، بل ليس إلاً قلبٌ واحد ، فإن لم يفرِّد بالتوكل والمحبة والتقوى ربه وإلاً ^(٣) انصرف ذلك إلى غيره ، ثم استطرد من ذلك إلى أنه سبحانه لم يعمل زوجة الرجل أمه ، واستطرد منه إلى

(١) أوائل سورة الأحزاب .

(٢) الآية ٤ . سورة الأحزاب .

(٣) كذا . . والظاهر أنها زائدة .

أنه لم يجعل دَعِيَّه ابنَه ، فانظر ما أحسنَ هذا التأصيل وهذا الاستطراد الذي تسجد له العقول والألباب ، وله نظائر في القرآن عديدة ، فمنها قوله : (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) ^(١) فالنفسُ الواحدةُ وزوجُها آدمُ وحواءُ ، والذنان جعلاهُ شركاءَ فيما آتاهما المشركون من أولادهما ، ولا يُلْتَقَتُ إلى غير ذلك مما قيل إن آدم وحواء كانا لا يعيش لهما ولدٌ فأتاهما إبليس فقال : إن أحببنا أن يعيش لكما ولدٌ فسمياه عبد الحارث فعلا ، فإن الله سبحانه اجتباه وهداه فلم يكن ليشرك به بعد ذلك . ونظيرُ هذا الاستطراد قوله : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ بِي مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) ^(٢) ثم قال : «وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا» ^(٣) فإنهم كانوا يفعلون ذلك في الإحرام ، فلما ذكر لهم وقت الإحرام الذي هو من فوائد الأَهْلِ استطرَد منه إلى ذكر ما يفعلونه فيه ، وهو كثيرٌ جداً .

والمقصودُ أن المحبة تستلزم توحيد المحبوب فيها ، وقد بالغ أبو محمد بن حزم في إنكاره على من يزعم أنه يعشق أكثرَ من واحدٍ وقال في ذلك شعراً ، ونحن نذكر كلامه وشعره ، قال بعد كلامٍ طويل : ومن هذا دخل الغلط على من يزعم أنه يحب اثنين ويعشق شخصين متغايرين ، وإنما هذا من جهة الشهوة التي ذكرنا آنفاً ، وهي على المجاز تسعى محبة لا على التحقيق ، وأما نفس المحب

(١) الآيتان ١٨٨ و ١٨٩ . سورة الأعراف .

(٢) الآية ١٨٩ . سورة البقرة .

فما في الليل به فضلٌ يُصرفه من أسباب دينه ودنياه ، فكيف بالاشتغال بحب
ثاني، وفي ذلك أقول :

كُذِّبَ المدعى هوى اثنين حتماً مثل ماني الأصول أ كُذِّبَ ماني^(١)
ليس في القلب موضعٌ لحبيبين ولا أحدث الأمور اثنين
فكما العقل واحدٌ ليس يدرى خالقاً غير واحدٍ رحمان
فكذا القلب واحدٌ ليس يقوى^(٢) غير فردٍ مُباعدٍ أو مُدان
هر في شريعة المودة ذو شكٍّ بعيدٍ من صحة الإيمان
وكذا الدين واحدٌ مستقيمٌ وكفورٌ من عنده دينان
وقد اختلف الناس في هذه المسألة فقالت جماعة : ليس للقلب إلا وجهةٌ
واحدةٌ إذا توجه إليها لم يمكنه التوجه إلى غيرها ، قالوا : وكما أنه لا يجمع فيه
إرادتان معاً فلا يكون فيه حُبَّان ، وكان الشيخ إبراهيم الرقي رحمه الله يميل إلى
هذا . وقالت طائفة : بل يمكن أن يكون له وجهتان فأكثر باعتبارين ، فيتوجه
إلى أحدهما^(٣) ولا يشغله عن توجهه إلى الآخر ، قالوا : والقلب حمالٌ فاحتمانه
تحمل ، فإذا حتمته الأثقال حملها ، وإن استعجزته مجز عن حمل غير ما هو فيه ،
فالقلب الواسع يجمع فيه التوجه إلى الله سبحانه وإلى أمره وإلى مصالح عباده ،

(١) ماني : صاحب مذهب المانوية ، ولد في بابل عام ٢١٥ وهو من القائلين
بالتناسخ وبقدم الظلمة والنور وأزليتهما . ويزعم أن الليل يخلق الشر والنهار
يخلق الخير . وفي دينه من الضلالات والخزعبلات ما يفوق الأساطير . ومن
أغرب ما يدعو إليه تهريم الزواج وإباحة اللواط كما يحرم ذبح الحيوانات ويحل
أكلها ميتة ١١

(٢) كذا .. ولعل الصواب يهوى كما يدل عليه البيت الأول .

(٣) كذا .. بالتذكير بعد قوله وجهتان . ولعل الصواب هو التأنيت ،

ولا يَشْغُلُهُ واحدٌ من ذلك عن الآخر ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلبه متوجهً في الصلاة إلى ربه وإلى مراعاة أحوال مَنْ يصلي خلفه ، وكان يسمع بكاء الصبي فيخفف الصلاة خشية أن يَشُقَّ عَلَى أمه^(١) أفلا ترى قلبه الواسع الكريم كيف اتسع للأميرين؟ ولا يُظَنُّ أن هذا من خصائص النبوة ، فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يجهز جيشه وهو في الصلاة ، فيتسع قلبه للصلاة والجهاد في آن واحد ، وهذا بحسب سعة القلب وضيقة وقوته وضعفه . قالوا : وكما العبودية أن يتسع قلب العبد لشهود معبوده ومراعاة آداب عبوديته ، فلا يَشْغُلُهُ أحد الأمرين عن الآخر ، وهذا موجود في الشاهد ، فإن الرجل إذا عمل عملاً للسلطان مثلاً بين يديه وهو ناظر إليه يشاهده ، فإن قلبه يتسع لمراعاته وإتقانه ، وشهود إقبال السلطان عليه ورؤيته له ، بل هذا شأن كل محبٍّ يعمل لمحبوبه عملاً بين يديه أو في غيبته ، قالوا : وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى يوم موت ابنه إبراهيم فكان بكاءً رحمةً له ، فاتسع قلبه لرحمة الولد وللرضا بقضاء الله ، ولم يَشْغُلْهُ أحدُهما عن الآخر ، لكن الفضيل لم يتسع قلبه يوم موت ابنه لذلك فجعل يضعك ، فقيل له : أتضحك وقد مات ابنك ؟ فقال إن الله سبحانه قضى بقضاء فأحببت أن أرضى بقضائه . ومعلوم أن بين هذه الحال وحال رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذٍ تفاوت لا يعلمه إلا الله . ولكن لم يتسع قلبه لما اتسع له قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونظيرُ هذا اتساع قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم لغناء الجويريتين اللتين كانتا تغنيان عند عائشة رضى الله عنها فلم يَشْغُلْهُ ذلك عن ربه ، ورأى فيه من مصلحة إرضاء النفوس الضعيفة بما يستخرج منها من محبة الله ورسوله ودينه ، فإن النفوس متى نالت شيئاً من حظها طوَّعت ببذل ما عليها من الحق ، ولم يتسع

(١) هو في البخارى ومسلم والترمذى والنسائى . كما جاء في تفسير الرصول .

قلب عمر لذلك لما دخل فأنكره ، وكم بين من ترد عليه الواردات فكل منها يثيرهته ويحرك قلبه إلى الله كما قال القائل :

يَذْكُرُ نَبِيَّكَ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ وَالَّذِي أَخَافُ وَأَرْجُو وَالَّذِي أُتَوَّقِعُ ^(١)
ومن يرد عليه من الواردات فيشغله عن الله ويقطعه عن سير قلبه إليه . فالقلب الواسع يسير بالخلق إلى الله ما أمكنه ، فلا يهرب منهم ولا يلحق بالقفار ^(٢) والجبال والخلوات ، بل لو نزل به من نزل سار به إلى الله ، فإن لم يسر معه سار هو وتركه ، ولا ينكر هذا فالمحبة الصحيحة تقتضيه ، وخذ هذا في المغنى إذا طرب ، فلو نزل به من نزل أطربهم كلهم ، فإن لم يطربوا معه لم يدع طربه لغلظ أكبادهم وكثافة طبعهم . وكان شيخنا يميل إلى هذا القول وهو كما ترى قوته وحجته .

والتحقيق أن المحبوب لذاته لا يمكن أن يكون إلا واحداً ، ومستحيل أن يوجد في القلب محبوبان لذاتهما ، كما يستحيل أن يكون في الخارج ذاتان قائمتان بأنفسهما كل ذات منها مستغنية عن الأخرى من جميع الوجوه ، وكما يستحيل أن يكون للعالم ربان متكافئان مستقلان ، فليس الذي يحب لذاته إلا الإله الحق الغنى بذاته عن كل ماسواه وكل ماسواه فقير بذاته إليه . وأما ما يحب لأجله سبحانه فيتعبد . ولا تكون محبة العبد له شاغلة له عن محبة ربه ولا يشركه معه في الحب ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب زوجاته وأحبهن إليه عائشة رضي الله عنها ، وكان يحب أباهما ويحب عمر رضي الله عنهم ، وكان يحب أصحابه وهم مراتب في حبه لهم ، ومنع هذا فحبه كله لله وقوى حبه جميعها منصرفة إليه سبحانه .

(١) تقدم هذا البيت في الصفحة ٢٦٤ .

(٢) جمع قفرة : مغارة لانيات فيها ولا ماء . وأقفر الدار : خلت ،

فإن المحبة ثلاثة أقسام : محبة الله ، والمحبة له وفيه ، والمحبة معه . فالمحبة له وفيه من تمام محبته وموجباتها لامن قواطعها ، فإن محبة الحبيب تقتضى محبة ما يحبُّ ومحبة ما يعين على حبه ويوصل إلى رضاه وقربه ، وكيف لا يحبُّ المؤمن ما يستعين به على مرضاة ربه، ويتوصل به إلى حبه وقربه؟ وأما المحبة مع الله فهي المحبة الشريكية ، وهي كحبة أهل الأنداد لأندادهم كما قال تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ)^(١) وأصل الشرك الذى لا يغفره الله هو الشرك فى هذه المحبة ، فإن المشركين لم يزعموا أن آلهتهم وأوثانهم شاركت الربَّ سبحانه فى خلق السموات والأرض وإنما كان شركهم بها من جهة محبتها مع الله فوالوا عليها وعادوا عليها وتألموها وقالوا : هذه آلهة صغارٌ تقرَّبنا إلى الإله الأعظم . ففرق بين محبة الله أصلاً والمحبة له تبعاً والمحبة معه شركاً . وعليك بتحقيق هذا الموضع فإنه مفرق الطرق بين أهل التوحيد وأهل الشرك .

ويحكى أن الفضيل دخل على ابنته فى مرضها فقالت له : يا أبت هل تحبني ؟ قال : نعم ، قالت : لا إله إلا الله ، والله ما كنت أظن فيك هذا ، ولم أكن أظنك تحب مع الله أحداً ، ولكن أفرد الله بالمحبة واجعل لى منك الرحمة أى يكون حبك لى حب رحيم جعلها الله فى قلب الوالد لولده لا محبة مع الله . فله حق من المحبة لا يشركه فيه غيره ، وأظلم الظلم وضع تلك المحبة فى غير موضعها ، والتشريك بين الله وغيره فيها . فليتدبر اللبيب هذا الباب فإنه من أنفع أبواب الكتاب إن شاء الله تعالى .

الباب الثاني والعشرون

في غيرة المحبين على أميائهم

لما كان هذا الباب متصلاً بإفراد المحبوب بالمحبة ومن موجباته فإن الغيرة بحسب قوة المحبة، وقوتها بحسب إفراد المحبوب حسن ذكره بعده .

وأصل الغيرة الحمية والأنفة^(١)، والغيرة نوعان : غيرة للمحسوب ، وغيرة عليه . فأما الغيرة له فهي الحمية له والغضب له إذا استهين بحقه وانتقصت حرمة وناله مكروه من عدوه ، فيغضب له المحب ويحمي وتأخذ الغيرة له بالمبادرة إلى التغيير ومحاربة من آذاه ، فهذه غيرة المحبين حقاً ، وهي من غيرة الرسل وأتباعهم لله ممن أشرك به واستحل محارمه وعصى أمره .

وهذه الغيرة هي التي تحمل على بذل نفس المحب وماله وعرضه لمحجوبه حتى يزول ما يسكره ، فهو يغار لمحجوبه أن تكون فيه صفة يكرهها محجوبه ويمقتها عليها أو يفعل ما يغيضه عليه ، ثم يغار له بعد ذلك أن يكون في غيره صفة يكرهها ويغضها ، والدين كله في هذه الغيرة بل هي الدين ، وما جاهد مؤمن نفسه وعدوه ولا أمر بمعروف ولا نهى عن منكر إلا بهذه الغيرة ، ومتى خلت من القلب خلا من الدين ، فالؤمن يغار لربه من نفسه ومن غيره إذا لم يكن له كما يحب ، والغيرة تصفي القلب وتخرج خبثه كما يخرج الكير^(٢) ، خبث الحديد .

(١) الأنفة : الاستنكاف .

(٢) الكير : منفخ الحديد يكون من جلد غليظ وله حافات . وخبث الحديد نفايته أو مانفاه الكير .

فصل

وأما الغيرة على المحبوب فهي أنفة المحب وحميته أن يشاركه في محبوه غيره وهذه أيضاً نوعان : غيرة المحب أن يشاركه غيره في محبوه ، وغيرة المحبوب على محبه أن يحب معه غيره ، والغيرة من صفات الرب جلّ جلاله ، والأصل فيها قوله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ)^(١) .

ومن غيرته تعالى لعبده وعليه يحميه مما يضُرُّه في آخرته كما في الترمذي وغيره مرفوعاً : « إِنَّ اللَّهَ يَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا يَحْمِي أَحَدَكُمْ مَرِيضَهُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ » وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في خطبة الكسوف : « وَاللَّهِ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَا أَحَدٌ أُغْيِرَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزِنِي عَبْدُهُ أَوْ تَزِنِي أُمَّتُهُ » . وفي ذكر هذا الذنب بخصوصه في خطبة الكسوف، سرُّ بدیع قد نهنا عليه في باب غَضُّ البصر وأنه يورث نوراً في القلب . ولهذا جمع الله سبحانه وتعالى بين الأمر به وبين ذكر آية النور ، فجمع الله سبحانه بين نور القلب بغض البصر وبين نوره الذي مثله بالمشكاة لتعلق أحدهما بالآخر . فجمع النبي صلى الله عليه وسلم بين ظلمة القلب بالزُّنا وبين ظلمة الوجود بكسوف الشمس ، وذكر أحدهما مع الآخر ، وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ شَيْءٌ لَا أُغْيَرُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ الْمَذْحُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَتْنَى عَلَى نَفْسِهِ ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيَّ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أُرْسَلَ الرُّسُلَ » .

(١) الآية ٣٣ . سورة الأعراف .

وروى الثورى عن حماد بن إبراهيم عن عبد الله قال : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَغَارُ لِمُسْلِمٍ فَلْيَغَرَ » ^(١) . وروى أيضاً عن عبد الأعلى ، عن ابن عيينة ^(٢) ، عن أمه ، عن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَغَارُ فَلْيَغَرَ أَحَدُكُمْ » ، وفى الصحيح عنه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ وَالْمُؤْمِنُ يَغَارُ وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ » ^(٣) ، وروى القعنبي عن الدراوردي ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الْمُؤْمِنُ يَغَارُ وَاللَّهُ أَشَدُّ غَيْرَةً » ^(٤) .

فصل

وغيرة العبد على محبوبه نوعان : غيرة ممدوحة يحبها الله ، وغيرة مذمومة يكرها الله ، فالتى يحبها الله أن يغار عند قيام الريبة ، والتى يكرها أن يغار من غير ريبة بل من مجرد سوء الظن . وهذه الغيرة تفسد المحبة وتوقع العداوة بين الحب ومحبوبه . وفى المسند وغيره عنه صلى الله عليه وسلم قال : (الغيرة غيرتان : فغيرة يحبها الله وأخرى يكرها الله ، قلنا : يارسول الله ما الغيرة التى يحب الله ؟ قال : أن تؤتى معاصيه أو تنتهك محارمه ، قلنا : فالاغيرة التى يكره الله ؟

(١) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير عن ابن مسعود مرفوعاً وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط .

(٢) هكذا . . وفى شرح الجامع الصغير للناوى : قال الهيثمى : فيه عبد الأعلى بن عامر الثعلبى وهو ضعيف . . . قال ابن القطان : والحديث لا يصح فإن فيه إبا عبدة عن أمه زوج عبد الله بن مسعود ولا يعرف لها حال . وإذن فإن عينه هنا مصحفة عن « أبى عبدة » .

(٣) رواه الشيخان وأحمد والترمذى كما قال السيوطى .

(٤) رواية مسلم : « والله أشد غيراً » .

قال : غَيْرَةُ أَحَدِكُمْ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ « ، وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم : « إن من الغيرة ما يحبُّ اللهُ ومِنْهَا مَا يَكْرَهُ اللهُ فَالْغَيْرَةُ الَّتِي يُحِبُّهَا اللهُ الْغَيْرَةُ فِي الرِّيَّةِ ، وَالْغَيْرَةُ الَّتِي يَكْرَهُهَا اللهُ الْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ رِيَّةٍ ^(١) » . وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أَتَعْبُدُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ لَأَنَا أَغَيْرُ مِنْهُ وَاللهُ أَغَيْرُ مِنِّي » ^(٢) . وقال عبدالله بن شداد : الغيرة غيرتان : غيرةٌ يصلح بها الرجل أهله ، وَغَيْرَةٌ تَدْخُلُهُ النَّارُ . وروى عبدالله بن لهيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن عبدالرحمن بن شماس الميموني ، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على مارية القبطية وهي حاملٌ بإبراهيم وعندها نسيبٌ لها قدم معها من مصر فأسلم ، وكان كثيراً ما يدخل على أمِّ إبراهيم وأنه جبَّ نفسه فقطع ما بين رجله حتى لم يتيقَّ قليلٌ ولا كثير ، فدخل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يوماً عليها فوجد عندها قريبها فوجد في نفسه من ذلك شيئاً كما يقع في أنفس الناس ، فخرج متغيِّراً اللون ، فلقه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فعرف ذلك في وجهه ، فقال : يا رسول الله ، أراك متغيِّراً اللون ، فأخبره ما وقع في نفسه من قريب مارية ، فمضى بسيفه فأقبل يسعى حتى دخل على مارية فوجد عندها قريبها ذلك ، فأهوى بالسيف ليقته ، فلما رأى ذلك منه كشف عن نفسه ، فلما رآه عمر رضي الله عنه رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : إن جبريل أتاني فأخبرني أن الله عزَّ وجلَّ قد برَّأها وقريبها مما وقع في نفسي ، وبشَّرنِي أن في بطنها غلاماً وأنه أشبهُ الخلق بي وأمرني أن أُمسِّيَهُ إِبْرَاهِيمَ ^(٣) .

(١) رواه ابن ماجه بنحوه . (٢) رواه الشيخان وغيرهما .
(٣) أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر والطبراني في المعجم الكبير وغيرهما . كما قاله ابن حجر في الإصابة .

وقال الواقدي عن محمد بن صالح ، عن سعد بن إبراهيم ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه قال : كانت سارة عند إبراهيم صلى الله عليه وسلم فنكحت معه دهرًا لا تزق منه ولداً ، فلما رأت ذلك وهبت له هاجر أمتها ، فولدت لإبراهيم ، فغارت من ذلك سارة ووجدت في نفسها وعتبت على هاجر ، فخلعت أن تقطع منها ثلاثة أعضاء ، فقال لها إبراهيم : هل لك أن تبرئيني؟ قالت : كيف أصنع؟ قال : اتقي أذنيها واخفضيها ، وانلفض هو الختان ، ففعلت ذلك بها فوضعت هاجر في أذنيها قرطين فازدادت بهما حسناً ، فقالت سارة : إنما زدتها جالاً ، فلم تقارّه^(١) على كونها معه ، ووجد بها إبراهيم وجداً شديداً فقلها إلى مكة ، فسكان يزورها كل يوم من الشام على البراق من شغفه بها وقلة صبره عنها .

وفي الصحيح من حديث حميد ، عن أنس رضي الله عنه قال : أهدى بعض نساء النبي صلى الله عليه وسلم له قصعة فيها ثريد وهو في بيت بعض نسائه ، فضربت يد الخادم فانكسرت القصعة ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ الثريد ويردّه في القصعة ويقول : ركلوا غارت أمكم ، ثم انتظر حتى جاءت قصعة صحيحة فأعطاهما التي كسرت قصعتها^(٢) وقالت عائشة رضي الله عنها : ما غرت على امرأة قط ما غرت على خديجة من كثرة ذكر النبي صلى الله عليه وسلم إياها ، ولقد ذكرها يوماً فقلت : ما تصنع بعجوز حراء الشّدقين قد أبدلك الله خيراً منها ؟ فقال : « وآله ما أبدلني الله خيراً منها »^(٣) . فانظر هذه الغيرة

(١) لم تقارّه : لم توافقه على بقائها معه . وقارّه مقارنة أي قر معه وسكن .

(٢) رواه البخاري والترمذي وأحمد ، ولأبي داود والنسائي نحوه . كما جاء

في فتح الباري .

(٣) رواه البخاري مختصراً وأحمد والطبراني كما أشار إليه ابن حجر في الفتح

الشديدة على امرأة بعد ما ماتت . وذلك انظر لمحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تغار عليه أن يذكر غيرها ، وكذلك غيرها من صفية رضي الله عنهما ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم بها المدينة وقد اتخذها لنفسه زوجةً وعرس^(١) بها في الطريق ، قالت عائشة رضي الله عنها : تنكرتُ وخرجت أنظر فعرفني فأقبل إلي فالتفت وأسرع المشي فأدركني فاحتضني وقال « كيف رأيتهما ؟ » قلت : يهودية بين يهوديات - تعني السَّجِيَّة -^(٢) .

وفي المسند من حديث الأشعث بن قيس قال : تضيفت بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقام إلى امرأته فضربها ، قال : ففجرت بينهما فرجع إلى فراشه فقال : يا أشعث احفظ عني شيئاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تَسْأَلَنَّ رَجُلًا فِيمَ يَضْرِبُ امْرَأَتَهُ » . وذكر حماد بن زيد عن أيوب ، عن ابن أبي مُعَيْكَةَ أن ابن عمر رضي الله عنهما سمع امرأته تكلم رجلاً من وراء جدار ، بينها وبينه قرابة لا يعلمها ابن عمر ، فجمع لها جرائد^(٣) ثم ضربها حتى أضربت حسيماً^(٤) . وذكر الخرائطي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه كان يأكل تفاحاً ومعه امرأته فدخل عايه غلام له فناوته تفاحاً قد أكلت منها فأوجعها معاذ ضرباً . ودخل يوماً على امرأته وهي تطالع في خباء أديم فضربها . وذكر الثوري عن أشعث عن الحسن أن امرأة جاءت تشكو زوجها إلى النبي صلى الله

(١) يقال عرس : إذا نزل المسافر ليستريح ثم يرتحل . أما عرس بامرأته على معنى الدخول بها فقالوا هو خطأ . والصحيح : أعرس بامرأته : دخل بها .
(٢) ذكره بنحوه المحب الطبري في مناقب أمهات المؤمنين وقال : أخرجه ابن ماجه والحافظ الدمشقي في الموافقات .

(٣) الجرائد جمع جريدة : قضبان التخل يجردها الخوص . والحسيس :- الصوت الخفي ومنه قوله تعالى (لا يسمعون حميسها) .
(٤) أضرب الشيء : أخضاه .

عليه وسلم لطمها ، فدعا الرجلَ ليأخذَ حَقَّها فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل : (الرَّجُلُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)^(١) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أَرَدْنَا أَمْرًا وَأَرَادَ اللهُ أَمْرًا»^(٢) وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه شديد الغيرة وكانت امرأته تخرج فتشهد الصلاة فيكره ذلك فتقول : إن نهيتنى انتهيت ، فيسكت امتثالاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ»^(٣) وهو الذى أشار على النبي صلى الله عليه وسلم أن يَتَحَجَّبَ نساءه ، وكان عادة العرب أن المرأة لا تحتجب لنزاهتهم ونزاهة نساءهم ، ثم قام الإسلام على ذلك ، فقال عمر : يا رسول الله ، لو حجبنا نساءك فإنه يدخل عليهن البر والفاجر ، فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل آية الحجاب^(٤) ورفع إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلٌ قد قتل امرأته ومعه رجلٌ آخر ، فقال أولياء المرأة : هذا قتل صاحبتنا ، وقال أولياء الرجل : إنه قد قتل صاحبنا ، فقال عمر رضى الله عنه : ما يقول هؤلاء ؟ قال : ضرب الآخر فَخَذَى امرأته بالسيف فإن كان بينهما أحدٌ فقد قتلته ، فقال لهم عمر : ما يقول ؟ فقالوا : ضرب بسيفه فقطع فَخَذَى المرأة فأصاب وسط الرجل فقطعه باثنين ، فقال عمر رضى الله عنه : إن عادوا فَعُدُّ . ذكره سعيد بن منصور فى سننه . وأخذ بهذا جماعة من الفقهاء منهم الإمام أحمد وأصحابه رحمهم الله تعالى ، قالوا لو وجد رجلا يزنى بامرأته

(١) الآية ٣٤ . سورة النساء .

(٢) فى الإصابة لابن حجر : ذكر الفصة مقاتل وعبد بن حميد والطبرى وغيرهم . وقال الشهاب الخفاجى فى حاشيته على البيضاوى : رواها أبو داود .

(٣) رواه الشيخان وأحمد فى مسنده .

(٤) رواه الشيخان ، وزاد فى الرياض النضرة أباحاتم . كما جاء فى تفسير

الوصول .

فقتلها فلا قصاص عليه ولا ضمان ، إلا أن تكون المرأة مُسْكِرَةً فعليه القصاص بقتلها ، ولكن لا يُقبل قولُ الزوج إلا بتصديق الوليِّ أو بَيِّنَةٍ ، واختلفت الرواية عن الإمام أحمد في عدد البينة فروي عنه أنها رجلان ، وروى عنه لا بد من أربعة ، ووجه هذه الرواية ظاهر حديث سعد بن عُبَادَةَ رضى الله عنه أنه قال : يا رسول الله ، أَرَأَيْتَ إِنْ وَجَدْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي أَهْلَهُ حَتَّى آتَى بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « نَعَمْ » فَقَالَ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنْ كُنْتُ لَأُضْرِبَهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصَفَّحٍ ^(١) فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَلَا تَعْبَهُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ لَأَنَا أَعْيَرُ مِنْهُ وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي » ^(٢) .

وذكر سعيد بن منصور عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه سئل عن رجل دخل بيته فإذا مع امرأته رجلٌ فقتلها وقتله ، فقال علي رضى الله عنه : إن جاء بأربعة شُهَدَاءَ وإلا دُفِعَ بِرُمَّتِهِ ^(٣) . ووجهُ رواية الاكتفاء باثنين أن البينة ليست على إقامة الحد ، ولكن على وجوب ^(٤) السبب المانع من القصاص ، فإن الزوج كان له أن يقتل المتعدى على أهله ، ولكن لما أنكر أولياء القتل طُولِبَ القاتلُ بالبينة فاكْتَفَى بِرَجُلَيْنِ . ورفُعَ إلى عمر رضى الله عنه رجلٌ قد قتل يهوديًا فسأله عن قصته فقال : إن فلانًا خرج غازيًا وأوصاني بامرأته ، فبلغني أن يهوديًا يختلف إليها فكنت له حتى جاء ، فجعل ينشد ويقول :

(١) يقال . صفح فلانًا بالسيف : ضربه بمرضه لاجمده .

(٢) تقدم ذكر هذا الحديث في صفحتي ٢٧٤ ، ٢٩٧ .

(٣) في لسان العرب لابن منظور : الرمة : قطعة جبل يشد بها الأسير أو القاتل إذا قيد إلى القتل ، وقول علي يدل على هذا .

(٤) كذا . ولعل الصواب : وجود .

وأبيض غرة الإسلام مني خلوتُ بعِرسه ليل النِّمام^(١)
أبيتُ على ترابها ويمسى على جرداء لاحقة الحزام
كان مواضع الرِّبالات منها فثامٌ ينهضون إلى فثام^(٢)

فقتلت إليه فقتلته ، فأهدر عُمرَ دمه^(٣) وليس في هذين الأمرين مطالبة عُمرَ
رضي الله عنه القاتل بالبينّة إذ لعله تيقن ذلك أو أقرّ به الولي ، والصواب أنه
متى قام على ذلك دلالة ظاهرة لا تحتمل الكذب أغتت عن البينّة . وذكر
سفيان بن عُيينة عن الزهري ، عن القاسم بن محمد ، عن عبيد بن عُمر أن رجلاً
أضاف إنساناً من هذيل فذهبت جارية لهم تحتطب فأرادها عن نفسها ، فرمته
بغيره^(٤) فقتلته ، فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : ذاك قتيلُ
الله لا يؤدى^(٥) أبداً . وذكر حماد بن سلمة عن القاسم بن محمد أن أبا السَّيَّارة
أولع بامرأة أبي جُنْدَبٍ يرادها عن نفسها ، فقالت : لا تفعل فإن أبا جُنْدَبٍ إن
يعلم بهذا يقتلك ، فأبى أن ينزع^(٦) فكلمت أبا جُنْدَبٍ فكلّمت فأبى أن
ينزع ، فأخبرت بذلك أبا جُنْدَبٍ ، فقال أبو جُنْدَبٍ : إني مخبر القوم أني أذهب
إلى الإبل ، فإذا أظلمت جئت فدخلت البيت فإن جاءك فأدخليه على ، فودّع
أبو جُنْدَبٍ القوم وأخبرهم : أني ذاهبٌ إلى الإبل ، فلما أظلم الليل جاء فسكن في

(١) العرس امرأة الرجل . والجمع أعراس ، وربما سمى الرجل والآنثى عرسين
وليل النمام : أطول ليلة في السنة .

(٢) الرِّبالات : جمع رِبلة وهي باطن الفخذ . والفثام : وطاء يفرش في المودج
ونحوه .

(٣) أهدر دمه : أباح قتله .

(٤) القم : الحجر مل - الكف ، وقيل : الحجر عامة .

(٥) لا يؤدى : أى ليس له دية .

(٦) نزع عن الأمر : ترك وانتهى .

البيت . وجاء أبو السيرة وهي تطحن في ظلها ، مرادها عن نفسها فقالت :
وَيْحَكَ ! أَرَأَيْتَ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي تَدْعُونِي إِلَيْهِ هَلْ دَعَوْتُكَ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُ قَطْ ؟
قال : لا ولكن لا أصبر عنك ، قالت : أدخل البيت حتى أتهميَّ لك ، فلما دخل
البيت أغلق أبو جندب الباب ثم أخذه فدقّه من عنقه إلى كُجْبٍ^(١) ذنبه ،
فذهبت المرأة إلى أخي أبي جندب فقالت : أدرك الرجل فإن أبا جندب قاتله ،
فجعل أخوه يناشده فتركه ، وحمله أبو جندب إلى مدرجة الإبل فألقاه . فكان
إذ مرَّ به إنسان قال له : ما شأنك ؟ فيقول : وقعت من بكرٍ^(٢) فخطمني ،
وبلغ الخبرُ عمرَ رضى الله عنه فأرسل إلى أبي جندب فأخبره بالأمر على
وجهه ، فأرسل إلى أهل المرأة فصدّقوه ، فجلد عمر أبا السيرة مائة جلدة
وأبطل ديتته .

وذكر العباس بن هشام الكلبي عن أبيه أن عمرو بن حمزة الدوسي أتى
مكة حاجاً ، وكان من أجل العرب ، فنظرت إليه امرأة فقالت : لأدرى وجهه
أحسن أم فرسه ، وكانت له جمة^(٣) تسمى الزينة ، فكان إذا جلس مع أصحابه
نشرها ، وإذا قام عقصها^(٤) ، فقالت له المرأة : أين منزلك ؟ قال : نجد ، قالت :
ما أنت بنجدى ولا تهاجى فأصدقنى ، فقال : رجل من أهل السراة فيما بين مكة
واليمن ، ثم أشار إليها ارتد في خلفي ففعلت ، فضى بها إلى السراة وتبعها زوجها
فلم يلحقها فرجع ، فلما استقرت عنده قطع عروقها وقال : والله لا تتبعين بعدى رجلاً
أبداً ، ثم ردّها إلى زوجها على تلك الحال .

(١) العجب : مؤخر كل شيء . وأصل الذنب ، وعجب الذنب جزء في أصل
الذنب عند رأس العنصر .

(٢) البكر : الفقى من الإبل ، والاثني بكرة ، والجمع أبكر . وبكران .

(٣) الجمة : مجتمع شعر الرأس .

(٤) عقص الشعر : ضفره وليته على الرأس .

فصل

والله سبحانه وتعالى ينفار على قلب عبده أن يكون مُعْطَلًا من حبه وخوفه ورجائه وأن يكون فيه غيره . فالله سبحانه وتعالى خلقه لنفسه واختاره من بين خلقه ، كما في الأثر الإلهي : ابن آدم خلقتك لنفسي وخلقك كل شيء لك ، فبحقِّي عليك لا تشتغل بما خلقتك لك عن ما خلقتك له . وفي أثر آخر : خلقتك لنفسي فلا تلعب ، وتكفَّلت لك برزقك فلا تتعب . يا ابن آدم اطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فُتِّك فأتك كل شيء ، وأنا خيرٌ لك من كل شيء ، وينار على لسانه أن يتعطل من ذكره ويشتغل بذكر غيره ، وينار على جوارحه أن تتعطل من طاعته وتشتغل بمعصيته ، فيقبُح بالعباد أن ينفار مولاه الحقُّ على قلبه ولسانه وجوارحه وهو لا ينفار عليها .

وإذا أراد الله بعبده خيراً سلط على قلبه إذا أعرض عنه واشتغل بمحبِّ غيره أنواع العذاب حتى يرجع قلبه إليه ، وإذا اشتغلت جوارحه بغير طاعته ابتلاها بأنواع البلاء . وهذا من غيرته سبحانه وتعالى على عبده ، وكما أنه سبحانه وتعالى ينفار على عبده المؤمن فهو ينفار له ولحرمة ، فلا يُمكن للفاسد أن يتوصَّل إلى حرمة غيره منه لعبده ، فإنه سبحانه وتعالى يدفع عن الذين آمنوا ، فيدفع عن قلوبهم ، وجوارحهم ، وأهلهم ، وحريمهم ، وأموالهم ، يتولى سبحانه الدفع عن ذلك كله غيرَ منه لهم كما غاروا لحارمه من نفوسهم ومن غيرهم . والله تعالى ينفار على إيمانه وعبيده من المفسدين شرعاً وقَدَرًا ، ومن أجل ذلك حرَّم الفواحش وشرع عليها أعظم العقوبات وأشنع العقوبات لشدة غيرته على إيمانه وعبيده ، فإن عطلت هذه العقوبات شرعاً أجراها سبحانه قَدَرًا .

فصل

ومن غَيْرَتِهِ سبحانه وتعالى غَيْرَتُهُ عَلَى توحيدِهِ ودينِهِ وكلامِهِ أَنْ يَحْظِيَ بِهِ
 مِنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ ، بَلْ حَالُ بَيْنِهِمْ وَبَيْنَهُ غَيْرَةٌ عَلَيْهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَجَعَلْنَا
 عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا)^(١) وَلِذَلِكَ ثَبَّطَ سُبْحَانَهُ
 أَعْدَاءَهُ عَنْ مِتَابَةِ رَسُولِهِ وَاللَّحَاقِ بِهِ غَيْرَةً كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَلَكِنْ كَرِهَ
 اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ
 مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا ضَعُفًا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُؤُنَ
 لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)^(٢) فَغَارَ سُبْحَانَهُ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ
 أَنْ يَخْرُجَ بَيْنَهُمُ الْمُنَافِقُونَ فَيَسْعُوا بَيْنَهُمْ بِالْفِتْنَةِ فَثَبَّطَهُمْ وَأَقْعَدَهُمْ عَنْهُمْ . وَسَمِعَ الشَّيْطَانُ
 رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَارِئًا يَقْرَأُ : (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ
 لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا)^(٣) فَقَالَ : أُنْذِرُونَ مَا هَذَا الْحِجَابُ ؟ هَذَا
 حِجَابُ الْغَيْرَةِ وَلَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ ، يَعْنِي أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَجْعَلِ السَّكْفَارَ
 أَهْلًا لِمَعْرِفَتِهِ . وَهَاهُنَا نَوْعٌ مِنْ غَيْرَةِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَطِيفٌ لَا تَهْتَدِي إِلَيْهِ
 الْعُقُولُ ، وَهُوَ أَنَّ الْعَبْدَ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ الصَّفَاءِ وَالْأَنْسِ وَالْوُجُودِ ، فَيَسَاكُنُهُ
 وَيَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ وَتَلْتَذُّ بِهِ نَفْسُهُ فَيَسْتَنْفِلُ بِهِ عَنِ الْمَقْصُودِ ، فَيَغَارُ عَلَيْهِ مَوْلَاهُ الْحَقُّ

(١) الْآيَةُ ٢٥ . سُورَةُ الْإِنْعَامِ ٤٦ . سُورَةُ الْإِسْرَاءِ . وَالْإِكْنَةُ : الْإِغْطِيَةُ .
 وَالْوَقْرُ : الصَّمَمُ .

(٢) الْآيَتَانِ ٤٦ وَ ٤٧ سُورَةُ التَّوْبَةِ . وَالْحِبَالُ : الْفَسَادُ . وَأَوْضَعُوا حِلَالَكُمْ ؛
 سَعَوْا بَيْنَكُمْ بِالْفِتْنَةِ ، وَإِفْسَادَ ذَاتِ بَيْنِكُمْ .
 (٣) الْآيَةُ ٤٥ . سُورَةُ الْإِسْرَاءِ .

(٢٠ م — رَوْضَةُ الْمُحْبِبِينَ)

فيخليه منه ويرُدّه حيثنذ إليه بالفقر والذلّة والمسكنة ، ويشهده غاية فقره وإعدامه^(١) وأنه ليس معه من نفسه شيء البتّة ، فتعود عزّة ذلك الأنس والصفاء والوجود ذلّة ومسكنة وفقراً وفاقة ، وذرة من هذا أحبّ إليه سبحانه وتعالى وأنفع للعبد من الجبال الرواسي من ذلك الصفاء والأنس المجرد عن شهود الفقر والذلّة والمسكنة . وهذا باب لا يتسع له قلب كل أحد .

فصل

ومن النيرة النيرة على دقيق العلم ومالا يدركه فهم السامع أن يُذكر له . ولهذا النيرة قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : حدّثوا الناس بما يعرفون ، أتحبّون أن يكذب الله ورسوله ؟ وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ما أنت بمحدّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلاّ كان لبعضهم فتنة . فالعالم يغار على علمه أن يبذّله لغير أهله ، أو يضعه في غير محله كما قال عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم : يا بني إسرائيل لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم ، ولا تبذلوها لغير أهلها فتظلموها .

وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن تفسير قوله تعالى : (الله الذي خلق سبع سمواتٍ ومن الأرض مثانين^(٢)) فقال لسائل : وما يؤمنك أنى إن أخبرتك بتفسيرها كفرت ؟ فإنك تكذب به^(٣) وتكذّيبك بها كفرتك بها . فالمسألة الدقيقة للطيفة التي تُبذل لغير أهلها كالمرأة لحسناء التي تُهدى إلى ضرير مُقعّد كما قيل :

(١) الإعدام والعدم : فقدان الفقر ، وأعدم الرجل : افتقر .

(٢) آخر سورة الطلاق .

(٣) كذا . . ولعل الصواب بها .

* خَوْذُ^(١) تَزَفَّ إلى ضرير مُقَعَّد *

وكان أبو عليّ إذا وقع شيء في خلال مجلسه من تشويش الوقت يقول :
هذا من غير الحق ، يريد أن لا يجري ما يجري من صفاء الوقت ، قال الشاعر :
هَمَّتْ بِإِتْيَانِنَا حَتَّى إِذَا نَظَرْتُ إِلَى الْمِرَاقَةِ نَهَاها وَجْهَهَا الْحَسَنُ
مَا كَانَ هَذَا جِزَائِي مِنْ مَحَاسِنِهَا عُدَّتْ بِالْمَجْرِ حَتَّى شَفَنِي الْخُزَنُ
قال القشيري : وقيل لبعضهم : أتحبّ أن تراه ؟ قال : لا ، فيل : ولِمَ ؟
قال : أُنْزَهُ ذَلِكَ الْجَمَالَ عَنْ نَظَرِ مِثْلِي ، وفي معناه أنشدوا :

إِنِّي لِأَحْسُدُ نَاطِرِي عَايِكَ حَتَّى أُغْضَّ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ
وَأُرَاكَ تَخْطُرُ فِي شِمَائِلِكَ الَّتِي هِيَ فَتْنَتِي فَأَغَارَ مِنْكَ عَلَيَّكَ

قلت : وهذه غير فاسدة وغاية صاحبها أن يُعَقِّقَ عنه وأن يعدّ ذلك في
شَطَاحَاتِهِ اللَّذْمُومَةِ ، وأما أن تُعَدَّ في مناقبه وفضائله أن يقال أتحبّ أن ترى الله
فيقول : لا ورؤيته أعلى نعيم أهل الجنة ، وهو سبحانه وتعالى يحب من عبده أن
يسأله النظر إليه ، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان من دعائه :
(اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى إِتَائِكَ)^(٢) وقول
هذا القائل : أُنْزَهُ ذَلِكَ الْجَمَالَ عَنْ نَظَرِ مِثْلِي مِنْ خُدْعِ الشَّيْطَانِ وَالنَّفْسِ ، وهو
يشبه ما يُحْكِي عن بعضهم أنه قيل له : ألا تذكره ؟ فقال : أُنْزَهُ أَنْ يَجْرِيَ
ذِكْرُهُ عَلَى لِسَانِي ، وطَرَدُ هَذَا التَّنْزِيهِ الْفَاسِدُ أَنْ يَنْزَهُهُ أَنْ يَجْرِيَ كَلَامُهُ عَلَى
عَلَى لِسَانِهِ أَوْ يَخْطُرَ هُوَ أَيْضًا عَلَى قَلْبِهِ ، وقد وقع بعضهم في شيء من هذا
فلاموه فأنشد :

(١) الخود : الشراية الجميلة الناعمة الحسنة الخلق ، جميعها خود وخودات .

(٢) تقدم مطولا في الصفحة ٣٠

يقولون زُرْنَا واقض واجب حقنا وقد استقطت حالي حقوقهم عني
إذا هم رأوا حالي ولم يأنفوا لها ولم يأنفوا مني أنفت لهم مني
وطرد هذه الغيرة أن لا يزور بيته غيره على بيته أن يزوره مثله . ولقد
كُنتُ شخصاً مرة على ترك الصلاة فقال لي : إني لا أرى نفسي أهلاً أن أدخل
بيته ، فانظر إلى تلاعب الشيطان بهؤلاء . ومن هذا ما ذكره القشيري قال :
سئل الشبلي متى تستريح ؟ فقال : إذا لم أر له ذا كراً . ومات ابن له فقطعت
أمه شعرها فدخل هو الحمام ونوّر لحيته^(١) حتى ذهب شعرها . ف قيل له : لم
فعلت هذا ؟ فقال : إنهم يعزوني على الغفلة^(٢) . ويقولون : آجرك الله ، فقديت
ذكرهم لله تعالى على الغفلة بلحيتي وموافقة لأهلي . ونظير هذا ما يحكي عن
النوري رحمه الله تعالى أنه سمع رجلاً يؤذّن فقال : طعنة وسم الموت ، وسمع كلباً
ينبح فقال : أبنيك وسعديك ، فسئل عن ذلك فقال : أما ذاك فكان يذكره
على رأس الغفلة ، وأما الكلب فقال الله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْمَعُ
يُحْمَدُهُ)^(٣) . وسمع الشبلي مرة رجلاً يقول : جل الله ، فقال : أحب أن يُجَلَّ
من هذا ، ويا عجبا من يمدّ هذا في مناقب رجلٍ ويعمله قدوةً ويزين به كتابه .
وهل شيء أشدّ على قلب المؤمن وأمرُّ عليه من أن لا يرى لربه ذا كراً ؟ وهل
شيء أقرّ لعينه من أن يرى ذا كرين الله بكل مكان ، وعذر هذا القائل أنه
لا يرى ذا كراً لله بحقّ الذكر ، بل لا يرى ذا كراً إلا والغفلة والسهوة مستولية
على قلبه ، فيذكر ربه بلسان فارغ من القلب وحضوره في الذكر ، وذلك
ذكر لا يليق به ، فيغار محبه أن يذكر بهذا الذكر فيحب أن لا يسمع أحداً

(١) نور لحيته : دهنها بالنورة . والنورة : أخلاط تستعمل لإزالة الشعر .
(٢) أي على غفلتهم عن تعظيم الله .
(٣) الآية ٤٤ . سورة الاسراء .

يذكره هذا الذكر . ولما اشترك الناس في هذا الذكر أخبر أن راحته أن لا يرى له ذا كراً . هذا أحسن ما يُحمَل عليه كلامه ، وإلا فظاهره إلى العداوة أقرب منه إلى المحبة . وليس هذا حال الشبلي رحمه الله تعالى فإن المحبة كانت تغلب عليه ، ومع ذلك فهو من شطحاته التي يرجي أن تُغفر له بصدقه ومحبه وتوحيده ، لا أنها مما يُحمد عليه ويقتدى به فيه .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يذكروه على جميع أحوالهم وإن كان ذكرهم إياه مراتب ، فأعلاها ذكر القلب واللسان مع شهود القلب المذكور وجميعته بكليته بأحب الأذكار إليه ، ثم دونه ذكر القلب واللسان أيضاً وإن لم يشاهد المذكور ، ثم ذكر القلب وحده ، ثم ذكر اللسان وحده ، فهذه مراتب الذكر وبعضها أحب إلى الله من بعض .

وكان طرد قول الشبلي أن راحته أن لا يرى الله مصلياً ، ولا لكلامه تالياً ، ولا يرى أحداً ينطق بالشهادتين ، فإن هذا كلمة من ذكره بل هو أعلى أنواع ذكره ، فكيف يستريح قلب المحب إذا لم ير من يفعل ذلك ؟ والله سبحانه وتعالى يحب أن يُذكر ولو كان من كافر .

وقال بعض السلف : إن الله يحب أن يُذكر كلّي جميع الأحوال إلا في حال الجوع وقضاء الحاجة . وأوحى الله عز وجل إلى موسى صلى الله عليه وسلم أن اذكرني على جميع أحوالك ، والله تعالى لا يُضيع أجر ذكر اللسان المجرد ، بل يثيب الذّاكر وإن كان قلبه غافلاً ، ولكن ثواب دون ثواب .

قال القشيري : وسمعت الأستاذ أبا علي يقول في قول النبي صلى الله عليه وسلم في مبايعته فرساً من أعرابي وأنه استقاله^(١) فأقاله ، فقال له الأعرابي : عَمَرَكَ اللهُ فمن أنت ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « امروا من قرّيش » فقال له بعض

(١) استقاله البيع : طلب إليه أن يقيه ، أي يفسخ البيع .

الماضرين : كفاك جفاء أن لا تعرف نبيك . قال أبو علي : فإنما قال امرؤ من قريش غيره ، وإلا كان واجباً عليه التعرف إلى كل أحد أنه من هو ، ثم إن الله أجرى على لسان ذلك الصحابي التعريف للأعرابي ، فيقال : من العجب أن يقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم غار أن يذكر أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعرابي الذي لا يعرفه ، وهو كان دائماً يذكر ذلك لأعدائه من الكفار سرّاً وجهرّاً ليلاً ونهاراً ولا يغار من ذلك ، فكيف يُظنُّ به أنه غار أن يعرف ذلك المسكين أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ هذا من خيالات القوم وتوهماتهم^(١) وإنما ستر عنه ذلك الوقت معرفته له لحكمة لطيفة فهمها الصحابي فصرّح بها للأعرابي ، وهي أن هذا الأعرابي كان جافياً جلفاً^(٢) فأحبّ النبي صلى الله عليه وسلم أن يعرفه جفاءه وجلافته بطريق لا يبيته بها ويعرف من نفسه أنه أهل لذلك ، فكأنه يقول بلسان الحال : كفاك جفاء أن تجهلني فتسألني من أنا ، فلما فهم الصحابي ذلك بلطف إدراكه ودقّة فهمه فبادر به وقال : كفاك جفاء أن لا تعرف نبيك .

ثم ذكر القشيري كلام الشبلي أنه قال : غيرة الإلهية على الأنفس أن تضع فيما سوى الله ، وهذا كلام حسن .

قال القشيري : والواجب أن يقال : الغيرة غيـرتان : غيرة الحق على العبد ، وهو أن لا يجعله للخلق فيضنّ به عليهم ، وغيرة العبد للحق ، وهو أن لا يجعل شيئاً من أحواله وأنفاسه لغير الحق سبحانه ، فلا يقال : أنا أغار على الله ولكن يقال : أنا أغار الله ، قال : فإذا الغيرة على الله جهل ، وربما تؤدي إلى ترك الدين . والغيرة لله توجب تعظيم حقوقه وتصفيّة الأعمال له ، فمن سنّ الحق مع

(١) جمع ترهة : الباطل .

(٢) الجلف : الرجل الجافي .

أوليائه أنهم إذا ما كنوا غيراً أو لاحظوا شيئاً أو صالحوا بقلوبهم شيئاً بشوش عليهم ذلك ، فيغار على قلوبهم بأن يعيدها خالصةً لنفسه فارغةً ، كآدم عليه السلام لما وطّن نفسه على الخلود في الجنة أخرجه من الجنة ، وإبراهيم الخليل عليه السلام لما أعجبه إسماعيل أمره بذبحه حتى أخرجه من قلبه ، فلما أنلما وتلّه للجبين وصنّى سرّه منه أمره بالفداء عنه . وقال بعضهم : احذروه فإنه غيور لا يحب أن يرى في قلب عبده سواه . وقيل : الحقّ تعالى غيورٌ ومن غيرة أنه لم يجعل إليه طريقاً سواه .

وقال السريُّ لرجل عارف : بنى علةً باطنةً فما دواؤها ؟ قال : يأسري الله غيورٌ لا يراك تساكن غيره فتسقط من عينه . فهذه غيرةٌ صحيحة .

فصل

وهاهنا أقسامٌ آخرُ من الغيرة مذمومة منها : غيرةٌ يحمل عليها سوء الظنّ فيؤذى بها الحبُّ محبوبه ويُغرى عليه قلبه بالغضب ، وهذه الغيرةُ يكرهها الله إذا كانت في غير رتبةٍ ، ومنها غيرةٌ تحمله على عقوبة المحبوب بأكثر مما يستحقه كما ذكر عن جماعة أنهم قتلوا محبوبهم . وكان ذلك الجنّ الشاعرُ له غلامٌ وجاريةٌ في غاية الجمال وكان يهواهما جميعاً ، فدخل المنزل يوماً فوجد الجارية معانقةً للغلام تقبله فشده عليهما فقتلها ، ثم جلس عند رأس الجارية فبكاه طويلاً ثم قال :

ياطلعةً طلعت الحمام^(١) عليها وجنى لها ثمراً ازدي يديها
رويتُ من دمها الثرى وأطالما روى الهوى شفتي من شفتيها

(١) الحمام : قضاء الموت وقدره .

وأجلت سيفي في بحال خناقها ومدامي تجري على خديها
فوق حق نعلها فما وطىء الثرى شيء أعز علي من نعلها
ما كان قتلها لأني لم أكن أبكي إذا سقط الغبار عليها
لكن بخلت علي شراي بحسنها وأنفت من ناز الغلام إليها
ثم جلس عند رأس الغلام فبكي وأنشأ يقول :

أشفقت أن يرَدَ الزمانُ بغيره أو أتلى بعد الوفاء بهجره
قرأ أنا استخرجته من دجنه^(١) بمودتي وجنيته من خدره
فقتلته وله على كرامة ملء الحشا وله الفؤاد بأسره
عهدي به ميثاقا أحسن نأتم والدمع ينحر مقلتي في نحره
لو كان يدرى الميت ما ذا بعده بالحي منه بكى له في قبره
غصص^(٢) تكاد تفيض منها نفسه ويكاد يخرج قلبه من صدره

فصل

وقد يغار المحب على محبوبه من نفسه ، وهذا من أعجب الغيرة وله أسباب :
منها : خشية أن يكون مفتاحا لغيره كما ذكر أن الحسن بن هانيء وعلي بن
عبد الله الجعفرى اجتماعا فتناشدا فأنشد الحسن^(٣) :

ولما بدا لي أنها لا تؤدني وأنت هواها ليس عني بمنجلى

(١) الدجنة والدجنة : الغيم المطبق والظلمة .

(٢) جمع غصة : وهى الشجى والحزن وما غص به الإنسان من طعام أو غيظ .

(٣) هو أبو نواس ، وفى كتاب الأغاني للأصبهاني أن هذين البيتين والذين بعدهما كلها لعلي بن عبد الله الجعفرى .

تَمَنَيْتُ أَنْ تُبَلِّغَنِي بَغِيرِي لَعَلَّهَا تَذُوقُ حَرَارَاتِ الْهَوَى فُتَرَّقَ لِي
فَأَنْشُدَهُ عَلَى :

رَبِّمَا سَرَّنِي صَدُودُكَ عَنِّي فِي طِلَإِيكَ وَامْتِنَاعِكَ مِنِّي
حَذَرًا أَنْ أَكُونَ مَفْتَاخَ غَيْرِي فَإِذَا مَا خَلَوْتُ كُنْتَ التَّمَنَى
وَكُنَ بَعْضُهُمْ يَمْتَنِعُ مِنْ وَصْفِ مَحْبُوبِهِ وَذَكَرَ مُحَاسِنَهُ خَشْيَةً تَعْرِضُهُ لِحُبِّ
غَيْرِهِ لَهُ كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ عِيْسَى الرَّافِقِيُّ :

وَلَسْتُ بِوَاصِفٍ أَبَدًا خَلِيلاً أُعْرِضُهُ لِأَهْوَاءِ الرِّجَالِ
وَمَا بَالِي أَشَوْقَ قَلْبٍ غَيْرِي وَدُونَ وَصَالِهِ سَتْرُ الْحِجَالِ
وَكَثِيرٌ مِنَ الْجِبَالِ وَصَفَ امْرَأَتَهُ وَمَحَاسِنَهَا لَغَيْرِهِ ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ
فِرَاقِهَا لَهُ وَاتِّصَالِهَا بِهِ . .

فصل

ومنها : أَنْ يَجْعَلَهُ فَرَطُ الْغَيْرةِ عَلَى أَنْ يَنْزِلَ نَفْسَهُ مِنْزِلَةَ الْأَجْنَبِيِّ فَيُغَارَ عَلَى
الْمَحْبُوبِ مِنْ نَفْسِهِ ، وَلَا يُنْكَرُ هَذَا فَإِنْ فِي الْحُبِّ عَجَائِبٌ ، وَقَدْ قَالَ أَبُو تَمَامٍ
الطَّائِيُّ (١) .

بِنَفْسِي مِنْ أَغَارَ عَلَيْهِ مِنِّي وَأَحْسَدَ أَهْلَهُ نَظَرِي إِلَيْهِ
وَلَوْ أَنِّي قَدَرْتُ طَمَسْتُ عَنْهُ عَيُونََ النَّاسِ مِنْ حَذَرِي عَلَيْهِ
حَيْبُ بَثٍّ فِي جَسْمِي هَوَاةٍ وَأَمْسَكَ مَهْجَتِي رَهْنًا لَدَيْهِ
فُرُوحِي عِنْدَهُ وَالْجِسْمُ خَالٍ بِلا رُوحٍ وَقَلْبِي فِي يَدَيْهِ

(١) هذه الأبيات ليست في ديوان أبي تمام المطبوع .

وقال آخر :

يا من إذا ذُكِرَ اسمُهُ في مجلسٍ لذَّ الحديثُ به وطاب المجلسُ
إني كِلينَ نظري أغار وإلني بك عن سواي من الأنام لأنفسِ
نفسى فداؤُك ولورأيت تلددى^(١) خَضِلَ المدامع مطرقاً أنفَسِ
لعلمتَ أنى في هواك مُعَذِّبٌ ومن الحياة ورَّوحها مسهَّيَسِ

وقال على بن نصر :

أفأتيك أنتِ فاتكةً بقلبي وحسنُ الوجه يَفْتُكُ بالقلوبِ
أصونك عن جميع الناس يامن بُليت بها فأضحت من نصيبي
وعن نفسى أصونك ليت نفسى تقيك من الموادث والخطوبِ
وما حقُّ الحسانِ علىَّ إلاَّ صيانتهن من دَنَسِ^(٢) الذنوبِ

فصل

ومنها : شدَّةُ المواقفة للحبيب ، والحبيبُ يكره أن ينسب محبته إليه وأن يذكر ذلك ، فهو لمواقفته لمحبوبه يغار عليه من نفسه كما يسرُّه هجرُ محبوبه إذا علم أن فيه مراده ، قال الشاعر :

مُررتُ بهجرك لسا عله أت لقلبك فيه سرورا .
ولولا سرورك ما سررتنى ولا كنتُ يوماً عليه صبوراً

فصل

وملاك الغيرة وأعلامها ثلاثة أنواع : غيرةُ العبد لربه أن تُذتَهكَ محارمُهُ وتُضيِّعَ حدودُهُ . وغيرةُ تَه عَلَى قلبه أن يسكن إلى غيره وأن يأنس بسواه ،

(١) التلدد : التحير والتردد .

(٢) الدنس : الفجح والوسخ وفعل ما يشين .

وغيرته على حرمة أن يتطالع إليها غيره . فالغيرة التي يحبها الله ورسوله دارت على هذه الأنواع الثلاثة ، وما عداها فإما من خدع الشيطان ، وإما بلوى من الله كغيرة المرأة على زوجها أن يتزوج عليها . فإن قيل : فمن أي الأنواع تعدون غيره . فاطمة رضي الله عنها ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب رضي الله عنه لما عزم على نكاح ابنة أبي جهل ، وغيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ؟ قيل : من الغيرة التي يحبها الله ورسوله ، وقد أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم بأنها بضعة ^(١) منه وأنه يؤذيه ما آذاها ، ويريبه ما أرابها ^(٢) ، ولم يكن يحسن ذلك الاجتماع البتة ، فإن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحسن أن تجتمع مع بنت عدوه عند رجل ، فإن هذا في غاية المنافرة مع أن ذكر النبي صلى الله عليه وسلم صهره الذي حدثته فصدقه ووعده فوفى له دليل على أن علياً رضي الله عنه كان مشروطاً عليه في العقد إما لفظاً وإما عرفاً وحالاً أن لا يريب فاطمة ولا يؤذيها بل يمسكها بالمعروف ، وليس من المعروف أن يضم إليها بنت عدو الله ورسوله ويغنيها بها ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : «إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي ويتزوج ابنة أبي جهل» ^(٣) والشرط العرفي الحالى كالشرط اللفظي عند كثير من الفقهاء كفقهاء المدينة وأحمد بن حنبل وأصحابه رحمهم الله تعالى ، على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خالف عليها الفتنة في دينها باجتماعها وبنت عدو الله عنده ، فلم تكن غيرته صلى الله عليه وسلم مجرد كراهية الطبع للمشاركة ، بل الحامل عليها حرمة الدين . وقد أشار إلى هذا بقوله : «إني أخاف أن تفتن في ديني» ^(٤) والله أعلم بالصواب .

(١) البضعة منه : جزء منه والبضعة : القطعة من اللحم .

(٢) أرابها : أغاظها وأقلقها .

(٣) روى هذه القصة البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم .

(٤) تكملة الحديث السابق في بعض الروايات .

الباب الثالث والعشرون

في عفاف المحبين مع أمهاتهم

قال الله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ،
وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ
لِفِرْوَجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ
مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)^(١) ولما أنزلت هذه
الآيات على النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قَدْ أَنْزَلْتُ عَلَى عَشْرُ آيَاتٍ مِنْ
أَقَامَتِهِمْ دَخَلَ الْجَنَّةَ »^(٢) . ثم قرأ هذه الآيات .

وقال الله تعالى : (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا) . إلى قوله : (وَالَّذِينَ هُمْ
لِفِرْوَجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ
مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)^(٣) وقال تعالى : (قُلْ
لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ
بِخَيْرٍ يَخَيِّرْ لِمَا يَصْنَعُونَ) . وقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ
فُرُوجَهُنَّ)^(٤) الآية . وقال تعالى : (وَلَيْسَتُغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى

(١) أوائل سورة المؤمنين .

(٢) رواه الترمذى كما جاء في تفسير الخازن . وقال الخفاجى في حاشيته على
البيضاوى : الحديث وارد في السنن لكنهم اختلفوا في صحته وضعفه .

(٣) الآيات ١٩ و ٢٩ و ٣٠ و ٣١ . سورة المارج .

(٤) الآيتان ٣٠ و ٣١ . سورة النور .

يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ^(١) وقال تعالى : (وَأَنْ يَسْتَغْفِرَ خَيْرَ لِمَنْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)^(٢) وقال تعالى : (وَمَرْيَمَ أَبْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَنَنْفَخُنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا)^(٣) فَإِنْ قِيلَ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَأَنْسِكُوا الْأَيَّامَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)^(٤) وقال في الآية الأخرى : (وَلَيْسَتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) فأمرهم بالاستغفار إلى وقت الغنى ، وأمر بتزويج أولئك مع الفقر ، وأخبر أنه تعالى يغنيهم ، فما يحمل كلٌّ من الآيتين ؟ فالجواب أن قوله : (وَلَيْسَتَغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) في حق الأحرار ، أمرهم الله تعالى أن يستغفروا حتى يغنيهم الله من فضله ، فإنهم إن تزوجوا مع الفقر التزموا حقوقاً لم يقدرُوا عليها وليس لهم من يقوم بها عنهم ، وأما قوله : (وَأَنْسِكُوا الْأَيَّامَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ) فإنه سبحانه أمرهم فيها أن ينكحوا الأيامى وهنَّ النساء اللواتي لا أزواج لهنَّ ، هذا هو المشهور من لفظ الأيتام عند الإطلاق وإن استعمل في حق الرجل بالتقييد ، كما أن العزب عند الإطلاق للرجل وإن استعمل في حق المرأة . ثم أمرهم سبحانه أن يزوجوا عبيدهم وإماءهم إذا صَحَّحُوا للنكاح ، فالآية الأولى في حكم تزويجهم لأنفسهم ، والثانية في حكم تزويجهم لغيرهم . وقوله في هذا القسم : (إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ) يَعُمُّ الأنواع الثلاثة التي ذُكِرَتْ فيه ، فإن الأيتام تستغنى بنفقة زوجها وكذلك الأمة ، وأما العبد فإنه لما كَانَ لِمَالِكِهِ وكان ماله لسيده

(٢١) (الآيتان ٣٣ و ٦٠ . سورة النور .

(٣) آخر سورة التحريم .

(٤) الآية ٢٢ . سورة النور .

فهو فقير مادام رقيقاً فلا يمكن أن يُجمل لنسكاحه غايةً وهي غناه ما دام عبداً ، بل غناه إنما يكون إذا عتق واستغنى بهذا العتق ، والحاجة تدعوه إلى النكاح في الرقي ، فأمر سبحانه بإنسكاحه وأخبر أنه يغنيه من فضله ، إما بكسبه وإما بإتفاق سيده عليه وعلى امرأته ، فلم يمكن أن ينتظر بنسكاحه الغنى الذى ينتظر بنكاح الحر والله أعلم .

وفى المسند وغيره من فروعاً : ثَلَاثَةٌ حَقَّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمْ : الْمُتَزَوِّجُ يُرِيدُ الْعَقَافَ ، وَالْمُكَاتِبُ يُرِيدُ الْآدَاءَ ، وذكر الثالث (١) .

فصل

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عن يوسف الصديق صلى الله عليه وسلم من العفاف أعظم ما يكون ، فإن الداعى الذى اجتمع فى حقه لم يجتمع فى حق غيره فإنه صلى الله عليه وسلم كان شاباً والشباب مركب الشهوة ، وكان عزباً ليس عنده ما يعوضه ، وكان غريباً عن أهله ووطنه . والمقيم بين أهله وأصحابه يستحي منهم أن يعلموا به فيستقط من عيونهم ، فإذا تغرب زال هذا المانع ، وكان فى صورة المملوك والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر ، وكانت المرأة ذات تمصيص وجمال والداعى مع ذلك أقوى من داعى من ليس كذلك ، وكانت هى المطالبة فيزول بذلك كلفة تعرض الرجل وطلبه وخوفه من عدم الإجابة ، وزادت مع الطلب الرغبة التامة والمرادة التى يزول بمعها ظن الامتحان والاختبار لتعلم عفافه من فجوره ، وكانت فى محل سلطانها وبيتها بحيث تعرف وقت الإمكان

(١) هو المجاهد فى سبيل الله . والمكاتب : الهبد الذى كاتبه سيده على نفسه بثمنه فإذا سعى وأداه عتق .

ومكانه الذى لا تناله العيون ، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب لتأمين هجوم الداخل على بنته ، وأتته بالرغبة والرغبة ، ومع هذا كله ففعل الله ولم يطعها ، وقدم حق الله وحق سيدها على ذلك كله ، وهذا أمر لو ابتلي به سواه لم يعلم كيف كانت تكون حاله ، فإن قيل : فقد هم بها ، قيل عنه جوابان ، أحدهما : أنه لم يهيم بها بل لولا أن رأى برهان ربه لهم ، هذا قول بعضهم فى تقدير الآية . والثانى : وهو الصواب أن همه كان هم خطرات فتركه الله فأثابه الله عليه وهمها كان هم إصرار بذلت معه جهدها فلم تصل إليه فلم يستوهمان .

قال الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : الهم همان : هم خطرات وهم إصرار ، فهم الخطرات لا يؤاخذ به ، وهم الإصرار يؤاخذ به . فإن قيل : فكيف قال وقت ظهور براءته : (وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي) قيل : هذا قد قاله جماعة من المفسرين وخالفهم فى ذلك آخرون أجل منهم وقالوا : إن هذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف عليه السلام ، والصواب معهم لوجود أحدها : أنه متصل بكلام المرأة وهو قولها : (الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاودَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ . ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخْنُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ . وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي)^(١) ومن جعله من قوله فإنه يحتاج إلى إضمار قول لا دليل عليه فى اللفظ بوجه ، والقول فى مثل هذا لا يحذف لثلاث يوقع فى اللبس^(٢) فإن غايته أن يحتمل الأمرين ، فالكلام الأول أولى به قطعاً .

(١) الآيات ٥١ و ٥٢ و ٥٣ . سورة يوسف . وحصل الحق : وضع وتبين بعد خفائه .

(٢) اللبس : الشبهة تخفى معها حقيقة الأمر . ولبس الشيء : خلطه وغماه ولبس عليه الأمر جعله مشكلاً ومدعاة إلى الشك والخيبة .

الثاني : أن يوسف عليه السلام لم يكن حاضراً وقت مقاتلها هذه ، بل كان في السجن لما تكلمت بقولها : (الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ) ، والسياق صريح في ذلك فإنه لما أرسل الملك إليه يدعوه قال للرسول : (أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ)^(١) فأرسل إليهن الملك وأحضرهن وسألهن وفيهن امرأته ، فشهدن ببراءته ونزاهته في غيبته ، ولم يُمكنهن إلا قولُ الحقِّ فقال النسوة : (حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ)^(٢) وقالت امرأة العزيز : (أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)^(٣) فإن قيل : لكن قوله : (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)^(٤) الأحسن أن يكون من كلام يوسف عليه السلام ، أي إنما كان تأخيري عن الحضور مع رسوله ليعلم الملك أنني لم أخنه في امرأته في حال غيبته وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم قال : (وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)^(٥) وهذا من تمام معرفته صلى الله عليه وسلم بربه ونفسه ، فإنه لما أظهر براءته ونزاهته مما قُذف به أخبر عن حال نفسه وأنه لا يزكّيها ولا يبرئها ، فإنها أماراة بالسوء لكن رحمة ربه وفضله هو الذي عصمه ، فردّ الأمر إلى الله بعد أن أظهر برءته ، قيل : هذا وإن كان قد قاله طائفةٌ فالصواب أنه من تمام كلامها ، فإن الضمائر كلها في نسق واحد يدلُّ عليه وهو قول النسوة : (مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ) وقول امرأة العزيز : (أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) فهذه خمسة ضمائر بين بارزٍ ومستترٍ ثم اتصل بها قوله : (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) فهذا هو

المذكور أولاً بعينه فلا شيء يَفْصِلُ الكلام عن نظمه وَيَضْمُرُ فيه قول لا دليل عليه ، فإن قيل فما معنى قولها : (لَيْتَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) قيل : هذا من تمام الاعتذار ، قرنت الاعتذار بالاعتراف فقالت : ذلك أى قولى هذا وإقرارى ببراءته ليعلم أنى لم أخنهُ بالكذب عليه فى غيبته وإن خنتهُ فى وجهه فى أوّل الأمر ، فالآن يعلم أنى لم أخنهُ فى غيبته ، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها : (وما أبرئى نفسى) ثم ذكرت السبب الذى لأجله لم تبرئى نفسها ، وهى أن النفس أماراة بالسوء ، فتأمل ما أعجب أمر هذه المرأة ! أقربت بالحق واعتذرت عن محبوبها ، ثم اعتذرت عن نفسها ، ثم ذكرت السبب الحامل لها على ما فعلت ، ثم ختمت ذلك بالطمع فى مغفرة الله ورحمته وأنه إن لم يرحم عبده وإلا فهو عُرْضَةٌ للشر ، فوازن بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلام يوسف عليه السلام لفظاً ومعنى ، وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت ، ولا يُسْتَبَعْدُ أن تقول المرأة هذا وهى على دين الشرك فإن القوم كانوا يُقَرُّونَ بِالرَّبِّ سبحانه وتعالى وبحقه وإن أشركوا معه غميره ، ولا تنس قول سيدّها فى أوّل الحال : (وَأَسْتَغْفِرِى لِنَفْسِكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ)^(١) .

فصل

وفى الصحيح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فى ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابُّ نَشَأَ فى عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَانِقٌ بِالْمَسَاجِدِ ، وَرَجُلَانِ

(١) الآية ٢٩ : سورة يوسف .

ثُمَّ بَا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَالَ فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ » (١) .

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة وابن عمر رضى الله عنهم ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بَيْنَمَا ثَلَاثَةٌ يَمْشُونَ إِذْ أَخَذَتْهُمْ السَّمَاءُ فَأَوَّزُوا إِلَى غَارٍ فِي الْجَبَلِ فَانْحَطَّتْ عَلَيْهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَأُطْبِقَتْ عَلَيْهِمْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَنْظِرُوا أَعْمَالًا صَالِحَةً عَمِلْتُمُوهَا فَادْعُوا اللَّهَ بِهَا ، فَقَالَ بَعْضُهُم : اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَبُوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَامْرَأَةٌ وَصِيبَانِ وَكُنْتُ أَرْعَى عَلَيْهِمْ فَإِذَا رُخْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ أَسْقِيهِمَا قَبْلَ بَنِيَّ وَأَنَّهُ نَأَى بِي الشَّجَرُ فَنَمَّ آتٍ حَتَّى أَمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلِبُ فَقُمْتُ عِنْدَ رُؤُوسِهِمَا أَسْكُرُهُ أَنْ أَوْقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا وَأَنْ أَبْدَأَ بِالصَّبِيَّةِ قَبْلَهُمَا وَالصَّبِيَّةُ يَتَضَاغُونَ (٢) عِنْدَ قَدَمَيَّ فَلَمْ أَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ فَإِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ أَبْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً تَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ فَفَرَجَ اللَّهُ لَهُمْ فُرْجَةً . وَقَالَ الْآخَرُ : اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةٌ عَمٌّ فَأَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرَّجُلُ النِّسَاءَ فَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا فَأَبَتْ حَتَّى آتَيْتَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ فَسَمِعْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ فَحِثَّتُهَا بِهَا فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ : يَا عَبْدَ اللَّهِ أَتَقِي اللَّهَ وَلَا تَقْضِ اتِّلَاسَتَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ ، فَقُمْتُ عَنْهَا وَتَرَكْتُ الْمِائَةَ دِينَارٍ فَإِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ أَبْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْ

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وأحمد . كما قال السيوطى .

(٢) يتضاغون : يتضورون ويصيحون من الجوع .

هَذِهِ الصَّخْرَةُ فَفَرَجَ اللَّهُ لَهُمْ فُرْجَةً . فقال الآخر : اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا يَفْرُقُ^(١) مِنْ أُرُرٍ فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ : أُعْطِنِي حَقِّي فَأَعْطَيْتُهُ فَأَبَى أَنْ يَأْخُذَهُ فزَرَعْتُهُ وَنَمَيْتُهُ حَتَّى اشْتَرَيْتُ لَهُ بَقْرًا وَرِعَاءَهَا^(٢) فَبَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ : يَا هَذَا اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَطْلُمْنِي وَأَعْطِنِي حَقِّي ، فَقُلْتُ : اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقْرِ وَرِعَائِهَا فَهَوِّ لَكَ ، فَقَالَ : اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَهْزَأْ بِي ، فَقُلْتُ : لَا اسْتَهْزِئُ بِكَ فَيُؤْذِيكَ ، فَأَخَذَهَا وَذَهَبَ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ أَبْنَاءَ وَجْهِكَ فَافْرَجْ عَنَّا مَا بَقِيَ مِنَ الصَّخْرَةِ فَفَرَجَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَخَرَجُوا يَمْشُونَ^(٣) .

وقال عبيد الله بن موسى : حدثنا شيبان بن عبد الرحمن ، عن الأعمش ، عن عبد الله بن عبد الله الرازي ، عن سعد مولى طلحة ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لقد سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً لو لم أسمعهُ إلا مرة أو مرتين حتى عدَّ سبع مرَّات ما حدثت به ، ولكن سمعته أكثر من ذلك قال : « كان ذو الكفَّل^(٤) من بني إسرائيل لا يتورَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ فَأَتَتْهُ أَسْرَاءُ فَأَعْتَاها سِتِّينَ دِينَاراً عَلَى أَنْ يَطَّأَهَا فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنَ الْمَرْأَةِ أُرْعِدَتْ وَبَكَتْ فَقَالَ : مَا يُبْكِيكِ أَكْرَهْتِكِ ؟ قَالَتْ : لَا وَلَكِنْ هَذَا عَمَلٌ لَمْ أَعْمَلْهُ قَطُّ ! قَالَ : فَتَفْعَلِينَ هَذَا وَلَمْ تَفْعَلِيهِ قَطُّ ؟ قَالَتْ : حَاجَتُنِي عَلَيْهِ الْحَاجَةُ فَتَرَكَهَا ثُمَّ قَالَ : اذْهَبِي وَانْزِي لِي ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ

(١) الفرق : مكيال معروف بالمدينة يسع ثلاثة أصع أو ستة عشر رطلاً أو أربعة أرباع .

(٢) رعاء : جمع رعية وهي الكلاء أو جمع راع .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) في الجامع الصحيح : الكفل وكذلك هو في تهذيب التهذيب في ترجمة

سعد مولى طلحة راوى القصة عن ابن عمر رضي الله عنهما .

لَا يَعْصِي اللَّهُ ذُو الْكَفْلِ أَبَدًا فَمَاتَ مَنْ لَيْلَتِهِ فَأَصْبَحَ مَكْتُوبًا عَلَى بَابِهِ : غَفَرَ اللَّهُ لَذِي الْكَفْلِ « (١) . وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله من حديث عُبَيْدَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « عَجِبَ رَبُّكَ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبَوَةٌ » .

وذكر البرد عن أبي كامل ، عن إسحاق بن إبراهيم ، عن رجاء بن عمرو النخعي ، قال : كان بالكوفة فتى جميل الوجه شديد التعبد والاجتهاد فنزل في جوار قوم من النخع ، فنظر إلى جارية منهم جميلة فهُويها وهام بها عقله ، ونزل بالجارية ما نزل به فارسل يخطبها من أبيها ، فأخبره أبوها أنها مسمومة لابن عمِّ لها (٢) ، فلما اشتدَّ عليهما ما يقاسياناه من ألم الهوى أرسلت إليه الجارية : قد بلغني شدة محبتك لي وقد اشتدَّ بلائي بك ، فإن شئت زررتك ، وإن شئت سهلت لك أن تأتيني إلى منزلي ، فقال للرسول : ولا واحدة من هاتين أخلتني ، (إنني أخافُ إن عصيتُ ربِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (٣) أخاف نارا لا يخبو سعيها ، ولا يحمي لميها ، فلما أبلغها الرسول قوله قالت : وأراه مع هذا يخاف الله ؟ والله ما أحدٌ أحقُّ بهذا من أحدٍ ، وإن العباد فيه لمشركون ، ثم انخلت من الدنيا وألقت علائقها (٤) خلف ظهرها وجعلت تتعبد ، وهي مع ذلك تذبذب وتنحلُّ حبًّا للفتى وشوقًا إليه حتى ماتت من ذلك ، فكان الفتى يأتي قبرها فيمسكي عنده ويدعو لها ، فغلبته عينه ذات يوم على قبرها فرآها في منامه في أحسن منظر فقال : كيف أنت وما لقيت بعدى ؟ قالت :

(١) أورده المؤلف في الباب السابع والعشرين معزواً إلى جامع الترمذي وهو أيضاً في المسند .

(٢) مسماة له وعليه : مخطوبة له .

(٣) الآية ١٥ سورة الانعام ، الآية ١٥ سورة يونس ، الآية ١٣ سورة

الزمر . (٤) جمع علاقة : وهي ما تعلق بها من مال وزوج وولده .

نعمَ المحبّة يا سُؤلى ^(١) محبتكم حبٌّ يقود إلى خير وإحسان
فقال : على ذلك إلى مَ صرتِ ؟ فقالت :

إلى نعيمٍ وعيشٍ لا زوال له في جنّة الخلد ملك ليس بالقانى
فقال لها : اذكرينى هناك فإنى لست أنساك ، فقالت : ولا أنا والله أنساك ،
ولقد سألت مولائى ومولاك أن يجمع بيننا فأعنى على ذلك بالاجتهاد ، فقال لها :
متى أراك ؟ فقالت : ستأتينا عن قريبٍ فترانا ، فلم يعشِ الفتى بعد الرؤيا إلا سبع
ليالٍ حتى مات رحمه الله تعالى .

وذكر الزُّبَيْرُ بن بكار أن عبد الرحمن بن أبى عمار نزل مكة وكان من
عبّاد أهلها فسعى القسّ من عبادته ، فرّ يوماً بجارية تغنى فوق فسمع غناءها
فرآها مولاهما فأمره أن يدخل عليها فأبى ، فقال : فاقعد فى مكانٍ تسمع غناءها
ولا تراها ، ففعل فأعجبته ، فقال له مولاهما : هل لك أن أحوّلكم إليك ؟ فامتنع
بعض الامتناع ثم أجابه إلى ذلك ، فنظر إليها فأعجبته فشغف بها وشغفت به ،
وعلم بذلك أهل مكة ، فقالت له ذات يومٍ : أنا والله أحبك ، فقال : وأنا والله
أحبك ، قالت : فإنى والله أحب أن أضع فى على فمك ، قال : وأنا والله أحب
ذلك ، قالت : فما يمنعك ؟ فأبى الموضع خال ، قال لها : ويحك إني سمعت الله
يقول : (الأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) ^(٢) فأنا والله أكره أن
يكون صلة ما بينى وبينك فى الدنيا عداوةً فى القيامة ، ثم نهض وعيناه تذرفان
بالدموع من حبّها .

وقال عبد الملك بن قُرَيْبٍ ^(٣) : قلت لأعرابى : حدثنى عن ليلتك مع فلاة

(١) السؤل : ما سأله . والحاجة .

(٢) الآية : ٦٧ سورة الزخرف .

(٣) هو الأصمى .

قال : نعم خلوت بها والقمر يُرينيها فلما غاب أرتذيه ، قلت : فما كان بينكما ؟
قال : أقرب ما أحل الله مما حرم الله : الإشارة بغير ما باس ، والدُّنُو بغير
إساس ، ولعمري لئن كانت الأيام طالت بعدها لقد كانت قصيرة معها
وحسبك بالحب :

ما إن دعاني الهوى لفاحشة إلا نهاني الحياء والكرم
فلا إلى فاحشٍ مددت يدي ولا تمشت بي لريبةٍ قدم
وقال آخر :

وصفوها فلم أزل علم الله كشيئاً مستولماً مستهماً^(١)
هل عليها في نظارة من جناح من قتي لا يزور إلا لما^(٢)
حال فيها الإسلام دون هواه فهو يهوى ويحفظ الإسلاماً
ويميل الهوى به ثم يخشى أن يطيع الهوى فيلقى أثماً
وقال الحسين بن مطير :

أحبك ياسلتي على غير ريبة ولا بأس في حب تعف سرائره
أحبك حباً لا أعنف بعده محباً ولكني إذا ليم عاذره
وقد مات قلبي أول الحب مرة ولومت أنهي الحب قد مات آخره
وقال محمد بن أبي زُرعة الدمشقي

إن حظي ممن أحب كفاف^(٣) لا صدود مقتص ولا إنصاف
كلما قلت قد أنابت إلى الوصل سل ثناها عما أريد العفاف

(١) مستولماً : مضطرب العقل . ومستهماً : هائماً .

(٢) لا يزور إلا لما : في الأحايين .

(٣) كفاف : قليل والكفاف من الرزق ما كف عن الناس أي أغنى . وفي الحديث : اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً .

فكأنى بين الصدود وبين الـ وصل ممن مقامه الأعراف^(١)
 فى محلّ بين الجنان وبين النـ ر أرجو طَوْرًا وطَوْرًا أخاف
 وقال عثمان بن الضحاك الحزامى : خرجت أريد الحج فزلت بالأبواء ،
 فإذا امرأة جالسة على باب خيمة فأعجبني حسننها فتمثلت بقول نصيب :
 بزئب أليم^(٢) قبل أن يرحل الركب وقل إن تملينا فما ملك القلب
 فقالت : يا هذا أتعرف قائل هذا الشعر ؟ قالت : نعم نصيب ، قالت : فتعرف
 زئبه ؟ قلت : لا ، قالت : فأنا زئبه ، قلت : حياك الله ، قالت : أما إن اليوم
 موعده من عند أمير المؤمنين ، خرج إليه عام أوّل فوعدنى هذا اليوم ، لعلك
 لا تبرح حتى تراه ، قال : فبينما أنا كذلك إذا أنا براكب ، قالت : ترى ذلك
 الراكب ؟ إني لأحسبه إياه ، قال : فأقبل فإذا هو نصيب ، فنزل قريباً من الخيمة
 ثم أقبل فسلم حتى جلس قريباً منها يسألها وتساؤلها أن ينشدها ما أحدث
 فأنشدها ، فقلت فى نفسى : محبان طال التناؤى بينهما لابد أن يكون لأحدهما
 إلى صاحبه حاجة ، فقممت إلى بعيرى لأشدد عليه ، فقال : على رسلك إني معك ،
 فجلست حتى نهض معى فتسايرنا ثم التفت إلى فقال : أقلت فى نفسك محبان
 التقيا بعد طول التناؤى فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة ؟ قلت :
 نعم قد كان ذلك ، قال : ورب هذه التبيّة ما جلست منها مجلساً هو أقرب
 من هذا .

وقال عمر بن شبّة : حدثنا أبو غسان قال : سمعت بعض المدنيين يقول :
 كان الرجل يحب الفتاة فيطوف بدارها حولاً يفرح أن يرى من يراها ، فإن

(١) الأعراف : قيل هو سور بين الجنة والنار .

(٢) أليم : لمنزل . والإلام النزول .

ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار . واليوم يشير إليها وتشير إليه قبيدُها
وتعده فإذا التقيا لم يشك حبا ولم ينشد شعرا ، وقام إليها كأنه قد أشهد على
نكاحها أبا هريرة رضى الله عنه . وقال محمد بن سيرين : كانوا يعشقون في غير
ربيعة ، وكان الرجل يأتي إلى القوم فيتحدث عندهم لا يستنكر له ذلك . وقال
هشام بن حسان : لكن اليوم لا يرَضونَ إلا بالمواقعة . وقيل لأعرابي :
ما تعدُّون العشق فيكم ؟ قال : القُبلة والضمة والغمرة ، وإذا نكح الحب فسد .
وقال المبرد : كان العتيَّ يحب جارية تسمى ملك ، فكتب إليها :

يَا مَلِكٌ قَدْ صَرْتُ إِلَى خُطَّةٍ رَضِيتُ مِنْهَا فَيْكِ بِالضِّيمِ^(١)
مَا اشْتَمَلْتُ عَيْنِي عَلَى رَقْدَةٍ مَذْغَبٍ عَنْ عَيْنِي إِلَى الْيَوْمِ
فَبِتْ مَفْتُوقَ كِبَارِي الْبُكَاءِ مَعْطَلَّ الْعَيْنِ عَنِ النَّوْمِ
وَوَجَدِي الدَّهْرَ بِكُمْ غُلْمَةً قَالُمْتُ مِنْ نَفْسِي عَلَى سَوَمِ^(٢)
يَلُومُنِي النَّاسُ عَلَى حُبِّكُمْ وَالنَّاسُ أَوْلَى فَيْكِ بِاللَّوْمِ

قال : فكتبته إليه :

إِنْ تَكُنِ الْغُلْمَةُ هَاجَتَ بِكُمْ فَعَالِجُ الْغُلْمَةِ بِالصُّومِ
لَيْسَ بِكَ الْحُبُّ وَلَكِنَّمَا تَدُورُ مِنْ هَذَا عَلَى كَوْمِ

يقال : كام الفحل يكوم كروما إذا نزا على الحجرة^(٣) وأرادت هذه المعشوقة
قولَ النبي صلى الله عليه وسلم : « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ الْبَاءَةَ
فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغْنَى لِلْبَصْرِ وَأَخْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ »

(١) الضيم : الظلم .

(٢) على سوم : أى يطلبها ويحوم حولها .

(٣) هى الانثى من الخيل ، وأكثر اللغويين يقولون بغيرها .

فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاهٌ» (١) .

وقال أبو الحسن المدائني : هَوَىَّ بعضُ المسلمين جاريةً بمكة فأرادها فامتنعت عليه ، فقال على لسان عطاء بن أبي رباح :

سَأَلْتُ التَّقِيَّ (٢) الْمَسْكِيَّ هَلْ فِي تَعَانُقٍ وَقُبْلَةٍ مُشْتَاكِ الْفُؤَادِ جُنَاحُ
فَقَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَذْهَبَ التَّقِيُّ تَلَاصُقُ أَكْبَادٍ بِهِنَّ جِرَاحُ .
فقالت : آلهة سألت عطاء عن ذلك فقال لك هذا ؟ فقال : اللهم نعم ، فزارته وجعلت تقول : إِيَّاكَ أَنْ تَتَعَدَّى مَا أَفْتَاكَ بِهِ عَطَاءُ .

وقال الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَاجِشُونِ قَالَ : أُنْشَدْتُ مُحَمَّدَ بْنَ الْمُنْكَدِرِ قَوْلَ وَضَّاحِ الْيَمَنِ :

فَمَا نَوَّلْتُ حَتَّى تَضَرَّعَتْ حَوْلَهَا وَأَقْرَأَتْهَا مَا رَخَّصَ اللَّهُ فِي اللَّئِمِّ (٣)
فَضَحَكَ مُحَمَّدٌ وَقَالَ : إِنْ كَانَ وَضَّاحٌ لَمُغْتَبَاً فِي نَفْسِهِ .

وقال الأصمعي : قيل لأعرابي : ما كنت صانعاً لو ظفرت بمن تهوى ؟ قال : كنت أمتع عيني من وجهها ، وقلبي من حديثها ، وأستر منها ما لا يحبه الله ، ولا يرضى كشفه إلاَّ عند حِلِّهِ ، قيل : فإن خِفْتَ أَنْ لَا تَجْتَمِعَا بَعْدَ ذَلِكَ ؟ قال : أَكُلُّ قَلْبِي إِلَى حُبِّهَا ، وَلَا أَصِيرُ بِقَبِيحِ ذَلِكَ الْفِعْلِ إِلَى نَقْضِ عَهْدِهَا . قال : وقيل لآخر وقد زُوِّجَتْ عَشِيقَتُهُ مِنْ ابْنِ عَمِّهَا وَأَهْلُهَا عَلَى إِهْدَائِهَا إِلَيْهِ : أَيَسْرُكُ أَنْ تَظْفَرَ بِهَا اللَّيْلَةَ ؟ قال : نعم والذي أمتعني بها وأشقاني بطلبها ، قيل : فما كنت صانعاً ؟ قال : كنت أطيع الحبَّ في لثمها ، وأعصى الشيطان في لثمها ، ولا أفسد

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

(٢) البيتان قدما في صفحة ١١٣ و ١٢٤ باختلاف في اللفظ .

(٣) اللئيم : الصغير من الذنوب نحو القبلة والنظرة وما أشبهها .

عشق عشر سنين بما يبق عاره ، وتُنشَر بالقبيح أخباره ، في ساعة تَنفَدُ لذتها ،
وتبقى تَبِعَتُها إني إذا للئيم ، لم يَغْدُني أصلٌ كريم .
وقال عباس الدّوري : كان بعضُ أصحابنا يقول : كان سفيان الثوريُّ كثيراً
ما يتمثل بهذين البيتين :

تَنفَى اللّذَاذَةُ من نال صفوتها من الحرام ويبقى الوزرُ والعارُ
تبقى عواقبُ سوءٍ في مَبْعَثِهَا (١) لاخيرَ في لَذَّةٍ من بعدها النارُ
وقال الحسين بن مطير :

ونفسك أكرم عن أمورٍ كثيرةٍ فما لك نفسٌ بعدها تستعيرُها
ولا تقربِ المرعى الحرامَ فإنما حلاوته تنفى ويبقى سريرُها
وقال الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : الفتوة تركُ ما تهوى لما تخشى
وقال الخرائطي : حدّثنا إبراهيم بن الجنيد ، حدّثنا عبد الله بن أبي بكر
المقدسي ، حدّثنا جعفر بن سليمان الضُّبَعي قال : سمعت مالك بن دينار يقول : بينا
أنا أطوف إذ أنا بجاريةٍ متعبدةٍ متعلّمةٍ بأستار الكعبة وهي تقول : يارب كم
من شهوةٍ ذهبت لذتها ، وبقيت تَبِعَتُها ، أيارب أمالك أدبٌ إلّا النار ؟ فما زال
مقامها حتى طلع الفجر ، فلما رأيت ذلك وضعت يدي على رأسي خارجاً أقول :
تُكَلِّتُ مالِكاً أمّه ، جَوْرِيَّةٌ منذ الليلة قد بطلت (٢) .

وطائفةٍ بالبيت والليل مظلمٌ تقول ومنها دمعها يتسجم (٣)
أيارب كم من شهوةٍ قدرزنتها ولذة عيشٍ حبّلها متصرّم (٤)

(١) المغبة : عاقبة الشيء .

(٢) بطلته : عطلته . وأبطل : فسد وذهب ضياعاً وخسراً . وأبطل : جاء
بالباطل . وتبطل : تعطل . وفي الأساس : البطل المتعطل (وشر الفتيان المتبطل المتعطل)

(٣) يتسجم : يسيل .

(٤) تصرم : تقطع وتقضى .

أما كان يكفي للعبادة عقوبةً ولا أدباً إلاّ الجحيم المضرّم
فما زال ذاك القول منها تضرّعاً إلى أن بدا فجر الصباح المقدّم
فشبّكت منى الكفّ أهتف خارجاً

على الرأس أبدى بعض ما كنت أكتب
وقلت لنفسي إذ تطاول ما بها وأعياء عليها وزدّها للتغنّم
ألا ثكالك اليوم أمك مالكا جويرة أهلك منها التكلم
فما زلت بطّالاً بها طول ليلة تنال بها حظاً جسيماً وتغنّم

وقال مخرمة بن عثمان : نُبئت أن فتى من العباد هوى جارية من أهل
البصرة فبعث إليها يخطبها فامتنعت وقالت : إن أردت غير ذلك فعلت ، فأرسل
إليها : سبحان الله ! أدعوك إلى مالا إثم فيه وتدعيني إلى مالا يصالح ؟ فقالت :
قد أخبرتك بالذي عندي فإن شئت فتقدم ، وإن شئت فتأخر ، فأنشأ يقول :

وأساءلها الحلال وتدع^(١) قلبي إلى مالا أريد من الحرام
كداعى آل فرعون إياه وهم يدعونني نحو الأثام
فظلّ منعماً في الخلد يبعي وظلّوا في الجحيم وفي السقام

فلما علمت أنه قد امتنع من الفاحشة أرسلت إليه : أنا بين يديك على الذي
تحبّ ، فأرسل إليها : لا حاجة لنا فيمن دعونا إلى الطاعة ودعانا إلى المعصية ،
ثم أنشد :

لا خير فيمن لا يراقب ربّه عند الهوى ويخافه إيماناً
حبّب التقي سبيل الهوى فأخوال التقي يخشى إذا وافى المعد هواناً

(١) كذا.. بحذف حرف العلة ولا مسوغ له إلا الضرورة .

وقال عبد الملك بن مروان لليلى الأخيلىة : بالله هل كان بينك وبين توبة
سوء قط ؟ قالت : والذي ذهب بنفسه وهو قادرٌ على ذهاب نفسى ما كان بينى
وبينه سوء قط ، إلا أنه قدم من سفر فصالحته فغمزَ يدي فظننت أنه يَخْنَعُ^(١)
لبعض الأمر فذلك معنى قولى :

وَدَى حَاجَةٌ قَلْنَالَهُ لَا تَبْجُ بِهـَا فليس إليها ما حَيَّيتُ سَبِيلُ
لِنا صَاحِبٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ نَخُونَهُ وأنت لأخرى صَاحِبٌ وَخَلِيلُ
قالت : لا والذي ذهب بنفسه ما كَلَّمَنِي بِسُوءٍ قط حتى فَرَّقَ بينى
وبينه الموت .

وقال ابن أحرر : بينا أنا أطوف بالبيت إذ بَصُرْتُ بِأَمْرَاقٍ مَثْبِقَةٍ تَطُوفُ
بِالْبَيْتِ وهى تقول :

لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ مَعْشُوقَةٍ عَمَلًا يوماً وعاشقها غضبانٌ مَهْجُورٌ^(٢)
ليست بِمَاجُورَةٍ فِي قَتْلِ عَاشِقِهَا لكنَّ عَاشِقَهَا فِي ذَاكَ مَاجُورٌ

قلت لها : فى هذا الموضع ؟ فقالت : إليك عني لا يعلِّقُكَ الحبُّ ، قلت :
وما الحبُّ ؟ قالت : جلَّ والله عن أن يَخْنِي ، وخفىَ عن أن يُرَى ، فهو كالنار
فى أحجارها ، إن حرَّ كته أَوْرَى^(٣) ، وإن تركته توارى ، ثم أنشدت تقول :
غَيْدٌ أَوْانِسُ مَا هَمَّ نَ بَرِييَةٍ كظباء مكة صيدُهُنَّ حَرَامُ
يُحْسِنُ مِنْ لَيْنِ الْحَدِيثِ أَوْانِسًا^(٤) وَيَصُدُّهُنَّ عَنْ اتِّلْنَا الْإِسْلَامُ

(١) يخضع : يدعو إلى الفجور . والخنعة : الزينة والفجور .

(٢) تقدم البيتان فى الصفحة ١٧٣ .

(٣) أورى : اشتعل .

(٤) تقدم البيتان فى الصفحة ٢٤٣ وفيهما : د يحسن من لين الحديث زواياً ،
والختنا : الفحش .

وقد روى محمد بن عبد الله الأنصارى ، حدثنا عبد الوارث ، عن محمد بن جُحادة ، عن الوليد ، عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا صَلَّيْتَ الْمَرْأَةَ خَمْسَهَا وَصَامَتْ شَهْرَهَا وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ » ^(١) . وقال هشام بن عمار : حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا أبي ، حدثنا ابن هُبَيْعَةَ ، عن موسى بن وردان ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَيُّمَا امْرَأَةٍ اتَّقَتْ رَبَّهَا وَأَخْصَنَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ادْخُلِي مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ » ^(٢) .

وقال الزُّبَيْر بن بَكَّار : أخبرني شعيب بن يحيى بن سعيد الأموى ، حدثني أبي أن امرأةً لقيت كَثِيرَ عَزَّةٍ فقالت : تسمع بالمُعَيْدِيَّ خَيْرٌ من أن تراه ، قال : مه رحلك الله ! فأنا الذى أقول :

فَإِنَّ أَلَكُ مَعْرُوقَ الْعِظَامِ فَإِنِّى إِذَا مَاوَزْتَ الْقَوْمَ بِالْقَوْمِ أُوزِنَ
قالت : وكيف تُوزَنُ بالقوم وأنت لا تعرف إلا بعزَّةٍ ؟ قال : والله لئن
قلت ذلك لقد رفع الله بها قدرى ، وزين بها شعرى ، وإنها لَكَمَا قلت :
وما روضةٌ بِالْحَزْنِ طَاهِرَةٌ الثَّرَى يَمِجُّ النَّدى جُثْجَاثُهَا وَعَرَارُهَا ^(٣)
بأطيب من أَرْدَانِ عَزَّةٍ مَوْهِنًا وَقَدْ أَوْقَدْتَ بِالْمَنْدَلِ الرُّطْبَ نَارُهَا
من الْخَفِرَاتِ الْبَيْضِ لَمْ تَلَقْ شَقْوَةً وَبِالْحَسْبِ الْمَكْنُونِ صَافٍ نِجَارُهَا
فَإِنْ بَرَزْتَ كَانَتْ لَعِينُكَ قُوَّةً وَإِنْ غَبَتْ عَنْهَا لَمْ يَعْمَكْ عَارُهَا

(١) رواه أحمد والبخاري والطبراني . كما جاء في الجامع الصغير للسيوطي .

(٢) في مسند أحمد عن عبد الرحمن بن عوف باختلاف في اللفظ .

(٣) تقدمت هذه الأبيات في صفحة ٢٢٩

قالت : أرايت حين تذكر طيبها فلو أن زنجية تخمرت بالمندل الرطب لطاب ريحها ، ألا قلت كما قال امرؤ القيس .

خليلى مرأى على أم جندب تقضى لبانات^(١) الفؤاد المذبذب
ألم ترانى كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا وإن لم تطيب ؟
فقال : والله الحق خير ما قيل ، هو والله أنعت لصاحبه منى .

ودخلت عزة على عبد الملك بن مروان وهو لا يعرفها ترفع مظامة لها ، فلما سمع كلامها تعجب منه ، فقال له بعض جلسائه : هذه عزة كثير ، فقال لها عبد الملك إن أردت أن أرد عليك مظامتك فأشدينى ما قال فيك كثير ، فاستحييت وقالت والله ما أعرف كثيرا ولكنى سمعتهم يحكون عنه أنه قال فى :

قضى كل ذى دين فوق غريمه وعزة مطسول معنى غريمها
فقال عبد الملك ليس عن هذا أسألك ، ولكن أنشدنى من قوله :

وقد زعت أنى تغبرت بعدها ومن ذا الذى يا عز لا يتغير
تغير جسمى والخليقة كالذى عديت ولم يخبر بسر ك مخبر
قالت : ما سمعت هذا ولكن سمعت الناس يحكون عنه أنه قال فى :

كأنى أنادى صخرة حين أغرضت من الصم لو تمشى بها العصم زلت
صفوح^(٢) فما تلقاك إلا بخيلة فمن مل منها ذلك الوصل مالت
فقضى حاجتها ورد مظامتها وقال : أدخلوها على الجوارى يأخذن من أدها .
وذكرت عنه أنه قال فيها أيضا :

(١) جمع لبانة : الحاجة والنهمة .

(٢) المرأة السفوح : المعراضة الهاجرة .

وما نلت منها محرماً غير أننى أُقْبِلُ بساماً من الثغر أفلجاً
وألثم فاهاً تارةً ثم تارةً وأترك حاجاتِ النفوس تخرجاً

وقال الزبير بن بكار، عن عباس بن سهل الساعدي قال : بينا أنا بالشام إذ
لقيني رجلٌ من أصحابي فقال هل لكم في جميل نعوذه ؟ فدخلنا عليه وهو يمجد
بنفسه وما يُخَيِّلُ إلىَّ إلا أن الموت يكرهه^(١) ، فنظر إلىَّ ثم قال : يا ابن سهل ،
ما تقول في رجل لم يشرب الخمر قطَّ ، ولم يزن ، ولم يقتل نفساً ؟ يشهد أن لا إله إلا
الله ؟ قالت : أظنه قد نجا وأرجو له الجنة ، فمن هذا الرجل ؟ قال : أنا ، قلت :
والله ما أحسبك سلمت وأنت تشبب^(٢) منذ عشرين سنة في بُيُوتِنا ، فقال :
لانا لئن شفاعهُ محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة — فأبى في أول يومٍ من
أيام الآخرة وآخر يومٍ من أيام الدنيا — إن كنت وضعت يدي عليها لريبة .
فما برحنا حتى مات .

وقال عُوَانة بن الحكم : كان عبد المطلب لا يسافر إلا ومعه ابنه الحارث ،
وكان أكبر ولده ، وكان شبيهاً به جالاً وحُسنًا ، فأبى اليمين وكان يجالس
عظيماً من عظمائهم فقال له : لو أمرت ابنك هذا يجالسني وينادمني ، ففعل ،
فحشقت امرأته الحارث ، فراسلته فأبى عليها ، فأبحت عليه ، فأخبر بذلك أباه ،
فلما يئست منه سقته سمٌّ شهيراً ، فارتحل به عبد المطلب حتى إذا قدم مكة مات
الحارث . وذكرها هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه ، وذكر رثاء أبيه
له بقصيدته التي فيها :

(١) يكرهه : يشتهد عليه ويبلغ منه المشقة .
(٢) شبب بفلاحة : تغزل بها ووصف حسنها .

والحارث القياض أكرم ماجدٍ نازعه الهمام الكاسا
ولما احتضيرَ أبو سفيان بن الحارث هذا وهو ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم
قال لأهله : لا تبكوا عليّ فإنّي لم أتنطف^(١) بخطيئة منذ أسلمت .

ولما قدم عروة بن الزبير على الوليد بن عبد الملك خرجت برجله الآكلة^(٢)
فاجتمع رأى الأطباء على نشرها وأنه إن لم يفعل سرت إلى جسمه فهلك ، فلما
عزم على ذلك قالوا له : نسقيك مرقدًا؟ قال : ولم ؟ قالوا : لئلا تحسّ بما يصنع ،
قال : لا بل شأنكم ، فنشروا ساقه بالمنشار ، فما أزال عضواً عن عضوي حتى
فرغوا منها ثم حسموها^(٣) ، فلما نظر إليها في أيديهم تناولها وقال : الحمد لله ،
أما والذي حماني عليك إنه ليعلم أنّي مامّسيت بك إلى حرامٍ قطّ .

ولما حضرت عمر بن أبي ريعة الوفاة بكى عليه أخوه الحارث ، فقال له
عمر : يا أخي إن كان أسفك لما سمعت من قولي : قلت لها وقالت لي ، فكل
مملوكٍ لي حرّاً إن كنت كشفت حراماً قطّ . فقال الحارث : الحمد لله تعالى
طابت نفسي .

وقال سفيان بن محمد دخلت يوماً عزة على أمّ البنين أخت عمر بن
عبد العزيز فقالت يا عزة ما قول كثيرٍ ؟

قضى كل ذي دين فوق غريمه وعزة مطول معنى غريمها؟^(٤)

(١) تنطف : تلطخ .

(٢) الآكلة : الحسكة والجرب .

(٣) حسموها : كورها لكيلا يسيل الدم .

(٤) تقدم هذا البيت في الصفحة ٥٠ ومطل فلاناً بدينه : سوفه بوعده الوفاء
مرة بعد الأخرى ، ومعنى : معذبه حزين ، مكلف بما يشق عليه .

ما كان هذا الدين ؟ فقالت : كنت وعدته بقُبْلَةٍ ففُحِرْتُ منها ، فقالت أم البنين : أنجزها وعلى إثمها ، قالت : فأعتقت أم البنين بكلمتها هذه أربعين رقة ، وكانت إذا ذكرتها بكّت وقالت : ليتني خَرَسْتُ ولم أتكلم بها . ولما احتضر ذو الرُّمّة قال : لقد هممت بمئتين عشرين سنة في غير رِيَّة ولا فساد .

وكان الحارث بن خالد بن هشام الخزوميّ عاشقاً لعائشة بنت طلحة وله فيها أشعارٌ أفرد لها ابن الرُّزبان كتاباً ، فلما قُتِل عنها مُصْعَبُ بن الزبير قيل للحارث : ما يمنعك الآن منها ؟ قال : والله لا يتحدث رجال قريش أن تشيبي بها كان لريّة ولشيء من الباطل .

وقال ابن عُلَاثَة : دخلت على رجلٍ من الأعراب خيمته وهو يُن قُلت : ما شأنك ؟ قال : عاشق ، قُلت له : ممن الرجل ؟ قال : من قومٍ إذا عشقوا ماتوا عَفَّةً ، فجعلت أعذله^(١) وأزهدّه فيما هو فيه ، فتنفّس الصُّعداء ثم قال : ليس لي مسعدٌ فأشكرو إليه إنما يسعدُ الحزين الحزين وقال سعيد بن عُقْبَة لأعرابي : ممن الرجل ؟ قال : من قومٍ إذا عشقوا ماتوا قال : عذري ورب الكعبة ، قُلت له : وممّ ذاك ؟ قال : في نساءنا صَبَاحَة ، وفي رجالنا عَفَة .

وقال سفيان بن زياد : قلت لامرأة من عُذْرَة ورأيت بها هَوًى غالباً خفت عليها الموت منه : ما بال العشق يقتلكم معاشرَ عُذْرَة من بين أحياء العرب ؟ فقالت : فينا جمالٌ وتَعَفُّفٌ والجمال يحملنا على العفاف ، والعفاف يورثنا رقة القلوب ، والعشق يفنى آجالنا ، وإنا برى عيوناً لا ترونها .

وقال أبو عبيدة مَعْمَرُ بن المُثَنَّى : قال رجلٌ من بني فزارة لرجلٍ من

(١) أعذله : ألومه

بني عذرة : ما يعدُّ موتكم من الحبِّ مزية ، وإنما ذلك من ضعف البنية ووهن العقل وضيق الرئة ، فقال له العذري : أما لو رأيتم الحاجر الباج ، ترشق بالأعين الدعج ، من فوقها انحواجب الزج ، والشفاه السُّعْر ، تفتر عن الثنايا الغر ، كأنها لغلم الدر ، لجلعتنوها اللات والعزى ونبذتم الإسلام وراء ظهوركم^(١) .

وقال بشر بن الوائد : سمعت أبا يوسف يقول في مرضه الذي مات فيه : اللهم إنك تعلم أني لم أطأ فرجاً حراماً قطُّ وأنا أعلم ، ولم آكل درهماً حراماً قطُّ وأنا أعلم .

وقال إسماعيل بن إسحاق القاضي : دخلت على المعتضد وعلى رأسه غلمان صبايحُ الوجوه أحداث ، فنظرت إليهم فرآني المعتضد وأنا أتأملهم ، فلما أردت القيام أشار إلي ، فكثت ساعةً فلما خلا قال لي : أيها القاضي والله ما حلت سراويلي على حرام قطُّ .

وقال اليزيدي : جلس محمد بن منصور بن بسام وعلى رأسه عدَّة خدَم لم يُرَ قطُّ أحسنُ منهم ، ما منهم من ثمنه ألف دينار بل أكثر ، فجعل الناس ينظرون إليهم فقال محمد : هم أحرارٌ لوجه الله إن كان الله كتب على ذنبا مع واحدٍ منهم ، فن عرَفَ خلافَ ذلك منهم فليعض فإنه قد عتق وهو في حلٍّ بما يأخذ من مالى .

وقال إبراهيم بن أبي بكر بن عياش : شهدت أبي عند الموت فبكيت فقال : ما يبكيك ؟ فما أنى أبوك فاحشةً قطُّ .

(١) البلج جمع أبلج : الذى يعد ما بين عينيه فهو أبلج وهى بليجاء . الدعج : جمع دعجاء والدعج : شدة سواد العين مع سعتها . والزج جمع زجاء والزجج : دقة فى الحاجبين وطول . الثنايا جمع ثنية : وهى أربع أسنان فى مقدم الفم ، ثنتان من قزق وثلثان من أسفل . الفر : البيضاء .

وقال عمر بن حفص بن غياث : لما حضرت أبي الوفاة أغشى عليه فبكيت عند رأسه ، فقال لي حين أفاق : ما يبكيك ؟ قلت : أبكى لفراقك ولما دخلت فيه من هذا الأمر يعنى القضاء قال : لا تبك فإنى ما حللت سراويلي على حرام قط ، ولا جالس بين يدي خصمان فباليت على من توجه الحكم منهما .

وقال سفيان بن أحمد المصيصي : شهدت الهيثم بن جميل وهو يموت وقد سُجِّي^(١) نحو القبلة ، فقامت جاريته تغمز رجله فقال : اغمزيهما فإن الله يعلم أنهما ما مشتا إلى حرام قط .

وقال محمد بن إسحاق : نزل السرى بن دينار في درب بمصر وكانت فيه امرأة جميلة فتنت الناس بجملها ، فعلمت به المرأة فقالت : لأفتننه ، فلما دخلت من باب الدار تكشفت وأظهرت نفسها ، فقال : مالك ؟ فقالت : هل لك في فراشي وطي وعيش رخي ؟ فأقبل عليها وهو يقول :

وكم ذى معاصٍ نال منهن لذةً ومات فحلاها وذاق الدواهي
أَصْرَمُ لَذَاتُ الْمَعَاصِي وَتَنْقُضِي وَتَبْقَى تِبَاعَاتُ الْمَعَاصِي كَمَا هِيَ^(٢)
فِي أَسْوَأِهَا وَاللَّهُ رَءُوسُ الْعَالَمِينَ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

وقال عمر بن بكير : قال أعرابي : علقت امرأة كنت آتيها فأحدثها سنين وما جرت بيننا رية قط ، إلا أني رأيت يابض كفها في ليلة ظلماء فوضعت يدي على يدها ، فقالت : مه^(٣) لا تفسد ما بيني وبينك ، فإنه ما نُكَّحَ حب

(١) سجي الميت : مد عليه ثوباً وغطاه .

(٢) أصرم : تنقضي وتذهب . وتباعات جمع تباعة : ظلامة أو ما يترتب على الفعل من الخير والشر إلا أن استعماله في الشر .

(٣) مه : اسم فعل مبني على السكون بمعنى انكف ، ولا تقل بمعنى اكفف لأن اكفف يتعدى ولا يتمدى . وحكمها في التنكير والوصل حكم صه . وجاء في القاموس المحيط للفيروز آبادي : مهمه قال له مه مه أى انكف .

قطّ إلا فسد . قال : فقامت وقد تصبّبت عرقاً حياً منها ولم أعُدْ إلى شيء من ذلك .

وذكر أبو الفرج وغيره أن امرأةً جميلةً كانت بمكة ، وكان لها زوج ، فنظرت يوماً إلى وجهها في المرآة فقالت لزوجها : أترى أحداً يرى هذا الوجه لولا يفتن به ؟ قال : نعم ، قالت : من ؟ قال : عبيد بن عمير ، قالت : فائذن لي فيه فلأفتنّه ، قال : قد أذنت لك ، قال : فأتته كالمستغنية ، فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام فأسفرت عن وجهٍ مثل فلقة القمر ، فقال لها : يا أمة الله استتري ، فقالت : إني قد فتنت بك قال : إني سائلك عن شيء فإن أنت صدقتني نظرت في أمرك قالت : لا تسألني عن شيء إلا صدقتك قال : أخبريني لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك أكان يسرك أن أقضى لك هذه الحاجة ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت قال : فلو دخلت قبرك وأجلست للمساءلة أكان يسرك أني قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت قال : فلو أن الناس أعطوا كتبهم ولا تدرين أناخذين كتابك يمينك أم بشمالك أكان يسرك أني قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت ، قال : فلو أردت الممرّ على الصراط ولا تدرين هل تنجين أو لا تنجين أكان يسرك أني قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت ، قال : فلو جيء بالميزان وجيء بك فلا تدرين أيخف ميزانك أم يثقل أكان يسرك أني قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا ، قال : فلو وقفت بين يدي الله للمساءلة أكان يسرك أني قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت قال : أتسقى الله فقد أنعم الله عليك وأحسن إليك ، قال : فرجعت إلى زوجها فقال : ما صنعت ؟ قالت : أنت بطّال ونحن بطّالون ، فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة ، فكان زوجها يقول : مالي ولعبيد بن عمير أفسد على امرأتى ، كانت في كل ليلة عروساً فصبرها راهبة .

وقال سعيد بن عبد الله بن راشد : علقت فتاةً من العرب فتىً من قومها وكان عاقلاً فجعلت تكثر التردد إليه ، فلما طال عليها ذلك مرضت وتغيّرت واحتالت في أن خلا لها وجهه ، فتعرضت إليه ببعض الأمر فصرفها ودفعها عنه فزايده المرض حتى سقطت على الفراش ، فقالت له أمه : إن فلانة قد مرضت وها علينا حتى ، قال : فعوديتها وقولي لها : يقول لك ما خبرك ؟ فسارت إليها أمه وسألها ما بك ؟ فقالت : وجعٌ في فؤادي هو أصل علتي ، قالت : فإن ابني يسألك عن علتك ، فتتفست الصعداء ثم قالت :

يسألني عن علتي وهو علتي عجبٌ من الأنبياء جاء به الخبر
فانصرفت إليه أمه وأخبرته وقالت له : تريد أن تصير إليك ؟ فقال : نعم ،
فذكرت أمه لها ذلك فبكّت وقالت :

ويبعدني عن قربه ولقائه فلما أذاب الجسم مني تعظّمنا
فلست بأت موضعاً فيه قاتلي كفاني سقاماً أن أموت تلها
وتزايدت بها العلة حتى ماتت .

وأحب رجلٌ من أهل الكوفة يسمى أبا الشعثاء امرأةً جميلةً ، فلما علمت به كتبت إليه وقالت :

لأبي الشعثاء حبٌ دائمٌ ليس فيه تهمةٌ لمتهم
يا فؤادي فازدجر^(١) عنه ويا عبثَ الحبِّ به فاقصد وقم
جاءني منه كلامٌ صائدٌ ورسالاتُ المحبين الكلم

(١) ازدجر وانزجر بمعنى زجره : منعه ونهاه قال تعالى : (ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مردجر) أي منع من ارتكاب المآثم .

صائد يأمنه غزلانه مثل ما يأمن غزلان الحرم
صل إن أحببت أن تُعطى المنى يا أبا الشعثاء لله وصم
ثم ميعادك بعد الموت في جنة الخلد إن الله رجم
حيث ألقاك غلاماً ناشئاً ناعماً قد كملت فيه النعم

وقال الأصمعي عن أبي سفيان بن العلاء قال : بصرت الثريا بعمر بن أبي
ربيعة وهو يطوف حول البيت ، فتسكرت وفي كفها خُلوْقٌ^(١) فزكته فأثر
أخلوْق في ثوبه : فجعل الناس يقولون : يا أبا الخطاب ما هذا زير الحرم
فأنشأ يقول :

أدخل الله رب موسى وعيسى جنة الخلد من ملائ خلوفا
مسحت كفها بحبيب قيصي حين طأنا بالبيت مسجاً رفيقا

فقال له عبد الله بن عمر : مثل هذا القول في هذا الموضع ؟ فقال له :
يا أبا عبد الرحمن قد سمعت مني ما قد سمعت قورب هذه البذية ما حلت إزارى
هلي حرام قط .

وقيل لليلي الأخيلية : هل كان بينك وبين توبة ما يكرهه الله ؟ قالت : إذا
أكون منسلخة من ديني إن كنت ارتكبت عظيماً ثم أتبعه بالكذب .
وقال العتبي : خرجت إلى المربد فإذا بأعرابي غزلي فليئت إليه فذكرت
النساء فتنفس ثم قال : يا ابن أخي إن من كلامهن لما يقوم مقام الماء فيشفي
من الظمأ . فقلت : صف لي نساءكم ، فقال : نساء الحى تريد ؟ قلت : نعم
فأنشأ يقول :

(١) الخلوْق : ضرب من الطيب أكثر أجزائه من الزعفران .

رُجِحَ^(١) وَلَسَنَ مِنَ اللّوَاتِي بِالضَّحَى لَذِيولُنَّ عَلَى الطَّرِيقِ غِبَارَ
يَأْنَسَنَ عِنْدَ بَعولُنَ إِذَا نَحَسَلُوا وَإِذَا هُمْ خَرَجُوا فَهِنَ خِفَصَارُ^(٢)
قال العتبي: فأخبرت به أبي قال: تدري من أين أخذ قوله: وإن من كلامهن
ما يقوم مقام الماء فيشفي من الظما؟ قلت: لا، قال: من قول النطاسي:

يَتَمَتَّلُنَا بِمَحْدِثٍ لَيْسَ يَعْلَمُهُ مَنْ يَتَّقِينَ وَلَا مَكْنُونُهُ بَادِي
فَهِنٌ يُبْسِدِينَ مِنْ قَوْلِ يُصِيبُنَّ بِهِ مَوَاقِعَ الْمَاءِ مِنْ ذِي الْغُلَّةِ الصَّادِي^(٣)

وهذه الطائفة لعفتهم أسباب أقواها إجلال الجبار، ثم الرغبة في الحور
الحسان في دار القرار، فإن من صرف استمتاعه في هذه الدار إلى ما حرم الله عليه
منع من الاستمتاع بالحور الحسان هناك، قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يَلْبَسِ
الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ^(٤)»، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ
يَشْرَبْهَا فِي الْآخِرَةِ^(٥). فلا يجمع الله للعبد لذة شرب الخمر ولبس الحرير والتمتع
بما حرم الله عليه من النساء والصبيان ولذة التمتع بذلك في الآخرة، فليستخير
العبد لنفسه إحدى اللذتين، وليطبخ نفساً عن إحداها بالأخرى؛ فلن يجعل
الله من أذهب طيباته في حياته الدنيا واستمتع بها كمن صام عنها ليوم فطره
من الدنيا إذا لقي الله. ودون ذلك مرتبة أن يتركها خوف النار فقط، فإن
تركها رغبةً ومحبةً أفضل من تركها لجرّد خوف العقوبة.

(١) امرأة رجاح: عجزاء وأيضاً: رزان

(٢) خفصار: شديداً الحياء، ذوات وفاء.

(٣) في الأغاني وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة: فمن يلبس الخمر وذو الغلة

الصادي: الشديد العطش.

(٤) رواه الشيخان والنسائي وابن ماجه وأحمد والطبراني. كما قال السيوطي

(٥) رواه ابن ماجه. ورواه بنحوه البخاري ومسلم.

ثم أدنى من ذلك أن يحمله عليها خوفُ العار والشنار^(١)، ومنهم من يحمله على العفة الإبقاء على محبته خشية ذهابها بالوصال، ومنهم من يحمله عليها عفة محبوبه ونزاهته، ومنهم من يحمله عليها الحياء منه والاحتشام له وعظمتُهُ في صدره . ومنهم من يحمله عليها الرغبة في جميل الذكر وحسن الأجدوة، ومنهم من يحمله عليها الإبقاء على جاهه ومروءته وقدره عند محبوبه وعند الناس، ومنهم من يحمله عليها كرم طبعه وشرف نفسه وعلو همته، ومنهم من يحمله عليها لذة الظفر بالعفة فإن للعفة لذة أعظم من لذة قضاء الوطر، لكنها لذة يتقدمها ألم حبس النفس ثم تعقبها اللذة، وأما قضاء الوطر فبالعند من ذلك، ومنهم من يحمله عليها علمه بما تعقبه اللذة المحرمة من المضار والمفاسد، وجمع الفجور خلال الشر كلها، كما ستقف عليه في الباب الذي يلي هذا إن شاء الله تعالى .

فصل

ولم يزل الناسُ ينتخرون بالعفة قديماً وحديثاً، قال إبراهيم بن هرمة :
ولربّ لذةٍ ليستَ قد نلتها وحرامُها بحلالها مدفوعُ
وقال غيره :

إذا ما همنا صدّنا وازعجتني فولى على أعقابهِ الهمُّ خاسئاً
وقال آخر :

أتأذنون لصبٍّ في زيارتكم فعندكم شهواتُ السمع والبصر
لا يُضمرُّ السوء إن طالت إقامته عَفُّ الضميرِ ولكن فاسقُ النظر

(١) الشنار: أقبح العيب والعار والامر المشهور بالشنعة .

وقال مسلم بن الوليد :

الأربة يوم صادق العيش ناته بها وندامى العفافة والنهى^(١)
وقال آخر :

إف ترينى زانى العيين فالفرج عفيف
ليس إلا النظر الفيا تر والشعر الظريف

وقال الموسوى^(٢) :

بتناضجيمين فى ثوبى هوى وتقى يلفنا الشوق من قرنى إلى قدم
يشى بنا الطيب أحسانا وآونة يضيئنا البرق مجتازا على إضم^(٣)
ثم اثنيينا وقد رابت^(٤) ظواهرنا وفى بواطننا بعد عن التهم
وقال نفطويه :

كم قد خلوت بمن أهوى فيمنعنى منه الحياء وخوف الله والحدرد
وكم ظفرت بمن أهوى فيقنعنى منه الفكاهة والتجيش^(٥) والنظر
أهوى الحسان وأهوى أن أجالسهم وليس لى فى حرام منهم وطر
كذلك الحب لا إتيان معصية لا خير فى لذته من بعدها سقر

وقال الشهاب محمود بن سليمان صاحب ديوان الإنشاء (الخلبي) :

-
- (١) العفافة : العفة وهى الكف عما لا يحل ولا يحمل قولاً أو فعلاً .
والنهى جمع نهية : العقل ، سمي به لأنه ينهى عن التبيح وعن كل ما ينافيه .
(٢) هو الشريف الرضى .
(٣) إضم كعنب : جبل ، والوادى الذى فى المدينة المنورة .
(٤) رابت : دعت إلى الشك .
(٥) التجيش : المغازلة بالقرص والملاعبة .

لله وقفة عاشقين تلاقيا من بعد سلول نوحى وبُعْدٍ مزار
يتعاطيان من الغرام مُدَامَةً زادتُهما بسداً من الأوزار
صدقا الغرام فلم يَمِيلْ طَرَفٌ إِلَى فُحْشٍ وَلَا كَفٍّ لِمَلٍّ إِذَا زار
فتلاقيا وتفرقا وكلاهما لم يَخْشَ مَطْعَنَ عَائِبٍ أَوْ زَار^(١)

وقيل لبُئِنَّة : هذا جميل لما به فهل عندك من حيلة تُنَفِّسُ بها وجدّه ؟
فقال ما عندي أكثر من البكاء إلى أن ألقاه في الدار الأخرى ، أو زيارته
وهو ميت تحت الثرى . وقيل لعتبة بعد موت عاشقها : ما كان يفرك لوأمتعته
بوجهك ؟ قالت : منعنى من ذلك خوفُ العار ، وشماتة الجار ، وخافة الجبار .
وإن قلبي أضعاف ما بقلبه غير أنى أجدر ستره أبقي للمودة ، وأحدها للعاقبة ،
وأطوع للرب ، وأخف للدنْب .

وهوى فتى امرأة وهوينته وشاع خبرهما فاجتمعا يوماً خاليتين فقال لهما :
هللى نحقق ما يقال فينا فقالت : لا والله لا كان هذا أبداً وأنا أقرأ : (الْأَخْلَاءُ
يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ)^(٢) . وقيل لبعضهم وقد هوى
جارية فطال عشقه بها : ما أنت صانع لو ظفرت بها ولا يراك إلا الله ؟
قال : والله لاجعلته أهون الناظرين إلى ، لا أفعل بها خالياً إلا ما أفعله
بمضرة أهلها ، حنينٌ طويل ، ولحظٌ من بعيد ، وأترك ما يسخط الرب ،
ويفسد الحب .

إذا كان حظُّ المرء من يحبه حراماً فخطى ما يحلُّ ويَجْمَلُ
حديثُ كماء اللزْن بين فصوله عتابٌ به حسنُ الحديث يُفَصِّلُ

(١) زرى عليه فعله : عابه .

(٢) الآية ٦٧ : سورة الزخرف .

وَلَسْتُ فَمَ عَذْبِ اللَّائِثِ كَأَمَّا جَنَاهُنْ شَهِدَتْ فِيهِ الْقَرْنُفَلُ
وَمَا الْعَشْقُ إِلَّا عَفَّةٌ وَزَاهَةٌ وَأَنْسُ قُلُوبِ أَنْسَمُنْ الْغَزْلُ
وإني لأستحي الحبيب من التي تَرُيبُ وَأُذْعَى لِلْجَبِيلِ فَأَجْلُ
وقال آخر :

وإني لمشتاقٌ إلى كل غايةٍ من المجد يكبو دونها المتطاول
بذولٍ لمالي حين يبخل ذو النهى عفيف عن الفحشاء قرمٌ حلال^(١)
وما ألفت قوله : حين يبخل ذو النهى فإن ذا النهى لا يبخل إلا في موضع
البخل ، فأخبر هذا أنه يبذل ماله حين يبخل به ربُّه في موضع البخل .

وقال عامر بن حذافة : رأيت بصُحَّار^(٢) جارية قد ألهمت خدَّها بقبرٍ
وهي تبكي وتقول :

خُدى يَقيقُ خَشُونَةَ اللَّحْدِ وَأَقْلُ مَا لَكَ سَيِّدَى خُسْدَى
يَا مَا كُنَ التُّرْبُ الَّذِي بَوَاتَهُ عَمِيَّتٌ عَلَى مَسَالِكِ الرُّشْدِ
إِسْمِعْ فِدَيْتَكَ قَصَّتِي فَلَعَانِي أَشْنَى بِذَلِكَ غُلَّةَ الْوَجْدِ
قال : فسألها عن صاحب القبر فقالت : فتى رافقته في الصبا ، ثم أنشأت تقول :
كنا كزوج حمامٍ في أَيْكَةٍ^(٣) متنعمين بصِحَّةٍ وشباب
فغدا الزمان مشتتًا بفراقه إن الزمان مفرقُ الأحباب

(١) القرم : السيد المعظم ، والحلال : السيد في عشيرته ، والشجاع الركين
في مجلسه

(٢) صحار بالضم : قصبة عمان بما يلي الجبل . كما جاء في الصحاح للجوهري .

(٣) الأيكة وجمعها أيك : الشجر السكيف المتلف وقيل الغيضة تنبت السدر
والأراك ونحوهما من ناعم الشجر .

قال : فبكيت لركة شعرها فأنشأت تقول :

تبكى عليه ولست تعرف أمره فلا علمك حاله ببيان
ما كان للعافين^(١) غير نواله فإذا اشتجير ففارس الفرسان
لا يُنبع الجيران رقة طرفه ويتابع الإحسان للجيران
عف السريرة والجيرة مثلها فإذا استضم^(٢) أراك فتق طعان

فقلت : أعلمني من هو ؟ قالت : سنان بن وبرة الذي يقول فيه الشاعر :

يا رائداً غيثاً لنجعة قومه يكفيك من غيث نوال سنان
ثم قالت : يا هذا والله لولا أنك غريب مامتلك من حديثي . قلت : فكيف
كان حبه لك ؟ قالت : ما كان يوسدني إذا نمت إلا يده ، فكثت معه أربعة
أحوال^(٣) ما توسدت غيرها إلا في حال يمنعه مانع .

وقال سعيد بن يحيى الأموي : حدثني عمي محمد بن سعيد ، حدثنا عبد الملك
ابن عمير قال : كان أخوان من ثقيف من بني كنة بينهما من التحاب شيء لا
لا يعلمه إلا الله ، وكل واحد منهما أخوه عند عدل^(٤) نفسه ، فخرج الأكبر
منهما إلى سفر له وله امرأة فأوصى أخاه بحاجة أهله ، فبينما المقيم في دار الظاعن
إذ مرت امرأة أخيه في زرع تجوز من بيت إلى بيت ، وكانت من أجل البشر ،
فرأى شيئاً حيره ، فلما رآته ولت ووضع يدها على رأسها ودخلت بيتاً ، ووقع
حبها في قلبه ، فجعل يذوب وينحل جسمه ويتغير لونه . وقدم أخوه فقال :
مالك يا أخى متغيراً ، ما وجعك ؟ قال : ما بي من وجع ، فدعاه الأطباء فلم يقف

(١) العافين : طلاب المعروف . والنوال : العطاء .

(٢) استضم : انتقص حقه ، وضامه حقه واستضمه : ظلمه .

(٣) جمع حول : السنة .

(٤) العدل : ما عدل الشيء . والمثل والنظير .

أُحْدُ عَلَى دَائِهِ غَيْرِ الْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ وَكَانَ طَبِيبًا فَقَالَ : أَرَى عَيْنَيْنِ مَمِيعَتَيْنِ
وَمَا أَدْرَى مَا هَذَا الْوَجَعُ وَمَا أَظُنُّهُ إِلَّا عَاشِقًا ، فَقَالَ لَهُ أَخُوهُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، أَسْأَلُكَ
عَنْ وَجَعِ أَخِي وَأَنْتَ تَسْتَهْزِئُ بِي ، فَقَالَ : مَا فَعَلَ : ، وَسَأَسْقِيهِ شَرَابًا عِنْدِي
فَإِنْ كَانَ عَاشِقًا فَسَيَتَبَيَّنُ لَكُمْ ، فَأَتَاهُ بِشَرَابٍ فَعَمِلَ يَسْقِيهِ قَلِيلًا قَلِيلًا ، فَلَمَّا أَخَذَهُ
الشَّرَابَ هَاجَ وَقَالَ :

أَلَمَّا بِي عَلَى الْأَيَّامِ تَ مِنْ خَيْفٍ تَزُرُّهُنَّ
غَزَالٌ مَا رَأَيْتُ الْيَوْمَ مَ فِي دُورِ بَنِي كُثْنَةَ
أَسِيلُ الْخَلْدِ مَرْبُوبٌ^(١) وَفِي مَنْطِقِهِ غُنْدَسَةُ

فَقَالَ : أَنْتَ طَبِيبُ الْعَرَبِ فَمَنْ ؟ قَالَ : سَأَعِيدُ لَهُ الشَّرَابَ وَلَعَلَّهُ يَسْتَسِي ،
فَأَعَادَ لَهُ الشَّرَابَ فَسَمِيَ الْمَرْأَةُ ، فَطَلَقَهَا أُخْرَاهُ لِيَتَزَوَّجَهَا فَقَالَ الْمَرِيضُ : عَلَى كَذَا
وَكَذَا إِنْ تَزَوَّجْتَهَا ، فَقَضَى وَلَمْ يَتَزَوَّجَهَا .

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمُبَارَكِ السَّرَاجُ : حَدَّثَنَا أَبُو مَسْمَرٍ ، عَنْ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ :
عَرَضَ الْحِجَابُ بْنُ يَوْسُفَ سَجْنَهُ يَوْمًا فَأَتَى بِرَجُلٍ فَقَالَ : مَا كَانَ جُرْمُكَ ؟ فَقَالَ :
أَصَابَ اللَّهُ الْأَمِيرَ أَخَذَنِي الْعَمَسُ^(٢) ، وَأَنَا أَخْبَرْتُكَ بِخَبْرِي ، فَإِنْ كَانَ الْكَذِبُ يَنْجِي
فَالصَّدَقُ أَوْلَى بِالنَّجَاةِ ، قَالَ : وَمَا قَصَصْتُكَ ؟ قَالَ : كُنْتُ أَخًا لِفُلَانٍ فَضَرَبَ الْأَمِيرُ
عَلَيْهِ الْبَعْثَ إِلَى خِرَاسَانَ ، فَكَانَتْ امْرَأَتُهُ تَهْوَانِي وَأَنَا لَا أَشْعُرُ ، فَبَعَثَتْ إِلَيَّ
ذَاتَ يَوْمٍ رَسُولًا أَنْ قَدْ جَاءَ كِتَابُ صَاحِبِكَ فَهَلُمَّ لَتَقْرَأَهُ ، فَضَيِّتُ إِلَيْهَا
فَجَعَلَتْ تَشْغَلُنِي بِالْحَدِيثِ حَتَّى صَالَيْنَا الْمَغْرِبَ ، ثُمَّ أَظْهَرَتْ لِي مَا فِي نَفْسِهَا مِنِّي
وَدَعَتْنِي إِلَى السُّوءِ ، فَأَبَيْتُ ذَلِكَ فَقَالَتْ : وَاللَّهِ لَنْ لَمْ تَفْعَلْ لِأَصِيحْنِ وَلَا تَقُولَنَّ

(١) مَرْبُوبٌ : جَمِيلُ الْجِسْمِ . وَرَبُّ الْوَلَدِ : تَعْمِدُهُ بِمَا يَفْعَلُهُ وَيَنْمِيهِ . أَسِيلُ الْخَلْدِ :
لَيْنُ الْخَلْدِ طَوِيلُهُ .

(٢) الْعَمَسُ : حَرَسُ اللَّيْلِ . وَعَسٌ : طَافَ بِاللَّيْلِ .

إليك لص ، خفتها والله أيها الأمير على نفسي فقلت : أمهليني حتى الليل ، فلما صابت العتمة^(١) وثقت بشدة حرس الأمير فخرجت من عندها هارباً ، وكان القتلُ أيسرَ على من خيانة أخى . فلقيني عسسُ الأمير فأخذوني ، وقد قلت في ذلك شعراً ، قال : وما قلت ؟ فقال :

ربّ بيضاء آنس^(٢) ذاتِ دَلٍّ * قد دعنتني لوصلها فأيتُ
لم يكن شأنِي العفافَ ولكن كنت خِلاًّ لزوجها فاستحييتُ
فأمر بإطلاقه .

وقال الربيع بن زياد : رأيت جاريةً عند قبرٍ وهي تقول :

بنفسى فتى أوفى البرية كلها وأقوامُ في الموت صبراً على الحب
فقلت لها : بهم صار أقوام وأقوام ؟ قالت : هوَ ينى ، فسكر أهلُ إن جاهر
بحجى لاموه ، وإن كتمه عنفوه ، فلما أخذه الأمر قال :

يقولون إن جاهرتُ قد عضك الهوى وإن لم أُبجُ بالحبّ قالوا تصبرا
وليس لمن يهوى ويكتمُ حبه من الأمر إلا أن يموتَ فيمُذرا
ولم يزل يردد هذين البيتين حتى مات ، فوالله يا هذا لأبرح أوديتصل
فبرانا ، ثم شهقت شهقة فصاح النساء وقلن : قضت ، والذي اختار لها الوفاة
فما رأيت أسرعَ ولا أوحى من أمرها . قال ابن الدُمَيْنَةِ :

وبتنا فوَيْقَ الحى لانحن منهمُ ولا نحن بالأعداء نختلطان
وبات بقينا ساقطَ الدال والندى من الليل بُرداً يُمنّة^(٣) عِطَران

(١) الشمة : وقت صلاة العشاء .

(٢) الأنس : الفتاة الطيبة النفس المحبوب قريها . وحديثها يؤنس به .

(٣) يرذا يمنة : ضرب من يرود اليمن .

نذود بذكر الله عنا غوى الصبا إذا كان قلبنا له يرِدان
ونصدر^(١) عن رى العفاف وربما نفعنا غليل الحب بالرفشان

قال أبو الفرج : وشت جارية بُثينة بها إلى أبيها وأخيها وقالت لها : إن
جميعاً عندها ، فأتيا مشتملين على سيفيهما فرأياه خالياً حَجَرَةً منها يحدثها
ويشكو إليها بته^(٢) ثم قال لها : يا بُثينة أرايت ما بي من الشغف والعشق
ألا تجزئيني ؟ قالت له : بماذا ؟ قال : بما يسكور من المتحابين ، فقالت له :
يا جميل أهذا تبغى ؟ والله لقد كنت عندى بعيداً منه ، فإذا عاودت تعريضاً
بريبة لا رأيت وجهي أبداً ، فضحك وقال : والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم
ما عندك ، ولو علمت أنك تجيئيتى إليه لعلت أنك تجيئين غيرى ، ولو رأيت منك
مساعدة لضر بترك بسيفي هذا ما استمسك فى يدي إن طاوعتنى نفسى ، أو هجرتك
أبداً ، أما سمعت قولى :

وإنى لأرضى من بُثينة بالذى لو أبصره الواشى لقرت بلابله^(٣)
بلا وبأن لا أستطيع وبأمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى وأخره لا نأتى وأوائله ؟
فقال أبوها لأخيها : قم بنا فما ينبغى لنا بعد هذا اليوم أن نمنع هذا
الرجل من إتيانها .

(١) صدر عن الماء : رجيع عنه والصرف . قال تعالى : (لانسق حتى يصدر
الراء) أى يرجع الرعاء من سقيهم أو يرجعون لبلهم .
(٢) البث : الحال وأشد الحزن الذى لا يصبر عنه صاحبه فيبثه . والمرضى
الشديد .

(٣) بلابله : أو هامه ووساوسه .

الباب الرابع والعشرون

في ارتطاب سبيلى الحرام وما يغضى إليه من المفاسد والآلام

حقيقٌ بكل عاقلٍ أن لا يسلك سبيلاً حتى يعلم سلامتها وآفاتُها وما توصل إليه تلك الطريق من سلامةٍ أو عطبٍ ، وهذان السيلان هلاك الأولين والآخرين بهما ، وفيهما من المعاطب والمهلك ما فيهما ، ويُفضيان بصاحبهما إلى أقبح الغايات وشرّ موارد المهلكات ، ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى سبيل الزنى شرّاً سبيل فقال تعالى : (وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا)^(١) فإذا كانت هذه سبيل الزنى فكيف بسبيل اللواط التي تعدلُ الفعلة منه في الإثم والعقوبة أضعافاً وأضعافاً من الزنى ؟ كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى ، فأما سبيل الزنى فأسوأ سبيل ، ومَقِيلٌ^(٢) أهلها في الجحيم شرّاً مَقِيلٌ ، ومستقرُّ أرواحهم في البرزخ في تنوُّرٍ من نارٍ يأتيهم لهبها من تحتهم ، فإذا أتاهاهم الأهبّ ضجّوا وارتفعوا ، ثم يعودون إلى موضعهم ، فهم هكذا إلى يوم القيامة كما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم في منامه ، ورؤيا الأنبياء وحى لا شك فيها .

فروى البخارى في صحيحه من حديث سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ممّا يُكثّرُ أن يقول لأصحابه : « هل رأى أحدٌ منكم من رؤيا ؟ فيُقصُّ عليه ما شاء الله أن يُقصَّ » ، وإنه قال لنا ذات

(١) الآية ٣٢ . سورة الإسراء .

(٢) المقييل . المثوى والثوم في الظميرة .

غَدَاةٍ : إنه أتاني الأمانة آتِيَانِ وإِيهما ابْتَعَثَانِي وإِيهما قَالَا لِي : انْطَلِقْ ، وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا ، وَإِنَّا أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ وَإِذَا آخِرُ قَائِمٍ عَلَيْهِ بِصَخْرَةٍ ، وَإِذَا هُوَ يَهْوِي بِالصَّخْرَةِ لِرَأْسِهِ فَيَنْدَغُ^(١) رَأْسُهُ فَيَتَدَّ هَذِهِ الْحَجَرُ هَاهُنَا ، فَيَنْبِيعُ الْحَجَرُ فَيَأْخُذُهُ فَلَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَمَا كَانَ ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى : قَالَ : قُلْتُ لَهَا : سُبْحَانَ اللَّهِ مَا هَذَا أَرَأَيْتَ ؟ قَالَ : قَالَا لِي : انْطَلِقْ انْطَلِقْ ، فَاَنْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ ، وَإِذَا آخِرُ قَائِمٍ عَلَيْهِ بِكَلُوبٍ مِنْ حَدِيدٍ ، وَإِذَا هُوَ يَأْتِي أَحَدَ شِقَى وَجْهِهِ فَيُسْرِئُرُ شِدْقَهُ إِلَى قَفَاهُ ، وَمَتَخِرَةً إِلَى قَفَاهُ ، وَعَيْنَهُ إِلَى قَفَاهُ ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثْلَ مَا فَعَلَ بِالْجَانِبِ الْأَوَّلِ ، فَمَا يَقْرُعُ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ حَتَّى يَصِحَّ ذَلِكَ الْجَانِبُ كَمَا كَانَ ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ الْمَرَّةَ الْأُولَى قَالَ : قُلْتُ : سُبْحَانَ اللَّهِ مَا هَذَا أَرَأَيْتَ ؟ قَالَ : قَالَا لِي : انْطَلِقْ انْطَلِقْ ، فَاَنْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ ، فَإِذَا فِيهِ لَفْظٌ وَأَصْوَاتٌ ، قَالَ : فَاَطَّلَعْنَا فِيهِ فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلِ مِنْهُمْ ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا قَالَ : قُلْتُ لَهَا : مَا هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ : قَالَا لِي : انْطَلِقْ انْطَلِقْ . فَاَنْطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ ، وَإِذَا فِي النَّهْرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبِغُ ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ حِجَارَةً كَثِيرَةً ، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبِغُ مَا يَسْبِغُ ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الْحِجَارَةَ فَيَقْرَأُ لَهُ فَاهُ فَيُلْقِيهِ حَجَرًا فَيَنْطَلِقُ يَسْبِغُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَقَرَأَ لَهُ فَاهُ فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا ، قَالَ : قُلْتُ لَهَا : مَا هَذَا أَرَأَيْتَ ؟ قَالَ :

(١) ثَلَخَ رَأْسَهُ : شَدَّخَهُ . وَيَتَدَّ هَذِهِ : يَتَدَحَّرُجُ وَالْكَلُوبُ : الْمِهْمَازُ ، وَحَدِيدَةٌ مَعْلُوقَةٌ الرُّأْسِ وَالْجَمْعُ كَلَالِيْبٍ . وَضَوْضَوْ : صَاحَ وَصَرَخَ .
(٢٣ م — رَوْضَةُ الْمُحِبِّينَ)

قالا لى : انطلقى انطلق ، فانطلقنا فأتينا على رجل كربه المرآة^(١) كما كره
ما أنت راء رجلاً مرآة ، وإذا عنده نارٌ يحشها ويسعى حولها ، قال : قلت
لها : ما هذا ؟ قال : قال لى : انطلقى انطلق ، فانطلقنا فأتينا على روضةٍ معتممة^(٢)
فيها من كل نور الربيع ، وإذا بين ظهري الروضة رجلٌ طويلٌ لأ أكاد أرى
رأسه طولاً فى السماء ، وإذا حول الرجل من أكثر ولدانٍ رأيتهم قطّ قال :
قلت لها : ما هؤلاء ؟ قال : قال لى : انطلقى انطلق ، فانطلقنا فأتينا^(٣) على دوحةٍ
لم أر دوحةً قطّ أعظم منها ولا أحسن ، قال : قال لى : ارقى فيها ، فارتقينا
فيها إلى مدينةٍ مبنيةٍ بدينٍ ذهبٍ وكين فضةٍ ، قال : فأتينا باب المدينة فاستفتحنا
فتفتح لنا فدخلناها فتلقانا فيها رجالٌ شطرو من خلقهم كأحسن ما أنت راء ،
وشرطهم كأقبح ما أنت راء قال : قال لهم : اذهبوا فتعوا فى ذلك النهر قال : وإذا
نهرٌ مغمضٌ يجرى كأن ماءه المخص فى البياض ، فذهبوا فوقعوا فيه ، ثم
رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا فى أحسن صورةٍ قال : قال لى :
هذه جنة عدن ، وهذاك منزلك قال : فسمما بصرى صعداً فإذا قصرٌ مثل الرّابة
التيضاء قال : قال لى : هذاك منزلك قال : قلت لها : بارك الله فيكما ذراني
فأدخله قال : أما الآن فلا ، وأنت داخله . قال : قلت لها : فإني قد رأيت

(١) المرآة : المنظر .

(٢) اعتم النبات . ثم طوله وظهر نوره .

(٣) رواية البخارى : فاتتينا إلى روضة عظيمة لم أر روضة قط . قال
القسطلانى : وعند الإمام أحمد والنسائى : إلى دوحة بدل روضة . والدوحة : الشجرة
العظيمة من أى شجر كان . وابن : جمع لبنة : التى يبنى بها . وهو فى الأصل المضروب
من الطين يبنى به دون أن يطبخ . والمخص : الخالص وكل شيء خالص لا يشوبه
شيء يخالطه . والرابة : السحابة البيضاء .

مُنْذُ اللَّيْلِ حَجَبًا فَأَهَذَا الَّذِي رَأَيْتُ؟ قَالَ : قَالَا لِي : أَمَّا إِنَّمَا تَسْتَخْبِرُكَ، أَمَّا الرَّجُلُ
الْأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَتَلَسَّعُ رَأْسُهُ بِالْحَجَرِ فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ الْقُرْآنَ فَيَرْتَفِعُ
وَيَنَامُ عَنِ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ ، وَأَمَّا الرَّجُلُ . الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَشْرُمُ شِدْقَهُ إِلَى
قَفَاهُ وَمَنْخَرِهِ إِلَى قَفَاهُ وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يُغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَيَكْذِبُ
الْكَذْبَةَ تَبْلُغُ الْآفَافَ ، وَأَمَّا الرَّجَالُ وَالنِّسَاءُ الْعُرَاةُ الَّذِينَ هُمْ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّونِ
فِيهِمْ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبِجُ فِي النَّهْرِ وَيُبَلِّغُ
الْحَجَرَ فَإِنَّهُ آكَلُ الرِّبَا ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الْكَرِيمُ الْمَرْءُ الَّذِي عِنْدَ النَّارِ يَحْشُبُهَا
وَيَسْعَى حَوْلَهَا فَإِنَّهُ مَالِكُ خَازِنِ جَهَنَّمَ ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذِي فِي الرُّوْضَةِ
فَإِنَّهُ إِبْرَاهِيمَ ، وَأَمَّا الْوِلْدَانُ حَوْلَهُ فَسُكْرٌ مُوَلَّدٌ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ ؛ قَالَ : فَقَالَ
بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ ؟ قَالَ : وَأَوْلَادُ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَمَّا
الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرَ مَنْهُمْ حَسَنٌ وَشَطْرَ مَنْهُمْ قَبِيحٌ فَإِنَّهُمْ قَوْمٌ خَلَطُوا عَمَلًا
صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ .

وقال أبو مسلم الكجى : حَدَّثَنَا صَدَقَةُ بْنُ جَابِرٍ ، عَنْ سُلَيْمِ بْنِ عَامِرٍ ،
قَالَ : حَدَّثَنِي أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :
« بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ أَتَانِي رَجُلَانِ فَأَخَذَا بِضَبْعَيْ^(١) فَأَخْرَجَانِي فَأَتَيْتُ بِي جِبْلًا وَغَرًّا
وَقَالَا لِي : اصْعَدْ فَقُلْتُ : إِنِّي لَا أَطِيقُهُ فَقَالَا : سَنَسَهِّلُ لَكَ قَالَ : فَصَعِدْتُ حَتَّى
إِذَا كُنْتُ فِي سَوَاءِ الْجَبَلِ^(٢) إِذَا أَنَا بِأَصْوَاتٍ مَدِيدَةٍ فَقُلْتُ : مَا هَذِهِ الْأَصْوَاتُ ؟
فَقَالَا : هَذَا عَوَاءُ أَهْلِ النَّارِ ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي فَإِذَا أَنَا بِفَوْجٍ أَشَدُّ شَيْءَ
انْتِفَاحًا ، وَأَنْتَنَةٌ رِيحًا ، وَأَسْوَأُ مِنْظَرًا ، فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ فَقَالَا : هَؤُلَاءِ
قَتْلَى الْكُفَّارِ ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي فَإِذَا بِفَوْجٍ أَشَدُّ شَيْءَ انْتِفَاحًا ، وَأَنْتَنَةٌ رِيحًا ، كَأَنَّ

(١) الضبع : ما بين الإبط إلى نصف العضد ، والجمع اضْبَاع .

(٢) سواء الجبل : وسطه .

ريحهم المريحضُ فقلت : من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الزانون والزواني ^(١) .
وقال قُتَيْبَةُ بن سعيد : حدثنا نوح بن قيس قال : حدثني أبو هارون
السدي ، عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : « ليلة أُسرى بي انطلق بي إلى خلق من خلق الله كثير ، نساء مُمَلَّقات
بُنْدِيَّونَ ومنهن بأرجلهن منكسات ، ولهن صراخٌ وخوارٌ فقلت : يا جبريلُ من
هؤلاء ؟ قال : هؤلاء اللواتي يَزْنِينَ وَيَقْتُلْنَ أولادَهُنَّ ويجعلن لأزواجهن
وَرِثَةً من غيرهن » .

وقال أبو نُعَيْمٍ الفضل بن دُكَيْنٍ : حدثنا عبد السلام بن شَدَّاد ، عن
عَزَّوَان بن جَرِير ، عن أبيه أنهم تذاكروا عند علي بن أبي طالب رضى الله عنه
القواحشَ فقال لهم : هل تدرون أى الزنى أعظم ؟ قالوا : يأمر المؤمنين كله
عظيم قال : ولكن سأخبركم بأعظم الزنى عند الله ، هو أن يَرْتَنِي الرجلُ بزوجة
الرجل المسلم فيصير زانياً وقد أفسد على الرجل زوجته . ثم قال عند ذلك : إن
الناس يُرْسَلُ عليهم يومَ القيامة ريحٌ مننّة حتى يتأذى منها كلُّ برٍّ وفاجرٍ ،
حتى إذا بلغت منهم كلَّ مبلغٍ وَأَلَمَّتْ ^(٢) أن تمسك بأنفاس الأمم كلهم ناداهم
منادٍ يُسمعون الصوتَ ويقول لهم : هل تدرون ما هذه الريح التي قد آذتكم ؟
فيقولون : لا ندري والله إلا أنها قد بلغت منا كلَّ مبلغٍ ، فيقال : ألا إنها ريح

(١) بمض هذا الحديث ورد في الفتح لابن حجر عقب الحديث السابق
وذكره المنذرى في الترغيب والترهيب بأطول مما هنا ثم قال : رواه ابن خزيمة
وابن حبان في صحيحيهما واللفظ لابن خزيمة ولا علة له .
(٢) ألم : قرب ، وبالناس : نزل بهم .

فروج الزناة الذين كفوا الله بزنابهم ولم يتوبوا منه ، ثم يصرف بهم ، فلم يذكر عند العرف بهم جنة ولا ناراً .

وقال الخرائطي : حدثنا علي بن داود القنطري ، حدثنا سعيد بن عفير ، حدثني مسلم بن علي الخشني ، عن أبي عبد الرحمن ، عن الأعمش ، عن شقيق ، عن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ إِنِّي أَتِيكُمْ وَالزَّيْتُ فَإِنَّ فِيهِ سِتْرٌ خِصَالٌ : ثَلَاثٌ فِي الدُّنْيَا وَثَلَاثٌ فِي الْآخِرَةِ ، فَأَمَّا الْأَوَاتِي فِي الدُّنْيَا فَذَهَابُ الْبَهَاءِ ، وَدَوَامُ النِّقَرِ ، وَقِصَرُ الْعُمُرِ . وَأَمَّا الْآوَاتِي فِي الْآخِرَةِ فَسَخَطُ اللَّهِ ، وَسُوءُ الْحِسَابِ ، وَدُخُولُ النَّارِ ^(١) » .

ويذكر عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : الْمُقِيمُ عَلَى الزَّيْتِ كَعَابِدِ وَثْنٍ ، ورفعه بعضهم ، وهذا أولى أن يشبهه بعابد الوثن من مُدْمِنِ الخمر ، وفي المسند وغيره مرفوعاً : مُدْمِنُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ وَثْنٍ . فَإِنَّ الزَّيْتِ أَعْظَمُ مِنْ شَرْبِ الْخَمْرِ . قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : ليس بعد قتل النفس أعظم من الزَّيْتِ .

وفي الصحيحين من حديث أبي وائل عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أيُّ الذنوب أعظم عند الله ؟ قال : أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ ، قال : قلت : ثم أي ؟ قال : أَنْ تَمُتَلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَمْلَكَ ،

(١) ذكره السيوطي بنحوه في الجامع الكبير وقال : رواه الخرائطي في مساوي الأخلاق وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب وضعفه ، وأبو الفتح الراشد في جزئه والرافعي .

قال : قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزني بحليلة جارك ، فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه : (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا)^(١) .

وقال قتبية بن سعيد : حدثنا ابن لهيعة ، عن ابن أنعم ، عن رجل ، عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الزَّانِي بِحِلْيَةِ جَارِهِ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِ وَيَقُولُ لَهُ : أَدْخُلِ النَّارَ مَعَ الدَّائِلِينَ »^(٢) وذكر سفيان بن عيينة ، عن جامع بن شداد ، عن أبي وائل ، عن عبد الله قال : إذا بُخِسَ المسكيات حبس القطر ، وإذا ظهر الزَّانِي وقع الطاعون ، وإذا كثر الكذب كثر الهرج .

وفي الصحيحين^(٣) من حديث الأعمش ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثَلَاثَةٌ لَا يُسْكِنُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : شَيْخ زَانٍ . وَمَلِكٌ كَذَّابٌ ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ » .

وذكر سفيان الثوري ، عن منصور ، عن ربعي بن جراح ، عن أبي ذر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ ثَلَاثَةً :

(١) الآية ٦٨ . سورة الفرقان .

(٢) رواه الخرائطي في مساوى الأخلاق والديلمى في مسند الفردوس ، كما قال السيوطى .

(٣) هذا الحديث لم يرد في صحيح البخارى وهو في الجامع الصغير والترغيب والترهيب دون أن يشير فيه إلى رواية البخارى بل قال : رواه مسلم والنسائى ، وزاد في الزواجر أحمد .

الشيخ الزاني ، والمثل المختار ، والبخيل المذنب » (١) .

وذكر الأعمش ، عن خيثمة ، عن أبي عبد الرحمن ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مثل الذي يخاف على فراشه المغيبة مثل الذي ينهش الأساود يوم القيامة » (٢) . المغيبة هي التي قد سافر زوجها في جهاد أو حج أو غيرها ، وفي النساء وغيره من حديث بريدة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كاهتمامهم ، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله إلا نصب له يوم القيامة فيقال : يا فلان هذا فلان فخذ من حسناته ما شئت . ثم التفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه فقال : « ما ترون يدع له من حسناته شيئاً ؟ وفي لفظ : « وإذا خلفه في أهله فخانه قيل يوم القيامة هذا خائنك في أهلك فخذ من حسناته ما شئت فما ظنكم ؟ »

ويكنى في قبح الزاني أن الله سبحانه وتعالى مع كمال رحمته شرع فيه ألحق التقلات وأصعبها وأفضحها ، وأمر أن يشهد عباده المؤمنون تعذيب فاعله ، ومن قبحه أن الله سبحانه فطر عليه بعض الحيوانات البهيم الذي لا عقل له كما ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال : رأيت في الجاهلية قرداً زنى بقردة فاجتمع عليهما القرد فرجوها حتى ماتا وكنت فيمن رجهما .

(١) رواه أحمد وابن حبان والضيياء المقدسي . كما قال السيوطي . والمثل : الفقير .

(٢) رواه الطبراني في الكبير والخرائطي في مساوي الأخلاق . كما قال السيوطي . والأساود جمع أسود : العظيم من الحيات وفيه سواد .

فصل

والزنى يجمع خلال الشرّ كلّها من قلة الدين وذهاب الورع وفساد المروءة وقلة النيرة ، فلا تجمد زانياً معه ورعاً ، ولا وفاءً بعهدٍ ، ولا صدقاً في حديث ، ولا محافظةً على صديق ، ولا غيره تامةً على أهله . فالغدر والكذب والخيانة وقلة الحياء وعدم المراقبة وعدم الأمانة للحرم وذهاب النيرة من القلب من شعبه وموجباته .

ومن موجباته غضبُ الربِّ بإفساد حرمه وعياله ، ولو تعرّض رجلٌ إلى ملكٍ من الملوك بذلك لقابله أسوأ مقابلة . ومنها سوادُ الوجه وظلمته وما يعلوه من الكآبة والمقت الذي يبدو عليه للناظرين ، ومنها ظلمة القلب وطمسُ نوره^(١) وهو الذي أوجب طمس نور الوجه وغشيان الظلمة له . ومنها الفقر اللازم . وفي أثرٍ يقول الله تعالى : (أَنَا اللَّهُ مُهْلِكُ الطُّغَمَاءِ ، وَمُفْقِرُ الزُّنَاكَةِ) . ومنها أنه يذهب حرمة فاعله ، ويُقطع من عين ربه ومن أعين عباده . ومنها أنه يسلبه أحسن الأسماء وهو اسمُ العِفَّةِ والبرِّ والعدالة ، ويعطيه أضدادها كاسم الفاجر والفاقد والزاني والخائن . ومنها أنه يسلبه اسم المؤمن كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ » . فسلبه اسم الإيمان المطلق وإن لم يسلب عنه مطلق الإيمان . وسئل جعفر بن محمد عن هذا الحديث فخطَّ دائرةً في الأرض وقال : هذه دائرة الإيمان ، ثم خطَّ دائرةً أخرى خارجةً عنها وقال : هذه دائرة الإسلام ، فإذا زنى العبد خرج من هذه ، ولم يخرج من هذه . ولا يلزم من ثبوت جزء ما من الإيمان له

(١) طمس نوره : ذهابه وطمس الشيء طمساً وطموساً : درس وانمحى .

أن يسمّى مومنًا ، كما أن الرجل يكون معه جزء من العلم والفقه ولا يسمّى به عالمًا فقيهاً ، ومعه جزء من الشجاعة والجلود ولا يسمّى بذلك شجاعاً ولا جواداً ، وكذلك يكون معه شيء من التقوى ولا يسمّى متّقياً . ونظائره . فالصواب إجراء الحديث على ظاهره ولا يُتأَوَّل بما يخالف ظاهره والله أعلم . ومنها أن يمرض نفسه لسُكْنَى التَّنُّور الذي رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيه الزُّنَاةَ والزواني . ومنها أنه يفارقه الطيب الذي وصف الله به أهل العفاف ويستبدل به الخبيث الذي وصف الله به الزُّنَاةَ كما قال الله تعالى : (اتَّخِذُوا لِلْخَبِيثَاتِ الْمَخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ، وَالطَّيِّبَاتِ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ) (١) .

وقد حرّم الله الجنة على كل خبيث ، بل جعلها مأوى الطيّبين ، ولا يدخلها إلا طيّب . قال الله تعالى : (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (٢) . وقال تعالى : (وَقَالَ لَهُمْ خُزِّنْهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَابْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) (٣) . فإنما استحقوا سلامَ الملائكة ودخول الجنة بطيبهم ، والزُّنَاة من أخبث الخلق ، وقد جعل الله سبحانه جهنم دار الخبيث وأهله ، فإذا كان يوم القيامة ميز الخبيث من الطيّب وجعل الخبيث بعضه على بعض ثم ألقاه وألقى أهله في جهنم فلا يدخل النار طيّب ، ولا يدخل الجنة خبيث .

ومنها الوحشة التي يضعها الله سبحانه وتعالى في قلب الزاني ، وهي نظير الوحشة التي تملأ وجهه ، فالعفيف على وجهه حلاوة وفي قلبه أنس ، ومن جالسه

(١) الآية ٢٦ . سورة النور .

(٢) الآية ٣٢ . سورة النحل .

(٣) الآية ٧٣ . سورة الزمر .

استأنس به ، والزاني تلو وجهه الوحشة ومن جالسه استوحش به ، ومنها قلة
المهينة التي تنزع من صدور أهله وأصحابه وغيرهم له ، وهو أحقر شيء في نفوسهم
وسميتهم ، بخلاف العفيف فإنه يُرزق المهابة والحلاوة . ومنها أن الداس ينظرونه
بمیں الخيانة ولا يأمنه أحدٌ على حرمة ولا على ولده . ومنها الرائحة التي
تفوح عليه يشمها كل ذى قلب سليم ، تفوح من فيه وجسده ، ولولا
اشتراك الناس في هذه الرائحة لفاحت من صاحبها ونادت عليه ولكن
كما قيل :

كلُّ به مثلُ ما بي غير أنهم من غيرة بعضهم للبعض عُدال
ومنها ضيقة الصدر وحرَّجه فإن الزُّناة يعاملون بضدِّ قصودهم ، فإن من
طلب لذة العيش وطيبه بما حرَّمه الله عليه عاقبه بنقيض قصده ، فإن ما عند الله
لا يُنال إلا بطاعته ، ولم يجعل الله معصيته سبباً إلى خيرٍ قط . ولو علم الفاجر
ما في العفاف من اللذة والسرور وانشرح الصدر وطيب العيش لرأى أن الذي
فاته من اللذة أضعافُ أضعافٍ ما حصل له ، دع ربح العاقبة والفوز بثواب الله
وكرامته . ومنها أنه يُعرَّض نفسه لفوات الاستمتاع بالخُور العين في المساكن
الطيبة في جنات عدن ، وقد تقدَّم أن الله سبحانه وتعالى إذا كان قد عاقب
لأبس الحرير في الدنيا بحرمانه لبسَه يوم القيامة ، وشارب الخمر في الدنيا بحرمانه
إياها يوم القيامة ، فكذلك من تمتع بالصُور المحرمة في الدنيا ، بل كل ما ناله العبد
في الدنيا فإن توسَّع في حلاله ضيق من حظه يوم القيامة بقدر ما توسَّع فيه ، وإن
ناله من حرام فاته نظيره يوم القيامة .

ومنها أن الزَّنى يُجرُّه على قطيعة الرَّحم وعقوقِ الوالدین وكسبِ الحرام
وظلم الخلق وإضاعه أهله وعياله ، وربما قاده قسراً إلى سفك الدَّم الحرام ، وربما
استعان عليه بالسحر والشرك وهو يدرى أو لا يدرى ، فهذه المعصية لا تقيم

إلا بأنواع من المعاصي قبلها ومعها ، ويتولد عنها أنواع أخر من المعاصي بعدها ، فهي محنوفة بخسار من المعاصي قبلها وجنل بعدها ، وفي أجاب شيء لشراً الدنيا والآخرة ، وأمنع شيء من خير الدنيا والآخرة ، وإذا علمت بالعبد فوقع في حبائلها وأشراكها عز على الناصحين استنقاؤه ، وأعي الأطباء دواؤه ، فأسيرها لا يُفدى ، وقتيلها لا يُودي^(١) ، وقد وكلها الله سبحانه بزوال النعم ، فإذا اتسلى بها عبد فليودع نعم الله فإنها ضيف سريع الانتقال ، وشيك الزوال . قال الله تعالى : (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)^(٢) وقال تعالى : (وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالِدٍ)^(٣) .

فصل

فهذا بعض مافي هذه السبيل من الضرر ، وأما سبيل الأمة الأرطية فتلك سبيل الهالكين المفضية بسالكها إلى منازل المذنبين الذين جمع الله عليهم من أنواع العقوبات ما لم يجمعه على أمة من الأمم ، لا من تأخر عنهم ولا من تقدم ، وجعل ديارهم وآثارهم عبرة للمعتبرين ، وموعظة للمتقين .

وكتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أنه وجد في بعض ضواحي العرب رجلاً يُنكح كما تنكح المرأة ، فجمع أبو بكر رضي الله عنه لذلك ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه فاستشارهم ، فكان علي رضي الله عنه أشدّهم قولاً فيه فقال : إن

(١) لا يودي : ليس له دية . وودي القاتل القتييل ودياً ودية : أعطى وليه ديته .

(٢) الآية ٥٢ . سورة الأنفال .

(٣) الآية ١١ ، سورة الرعد .

هذا لم يعمل به أمة من الأمم إلا أمة واحدة فصنع الله بهم ما قد علمتم ، أرى أن تمحرقوه بالنار ، فأحرقوه بالنار^(١) .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه وجاعة من الصحابة والتابعين : يُرْجَمُ بالحجارة حتى يموت أحصين أو لم يُحصن ، وواقفه على ذلك الإمام أحمد وإسحاق ومالك ، وقال الزهري : يُرْجَمُ أحصين أو لم يُحصن ، منه ماضية ، وقال جابر ابن زيد في رجل غشي رجلاً في دبره قال : الدبر أعظم حرمة من الفرج ، يُرْجَمُ أحصين أو لم يُحصن ، وقال الشعبي : يُقْتَلُ أحصين أو لم يُحصن .

وسئل ابن عباس عن اللوطي ما حده ؟ قال : يُنْظَرُ أعلى بناء في المدينة فيرمى منه مَنَسَكْسَا ثم يُتْبَعُ بالحجارة . ورجم على لوطياً وأُفْتِيَ بتحريقه . وكأنه وأى جواز هذا وهذا .

وقال إبراهيم النخعي : لو كان أحد ينبغي له أن يُرْجَمَ مرتين لسكان ينبغى للوطي أن يُرْجَمَ مرتين . وذهبت طائفة إلى أنه يُرْجَمُ إن أحصن ويجلد إن لم يُحصن . وهذا قول الشافعي وأحمد في رواية عنه ، وسعيد بن المسيب في رواية عنه ، وعطاء بن أبي رباح .

قال عطاء : شهدت ابن الزبير أتى بسبعة أخذوا في الأواط : أربعة منهم قد أحصنوا ، وثلاثة لم يُحصنوا ، فأمر بالأربعة فأخرجوا من المسجد الحرام فرموا بالحجارة ، وأمر بالثلاثة فضرَبوا الحد في المسجد ابن عمر وابن عباس . فالصحابا اتفقوا على قتل اللوطي وإنما اختلفوا في كيفية قتله ، فظن بعض الناس أنهم متنازعون في قتله ولا نزاع بينهم فيه إلا في إلحاقه بالزاني أو قتله مطلقاً . وقد اختلف الناس في عقوبته على ثلاثة أقوال : أحدها أنها أعظم من

(١) رواه ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي . كما قال الهيثمي في الزواجر .

عقوبة الزنى كما أن عقوبته في الآخرة أشد ، الثاني أنها مثلها ، الثالث أنها دونها ، وذهب بعض الشافعية إلى أن عقوبة الفاعل كعقوبة الزاني ، وعقوبة المفعول به الجسد مطلقاً بـ **كراً** كان أو **ثيباً** قال : لأنه لا يابذ بالنعل به بخلاف الفاعل .

وذهب بعض الفقهاء إلى أنه لا حد على واحد منهما قال : لأن الوازع عن ذلك مافي الطباع من النفرة عنه واستقباحه ، وما كان ذلك لم يحتج إلى أن يزجر الشارع عنه بالحد كأكل العذرة^(١) والميتة والدم وشرب البول ، ثم قال هؤلاء : إذا أكثر منه الأوطى فللا إمام قتله تعزيراً^(٢) ، صرح بذلك أصحاب أبي حنيفة . والصحيح أن عقوبته أغلظ من عقوبة الزاني لإجماع الصحابة على ذلك ولغلظ حرمة وانتشار فساد ، ولأن الله سبحانه وتعالى لم يعاقب أمة ما عاقب الأوطية .

قال ابن أبي مبيح في تفسيره عن عمرو بن دينار في قوله تعالى : (**إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ النّٰاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ**)^(٣) قال : **ماتراً**^(٤) ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط . وقال محمد بن مخلد : سمعت عبادة الدؤري يقول بلغني أن الأرض تعج^(٥) إذا ركب الذكركر على الذكر . وذكر ابن أبي الدنيا بإسناده عن كعب قال : كان إبراهيم يشرف على سدوم^(٦) فيقول :

(١) العذرة : الغائط .

(٢) تعزيراً : ردعاً ، والتعزير شرعاً تأديب دون الحد .

(٣) الآية ٢٨ . سورة العنكبوت .

(٤) نزا الفحل : وثب .

(٥) تعج : تصبّح وتصرخ .

(٦) سدوم : قرية قوم لوط .

ويل لك سدوم يومًا مالك ، فجاءت إبراهيم الرُّسلُ وكَلَّمهم إبراهيم في أمر قوم لوط قالوا (يَا إِبْرَاهِيمُ اُعْرِضْ عَنْ هَذَا) قال : (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا يَهُيمٌ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا)^(١) فذهب بهم إلى منزله فذهبت امرأته فجاءه قومه يهْرَعُونَ إليه فقال : (يَا قَوْمِ هُوَ لَاءَ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ)^(٢) أزوجكم بهنَّ (أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ)^(٣) ؟ وجعل لوطُ الأضياف في بيته وقعد على باب البيت وقال : (لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)^(٤) قال : أي عشيرةٍ تمنعني قال : ولم يَبْعَثْ نبيٌّ بعد لوطٍ إلا في عِزٍّ من قومه ، فلما رأت الرُّسلُ ما قد لقي لوطُ في سببهم (قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)^(٥) فخرج عاينهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه ضربة طَمَسَتْ أَعْيُنَهُمْ قال : والطمسُ أن تذهب حتى تستوى ، واحتمل مدائنهم حتى سمع أهلُ السماء الدنيا نَبِيحَ كلابهم وأصوات دُيُوكهم ، ثم قلبها وأمطر الله عاينهم حجارةً من سَجِيلٍ^(٦) قال : عَلَى أَهْلِ بَوَادِيهِمْ وَعَلَى رُعَاتِهِمْ وَعَلَى مَسَافِرِيهِمْ ، فلم ينفذ منهم إنسان . وقال مجاهد : نزل جبريل عليه السلام فأدخل جَنَاحَهُ تحت مدائن قوم لوطٍ فرفعها حتى سمع أهل السماء نَبِيحَ الكلاب وأصوات الدَّجَاجِ والدَّيَّكَةِ ، ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلها ثم أَتَبَعُوا بِالْحِجَارَةِ .

(١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥) الآيات ٧٧ و ٧٨ و ٨٠ و ٨١ سورة هود .

(٦) سَجِيلٌ : طين مطبوخ .

وفي تفسير أبي صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أغلق لوط على ضيفه الباب فهاهوا الباب ودخلوا ، فقام جبريل أعينهم فذهبت أبصارهم فقالوا : يالوط جئنا بالسريرة ؟ وتوعدوه ، فأوجس في نفسه خيفة قال : يذهب هؤلاء وتؤذى ، فقالوا : لا تخف إنا رسل ربك إن موعدهم الصبح قال لوط : الساعة ، قال جبريل : أليس الصبح يقرب ؟ قال فرفعت المدينة حتى سمع أهل السماء نبح الكلاب ثم أقبلت ورُموا بالحجارة . وقال حذيفة بن اليمان : لما أرسلت الرسل إلى قوم لوط لتهلكهم قيل لهم : لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط ثلاث مرات ، وطريقهم على إبراهيم قال : فأتوا إبراهيم فبشروه بما بشرود (١) فامأذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشرى بمجادلنا في قوم لوط (١) ور : كان مجادلته إياهم أن قال لهم : إن كان فيهم خسون أنهلكونهم ؟ قالوا : لا ، قال : أفرأيت إن كان فيهم أربعون ؟ قالوا : لا ، قال : فإثلاثون ؟ قالوا : لا ، حتى انتهى إلى عشرة وأخسة ، فأتوا لوطاً وهو في أرض يعمل فيها خصبهم ضيفاً ، فأقبل بهم حين أمسى إلى أهله فأتوا معه فالتفت إليهم فقال : أما ترون ما يصنع هؤلاء ؟ قالوا : وما يصنعون ؟ قال : ما من الناس أحد شر منهم ، قال : فأنهى بهم إلى أهله فانطلقت العجوز السوداء امرأته فأتت قومه فقالت : لقد تضيف لوطاً الليلة قوم ما رأيت قط أحسن وجوهاً ولا أطيب ريحاً منهم ، فأقبلوا يهرعون إليه حتى دفعوا الباب ثم كادوا أن يقبلوه عليهم ، فقام ملك بيناحه فصنقه دونهم ثم أغلق الباب ثم علوا الأجاجير (٢) فجعل يخاطبهم فقال : (هؤلاء بناتي هن أظهر لكم) (٣) حتى بلغ (أو آوى إلى ركن

(١) الآية ٧٤ : سورة هود . والروح ما ألقي في القلب من الفزع .

(٢) الأجاجير . جمع إجار وهو السطح .

(٣) الآية ٧٨ . سورة هود .

شديد. قالوا يا لوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ (١) فطمس جبريل أعينهم فما بقي أحدٌ منهم تلك الليلة حتى عمى قال: فباتوا بشر ليلة غمياً ينتظرون العذاب . قال : وسار بأهله واستأذن جبريل عليه السلام في هلاكهم فأذن له ، فارتفع بالأرض التي كانوا عليها فالوى (٢) بها حتى سمع أهل السماء الدنيا ضجاء (٣) كلابهم ، وأوقد تحتها ناراً ثم قلبها بهم قال : فسمت امرأته الوجبة (٤) وهي معه فالتفتت فأصابها العذاب .

وفي تفسير العوفي عن ابن عباس رضى الله عنهم : جادل إبراهيم الملائكة في قوم لوط أن يُتركوا فقال : أرايتم إن كان فيهم عشرة أبياتٍ من المسلمين أتركوهم ؟ فقالت الملائكة : ليس فيها عشرة أبيات ولا خمسة ولا أربعة ولا ثلاثة ولا اثنان ، فغزن إبراهيم على لوط وأهل بيته و (قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجيَنه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) (٥) فذلك قوله : (فلما ذهب عن إبراهيم الرُّوعُ وجاءته البشري مجادلنا في قوم لوط . إن إبراهيم ليحليم أولاه منيب) (٦) فقالت الملائكة : (يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمرُ ربك وإنيهم آتيهم عذابٌ غيرُ مردودٍ) (٧) فبعث الله إليهم جبريل فانتسف المدينة ومن فيها بأحد جناحيه فجعل عاليها سافلها وتدمتهم الحجارة بكل أرض . فأهلك الله سبحانه الفاعل

(١) الآيتان ٨٠ و ٨١ . سورة هود .

(٢) ألوى بها : ذهب بها مصعداً .

(٣) الضجاء : السباح من الألم .

(٤) الوجبة : صوت الساقط .

(٥) الآية ٣٢ . سورة العنكبوت . والغابرين : الباقين المالكين وقد فسر

غير بمعنى هلك ، فالغابرون : المالكون .

(٦ و ٧) الآيات ٧٤ و ٧٥ و ٧٦ سورة هود .

والمفعول به ، والسأكت الراضى ، والدال المحصن منهم وغير المحصن ،
العاشق والمعشوق ، وأخذهم وهم فى سكرة عشقهم يغمهون .

وذكر ابن أبى داود فى تفسيره عن وهب بن منبه قال : إن الملائكة حين
دخلوا على لوط ظن أنهم أضياف ضافوه فاحتفل لهم وحرس على كرامتهم ،
وخافته امرأته إلى فداق قومه فأخبرتهم أنه ضاف لوطاً أحسن الناس وجهاً
وأفصرهم جالاً وأطيبهم ريحاً ، فكانت هذه خيانتها التى ذكر الله عز وجل
فى كتابه . وفيه عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : (فَخَانَتْهُمَا) ^(١) قال :
والله تَمَارَ نَتْنَا وَلَا بَغْتَ امْرَأَةُ نَبِيٍّ قَطُّ ف قيل له : فما كانت خيانة امرأة نوح
وامرأة لوط ؟ فقال ، أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما امرأة
لوط فإنها كانت تدل على الضيف .

وقال أبو مسلم الليثى فى مسنده ، حدثنا سليمان بن داود ، حدثنا عبد الوارث
حدثنا القاسم بن عبد الرحمن ، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل قال : سمعت
جابر بن عبد الله رضى الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنْ
أَخُوَفَ مَا أَخُوَفُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ » ^(٢) وقال هشام بن
عمار : حدثنا عبد العزيز الدراؤزدي عن عمرو بن أبى عمرو ، عن عكرمة ،
عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَعَنَ اللَّهُ
مَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ » (رواه الإمام
أحمد) وقال القعنبي : حدثنا عبد العزيز هو الدراؤزدي ، عن عمرو بن أبى
عمرو مولى المطلب بن عبد الله بن حنظلب الخزومى ، عن عكرمة ، عن

(١) الآية ١٠ سورة التحريم .

(٢) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم . كما قال السيوطى .

(٢٤ م — روضة المحبين)

ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لَعَنَ اللَّهُ مَنْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ تُخُومَ الْأَرْضِ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ كَمَّ أَعْمَى عَنِ السَّبِيلِ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَإِدْيَارَ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ »^(١) . هذا الإسناد على شرط البخارى .

وقال أبو داود الطيالسى : حَدَّثَنَا بَشْرُ بْنُ الْمُفَضَّلِ ، عَنْ خَالِدِ الْحَذَّاءِ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا بَلَغَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ الرَّجُلَ فَهُمَا زَانِيَانِ » وفى لفظ : « إِذَا آتَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ »^(٢)

وفى المسند والسنن من حديث عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ » وفى لفظ : « مَنْ وَجَدَتْهُ يَفْعَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَأَقْتُلُوا الْفَاعِلَ الْمَفْعُولَ بِهِ »^(٣) وإسناده على شرط البخارى .

وروى مهيل بن أبي صالح عن أبيه ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال :

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه والبيهقى كما جاء فى الترغيب والترهيب وفى الزواجر . وتخوم جمع تخم : الحد الفاصل بين أرضين ، والمعالم يهتدى بها فى الطريق . وكه الأعمى : أضله .

(٢) رواه البيهقى فى السنن . كما قال السيوطى .

(٣) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه والبيهقى . كما قال الهيثمى فى الزواجر .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ وَجَدَتْهُمُوهُ يَعْمَلْ عَمَلِ قَوْمِ لُوطٍ فَارْجُوهُ أَوْ قَالَ : فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ » .

وحرقت اللوطية بالنار أربعة من الخلفاء : أبو بكر الصديق ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن الزبير ، وهشام بن عبد الملك .

وقال حماد بن سلمة عن قتادة ، عن خِلاس ، عن عبيد الله بن معمر قال : يُقْتَلُ اللُّوطِيُّ . وقال سعيد بن المسيب : عندنا على اللوطي الرجم أحسن أو لم يُحْصَن سَنَةٌ ماضية ، وهذا يدل على أن ذلك سَنَةٌ مضى عليها العمل .

وقال الشعبي : يُقْتَلُ أَحْصَنُ أَوْ لَمْ يُحْصَن . وقال الزهري وربيعة وابن هرمز ومالك بن أنس : عليه الرجم أحسن أو لم يُحْصَن .

وقال بعض العلماء : وإنما قال سعيد بن المسيب : إن ذلك سَنَةٌ ماضية لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « اقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ » ، ولم يقل محصناً أو غير محصن .

وحرقهم أبو بكر رضي الله عنه بالنار بعد مشاورة الصحابة ، وأشار عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه بذلك ، وحرقهم علي بن الزبير كما ذكره الأجرى وغيره عن محمد بن المنكدر أن خالد بن الوليد كتب إلى أبي بكر أنه وجد رجلاً في بعض ضواحي العرب يُنْكَحُ كما تُنْكَحُ المرأة ، فجمع أبو بكر لذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم فقال علي : إن هذا ذنب لم يعمل به إلا أمة واحدة ففعل الله بهم ما قد علمت ، أرى أن تحرقوه بالنار ، فاجتمع رأي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُحْرَقَ بالنار ، فأمر به أبو بكر أن يحرق .

قال : وقد حرقهم ابن الزبير وهشام بن عبد الملك ، وقال ابن عباس
رضي الله عنهما : يُرْجَمُ اللّوْطِيُّ بَكَرًا كَانَ أَوْ ثِيْبًا .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : من عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوهُ ،
ولم يفرّق أحدٌ منهم بين المحصّن وغيره ، وصرح بعضهم بعموم الحكم
للمحصّن وغير المحصّن ، فلذلك قال ابن المسيّب : إن هذا سنة ماضية .

وفي مسائل إسحاق بن منصور الكوسج قلت لأحمد : يُرْجَمُ اللّوْطِيُّ
أَحْصِنَ أَوْ لَمْ يُحْصِنْ ؟ فقال : يُرْجَمُ أَحْصِنَ أَوْ لَمْ يُحْصِنْ . قال إسحاق بن
راهويه : هو كما قال .

والسنة في الذي يعمل عمل قوم لوطٍ أن يُرْجَمَ محصّنًا كان أو غير
محصّن لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوهُ »
رواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم كذلك ، ثم أنقضى ابن عباس بعد
النبي صلى الله عليه وسلم فيمن يعمل عمل قوم لوطٍ أنه يُرْجَمُ وإن كان بكرًا ،
فحكم في ذلك بما رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وكذلك روى عن علي بن أبي طالب مثل هذا القول إن اللوطي يُرْجَمُ
ولم يذكر محصّنًا كان أو غير محصّن ، وكذلك فعل الله سبحانه بقوم لوط ،
وكذا يروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه حرقهم بالنار . هذا كلام
إسحاق رحمه الله .

وذكر الأجرى في كتاب تحريم اللواط من حديث عبد الله بن عمر
مرفوعاً : « سَبْعَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُرْكَبُ بِهِمْ وَيَقُولُ :
ادْخُلُوا النَّارَ مَعَ الدّٰخِلِينَ : الْفَاعِلُ وَالْمَفْعُولُ بِهِ ، وَالنَّاكِحُ يَدُهُ ، وَنَاكِحُ

الْبَهِيمَةِ ، وَنَاكِحُ التَّرَافِ فِي دُبُرِهَا ، وَالْجَامِيعُ بَيْنَ التَّرَافِ وَابْنَتَيْهَا ،
وَالزَّانِي بِحَمِيلَةِ جَارِهِ ، وَالْمُؤْذِي لْجَارِهِ حَتَّى يَلْمَعَهُ » .

وذكر عن أنس مرفوعاً نحوه وقال : « آذَنُوا النَّارَ أَوَّلَ الدَّاخِلِينَ
إِلَّا أَنْ يَتَوَبُّوا ، إِلَّا أَنْ يَتَوَبُّوا ، إِلَّا أَنْ يَتَوَبُّوا ، قَمَنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ :
النَّاكِحُ يَدَهُ ، وَالْفَاعِلُ ، وَالْمَفْعُولُ بِهِ ، وَمُذْمِنُ الظُّمْرِ ، وَالضَّارِبُ
أَبَوَيْهِ حَتَّى يَسْتَفِينَا ، وَالْمُؤْذِي جِيرَانَهُ حَتَّى يَلْعَنُوهُ ، وَالزَّانِي بِحَمِيلَةِ
جَارِهِ » (١) .

وقال مجاهد : لو أن الذي يعمل ذلك العمل يعني عمل قوم لوط اغتسل بكل
قطرة في السماء وكل قطرة في الأرض لم يزل نجساً ، وقد ذكر الله سبحانه
عقوبة اللوطية وما حل بهم من البلاء في عشر سور من القرآن وهي :
سورة الأعراف ، وهود ، والحجر ، والأنبياء ، والفرقان ، والشعراء ، والنمل ،
والعنكبوت ، والصافات ، واقتربت الساعة ، وجمع على القوم بين عى الأبصار
وخسف الديار ، والقذف بالأحجار ، ودخول النار . وقال محذراً لمن عمل
عمالهم ما حل بهم من العذاب الشديد : (وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ
بِبَعِيدٍ) (٢) .

وقال بعض العلماء : إذا علا الذكركم ذكر هربت الملائكة ، وعجت
الأرض إلى ربها ، ونزل سخط الجبار جل جلاله عليهم ، وغشيتهم العنة ،

(١) رواه الحسن بن عرفة في جزئه والبيهقي في الشعب . كما قال السيوطي .

(٢) الآية ٨٩ : سورة هود .

(٣) عجت : صاحت ورفعت صوتها .

وحسنت بهم الشياطين ، واستأذنت الأرض ربها أن تخسيف بهم ، وثقل العرش على سحلتيه ، وكبرت الملائكة ، واستمرت^(١) الجحيم ، فإذا جاءته رُسُلُ الله ليقبض رُوحه نقلوها إلى ديار إخوانهم ، وموضع عذابهم ، فكانت رُوحه بين أرواحهم . وذلك أضيُّقُ مكانًا وأعظمُ عذابًا من تنُّور الزُّناة . فلا كانت لذة ترجب هذا العذاب الأليم ، وتسوق صاحبها إلى مرافقة أصحاب الجحيم . تذهب اللذات ، وتُعقب الحسرات ، وتنفى الشهوة ، وتبقى الشقوة . وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يُنشد :

تَنفَى اللَّذَاذَةُ مَن نَالَ صَفْوَتَهَا مَن الْجَرَامُ وَيَبْقَى الْحَزْنُ وَالْعَارُ
تَبْقَى هَوَائِبُ ضَوْءٍ فِي مَغْبِيتِهَا لَا خَيْرَ فِي لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا النَّارُ

فصل

وأما إن كانت الفاحشة مع ذى رَجَمٍ نَحْرَمَ فذلك المُلْكُ كُلُّ المُلْكِ ، ويحب قتلُ الفاعل بكل حال عند الإمام أحمد وغيره .

واحتجَّ أحمد بحديث عَدِيَّ بنِ ثابت عن البراء بن عازب قال : لقيت خالي ومعه الراية فقلت : أين تريد ؟ قال : بعثني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى رجلٍ تزوج امرأة أبيه أضرب عنقه ، وآخذ ماله (رواه الإمام أحمد) واحتجَّ به .

وقال شعبة : حدثنا الرُّكَيْنُ بن الربيع عن عَدِيَّ بن ثابت عن البراء .

(١) استمرت النار : توقدت .

(٢) المغبة : العاقبة .

قال : رأيت أناساً ينطلقون فقلت : أين تذهبون ؟ قالوا : بهشتا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل يأتي امرأة أبيه أن تقتله .

وذكر عبد الله بن صالح : حدثنا يحيى بن أيوب ، عن ابن جريج ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اقْتُلُوا الْمُعَاوِلَ وَالْمُعَوِلَ بِهِ وَالَّذِي يَأْتِي الْبَيْتَةَ وَالَّذِي يَأْتِي كُلَّ ذَاتِ مَحْرَمٍ »^(١) وقال هشام بن عمار : حدثنا رِفْدَةُ بْنُ قُضَاعَةَ ، حدثنا صالح بن راشد قال : أتى الحجاجُ برجلٍ قد اغتصب أخته على نفسها فقال : احبسوه وسلوه من ها هنا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فسألوا عبد الرحمن بن مطرف^(٢) فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ تَخَطَّى الْحُرْمَتَيْنِ فَخَطَّوْا وَسَطَهُ بِالسَّيْفِ » . وأفتى ابن عباس رضي الله عنهما بمثل ذلك . وقال عمر بن شبة : حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبي عن قتادة قال : أتى الحجاجُ برجلٍ زنى بأخته ، فسأل عنها عبد الله فقال : يُضْرَبُ بِالسَّيْفِ ، فأمر به الحجاجُ فضرب عنقه بالسيف .

وذكر جماعة عن حماد بن سامة ، عن بكر بن عبد الله المزني أن رجلاً تزوج خالته فرُفع إلى عبد الملك بن مروان فقال : إِنِّي ظَنَنْتُ أَنَّهَا تَحِلُّ لِي

(١) ذكره الهيثمي في الرواجر من دون الفقرة الأخيرة وقال : رواه البيهقي وغيره .

(٢) رواه أحمد والحاكم عن عبد الله بن أبي مطرف ، كما قال السيوطي . وراجع هذه القصة أيضاً في الإصابة لابن حجر العسقلاني ، وما قبل في نهرها .

فقال: لا جهالة في الإسلام وأظن أنه أمر به فقتل. وفي مسائل صالح بن أحمد قال: سألت أبي عن الرجل الذي تزوج ذات تحرم منه فقال: إن كان عمداً يقتل ويؤخذ ماله، وإن كان لا يعلم يفرق بينهما، وأستحب أن يكون لها ما أخذت منه ولا يرجع عليها بشيء. وفي صحيفة عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « لا يدخل الجنة من أتى ذات تحرم»^(١).

(١) رواه الخرائطي عن ابن عمرو والطبراني في المعجم الكبير وأبو ليم في الخلية كلاهما عن ابن عباس. كما قال السيوطي.

الباب الخامس والعشرون

في رحمة المحبين والشفاعة لهم الى أمبارهم في الوصال الذي يبيحه الدين

قال الله تعالى : (مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا) وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا)^(١) وكلُّ من أعان غيره على أمرٍ بقوله أو فعله فقد صار شافعاً له ، والشفاعةُ للشفوع له هذا أصلها ، فإن الشافع يشفع صاحب الحاجة فيصير له شافعاً في قضائها لعجزه عن الاستقلال بها ، فدخل في حكم هذه الآية كلُّ متعاونين على خيرٍ أو شرٍّ بقولٍ أو عملٍ . ونظيرها قوله تعالى : (وَآمَازُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَمَازُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)^(٢) . وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا جاءه طالب حاجة يقول : « اشدُّمُوا تَوَجُّرُوا وَيَقْضِ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مَا أَحَبَّ »^(٣) ، وفي صحيح البخاري أن بريرة لما عتقت اختارت نفسها فكان زوجها يمشي خلفها ودموعه تسيل على لحيتة ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : « لَوْ رَاجَعْتِيهِ فَإِنَّهُ أَبُو وَلَدِكَ » فقالت : أتأمرني ؟ قال : « لَا إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ » قالت : فلا حاجة لي فيه^(٤) . فهذه شفاعة من سيّد الشفعاء لمحِبٍّ إلى محبوبه ، وهي من أفضل الشفاعات وأعظمها أجراً عند الله ، فإنها تتضمن اجتماع محبوبين على ما يحبه الله ورسوله ، ولهذا كان أحبَّ ما لإبليس وجنوده التفريق بين هذين المحبوبين .

(١) الآية ٨٥ . سورة النساء . (٢) الآية ٢ . سورة المائدة ؟

(٣) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي ، كما قال السيوطي .

(٤) أنظر صفحة ١٤٣ .

وتأمل قوله تعالى في الشفاعة الحسنة (يَسْكُنُ لَهُ نَعِيبٌ مِنْهَا) وفي السيئة (يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا). فإن لفظ الكِفْل يُشْعِرُ بالحمل والثقل ، ولفظ النعيب يُشْعِرُ بالحفظ الذي يَنْصَبُ طائِبُهُ في تحصيله ، وإن كان كلُّ منهما يُستعمل في الأمرين عند الانفراد ، ولكن لما قرن بينهما حَسَنَ اختصاصٍ حفظ الخبير بالنعيب وحفظ الشرِّ بالكِفْل .

وفي صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم زوج ابنته له وكان خطبها قبل ذلك عمُّ بنتها ، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم أنها كارهة هذا الذي زوجها أبوها ، وأنه كان يعجبها أن تزوجهَا عمُّ بنتها ، فأهدر النبي صلى الله عليه وسلم نكاح أبيها وزوجهَا عمُّ بنتها^(١) . وقد تقدم حديث عمرو بن دينار ، عن طاوُس ، عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلاً قال : يا رسول الله ، في جِجْرِي يَتِيمَةٌ قد خطبها رجلٌ مُوسِرٌ ورجلٌ مُعَدِمٌ ، فنحن نحبُّ المَوسِرَ وهي تحبُّ المُعَدِمَ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ لِلْمُتَعَاتِبِينَ مِثْلُ النِّكَاحِ » رواه سليمان بن موسى عنه^(٢) .

وقال مُحَمَّد بن الحسين : حدثنا هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين قال : كان عمر بن الخطاب يَعْصُ بالليل فسمع صوتَ امرأةٍ تَغْنِي وتقول :
هل من سبيلٍ إلى خيرٍ فأشربَهَا أم هل سبيلٌ إلى نصرٍ بن حجاج

(١) رويت هذه القصة في صحيح البخارى وسنن النسائى وابن ماجه بالفاظ أخرى عن خلفاء بنات خدام الانصارية . ورويت من طرق أخرى في كتابي الإصابة وأسد الغابة .

(٢) أنظر تخريجه في صفحة ٢١٢ .

فقال : أمّا وعمر حتى فلا . فلما أصبح بعث إلى نصر بن حجاج فإذا رجلٌ جميلٌ فقال : اخرج فلا تساكني بالمدينة ، فخرج حتى أتى البصرة وكان يدخل على مجاشع بن مسعود ، وكانت له امرأةٌ جميلةٌ فأعجبها نصر ، فأحبها وأحبته فكان يقعد هو ومجاشعٌ يتحدّثان والمرأةُ معهما ، فكتب لها نصر في الأرض كتاباً فقالت : وأنا ، فعلم مجاشعٌ أنها جواب كلام . وكان مجاشعٌ لا يكتب والمرأةُ تكتب ، فدعا يثاء فأكفاه على المكتوب ودعا كاتباً فقرأه فإذا هو : **إِنِّي لَا أُحِبُّكَ حُبًّا لَوْ كَانَ فَوْقَكَ لَا ظَلَّكَ وَلَوْ كَانَ تَحْتَكَ لَا أَقْلَكَ^(١)** ، وبلغ نصرأ ما صنع مجاشع فاستحيا ولزِمَ بيته وضمي جسمه حتى كانت كالفرخ^(٢) ، فقال مجاشع لامرأته : اذهبي إليه فأسنديه إلى صدرك ، وأطعميه الطعام بيدك ، فأبت ، فعزم عليها فأثنته فأسندته إلى صدرها وأطعمته الطعام بيدها ، فلما تحامل خرج من البصرة .

إنّ الذين بخيرٍ كنتَ تذكركم هم أهلُ كوك وعندهم كنتُ أنهاراً
لا تظنّ شفاءً عند غيرهم فليس يُخَيِّيك إلا من توفّقاً
فإن قيل : فهل تبيح الشريعة مثل ذلك ؟ قيل : إذا تعيّن طريقاً للدواء ونجاة العبد من الهلكة لم يكن بأعظم من مداواة المرأة للرجل الأجنبي ، ومداواته لها ، ونظر الطبيب إلى بدن المريض ومسّه بيده للحاجة . وأما التداوى بالجماع فلا يبيحه الشرع بوجهٍ ما ، وأما التداوى بالضمّ والتقبلة فإنّ تحقق الشفاء به كان نظير التداوى بالخمر عند من يبيحه ، بل هذا أسهل من التداوى

(١) أقل الشيء : حله ورفع .

(٢) الفرخ : ولد الطائر ، وكل صغير من الحيران والنبات . والفرخ أيضاً الرجل الضعيف الدليل المطرود .

بالخر فإن شُرْبَهُ من الكِبَار . وهذا الفعل من الصغار^(١) . والمقصود أن الشفاعة للعشائر ، فيما يجوز من الوصال والتلاق ، سنة ماضية وسعى مشكور . وقد جاء عن غير واحد من الخلفاء الراشدين ومن بعدهم أنهم شفّعوا هذه الشفاعة .

فقال الخرائطي : حدثنا علي بن الأعرابي ، حدثنا أبو غسان الذهبي قال : مرّ أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خلّافته بطريق من طريق المدينة فإذا جارية تطحن برحاهما وهي تقول :

وهويته من قبل قطع تمنى متمايساً^(٢) مثل القضيبي الناعم
وكان نور البدر سنة وجهه ينمى ويصعد في ذؤابة هاشم^(٣)
فدق عليها الباب فخرجت إليه فقال : ويلك أحرّة أنت أم مملوكة ؟
فقلت : بل مملوكة يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فمن هويت ؟
فبكت ثم قالت : بحق الله إلا انصرفت عني ، قال : لا أريهم أو تعلميني
فقلت :

وأنا التي لعب الغرام بقلبها فبكت لحب محمد بن القاسم
فصار إلى المسجد وبعث إلى مولاها فاشتراها منه ، وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبي طالب وقال : هؤلاء فتن الرجال ، وكم قد مات بهن من كريم ، وعطّب عليهم من ساييم .

(١) خالف المؤلف نفسه بهذا الرأي انظر صفحة ١٣٢ وما بعدها .

(٢) متمايساً : متبختراً .

(٣) ينمى : يزيد ويكثر . والذؤابة : الناصية ، وقيل منبتها من الرأس . وذؤابة القوم : أشرفهم والمقدم فيهم .

ويذكر عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه جاءته جارية تستعدي على رجلٍ من الأنصار فقال لها عثمان : ما قصتك ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين كيفتُ بأبن أخيه ، فما أنذكتُ أراعيه ، فقال له عثمان : إما أن تتهبها لابن أخيك أو أعطيك ثمنها من مالي ، فقال : أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له .

وأبي علي بن أبي طالب بنادٍ من العرب وجد في دار قومٍ بالليل فقال له : ما قصتك ؟ فقال : لست بسارقٍ ولكنني أصدقتُ .

تعلقتُ في دار الرباحي خَوْدَةً يَذِلُّ لها من حسنِها الشمسُ والبدرُ
لها في بنات الرُّومِ حُسْنٌ وَمَنْصِبٌ إذا انتخرت بالحسن صدقها الفخرُ
فلما طرقتُ الدارَ من حرٍّ مُهْجَةٍ أتيت وفيها من توقدُها جمرُ
تبادر أهلُ الدارِ لي ثم صيخوا هو اللصُّ محتوماً له القتلُ والأسرُ
فلما سمع عليٌّ شعره رَقَّ له وقال لله مَلَبَّ بن رباح : اسمع له بها ونعوضك
منها ، فقال : يا أمير المؤمنين سَلِّمْ مَنْ هو لنعرف نسبه ؟ فقال : النَّهَّاسُ بن
عَيْنِيَّةَ المِجَلِّي ، فقال : خذها فهي لك .

وذكر التميمي في كتابه المسمى «بامتزاج النفوس» أن معاوية بن أبي سفيان اشترى جاريةً من البحرين فأعجب بها إعجاباً شديداً فسمعها يوماً تنشد أبياتاً منها :

وفارقتُ كالنَّصْنِ يَهْتَزُّ في التُّرى طَرِيرًا وَسِيًّا بعد ما طرَّ شارِبُهُ (١)

فألما فقالت : هو ابن عُمَى ، فردَّها إليه وفي قلبه منها .

وقال سالم بن عبد الله : كانت عاتكة ابنة زيد تحت عبد الله بن أبي بكر

(١) الطرير : در المنظر والهيئة الحسننة . وطر شاربه : نبت .

الصدِّيق رضى الله عنه ، وكانت قد غلبته على رأيه وشغلته عن سوقه ، فأمره أبو بكر بطلاقها واحدةً ففعل ، فوجَدَ عليها فقعد لأبيه على طريقه وهو يريد الصلاة ، فلما بَصُرَ بأبي بكر بكى وأنشأ يقول :

ولم أرَ مثلى طلقَ اليومَ مثلها ولا مثلاً في غير جُرمٍ يطلق
لها خلقُ جَزَلٍ وحلمٍ ومنصبٍ وخلقُ سوى في الحَيَاةِ (١) ومصدق
فرَّق له أبو بكر رضى الله عنه وأمره بمراجعتها ، فلما مات قالت ترثيه :

آليت (٢) لا تنفك عيني سخيئةً عليك ولا ينفك جلدى أغبراً
فله عينا من رأى مثله فتى أعفَّ وأمضى في الهياج وأصبراً
إذا شرعت (٣) فيه الأسنة خاضها إلى الموت حتى يترك الرمح أحمرأ
فلما حلت تزوجها عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأولم عليها ، فقال له على
ابن أبى طالب رضى الله عنه : أتأذن لى يا أمير المؤمنين أدخل رأسى إلى عاتكة
أكلِّمها ؟ قال : نعم ، فأدخل على رأسه إليها وقال : يا عُدَيَّة نفسها .

آليت لا تنفك عيني قريرةً عليك ولا ينفك جلدى أصفرأ
فبكت ، فقال له عمر : ما دعاك إلى هذا يا أبا الحسن ؟ كل النساء يفعلن هذا .
فلما قتل عمر قالت ترثيه :

عين جودى بمسيرة ونحيبٍ لا تمعلى على الجواد النجيب

(١) رواية الأغانى والإصابة : ، فى الحياء ، ، وجزل : كريم . ومصدق : صادق الخلال .

(٢) رواية الأغانى : ، فأقسمت ، ،

(٣) شرعت : تسددت .

فجعتني المنون بالفارس المعلن يوم الهياج والثوب^(١)
 قل لأهل الضراء والبؤس موتوا قد سقته المنون كأس شعوب^(٢)
 فلما حلت تزوجها الزبير بن العوام ، فاستأذنت ليلة أن تخرج إلى المسجد
 فشق ذلك عاينه وكرهه أن يمنعهما لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله »^(٣) فأذن لها ثم انكس^(٤) في موضع مظلم
 من الطريق ، فلما مرت وضع يده عليها ، فكرت راجعة تسبح ، فسبقها
 الزبير إلى المنزل ، فلما رجعت قال لها : ما ردك عن وجهك ؟ قالت : كنتا نخرج
 والناس ناس ، وأما اليوم فلا . وتركت المسجد ، فلما قُتل الزبير قالت ترضيه :
 غدر ابن جرموز بفارس بهيمة يوم اللقاء وكان غير معرّد^(٥)
 ياعرو لو نبهته لوجدته لاطائشاً رعى السنان ولا اليد
 فكلك أمك إن ظفرت بمثله فيما مضى حتى تروح وتفتدى
 كم غمرة قد خاضها لم يأنته عنها طرادك يا ابن أم الفرقد^(٦)
 إن الزبير لدو بلاء صادق سمح سجيته كريم المشهد
 فلما حلت خطبها على بن أبي طالب رضى الله عنه فقالت : إني لأضين بك
 على القتل .

(١) رواية الأغاني : « والتليب » . المعلم : الفارس جعل لنفسه علامة
 الإجماع في الحرب . والثوب في أذان الفجر أن يقول المؤذن : الصلاة خير من
 النوم .

(٢) المنون : الدهر . والمنون أيضاً : المنية . وشعوب : المنية والفراق .
 (٣) تقدم تخريجه في صفحة ٣٠٠ (٤) انكس : اختفى واستتر .
 (٥) البهمة : الجماع يستبهم على قرنه وجه غلبته . ومعرّد : هارب . وعرد
 عن قرنه : أحجم ونكل .
 (٦) الغمرة : الشدة . والفرقد : نجم قريب من القطب الشمال ، وولد البقرة

وذكر الخرائطي أن المهدي خرج إلى الحج حتى إذا كان بزباله^(١) جلس يتغدى فأتى بدوي فناداه : يا أمير المؤمنين إني عاشق ، ورفع صوته ، فقال للحاجب : ويحك ما هذا ؟ قال : إنسان يصيح إني عاشق ، قال : أدخلوه ، فأدخلوه عليه فقال : من عشيقتك ؟ قال : ابنة عني ، قال : أولها أب ؟ قال : نعم ، قال : فما له لا يزوجه إياها ؟ قال : ها هنا شيء ، يا أمير المؤمنين ، قال : ما هو ؟ قال : إني هجين — والمهجين : الذي أمه أمة ليست عربية — قال له المهدي : فما يكون ؟ قال : إنه عندنا عيب ، فأرسل في طلب أبيها فأتي به ، فقال : هذا ابن أخيك ؟ قال : نعم ، قال : فلم لا تزوجه كريمتك ؟ فقال له مثل مقالة ابن أخيه ، وكان من ولد العباس عنده جماعة ، فقال : هؤلاء كلهم بنو العباس وهم هجين ما الذي يضرهم من ذلك ؟ قال : هو عندنا عيب ، فقال له المهدي : تزوجه إياها على عشرين ألف درهم ، عشرة آلاف للعيب ، وعشرة آلاف مهرها ، قال : نعم ، فحمد الله وأثنى عليه وزوجه إياها ، فأتى ببدرتين فدفعهما إليه فأنشأ الشاب يقول :

إِبْتَمْتُ ظَبْيَةً بِالْفَلَاءِ وَإِنَّمَا يُعْطَى الْغَلَاءُ بِمِثْلِهَا أُمًّا لِي
وَتَرَكْتُ أَسْوَاقَ الْقَبَاحِ لِأَهْلِهَا إِنْ الْقَبَاحِ وَإِنْ رَخِصْنَ غَوَالِي

وذكر الخرائطي من حديث الهيثم بن عدي عن عوانة بن الحكم أن عمر ابن أبي ربيعة كان قد ترك الشعر ورغب عنه ونذر على نفسه بكل بيت يقول هذي بدنة^(٢) ، فسكت كذلك حيناً ثم خرج ليلة يريد الطواف بالبيت إذ نظر

(١) زباله (بضم أوله) : منزل بطريق مكة من الكوفة ، كما في ياقوت .
(٢) الهدى : ما يهدي إلى الحرم من النعم . والبدنة ناقة أو بقرة تنحر بمكة سميت بذلك لأنهم كانوا يسمونها ، والجمع بدن بالضم .

إلى امرأة ذات جمالٍ تطوف ، وإذا رجلٌ يتلوها ، كلما رفعت رِجلها وضع رِجله موضعَ رِجلها ، فجعل ينظر إلى ذلك من أسرها ، فلما فرغت المرأة من طوافها تبعها الرجل هُنَيْيَةً ثم رجع ، فلما رآه عمر وثب إليه وقال : لَتُعْخِرَنِيَّ عن أمرِك ، قال : نعم ، هذه المرأة التي رأيت ابنةَ عمِّي وأنا لها عاشقٌ وليس لي مال ، فخطبتها إلى عمِّي فرغب عني ^(١) وسألني المهرَ مالا أقدر عليه ، والذي رأيت هو حظِّي منها ، ومالي من الدنيا أمنيّةٌ غيرها ، وإنما ألقاها عند الطواف وحفظني ما رأيت من فعلي . فقال له عمر : ومن عمُّك ؟ قال : فلان بن فلان ، قال : انطلق معي إليه ، فانطلقا ، فاستخرجه عمر فخرج مبادراً فقال : ما حاجتُك يا أبا الخطاب ؟ قال : تزوّج ابنتك فلانة من ابن أخيك فلان ، وهذا المهرُ الذي تسأله يسأني إليك من مالي ، قال : فإني قد فعلت . قال عمر : إني أحبُّ أن لا أبرحَ حتى يمتما ، قال : وذلك أيضاً ، قال : فلم يَبْرَحْ حتى جمعها جميعاً ، وأتى منزله فاستلقى على فراشه فجعل النوم لا يأخذه ، وجعل جوفهُ يَبْشِشُ ^(٢) بالشعر ، فأنسكرت جاريته ذلك ، فجعلت تسأله عن أمره وتقول : ويحك ما الذي قد دهالك ؟ فلما أكثرت عليه جلس وأنشد :

تقول وَلِيدَتِي لَمَّا رَأَتْنِي	طربتُ وكنت قد أقصرتُ حيناً
أراك اليوم قد أحدثت شوقاً	وهاج لك البكا داء دفيناً
بربك هل أملك لها رسولاً	فشاقك أم رأيت لها خديراً ^(٣)
فقلت شكا إلى أخٍ محبٍ	كبعض زماننا إذ تعليناً
فعدّ عليّ ما يبتلى بهنـد	فوافق بعض ما كنّا لقيناً

(١) رغب عني : لم يردني .

(٢) يَبْشِشُ : يزخر ، يفيض .

(٣) الخنن والخندين : الصاحب ، اللبيب ، الصديق ، والجمع : أخدان .

(٢٥ م - روضة المحبين)

وذو القلب المصاب وإن تمرّى بهيج حين يلتقي العاشقين
وكم من خلّة أعرضت عنها لغير قلى وكنت بها ضيّبا^(١)
رأيت صدودها فصدت عنها ولو هام الفؤاد بها جنونا

وعرض خالد بن عبد الله القسريّ سجنه يوماً وكان فيه يزيد بن فلان البجلي^(٢)، فقال له خالد: في أيّ شيء حبست يا يزيد؟ قال: في تهمة — أصلح الله الأمير — قال: أفتعود إن أطلقتك؟ قال: نعم، وكره أن يعرض بقصته لئلا يفضح معشوقته، فقال خالد: أحضروا رجال الحى حتى نقطع يده بحضرتهم، وكان ليزيد أنخ فكتب شعراً ووجه به إلى خالد:

أخالد قد أعطيت في الخلق رتبة وما العاشق المسكين فينا يسارق
أقرّ بما لم يأت به المرء إنه رأى القطع خيراً من فضيحة عاشق
ولولا الذى قد خفت من قطع كفّ لأفيت في شأن الهوى غير ناطق
إذا بدت الرايات للسبق في العلى فأنت ابن عبد الله أول سابق

فلما قرأ خالد الأبيات علم صدق قوله، فأحضر أولياء الجارية فقال: تزوجوا يزيد فئاتكم، فقالوا: أمّا وقد ظهر عليه ما ظهر فلا، فقال: لئن لم تزوجه طائمين لتزوجه كارهين، فزوجه ونقد خالد المهر من عنده.

وذكر أبو العباس المبرّد قال: كان رجل بالكوفة يدعى ليث بن زياد قد ربى جارية وأدبها فخرجت بارعة في كل فن مع جمال وافر، فلم يزل معها مدة حتى تبيّنت منه الحاجة فقالت: يا مولاي لو بعثني كان أصلح لك مما أراك به وإن كنت لأظن أنى لا أصبر عنك، فقصد رجلاً من الأغنياء يعرفها

(١) الخلّة: الخليل يستوى فيه المذكر والمؤنث. والقل: الهجر والبنفس.

(٢) في ديوان للصباية: «المجلى».

ويعرف فضلها فباعها بمائة ألف درهم ، فلما قبض المال وجه بها إلى مولاهما وجزع عليها جزعاً شديداً ، فلما صارت الجارية إلى سيدها نزل بها من الوحشة للأول ما لم تستطع دفعه ولا كتمه ، فباحته به وقالت :

أناي السلاحة فسا أنا صانعُ أمصطبر للبين أم أنا جازعُ
كني حزناً أني على مثل جرة أقاسي نجوم الليل والقلب نازعُ^(١)
فإن يمنعوني أن أبوح بحبه فإني قتيلٌ والعيون دواع

فبلغ سيدها شعرها فدعا بها وأرادها فامتنعت عليه وقالت له : يا سيدي إنك لا تنفع بي ، قال : ولم ذاك؟ قالت : إني لما بي ، قال : وما بك؟ صفيه لي قالت : أجد في أحشائي نيراناً تتوقد ، لا يقدر على إطفائها أحد ، ولا تسأل عما وراء ذلك ، فرجهمي ورق لها وبعث إلى مولاهما فسأل عن خبره ، فوجد عنده مثل الذي عندها ، فأحضره فرد الجارية عاياه ، ووهب له من ثمنها خمسين ألفاً ، فلم تزل عنده مدة طويلة . وبلغ عبد الله بن طاهر خبرهما وهو بخراسان ، فكتب إلى خليفته بالكوفة يأمره أن ينظر فإن كان هذا الشعر الذي ذكر له من قبل الجارية أن يشتريها له بما ملكت يمينه ، فركب إلى مولى الجارية فخبره بما كتب إليه عبد الله بن طاهر ، فلم يجد سيدها بداً من عرضها عليه وهو كاره فأراد الأمير أن يعلم ما عند الجارية فأنشأ يقول :

بديعُ حنينٍ رشيقٌ قد جعلت مئى له ملاذا
فأجابته الجارية :

فما تبوه فزاد عشقاً فأت شوقاً فكان ماذا
فعلم أنها تصلح له ، فاشتراها بمائتي ألف درهم ، فجهزها وحملها إلى عبد الله بن

(١) نازع : اشتد به الحنين والشوق

ظاهر إلى خراسان ، فلما صارت إليه اختبرها فوجدها على ما أراد ، فغابته على عقله ، ويقال : إنها أم محمد بن عبد الله بن طاهر ، ولم تزل ألطافها^(١) وجوائزها تأتي مولاهم الأول حتى ماتت .

وقال عمر بن شبة ، حدثنا أيوب بن عمر الغفاري قال : طلق عبد الله بن عامر امرأته ابنة سهل بن عمرو ، فقدمت المدينة ومعها ابنة لها ، ومعها وديعة جوهر استودعها إياه ، فتزوجها الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ثم أراد ابن عامر الحج فأتى المدينة فلقى الحسن فقال : يا أبا محمد إن لي ابنة سهل حاجة فأحب أن تأذن لي عليها ، فقال الحسن : البسي ثيابك فهذا ابن عامر يستأذن عليك ، فدخل عليها فسألها وديعته فجاءته بها عليها خاتمه . فقالت لها : خذي ثلثها فقالت : ما كنت لأخذ على أمانة انتممت عليها شيئاً أبداً ، ثم أقبل عليها ابن عامر فقال : إن ابنتي قد بلغت فأحب أن تحلّي يدي وبينها ، فبكت وبكت ابنتها ، فرق ابن عامر فقال الحسن : فهل لكما ؟ فوالله ما من محلل خير مني قال : فوالله لا أخرجها من عندك أبداً ، فكفلها حتى مات .

وذكر الزمخشري في « ربيع الأبرار » أن زُبَيْدَةَ بنت أبي جعفر^(٢) قرأت في طريق مكة على حائط :

أما في عباد الله أو في إمانه كريم يُجَلِّي^(٣) الهم عن ذاهب العقل
له مقلّة أما المآقي فقرحة وأما الحشا فالنار منه على رجل^(٤)

(١) ألطاف جمع لطف : الهدايا .

(٢) كذا . . وهي بنت جعفر بن أبي جعفر .

(٣) يجلي : يكشف .

(٤) المآقي جمع مائة : طرف العين مما يلي الأنف وهي مجرى الدمع . وعلى رجل : يعني على أشدها .

فذكرت أن تحتمل لقائهما حتى تجمع بينهما وبين من يحبه ، قالت : فإنني
لأبصر دليلاً إذ سمعت من ينشدها ، فاستدعيت به فزعم أنه قالها في بنت عم له
وقد حلف أهلها أن لا يزوجه منده ، فوجهت إلى الحى وما زالت تبذل
لهم المال حتى زوجه . وإذا المرأة أعشق من الرجل ، فسكانت زبيدة
تعدّه في أعظم حسناتها وتقول : ما أنا بشيء أسرتنى بجمعى بين ذلك
الفتى والفتاة .

قال الزمخشري : وهوى أحمد بن أبي عثمان الكاتب جارية لزبيدة
اسمها « نعم » حتى مرض وقال فيها أبياتاً منها :
وإني لأرضيني الممر بياها وأفنع منها بالشتيمة والزجر
فوهبتها له .

وذكر الخرائطي أنه كان لبعض الخلفاء غلام وجارية من غلمانته وجواريه
متحابين ، فكتب الغلام إليها يوماً يقول :

ولقد رأيتك في المنام كأنما عاطينى من ريق فيك البارد
وكان كفك في يدي وكأننا بنذا جميعاً في فراش واحد
فطقت يومى كله مستراقداً لأراك في نومي ولست براقد
ثم اتبعت ومعهما كلاًهما بيدي اليمين وفي يمينك ساعدي
فأجابته الجارية :

خيراً رأيت وكل ما أبصرته سنأله متى برغم الحاسد
إني لأرجو أن تكون معانق فتبيت منى فوق ثدي ناهد
وأراك بين خلاخلى ودماجلي وأراك بين ترائبي وبجاسدى^(١)

(١) خلاخلى جمع خلاخل : الخلخال ، وثوب خلخال : رقيق . ودماجلي جمع =

وَنَبَيْتَ الْلُطْفَ عاشِقَيْنِ تَعَامِلِيْنَا طرف الحديث بلا مخافة راصد

فبلغ الخليفة خبرهما فأنكحهما وأحسن إليهما على شدة غيرة .

وقال أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله تعالى : سمع المهلب فتي يتغنى بشعر
في جلدية له فقال المهلب :

لَعَمْرِي إني المحبِّينَ راحمٌ وإني بسائر العاشقين حقيق

سأجمع منكم شمل وُدٍّ مبدِّد وإني بما قد ترجو أن خليق

ثم وهبها له ومعهما خمسة آلاف دينار .

وقال الخرائطي : كان رجلٌ نحاسٌ عنده جاريةٌ لم يكن له مالٌ غيرها ،
وكان يعرضها في المواسم فتغالي الناس فيها حتى بلغت مبلغاً كثيراً من المال وهو
يطلب الزيادة ، فعلقها^(١) رجلٌ فقيرٌ فكاد عقله أن يذهب ، فلما بلغه ذلك
وهبها له ، فعوتب في ذلك فقال : إني سمعت الله تعالى يقول : (وَمَنْ أَحْيَاهَا
فَسَكَاتُهَا أَخْيَى النَّاسِ جَمِيعًا)^(٢) أفلا أحيي الناس جميعاً ؟

وقال علي بن قريش الجرجاني :

شكوتُ بلاءٍ لا أطيقُ احتماله وقلبي مطيعٌ للهوى غيرُ دافع

فأقسم متركى عنابك عن قلِّي ولكن لعلني أنه غيرُ نافع

وإني متى لم ألزم الصبر طائفاً فلا بدُّ منه مكرهاً غيرَ طائع

= دملج . ودملوج : حلية تحيط بالمعصد . والترائب جمع تريبة : عظام الصدر مما
على الترقوتين وموضع القلادة . ومجاسد جمع مجسد : الثوب الملامس للجسد .
وجسد به : لصق .

(١) علقها : أحبها .

(٢) الآية ٣٢ . سورة المائدة .

إذا أنت لم يعطفك إلا شفاعتي فلا خير في ودِّ يكونسب بشافع
 وكان أبو السائب الخزومي أحد القراء والفقهاء ، فرؤى متعلِّقاً بأستار
 الكعبة وهو يقول : اللهم ارحم العاشقين ، واعطف عليهم قلوبَ المعشوقين .
 فقيل له في ذلك فقال : الدعاء لهم أفضلُ من عُمرَةٍ من الجعرانة^(١) .
 وذكر أحمد بن الفضل الكاتب أن غلاماً^(٢) وجاريةً كانا في كُتّاب
 فهويها الغلامُ ، فلما كان في بعض أيامه في غفلةٍ من الغلمان كتب في لوح
 الجارية :

ماذا تقولين فيمن شَفَّه سَقَمٌ من طول حبِّك حتى صار حيراناً
 فلما قرأته الجارية أغرورقت عيناها بالدموع رحمةً له وكتبت تحته :

إذا رأيت محباً قد أضرَّ به طولُ الصبابة أوليتناه إحساناً

وذكر الهيثم بن هدي ، عن محمد بن زياد أن الحارث بن السليل الأزدي
 خرج زائراً لعلقة بن حزم^(٣) الطائي وكان حليفاً له ، فنظر إلى ابنة له تدعى
 الرباب وكانت من أجل النساء ، فأعجب بها وعشقاها عشقاً حال بينه وبين الانصراف
 إلى أهله ، فقال لعلقة : إني أتيتك خاطباً وقد يُنكحُ الخاطب ، ويدرك
 الطالب ، ويُمنَحُ الراغب قال : كفوا كريم فأقم ننظر في أمرك ، ثم انكفأ^(٤)
 إلى أم لجارية فقال لها : إن الحارث سيّد قومه حسباً ومنصبياً ويتأفلا بنصرته
 من عندنا إلا بحاجته ، فشاوري ابنتك وأديرها عما في نفسها ، فقالت لها : أي

(١) أنظر الصفحة ١٤٤ .

(٢) هو علي بن الجهم .

(٣) اسمه علقمة بن خصفة واسم ابنته الزباء . كما ذكره الميسداني في أمثاله .

(٤) انكفأ : رجع .

بُذِيَّة ، أئى الرجال أعجب إليك ؟ الكهلُ الجحجاح ^(١) ، المفضل الميَّاح ^(٢) ، أم
الفتى الوضَّاح ^(٣) ، السلون العلامَّاح ؟ قالت : الفتى الوضَّاح . فقالت : إن الفتى
يُغيرك ^(٤) ، وإن الشيخ يُميرك ^(٥) ، وليس الكهلُ الفاضل ، الكثير النائل ^(٦) ،
كالحديث السن ، الكثير المَنَّ . فقالت : يا أمَّاه أحبُّ الفتى ، كعب الرِّعاء أنيق
الكتَّلا . قالت : يا بُذِيَّة ، إن الفتى شديد الحجاب ، كثير العتاب . قالت : يا أمَّاه
أخشى من الشيخ أن يدنس ثيابى ، ويُبلى شَبَابى ، ويشمت بى أترابى . فلم تزل
بها الأُم حتى غلبتها على رأيها فتزوَّجها الحارث على خمسين ومائة من الإبل وخادم
وألف درهم ، فبنى بها وكانت عنده أحبَّ شىء إليه ، فارتحل بها إلى أهله ، فإنه
لجالس يوماً بفناء مِظَلَّتته وهى إلى جانبه إذ أقبل فتِيَّةٌ يَعْتَلِجون ^(٧) الصراع
فتنفست الصَّعداء ، ثم أرسلت عينيها بالبكاء فقال ما ييكيك ؟ فقالت : مالى
وللشيوخ ، الناهضون كالفرخ ^(٨) ، فقال : ثكلتك أمك قد تجوع الحرَّة ولا
تأكل بثديها ، فسارت مثلاً ، أى لا تكون ظئراً ^(٩) ، وكان أوَّل من نطق
بها ، ثم قال : أما وأبيك لرب غارةٍ شهدتُها ، وسبئية أردقتها ، وخرة شربتُها ،

(١) الجحجاح : السيد السمع الكريم .

(٢) ماح فى مشيته : مال وتبخر ، وماح فلاناً : أعطاه .

(٣) الوضاح صيغة مبالغة : الحسن الوجه البسام . ورجل وضاح الحسب :
ظاهره ونفيه ومبعضه .

(٤) يغيرها : يجعلها تغار بالزواج وغيره .

(٥) يميرك : يهوى لك طيب العيش ، والميرة : الطعام يجمع للسفر ونحوه .

(٦) النائل : الكثير العطاء .

(٧) اعتلج القوم : اقتتلوا واصطرعوا .

(٨) الفرخ : ولد الطائر وكل صغير من الحيوان والنبات والشجر ومن
الرجال الذليل الضعيف .

(٩) الظئر : المرضعة لغير ولدها .

الحق بأهلك فلا حاجة لي فيك ، ثم أنشأ يقول :

وعيرتُ أن رأيتُ لابساً كبيراً وغاية النفس بين الموت والكبر
فإن بقيتُ رأيتُ الشيبَ راعمةً وفي التفرُّق ما يقضى من العبر
وإن يكن قد علا رأسي وغيره صرْفُ الزمان^(١) وتغييرُ من الشعر
فقد أروح للذاتِ الفتى جذلاً وهمتي لم تُشبْ فاستخبري أثرى^(٢)

(١) صرف الزمان : حدثاته ونوائمه .

(٢) جذلاً : فرحاً ونشيطاً . لم تشب : لم يصبها الوهن .

الباب السادس والعشرون

في ترك المحبين أدنى المحبوبين رغبة في أحدهما

هذا باب لا يدخل فيه إلا النفوس الفاضلة الشريفة الأبيسة التي لا تنفع بالدُّون ، ولا تبسح الأعلى بالأدنى بيع العاجز المنبون ، ولا يملكها لَطْعُ جالٍ مُمَشٍّ^(١) على أنواع بن القبايح ، كما قال بعض الأعراب وقد نظر إلى امرأة مبرقة :

إذا بارك الله في ملبسٍ فلا بارك الله في البرقع
يريك عيون المها مستبلاً ويكشف عن منظرٍ في أشنع

وقال الآخر :

لا يفرُّ نكّ ماترى من نقابٍ إن تحت النقاب داء دويّا
فالنفس الأبية لا ترضى بالدُّون . وقد عاب الله سبحانه أقواماً استبدلوا طعاماً بطعام أدنى منه ، فنعى ذلك عليهم وقال : (أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ)^(٢) ، وذلك دليل على وضاعة النفس وقلة قيمتها .

وقال الأصمعي : خلا رجل من الأعراب بامرأة فهم بالريبة ، فلما تمكّن منها تنحى شلياً وجعل يقول : إن امرءاً باع جنة عرضها السموات والأرض يفتر^(٣) ما بين رجلَيْك لقليل البصر بالمساحة .

(١) ممش : يحقق ما فيه من عيوب .

(٢) الآية ٦١ : سورة البقرة .

(٣) الفتر : ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة إذا فتنهما .

وقال أبو أسماء : دخل رجلٌ غَيْضَةً^(١) فقال : لو خلوتُ هاهنا بمهصيةٍ من كان يراني ؟ فسمع صوتاً ملاً ما بين لاتبى^(٢) الغيضة (أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)^(٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هيثم - هو ابن خارجة - حدثنا إسماعيل ابن عياش ، عن عبد الرحمن بن عدي البهراني ، عن يزيد بن ميسرة قال : إن الله تعالى يقول : أيها الشاب التاركُ شهوته لي ، المتبذل^(٤) شبابُه من أجل ، أنت عندي كبعض ملائكتي .

وذكر إبراهيم بن الجُنَيْد أن رجلاً راود امرأة عن نفسها فقالت له : أنت قد سمعت القرآن والحديث فأت أعلم قال : فأغلق الأبواب فأغلقها ، فلما دنا منها قالت : بقي بابٌ لم أغلقه قال : أي باب ؟ قالت : الباب الذي بينك وبين الله ، فلم يتعرض لها .

وذكر أيضاً عن أعرابي قال : خرجتُ في بعض ليالي الظلم فإذا أنا بجارية كأنها علم^(٥) فأردتها عن نفسها فقالت : ويحك أما كان لك زاجرٌ من عقل ، إذ لم يكن لك ناهٍ من دين ؟ فقلت : إنه والله ما يرانا إلا الكواكب ، قالت : فأين مُكَّو كِبُها ؟

وجلس زياد مولى ابن عياش رضى الله عنهما إلى بعض إخوانه فقال له :

-
- (١) الغيضة : الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف .
 (٢) اللابة : الحرة والموضع ، ولايتا المدينة : حرتان تكتنفانها . وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم حرم ما بين لاتبى المدينة .
 (٣) الآية ١٤ : سورة الملك .
 (٤) المتبذل شبابُه : الذي حرم نفسه من ملذاته .
 (٥) العلم : الخجل : وشيء منصوب يهتدى به في الطريق .

يا عبيد الله ، فقال له : قل ما تشاء ، قال : ما هي إلا الجنة أو النار ؟ قلت : نعم
قال : وما بينهما منزل ينزله العباد ؟ قلت : لا والله فقال : والله إن نفسي ، لنفسي
أضين بها على النار ، والصبر اليوم عن معاصي الله خير من الصبر على الأغلال ،
وقال وهب بن منبّه : قالت امرأة العزيز ليوסף عليه السلام : ادخل معي
القيظون — تعنى السر — قال : إن القيظون لا يسترني من ربّي .

وقال اليزيدي : دخلت على هارون الرشيد فوجدته مكباً على ورقة ينظر
فيها مكتوبة بالذهب ، فلما رأيته تبسم قلت : فائدة أصباح الله أمير المؤمنين ؟
قال : نعم وجدت هذين البيتين في بعض خزائن بني أمية فاستحسنتهما ، فأضفت
إليهما ثالثاً ، فقال : ثم أنشدني :

إذا مدّ بابُ عنك من دون حاجة قد غصّ لأخرى يفتتح لك بابها
فإن قراب البطن يكفيك ملاءه ويكفيك سوءات الأمور اجتنابها
فلا تك مبذالاً لدينك في اجتناب ركوب المعاصي يجتنبك عقابها
وقال أبو العباس الناشيء :

إذا المرء يحى نفسه حلّ شهوة لصحّة أيّام تبيد وتنفد
فما باله لا يحتسب من حرامها لصحّة ما يبقى له ويؤلّد
وقيل : إن عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه كان ينشد هذين البيتين :
إقصد^(١) النفس بالكفاف وإلا طلبت منك فو ما يكفيها
إنما أنت طول عمرك ما عمّرت في الساعة التي أنت فيها
ومن أحسن شعر العرب وكان عمرو بن العاص يتمثل بهما :

(١) إقصد النفس : امنعها وكفها . وقصد فلاناً عن الشيء : كفه ومنعه .

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَسْطِرْكَ طَعَامًا أَحَبَّهِ . وَلَمْ يَنْتَهَ قَلْبًا غَاوِيًا حَيْثُ يَمَّا^(١)
 قَضَى وَطَرًا مِنْهُ وَغَادِرُ سُنْبُوبَةٍ إِذَا ذُكِرَتْ أَمْثَالُهَا تَمَلُّ الْفَمَا
 وَقَالَ شُعْبَةُ : عَنْ مَنْصُورٍ ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ ، كَلَّمَ رَجُلًا مِنَ الْعُبَّادِ امْرَأَةً فَلَمْ يَزَلْ
 بِهَا حَتَّى وَضَعَ يَدَهُ عَلَى فَخْذِهَا فَانْطَلَقَ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى النَّارِ حَتَّى نَشَتْ^(٢) .
 وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ عَنْ أَبِيهِ : كَانَ عَابِدًا فِي صَوْمَةٍ يَتَعَبَّدُ فَأَشْرَفَ ذَاتَ يَوْمٍ
 فَرَأَى امْرَأَةً فَمُتَنَ بِهَا ، فَأَخْرَجَ إِحْدَى رِجْلَيْهِ مِنَ الصَّوْمَةِ يَرِيدُ النُّزُولَ إِلَيْهَا ،
 ثُمَّ فَكَّرَ وَادَّكَرَ فَأَنَابَ ، فَأَرَادَ أَنْ يَعِيدَ رِجْلَهُ إِلَى الصَّوْمَةِ فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا أُدْخِلُ
 رِجْلًا خَرَجَتْ تَرِيدُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ فِي صَوْمَعَتِي أَبَدًا ، فَتَرَكَهَا خَارِجَةً مِنَ الصَّوْمَةِ
 فَأَصَابَهَا الثَّلَاجُ وَالْبَرْدُ وَالرِّيحُ حَتَّى تَقَطَّعَتْ .
 وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : مَنْ كَانَ لَهُ وَاعِظٌ مِنْ قَلْبِهِ زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا وَجَلَّ عِزًّا ،
 وَالذَّلُّ فِي طَاعَةِ اللَّهِ أَقْرَبُ مِنَ الْغَرِّ فِي مَعْصِيَتِهِ .
 وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ : لَقِيتُ أَبَا نُؤَاسٍ فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ فَعَذَلْتُهُ^(٣) وَقُلْتُ لَهُ :
 أَمَا آَنَ لَكَ أَنْ تَرَعَوِي^(٤) وَتَنْزِجِرَ ؟ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى وَقَالَ :
 أَتُرَانِي يَا عَتَاهِي^(٥) تَارِكًا تِلْكَ الْمَسَاحِي
 أَتُرَانِي مُفْسِدًا بِالنَّاسِكِ عِنْدَ الْقَوْمِ جَاهِي
 فَلَمَّا أَلْحَجْتُ عَلَيْهِ فِي الْعَذْلِ أَنْشَأَ يَقُولُ :
 لَا تَرْجِعِ الْأَنْفُسُ عَنْ غَيِّهَا مَا لَمْ يَكُنْ مِنْهَا لَهَا زَاجِرٌ

(١) يَم : قصد .

(٢) نَشَتْ : جفت واحترقت .

(٣) عَذَلَهُ : لَامَهُ .

(٤) تَرَعَوِي : تَكْفٍ وَتَرْتَدَعُ .

(٥) الْعَتَاهِي : نَاقِصُ الْعَقْلِ وَالْإِهْلَاقِ . وَالْعَتَاهِيَةُ : ضَلَالُ النَّاسِ .

فوددت أني قلت هذا البيت بكل شيء فلتته .

وقال ابن السكك عن اسراقة كانت تسكن البادية : لو طالعت قلوب المؤمنين بفكرها ما دُخر لها في خُجُب النيوب من خير الآخرة ، لم يَصِفْ لهم في الدنيا عيشٌ ، ولم تَقَرَّ لهم عين ، وقال ضيقتهم لرجل : إن حُبَّه عز وجل شغل قلوب محبته عن التلذذ بمحبة غيره ، فليس لهم في الدنيا مع محبته عز وجل لذة تداني محبته ، ولا يأملون في الآخرة من كرامة الثواب أكبر عندهم من النظر إلى وجه محبوبهم ، فسقط الرجل منشيئاً عليه .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث عبد الرحمن بن جُبَيْر بن نُفَيْر ، عن أبيه عن الثوراس بن سيمان رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَيْهِ الصُّرَاطُ سُورَانِ فِي السُّورَيْنِ أَبْوَابٌ مُفْتَتَحَةٌ وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ وَعَلَى رَأْسِ الصُّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصُّرَاطَ وَلَا تُمَرِّجُوا ، وَدَاعٍ يَدْعُو قَوْى الصُّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ أَحَدٌ فِتْحَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ الْأَبْوَابِ قَالَ : وَيَمُحِكَ لَا تَفْتَحُهُ فَإِنَّكَ إِنْ فَتَحْتَهُ نَاجَيْتُهُ ، فَالصُّرَاطُ الْإِسْلَامُ ، وَالسُّتُورُ الْمُرْخَاةُ حُدُودُ اللَّهِ ، وَالْأَبْوَابُ الْمُنْفَتَحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ ، وَالْدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصُّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالْدَّاعِي مِنْ قَوْى الصُّرَاطِ دَاعِيَةُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ » ^(١) .

وقال حنبل بن مَعْدَان : ما من عبد إلا وله عيان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا ، وعينان في قايه يبصر بهما أمر الآخرة ، فإذا أراد الله ببصيرته فتح عينيه اللتين في قايه فأبصر بهما ما عده الله بالغيب ، وإذا أراد الله به غير ذلك تركه على ما هو فيه ، ثم قرأ : (أَمْ عَلَى نَسَمٍ آتَيْنَا لَهَا) ^(٢) .

(١) المنية : الساجية والحمة . ولا تمرجوا : لا تهلوا عنه أو تركوه

وتناحه : تدخله . (٢) الآية ٢٤ . سورة محمد .

وفي الترمذى عنه صلى الله عليه وسلم « الْكَافِرُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي » :
وفي المسند من حديث فضالة بن عبيد عن النبي صلى الله عليه وسلم :
« الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللَّهِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ » .

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا عبد العزيز بن مسلم ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب رضى الله عنه قال : « من أصبح وأكثر^(١) همه غير الله فليس من الله » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عطاء بن يسار قال : قال موسى صلى الله عليه وسلم : يَا رَبِّ مَنْ أَهْلَكَ الَّذِينَ تَظْلِمُ فِي ظِلِّ عَرْشِكَ؟ قَالَ : هُمُ الْبَرِيَّةُ أَيْدِيهِمْ ، الطَّاهِرَةُ قُلُوبِهِمْ الَّذِينَ يَتَحَابُّونَ بِجَلَالِي ، الَّذِينَ إِذَا ذُكِرْتُ ذُكِرُوا بِي ، وَإِذَا ذُكِرُوا بِي ذُكِرْتُ بِذِكْرِهِمْ ، الَّذِينَ يُسْبِغُونَ الْوُضُوءَ فِي الْمَسْكَاةِ ، وَيُنْبِئُونَ إِلَى ذِكْرِي كَمَا تُنْبِئُ النَّسُورُ إِلَى وَكُورِهَا ، وَيَكْتَلِفُونَ بِحَبِّي كَمَا يَكْتَلِفُ الصَّبِيُّ بِحَبِّ النَّاسِ ، وَيَغْضَبُونَ لِحَارَمِي إِذَا اسْتَحِلَّتْ كَمَا يَغْضَبُ الْفَرَسُ إِذَا حَرَبَ^(٢) » .

وقال أحمد : حدثنا إبراهيم بن خالد ، حدثني عبد الله بن يحيى قال : سمعت وهب بن منبته يقول : قال موسى عليه السلام : « أَيُّ رَبِّ أَيُّ عِبَادِكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ : مَنْ أَذْكَرُ بَرُؤِيَّتِهِ » .

(١) أورده السيوطى فى الجامع الصغير مرفوعاً عن ابن مسعود وقال : رواه الحاكم .

(٢) حرب : هيج أو طعن أو سلب . والحرب بالنفع : الويل والهلاك . وفى القاموس المحيط للفيروزابادى : حرب كفرح : كلب واشتد غصبه فهو حرب .

وقال أحمد : حدثنا سيار ، حدثنا جعفر ، حدثنا هشام الدستوائي قال : بلغني أن في حكمة عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم : « تعملون للدنيا وأنتم تُرزقون فيها بغير عمل ، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا تُرزقون فيها إلا بالعمل ، ونحكم علماء السوء ، الأجر تأخذون والعمل تُضيعون ، توشكون أن تخرجوا من الدنيا إلى ظلمة القبر وضيقه ، والله عز وجل نهاكم عن المعاصي كما أمركم بالصوم والصلاة ، كيف يكون من أهل العلم مَنْ دنياه آثرُ عنده من آخرته وهو في الدنيا أعظم رغبة ؟ كيف يكون من أهل العلم مَنْ مَسِيرُهُ إلى آخرته وهو مقبلٌ على دنياه ، وما يضره أشهى إليه مما لا يضره ؟ كيف يكون من أهل العلم من اتهم الله عز وجل في قضائه فليس يرضى بشيء أصابه ؟ كيف يكون من أهل العلم من طلب العلم ليتحدث به ولم يطلبه ليعمل به ؟ » .

وقال عبد الله بن المبارك ، عن معمر ، قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، قال : أو لأعب خُلِقْنَا ؟

وقال أحمد : حدثنا أبو بكر الحنفي ، حدثنا عبد الحميد بن جعفر ، حدثني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أن أمة فاطمة حدثته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إِنِّ مِنْ شِرَارِ أُمَّتِي الَّذِينَ غَضُوا بِالنَّعِيمِ ، الَّذِينَ يَطْلُبُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ ، وَأَلْوَانَ الثِّيَابِ ، وَيَتَشَدَّقُونَ بِالْكَلَامِ) .

وقال أحمد : حدثنا أبو قطن ، حدثنا شعبة ، عن أبي مسleme^(١) ، عن

(١) الذي يروى عن أبي لىزة ويروى عنه شعبة ، هو أبو مسleme سعيد بن يزيد . كما جاء في تهذيب التهذيب .

أبي نصرته قال: قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأبي موسى: يا أبا موسى شوقنا إلى ربنا ، قال : فقرأ . فقالوا : الصلاة : فقال عمر : أولسنا فى الصلاة ؟ .

فصل

وملاكُ الأمرِ كله الرغبةُ فى الله وإرادة وجهه والتقربُ إليه بأنواع الوسائل ، والشوقُ إلى الوصول إليه وإلى لقاءه ، فإن لم يكن للعبد همةٌ إلى ذلك فالرغبة فى الجنة ونعيمها وما أعدَّ الله فيها لأوليائه ، فإن لم تكن له همةٌ عاليةٌ تطالبه بذلك فخشية النار وما أعدَّ الله فيها لمن عصاه ، فإن لم تطاوعه نفسه بشيء من ذلك فليعلم أنه خلق للجحيم لا للنعيم ، ولا يقدر على ذلك بعد قدر الله وتوفيقه إلا بمخالفة هواه ، فهذه فصول أربعة هن : ربيعُ المؤمن وصيفه وخريفه وشتاؤه ، وهن منازلُه فى سيره إلى الله عزَّ وجلَّ ، وليس له منزلةٌ غيرها ، فأما مخالفةُ الهوى فلم يجعل الله للجنة طريقاً غيرَ مخالفتِهِ ، ولم يجعل للنار طريقاً غيرَ متابعتِهِ ، قال الله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ طَغَى . وَآتَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْآتَاوَى . وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْآتَاوَى)^(١) وقال تعالى : (وَلَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ)^(٢) قيل هو العبد يهوى المعصية فيذكر مقامَ رَبِّه عليه فى الدنيا ، ومقامَه بين يديه فى الآخرة فيتركها لله .

وقد أخبر سبحانه أن اتباع الهوى يُضل عن سبيله ، فقال الله تعالى :

(١) الآيات ٣٧ - ٤١ سورة الفاتحات .

(٢) الآية ٤٦ . سورة الرحمن .

(يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) ^(١) ثم ذكر مآل الضالين عن سبيله ومصيرهم فقال: (إِنَّ الَّذِينَ يُضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) ^(٢) وأخبر سبحانه أن باتباع الهوى يطبع على قلب العبد فقال: (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ) ^(٣) وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن العاجز هو الذي اتبع هواه وتمنى على الله . وذكر الإمام أحمد من حديث راشد بن سعد ، عن أبي أمامة الباهلي رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَا نَحْتَ ظِلَّ السَّمَاءِ إِلَهَ يُعْبَدُ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ هَوَى مُتَّبِعٍ) .

وذكر من حديث جعفر بن حيان ، عن أبي الحكم ، عن أبي بركة الأسدي رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ شَهَوَاتُ النَّفْسِ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمَضَلَاتُ الْهَوَى) . وفي نسخة كثير ابن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني ، عن أبيه ، عن جده رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي حُكْمُ جَائِرٍ ، وَزَلَّةُ عَالِمٍ ، وَهَوَى مُتَّبِعٍ) ^(٤)

(١) الآية ٢٦ . سورة ص .

(٢) الآية ٢٦ . سورة ص .

(٣) الآية ١٦ سورة محمد .

(٤) ورد في الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى بلفظ : « إِنِّي أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ ثَلَاثٍ : مِنْ زَلَّةِ عَالِمٍ ، وَمِنْ هَوَى مُتَّبِعٍ ، وَمِنْ حُكْمِ جَائِرٍ » ، وقال : رواه البزار والطبراني من طريق كثير بن عبد الله وهو رواه ، وقد حسنها الترمذي في موضع وصحها في موضع فأنكر عليه ، واحتج بها ابن خزيمة في صحيحه .

وقيل لبعض الحكماء : أى الأصحاب أبرُّ ؟ قال : العمل الصالح ، قيل : فأىُّ شيء أضرُّ ؟ قال : النفس والهوى . وقال بعض الحكماء : إذا اشتبه عليك أسران فانظر أقرَّ بهما من هوائك فاجتنبه . وأتى بعض الملوك بأسير عظيم الجرم فقال : لو كان هواى فى العفو عنك لخالفت الهوى إلى قتلك ، ولكن لما كان هواى فى قتلك خالفته إلى العفو عنك . وقال الهيثم بن مالك الطائى : سمعت النعمان بن بشير يقول على المنبر : إن للشيطان فخوراً ومصالي^(١) وإن من مصالى الشيطان وفخوه البطر بأنعم الله ، والفخر بإعطاء الله ، والكبرياء على عباد الله ، واتباع الهوى فى غير ذات الله .

وفى المسند وغيره من حديث قتادة ، عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات ، وثلاث منجيات ، فالمهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه ، والمنجيات : تقوى الله تعالى فى السر والعلانية ، والعدل فى الغضب والرضى ، والقصد فى الفقر والغنى » ،

وفى جامع الترمذى من حديث أسماء بنت عميس رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « بثس العبدُ عبدٌ تجبرَ واعْتَدَى ، ونسيَ الجبارَ الأعلى . بثس العبدُ عبدٌ تَخَيَّلَ واختال ، ونسيَ الكبيرَ المتعال . بثس العبدُ عبدٌ سهاَ ولها ، ونسيَ المقابرَ والنيل . بثس العبدُ عبدٌ بنى وعَتَا ، ونسيَ المبدأَ والمنتهى . [بثس العبدُ عبدٌ يَخْتَلِ الدُّنْيَا بالدِّينِ] . بثس العبدُ عبدٌ يَخْتَلِ الدِّينَ بالشُّبُهَاتِ ، بثس العبدُ عبدٌ طَمَعَ

(١) جمع مصلاة : وهى الشرك .

يَقُودُهُ . بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ هَوَىٰ يُضِلُّهُ . [بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ رَغَبَ يَذِلُّهُ] ^(١) وقد أقسم النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يوم من العبد حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به ، فيكون هواه تابعاً لا متبوعاً ، فمن اتبع هواه فهو متبوع له ، ومن خالف هواه لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فهو تابع له ، فالمتبوع هو هواه تابع له ، والمتابع الفاجر هو هواه متبوع له .

وقد حكم الله تعالى لتابع هواه بغير هدى من الله أنه أظلم الظالمين ، فقال الله عز وجل : (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) ^(٢) وأنت تجد تحت هذا الخطاب أن الله لا يهدي من اتبع هواه ، وجعل سبحانه وتعالى للمتبع قسمين لا ثالث لهما : إما ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . وإما الهوى . فمن اتبع أحدهما لم يمكنه اتباع الآخر ، والشيطان يُطَايَفُ بالعبد من أين يدخل عليه فلا يجد عليه مدخلا ولا إليه طريقاً إلا من هواه . فذلك كان الذي يخالف هواه يفرق ^(٣) الشيطان من ظله ، وإنما تطاق مخالفة الهوى بالرغبة في الله وثوابه ، والخشية من حجابهِ وعذابه . ووجد حلالة الشفاء في مخالفة الهوى ، فإن متابعتَه الداء الأكبر ، ومخالفتَه الشفاء الأعظم . وقيل لأبي القاسم الجنيد : متى تنال النفوس منهاها ؟ فقال : إذا صار دأؤها دواها ، فقيل له : ومتى يصير دأؤها دواها ؟ فقال : إذا خالفت هواها ، ومعنى قوله : يصير

(١) الزيادة من الترمذي ، وفيه قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده بالقوى .

(٢) الآية ٥٠ . سورة القصص .

(٣) يفرق : يفزع ويخاف .

داؤها دواها أن داءها هو الهوى ، فإذا خالفته تداوت منه بمخالفته . وقيل : إنما سُمِّيَ هَوًى لأنه يهوى بصاحبه إلى أسفل السافلين . والهوى ثلاثة أرباع الهوان ، وهو شارع النار الأكبر كما أن مخالفته شارع الجنة الأعظم . وقال أبو ذؤلف العجلي :

واسـوأنا لفتى له . أدبٌ يُضحي مـواه قاهراً أدبٌ
يأتى الدنية وهو يعرفها فيشِينُ عِرْضاً صائناً أربّة
فإذا أرعوى عادت بصيرته فبكى عَلَى الحين^(١) الذى سَلِمَته
وقال ابن المرتفق الهدلى :

أين لى ما ترى والرءى يأتى عزيمته ويغلبه هواه
فيعى ما يرى فيه عليه ويحسب من يراه لا يراه

فصل

وأما الرغبة في الله وإرادة وجهه ، والشوق إلى لقائه فهى رأس مال العبد وملاك أمره وقوام حياته الطيبة ، وأصل سعادته وفلاحه ونعيمه وقرّة عينه ، ولذلك خلق . وبه أمر ، وبذلك أرسلت الرسل ، وأنزلت الكتب ، ولا صلاح للقلب ولا نعيم إلا بأن تكون رغبته إلى الله عز وجل وحده ، فيكون هو وحده مرغوبة ومطلوبة ومراده كما قال الله تعالى : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)^(٢) وقال تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ

(١) الحين : الوقت طالع أو قصر .

(٢) آخر سورة الانشراح .

اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ^(١).

والراغبون ثلاثة أقسام : راغب في الله ، وراغب فيما عند الله ، وراغب عن الله . فالجيب راغب فيه ، والمائل راغب فيما عنده ، والراضى بالله نيا من الآخرة راغب عنه . ومن كانت رغبته في الله كفاه الله كل مهم^٢ ، وتولاه في جميع أموره ، ودفع عنه ما لا يستطيع دفعه عن نفسه ، ووقاه وقاية الوليد ، وصانه من جميع الآفات . ومن آثر الله على غيره آثره الله على غيره . ومن كان لله كاف كان الله له حيث لا يكون لنفسه ، ومن عرف الله لم يكن شيء أحب إليه منه ، ولم تبق له رغبة فيما سواه ، إلا فيما يقربه إليه ويعينه على سفره إليه .

ومن علامات المعرفة الهيبة ، فنكلما ازدادت معرفة العبد بربه ازدادت هيبة له وخشيته إياه كما قال الله تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)^(٣) أي العلماء به . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَنَا أَعْرِفُكُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً »^(٤) ومن عرف الله صفا له العيش ، وطابت له الحياة ، وهابه كل شيء ، وذهب عنه خوف المخلوقين ، وأنس بالله ، واستوحش من الناس ، وأورثته المعرفة الحياء من الله ، والتعظيم له ، والإجلال والمراقبة والمحبة والتوكل عليه ، والإنابة إليه والرضا به والتسليم لأمره . وقيل للجنيد رحمه الله تعالى :

(١) الآية ٥٩ . سورة النوبة .

(٢) الآية ٢٨ . سورة فاطر .

(٣) من حديث رواه البخاري بلفظ : « إِنِّي لَا أَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً ، وَفِي مُسْلِمٍ بِلَفْظٍ : « لَا نَا أَعْلَمُهُمْ ، الخ ،

إن ها هنا أقواماً يقولون : إنهم يصلون إلى البرِّ بترك الحركات ، فقال : هؤلاء تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندى عظيم ، والذي يزنى ويسرق أحسن حالاً من الذى يقول هذا ، فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله ، وإلى الله رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البرِّ شيئاً .

وقال : لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤه البرُّ والفاجر ، وكالمطر يسقى ما يحب وما لا يحب .

وقال يحيى بن معاذ : يخرج العارف من الدنيا ولا يقضى وطره من شيتين : بكأؤه على نفسه ، وشوقه إلى ربه . وقال بعضهم : لا يكون العارف عارفاً حتى لو أعطى ملك سليمان لم يشغله عن الله طرفة عين . وقيل : العارف أنس بالله فاستوحش من غيره ، وافتقر إلى الله فأغناه عن خلقه ، وذللَّ لله فأعزَّه فى خلقه .

وقال أبو سليمان الداراني : يُمْتَحُّ للعارف على فراشه مالا يفتح له وهو قائم يصلى .

وقال ذو النون : لكل شيء عتوبة ، وعتوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله .

وبالجملة فحياة القلب مع الله لا حياة له بدون ذلك أبداً ، ومتى واطأ^(١) اللسان القلب فى ذكره ، وواطأ القلب مراد حبيبه منه ، واستقل له الكثير من قوله وعمله ، واستكثر له القليل من برِّه واطقه ، وعانق الطاعة وفارق الخالفة ، وخرج عن كلة لمحبه فلم يبق منه شيء ، وامتلاً قلبه بتعظيمه وإجلاله وإيثار رضاه ، وعزَّ عليه الصبرُ عنه ، وعدم القرار دون ذكره والرغبة إليه

(١) واطأ : وافق وطابق .

والاشتياق إلى لقائه ، ولم يجد الأُنس إلا بذكره ، وحفظ حدوده ، وآثره على غيره فهو الحب حقاً .

وقال الجنيد : سمعت الحارث المحاسبى يقول : المحبةُ ميلُك إلى الشيء بكلِّيتك . ثم إيسارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سرّاً وجهرّاً ، ثم علمك بتقصيرك في حبه . وقيل : المحبةُ نارٌ في القلب تحرق ماسوى مراد الحبيب من محبه . وقيل : بل هي بذلُ المجهود في رضا الحبيب ، ولا تصيحُ إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب . وفي بعض الآثار الإلهية : عبدى أنا وحقك لك محبٌ فبحقِّ عليك كن لى محبّاً . وقال عبد الله بن المبارك : من أعطى شيئاً من المحبة ولم يُعطَ مثله من الخشية فهو مخدوع .

وقال يحيى بن معاذ : من قال خردلة من الحب أحبُّ إلى من عبادة سبعين سنة بلا حب .

وقال أبو بكر الكتاني : جرت مسألة في المحبة بمكة أيام الموسم ، فتكلم الشيوخ فيها ، وكان الجنيد أصغرهم سنّاً فقالوا : هاتِ ما عندك يا عراقى ، فأطرق رأسه ودمعت عيناه ثم قال : عبدٌ ذاهبٌ عن نفسه ، متضلٌّ بذكر ربه ، قائمٌ بأداء حقوقه ، ناظرٌ إليه بقلبه ، أحرق قلبه أنوار هويته ، وصفا شربهُ من كأس وده ، فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فبن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكت فمع الله ، فهو بالله والله ومع الله ، فبكى الشيوخ وقالوا : ما على هذا مزيد ، جبرك الله يأتاج العارفين . وقيل : أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود إني حرمتُ على القلوب أن يدخلها حبي وحبٌ غيرى ، فأجمع العارفون كلُّهم أن المحبة لا تصيحُ إلا بالمواقفة حتى قال بعضهم : حقيقة الحب موافقة المحبوب في مرضيه ومساخطه ، واتفق القوم أن المحبة لا تصيحُ إلا بتوحيد المحبوب .

وَيُحْكِي أَنَّ رَجُلًا ادَّعَى الْإِسْتِهْلَاقَ^(١) فِي مَحَبَّةِ شَخْصٍ فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ وَهَذَا أَخِي أَحْسَنَ مِنِّي وَجَهًا وَأَتَمُّ جِلَالًا ؟ فَالْتَفَتَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ فَدَفَعَهُ الشَّابُّ وَقَالَ : مَنْ يَدَّعِي هُوَانًا يَنْظُرُ إِلَى سَوَانَا ؟ وَذَكَرْتُ الْمَحَبَّةَ عِنْدَ ذِي النُّونِ فَقَالَ : كُفُّوا عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لَا تَسْمَعُهَا النُّفُوسُ فَتَدَّعِيهَا ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ :

الْخُوفُ أَوْلَى بِالْمُسَىءِ إِذَا تَأَلَّهَ وَالْحُزَنُ
وَالْحَمِيَّةُ يَمِيلُ بِالتَّقْوَى وَالنَّقَى مِنَ الدَّرَنِ

وَقَالَ سَمْنُونُ : ذَهَبَ الْمَحْبُونُ لِلَّهِ بِشَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . إِنْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ »^(٢) فَهُمْ مَعَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ : لَيْسَ بِصَادِقٍ مَنْ ادَّعَى مَحَبَّتَهُ ثُمَّ لَمْ يَحْفَظْ حُدُودَهُ .

فصل

فَالْمَحَبَّةُ شَجَرَةٌ فِي الْقَلْبِ عُرْوَتُهَا الذِّلُّ لِلْمَحْبُوبِ ، وَسَاقِهَا مَعْرِفَتُهُ ، وَأَغْصَانُهَا خَشْيَتُهُ ، وَوُرْقُهَا الْخِلَاءُ مِنْهُ ، وَثَمَرُهَا طَاعَتُهُ ، وَمَادَتُهَا الَّتِي تَسْقِيهَا ذِكْرُهُ ، فَتَى خِلَا الْحُبِّ عَنْ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ كَانَ نَاقِصًا .

وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ يُحِبُّ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيُحِبُّونَهُ ، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ أَشَدَّ حُبًّا لِلَّهِ ، وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ الْوَدُودُ وَهُوَ الْحَبِيبُ قَالَهُ الْبُخَارِيُّ . وَالْوَدُّ خَالِصُ الْحُبِّ ، فَهُوَ يَوَدُّ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ وَيُودُونَهُ .

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي مَحَبَّتِهِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرَوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمَحَارَبَةِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ

(١) اسْتِهْلَاقٌ فِي كَذَا : جَهْدَ نَفْسِهِ فِيهِ .

(٢) تَقْدِمُ هَذَا الْحَدِيثُ فِي صَفْحَةِ ٢٣ .

مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْكَ ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبُّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، فَبِمَا يَسْمَعُ وَبِمَا يُبْصِرُ وَبِمَا يَبْطِشُ وَبِمَا يَمْشِي ، وَلَئِنْ سَأَلْتَنِي لِأَعْظِيَّتِهِ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَ بِي لِأَعِيذَتِهِ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِيهِ تَرَدَّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ » . وفي لفظ في غير البخاري : « فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا وَيَدًا وَمُؤَيِّدًا » فتأمل كمال الموافقة في الكراهة كيف اقتضى كراهة الرب تعالى لمساءة عبده بالموت لما كره العبد مَسَاخَطَ ربه ، وكال الموافقة في الإرادة كيف اقتضى موافقته في قضاء حوائجه وإجابة طلباته وإعاذته بما استعاذ به ، كما قالت عائشة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم : ما أرى ربك إلا يارع في هوائك^(١) ، وقال له عمه أبو طالب : يا ابن أخي ما أرى ربك إلا يطعمك ، فقال له : وأنت ياعم لو أطعته أطاعك^(٢) . وفي تفسير ابن أبي نجيع عن مجاهد في قوله عز وجل : (وَأَتَّخِذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا)^(٣) قال : حبيباً قريباً إذا سأله أعطاه ، وإذا دعاه أجابه . وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام : يا موسى كن لي كما أريد أكن لك كما تريد . وتأمل هذه الباء في قوله : فبِمَا يَسْمَعُ وَبِمَا يُبْصِرُ وَبِمَا يَبْطِشُ وَبِمَا يَمْشِي كيف تجدها مبنية لمعنى قوله : كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به إلى آخره ، فإن سمع سمع بالله ، وإن أبصر أبصر به ، وإن بطش بطش به ، وإن مشى مشى به . وهذا تحقيق قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) ذكره ابن حجر في الإصابة في ترجمة أبي طالب .

(٣) الآية ١٢٥ سورة النساء .

مُحْسِنُونَ^(١) ، وقوله : (وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)^(٢) وقوله : (وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)^(٣) ، وقوله فيما رواه عنه رسوله من قوله : « أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه » . وهذا ضدّ قوله : (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنْهَا يُصْحَبُونَ)^(٤) فالصحبة التي نقاها هنا هي التي أثبتنا لأحبابه وأوليائه ، فتأمل كيف جعل محبته لعبده متملقة بأداء فرائضه ، وبالتقرب إليه بالنوافل بعدها لا غير ، وفي هذا تعزية لمدعى محبته بدون ذلك أنه ليس من أهلها ، وإنما معه الأمانى الباطلة والدعاوى الكاذبة .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحب الله العبد نادى جبريلُ إنَّ اللهَ يُحِبُّ فلاناً فأحبهُ ، فيُحييه أهلُ السماءِ ثمَّ يُوَضِّعُ لهُ القَبُولُ في الأرضِ » وفي لفظٍ لمسلم : « إنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبداً دعا جبريلَ فقالَ : إني أحبُّ فلاناً فأحبهُ قال فيُحييه جبريلُ ثمَّ يُنادي في السماءِ فيقولُ : إنَّ اللهَ يُحِبُّ فلاناً فأحبهُ فيُحييه أهلُ السماءِ ، قالَ ثمَّ يُوَضِّعُ لهُ القَبُولُ في الأرضِ ، وإذا أبغضَ عبداً دعا جبريلَ فيقولُ : إني أبغضُ فلاناً فأبغضه قالَ فيُبغضه جبريلُ ، ثمَّ يُنادي في السماءِ إنَّ اللهَ يبغضُ فلاناً فأبغضوه ، ثمَّ يُوَضِّعُ لهُ البغضاء في الأرضِ » وفي لفظٍ آخر لمسلم عن سهيل بن أبي صالح قال : كننا بعرفة فمرَّ عمر بن عبد العزيز وهو

(١) آخر سورة التحل .

(٢) آخر سورة العنكبوت .

(٣) الآية ١٩ . سورة الانفال .

(٤) الآية ٤٣ . سورة الانبياء .

على الموسم فقام الناس ينظرون إليه فقلت لأبي : يا أبتِ إني أرى الله يحب
عمر بن عبد العزيز، قال : وما ذلك ؟ قلت : لما له من الحب في قلوب الناس ،
فقال : إني سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يحدث عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم ثم ذكر الحديث . وأخرجه الترمذي ثم زاد في آخره فذلك قول الله
تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا وَدًّا)^(١)
انتهى . وقال بعض السلف في تفسيرها : يحبهم ويحبهم إلى عباده .

وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي صلى
الله عليه وسلم عن الساعة فقال : « وما أعددت لها ؟ » قال لا شيء إلا أني أحب
الله ورسوله ؟ فقال : « أنت مع من أحببت » قال أنس رضي الله عنه : فما
فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أنت مع من أحببت »
قال أنس : فأنا أحب النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون
معهم بحبي إليهم وإن لم أعمل أعمالهم .

وفي الترمذي عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المرء مع من
أحب وله ما اكتسب » . وفي سنن أبي داود عنه قال : رأيت أصحاب النبي صلى
الله عليه وسلم فرحوا بشيء لم أرهم فرحوا بشيء أشد منه ، قال رجل : يا رسول
الله الرجل يحب الرجل على العمل من الخير يعمل به ولا يعمل بمثل . فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب » . وهذه المحبة لله
توجب المحبة في الله قطعاً ، فإن من محبة الحبيب المحبة فيه والبغض فيه .

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ

(١) الآية ٩٦ . سورة مريم .

بِحَالِي؟ الْيَوْمَ أَظَاهُهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي ». وفي جامع أبي عيسى الترمذى من حديث مُعَاذِ بْنِ جَبَل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : الْمُتَحَابُّونَ بِحَالِي أَنَّهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغِيظُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ ». وفي لفظٍ لغيره « الْمُتَحَابُّونَ بِحَالِ اللَّهِ يَكُونُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ يَغِيظُهُمْ أَهْلُ الْجَمْعِ ». وفي الموطأ من حديث أبي إدريس الخولاني قَالَ : دَخَلْتُ مَسْجِدَ دِمَشْقٍ فَإِذَا قَتِي بِرَأْفِ الثَّنَائِيَا وَالنَّاسِ حَوْلَهُ فَإِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَسْنَدُوهُ إِلَيْهِ وَصَدَرُوا^(١) عَنْ رَأْيِهِ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقَالُوا : هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ هَجَرْتُ^(٢) إِلَيْهِ فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي بِالتَّهَجِيرِ^(٣) ، وَوَجَدْتُهُ يَصِلُ ، فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى قَضَى صَلَاتَهُ ، ثُمَّ جِئْتُهُ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ فَسَأَلْتُ عَنْهُ ثُمَّ قُلْتُ : وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّكَ فِي اللَّهِ ، فَقَالَ : آلهُ ؟ قُلْتُ : اللَّهُ ، فَقَالَ : آلهُ ؟ فَقُلْتُ : اللَّهُ ، فَأَخَذَ مَحَبَّةً^(٤) رَدَائِي فَنَبَذَنِي^(٥) إِلَيْهِ وَقَالَ : أَبْشِرْ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : وَجِبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ ، وَالْمُزَاوِرِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ » .

وفي سنن أبي داود من حديث أبي ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ » .

(١) صدروا برأيه : أخذوا برأيه وعملوا به .

(٢) التهجير : التذكير إلى كل شيء والمبادرة إليه . والتهجير والتهجير : السير في الهاجرة .

(٣) حبة الرداء : ما اشتمل عليه .

(٤) جبهه : جذبه .

وفيه أيضاً عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من عباد الله لأتاساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله » قالوا : يا رسول الله ، تخبرنا من هم ؟ قال : « هم قوم تمحبوا بريح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور ولما هم لتعالى نور ولا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس » وقرأ هذه الآية : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)^(١) .

وفي لفظٍ لغيره : « إن لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء بمكانهم من الله » قالوا : يا رسول الله صفهم لنا ، حاتم لنا لعلنا نحبهم ، قال : « هم قوم تمحبوا بريح الله على غير أموال تباذلوها ولا أرحام توأصلوها هم نور ووجوههم نور وعلى كراسي من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس » ثم قرأ هذه الآية : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن رجلاً زار أخاه في قرية أخرى فأرصد الله على مדרجتيه^(٢) ملكاً فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخاً لي في هذه القرية قال : لك عليه من نعمة تربها^(٣) ؟ قال : لا غير أرى أحبه في الله تعالى ، قال : فإني رسول الله إليك أن الله قد أحبك كما أحبته فيه » .

(١) الآية ٦٢ . سورة يونس .

(٢) المדרجة : الطريق .

(٣) تربها : تنعمها أو تنعم بها . ورب على فلان . أنعم عليه .

وقال رجلٌ لمُعاذ بن جبل : إني أُحبك في الله ، قال : أُحبُّكَ الذي أُحِبَّتني له .

وفي سنن أبي داود أن رجلاً كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرَّ رجلٌ فقال : يا رسول الله إني لأُحبُّ هذا، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَعَلِمْتُهُ ؟ » قال : لا ، قال : « أَعَلِمْتُهُ » فليحقه فقال : إني أُحبك في الله، قال : أُحبُّكَ الذي أُحِبَّتني له .

وفيهما أيضاً عن المُقدِّم بن معدى كَرَب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ » .

وفي الترمذى من حديث يزيد بن نَعَامَةَ الضَّبِّي رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا آتَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ فَلْيَسْأَلْهُ عَنِ اسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَبَيْنَهُ هُوَ فَإِنَّهُ أَوْصَلُ الْمَوَدَّةِ » .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا . أَوْ لَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج بن محمد الترمذى ، حدثنا شريك ، عن أبي سنان، عن عبد الله بن أبي الهذيل عن عمار بن ياسر أن أصحابه كانوا ينتظرونه ، فلما خرج قالوا : ما أبطأك عنا أيها الأمير ؟ قال : أما إني مسوف . أحدتكم أن أخا لـكم من كان قبلكم وهو موسى صلى الله عليه وسلم قال : ياربِّ حدثني بأحبِّ الناس إليك، قال : ولم ؟ قال : لأحبِّه بحبك إياه ، قال : عبدٌ في أقصى الأرض أو طرف الأرض سمع به عبدٌ آخرُ في أقصى أو طرف الأرض

لا يعرفه ، فإن أصابته مصيبةٌ فكأنما أصابته ، وإن شاكته شوكةٌ فكأنما شاكته ، لا يحبه إلّا لى ، فذلك أحبُّ خلقى إلى . قال : ياربّ خلقتَ خلقًا تدخلهم النار أو تعذبهم ، فأوحى الله إليهم كلهم خلقتى ، ثم قال : ازرع زرعًا فزرعه ، فقال : استغفرتُ فسقاه ، ثم قال : قم عليه ، فقام عليه ماشاء الله من ذلك ، فخصده ورفعته فقال : ما فعل زرعك يا موسى ؟ قال : فرغت منه ورفعته ، قال : ما تركت منه شيئًا ؟ قال : مالا خيرَ فيه أو مالا حاجة لى فيه ، قال : فكذلك أنا لا أعذب إلّا من لا خير فيه .

فصل

ولو لم يكن فى محبة الله إلّا أنها تنجى محبّه من عذابه لكان ينبغى للعبد أن لا يتعوض عنها بشيء أبدًا . وسئل بعض العلماء أين تجد فى القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه ؟ فقال : فى قوله تعالى : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ) ^(١) الآية .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن يونس عن الحسن رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « وَاللَّهِ لَا يُعَذِّبُ اللَّهُ حَبِيبَهُ وَلَكِنْ قَدْ يَبْتَلِيهِ فِي الدُّنْيَا » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سيّار ، حدثنا جعفر ، حدثنا أبو غالب قال : بلغنا أن هذا الكلام فى وصية عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم : « يا معشرَ الحواريين تحبّبوا إلى الله يبخس أهل المعاصى ، وتقرّبوا إليه بالحق لهم ، والتمسوا رضاه بسخطهم » قالوا . يا نبى الله فمن نجاس ؟ قال : « جالسوا من يزيد فى أعمالكم منطلقه ، ومن تذكركم بالله رؤيته ، ويزهدكم فى دنياكم علمه » .

(١) الآية ١٨ . سورة المائدة .

ويكفي في الإقبال على الله تعالى ثواباً عاجلاً أن الله سبحانه وتعالى يقبل بقلوب عباده إلى من أقبل عليه ، كما أنه يعرض بقلوبهم بمن أعرض عنه ، فقلوب العباد بيد الله لا بأيديهم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن في تفسير شيبان عن قتادة قال : ذكر لنا أن هَرم بن حيان كان يقول : ما أقبل عبدٌ على الله بقلبه إلا أقبل الله عز وجل بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم .

وقد روى هذا مرفوعاً ولفظه : « وما أقبل عبدٌ على الله بقلبه إلا أقبل الله عز وجل عليه بقلوب عباده وجعل قلوبهم تفتد إليه بالود والرحمة وكان الله بكل خير إليه أسرع » وإذا كانت القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها وكل إحسان وصل إلى العبد فن الله عز وجل كما قال الله تعالى : (وما بكم من نعمة فمن الله)^(١) فلا ألام من شغل قلبه بحب غيره دونه .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية قال حدثني الأعمش ، عن النهال ، عن عبد الله بن الحارث قال : أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود أحييني وحبب عبادي إلي وحببني إلى عبادي ، قال : يا رب هذا أنا أحب وأحب عبادك إليك فكيف أحببك إلى عبادك ؟ قال : تذكرني عندهم ، فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن .

ومن أفضل ما سئل الله عز وجل حبه وحب من يحبه وحب عمل يقرب إلى حبه ، ومن أجمع ذلك أن يقول : « اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك ، اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي

(١) الآية ٥٣ . سورة البخل .

فيا تحب ، وما زويت^(١) عني مما أحب فاجعله فراغاً لي فيا تحب ، اللهم اجعل حبك أحب إلي من أهلي ومالي ومن الماء البارد على الظمأ ، اللهم حبيبي إليك وإلى ملائكتك وأنبيائك ورسلك وعبادك الصالحين ، واجعلني ممن يحبك ويحب ملائكتك وأنبياءك ورسلك وعبادك الصالحين ، اللهم أحى قلبي بحبك واجماني لك كما تحب ، اللهم اجماني أحبك بقلبي كله ، وأرضيك بجهدى كله ، اللهم اجعل حبي كله لك ، وسمي كله في مرضاتك^(٢) وهذا الدعاء هو فسطاط خيمة الإسلام الذي قيامها به ، وهو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والقائمون بحقيقة ذلك هم الذين هم بشهادتهم قائمون . والله سبحانه تعرف إلى عبادته من أسمائه وصفاته وأفعاله بما يوجب محبتهم له ، فإن القلوب منطوية على محبة الكمال ومن قام به ، والله سبحانه وتعالى له الكمال المطلق من كل وجه الذي لا نقص فيه بوجه ما ، وهو سبحانه الجليل الذي لا أجل منه بل لو كان جلال الخلق كلهم على رجل واحد منهم وكانوا جميعهم بذلك الجلال لما كان لجلالهم قطرة نسبة إلى جلال الله ، بل كانت النسبة أقل من نسبة سراج ضعيف إلى جذاء جرم الشمس (والله أعلم)^(٣) .

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « إن الله جميلٌ يُحِبُّ الجمال » عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأبو شعيب التلمذرى ، وعبد الله بن معبود ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وثابت بن قيس ، وأبو الدرداء ، وأبو هريرة ، وأبو ريحانة رضى الله عنهم .

(١) زواه عن الشيء : صرفه ونحوه .

(٢) في الجامع الصحيح للترمذى قال : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« كان من دعاء داود : اللهم . . . ، وذكر نحواً من هذا الدعاء .

(٣) الآية ٦٠ . سورة النحل .

ومن أسمائه الحسنی : الجمیل ، ومن أحقُّ بالجمال ممن كلُّ جمالٍ في الوجود فهو من آثار صنعه ، فله جمالُ الذات ، وجمال الأوصاف ، وجمالُ الأفعال ، وجمالُ الأسماء ، فأسماءه كلها حسنى ، وصفاته كلها كمال ، وأفعاله كلها جميلة ، فلا يستطيع بشرٌ النظر إلى جلاله وجماله في هذه الدار ، فإذا رآوه سبحانه في جنات عدنٍ أنستهم رؤيته ما هم فيه من النعيم ، فلا يلتفتون حينئذٍ إلى شيء غيره ، ولولا حجابُ النور على وجهه لأحرقت سُبحاتُ^(١) وجهه سبحانه وتعالى ما انتهى إليه بصره من خلقه ، كما في صحيح البخارى^(٢) من حديث أبي موسى رضى الله عنه قال : قام فينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنَبُؤُا لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ^(٣) ، وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » .

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : ليس عند ربكم ليلٌ ولا نهار نورُ السموات من نور وجهه ، وإن مقدار كلِّ يوم من أيامكم عند الله اثنتا عشرة ساعة ، فتعرض عليه أعمالكم بالأمس [فتعرض عليه] أولَ النهار أو اليوم فينظر فيها ثلاث ساعات ، فيطَّلَعُ منها على بعض ما يكره فيفضيه ذلك ، فأولُ من يعلم بنضبه الدين يحملون العرش يحمدونه يثقل عليهم فيسبحه الذين يحملون العرش وسُرَادِقَاتُ العرش والملائكةُ المقرَّبون وسائر الملائكة ، وينفخ جبريلُ في القرن فلا يبقى شيء إلا الثقلين الجنَّ والإنس ، فيسبحونه ثلاث ساعات حتى يمتلئ الرحمن رحمةً ، فتلك ستُّ ساعاتٍ ، ثم يؤتى بما في الأرحام فينظر فيها

(١) سبحات الله : أنواره وجلالته وعظمته .

(٢) هو في صحيح مسلم .

(٣) القسط : الميزان ، وهو أيضاً المدل والنصيب .

ثلاث ساعات فيصور ركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم، فتلك تسع ساعات، ثم ينظر في أرزاق الخلق كلهم ثلاث ساعات، فيبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم، ثم قرأ: (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) ^(١)، ثم قال عبد الله: هذا من شأنكم وشأن ربكم تبارك وتعالى (رواه عثمان بن سعيد الدارمي) حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، عن الزبير بن عبد السلام، عن أيوب بن عبد الله الفهري ^(٢)، عن ابن مسعود رضى الله عنه. رواه الحسن ابن إدريس، عن خالد بن الحياج، عن أبيه، عن عباد بن كثير، عن جعفر بن الحارث، عن ممدان، عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: إن ربكم ليس عنده نهار ولا ليل، وإن السموات مملوءات نورا من نور الكرسي، وإن يوما عند ربك اثنتا عشرة ساعة، فترفع فيها أعمال الخلائق في ثلاث ساعات، فيرى فيها ما يكره فيغضبه ذلك، وإن أول من يعلم بغضبه حاملة العرش يرويه يتمثل عليهم فيسبحون له ويسبح له سرادقات العرش في ثلاث ساعات. من النهار، حتى يتملى ربنا رضا فتلك ست ساعات من النهار، ثم يأمر بأرزاق الخلائق فيعطى من يشاء في ثلاث ساعات من النهار، فتلك تسع ساعات. ثم يرفع إليه أرحام كل دابة فيخلق فيها ما يشاء، ويجعل المسددة لمن يشاء في ثلاث ساعات من النهار، فتلك اثنتا عشرة ساعة، ثم تلا ابن مسعود رضى الله عنه هذه الآية (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) هذا من شأن ربنا تبارك وتعالى. وفي دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي دعا به يوم الطائف: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَنْ يَجِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ أَوْ يَنْزِلَ عَلَيَّ سَخَطُكَ

(١) الآية ٢٩. سورة الرحمن.

(٢) في تهذيب التهذيب (ج ١ ص ٤٠٧) أن حماد بن سلمة يروى عن الزبير

أبي عبد السلام عن أيوب بن عبد الله بن مكرز القرشي عن ابن مسعود.

لَكَ الْعُتْبَىٰ حَتَّى تَرْضَى وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ» ^(١) وإذا جاء سبحانه وتعالى يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده تشرق لنوره الأرض كلها كما قال الله تعالى: (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ) ^(٢) وقول عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: نور السموات والأرض من نور وجهه، تفسير لقوله تعالى: (اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) ^(٣).

وفي الصحيحين من حديث أبي بكر رضي الله عنه في استفتاح النبي صلى الله عليه وسلم قيام الليل: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ» وفي سنن ابن ماجه وحرب السكرماني من حديث الفضل بن عيسى الرقاشي، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بَيْنَمَا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ فَرَفَعُوا رُؤُوسَهُمْ فَإِذَا الرَّبُّ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ فَيَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ وَذَلِكَ قَوْلُهُ: (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ) ^(٤) فيرفعون رُؤُوسَهُمْ فينظرون إليه وينظرون إليهم ولا يلتفتون إلى شيء من النعيم حتى يَحْتَجِبَ عَنْهُمْ فَيَبْقَى نُورُهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى دِيَارِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ» لفظ حديث حرب: «فَمَا ظَنُّ الْمُحِبِّينَ بِلَذَّةِ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ؟» وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشُّوقَ إِلَى لِقَائِكَ». (ذكره الإمام أحمد والنسائي وابن حبان في صحيحه) فاسمع الآن شأن أوليائه وأحبابه عند لقائه ثم اختر لنفسك:

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة والعلبراني في الدعاء والمعجم الكبير.

(٢) الآية ٦٩. سورة الزمر.

(٣) الآية ٣٥. سورة النور.

(٤) الآية ٥٨. سورة يس.

أنت القتييلُ بكلِّ من أسببته فاختار لنفسك في الهوى من تصطفى
قال هشام بن حسان عن الحسن : إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى نسوا
نعيم الجنة . وقال هشام بن عمار : حدثنا محمد بن سعيد بن شاذان^(١) ، حدثنا
عبد الرحمن بن سليمان ، حدثنا مسعود بن عبد الله الجرجسي القاضي أنه سمع أبا
إسحاق الهمداني يحدث عن الحارث الأعور ، عن علي بن أبي طالب رضي الله
عنه رفعه قال : « إن الله إذا أسكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار
بعث إلى أهل الجنة الروح الأمين فيقول : يا أهل الجنة إن ربكم
يقربكم السلام ويأمركم أن تزوروه إلى فناء الجنة وهو أبطل^(٢)
الجنة ، تربته المسك وحصباؤه^(٣) الدر والياقوت وشجره الذهب
الرطب وورقه الزمرد ، فيخرج أهل الجنة مستبشرين مسرورين ، قم
يجمعهم ويكرمهم كرامة الله والنظر إلى وجهه ، وهو موعده الله أنجزه
لهم ، فيأذن الله لهم في السماع والأكل والشرب ، ويكسون حلل
الكرامة ثم ينادي مناد : يا أولياء الله هل بقي مما وعدكم
الله [ربكم] شيء ؟ فيقولون لا وقد أنجزنا ما وعدنا فما بقي شيء إلا
النظر إلى وجهه ، فيجعل لهم الرب (تبارك وتعالى) في حجب فيقول :
يا جبريل ارفع حجابي لعبادي كي ينظروا إلى وجهي ، قال : فيرفع

(١) في تهذيب التهذيب (ج ٩ ص ٢٢٢) أن الذي يروى عنه هشام بن
عمار هو محمد بن شعيب بن شاذان وهو يروى عن عبد الرحمن بن حسان الكناني .
(٢) الأبطح : المكان المتسع يمر به السيل فيترك فيه الرمل والحصى الصغار
ومنه أبطح مكة وبطحاء مكة .
(٣) جمع حصبة : الحصى .

الْحِجَابَ الْأَوَّلَ فَيَنْظُرُونَ إِلَى نُورٍ مِنْ نُورِ الرَّبِّ فَيُخْرِجُونَ لَهُ سُبْحًا
فَيُنَادِيهِمُ الرَّبُّ يَا عِبَادِي أَرْفَعُوا رُؤُوسَكُمْ فَإِنَّهَا كُنْتَ بَدَارِ عَمَلٍ إِنَّمَا
هِيَ دَارُ ثَوَابٍ ، فَيَرْفَعُ الْحِجَابَ الثَّانِي فَيَنْظُرُونَ أَمْرًا هُوَ أَعْظَمُ وَأَجَلُّ
فَيُخْرِجُونَ لِلَّهِ حَامِدِينَ سَاجِدِينَ ، فَيُنَادِيهِمُ الرَّبُّ أَنْ أَرْفَعُوا رُؤُوسَكُمْ
إِنَّهَا كُنْتَ بَدَارِ عَمَلٍ إِنَّمَا هِيَ دَارُ ثَوَابٍ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ . فَيَرْفَعُ الْحِجَابَ
الثَّالِثَ فَيَعْبُدُ ذَلِكَ يَنْظُرُونَ إِلَى وَجْهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَيَقُولُونَ حِينَ يَنْظُرُونَ
إِلَى وَجْهِهِ : سُبْحَانَكَ مَا عِبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ ، فَيَقُولُ كَرَامَتِي أَمْ كُنْتُمْ
مِنْ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ دَارِي . فَيَأْذُنُ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ أَنْ تَكَلِّمِي
فَتَقُولُ : طُوبَى لِمَنْ سَكَنِي وَطُوبَى لِمَنْ يَخْلُدُ فِي طُوبَى لِمَنْ أُنْعِدْتُ
لَهُ . وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ)^(١) وقوله تَعَالَى : (وَجُورُهُ
يَوْمَ مَثِيرٍ نَاظِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)^(٢) .

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « جَنَّتانِ مِنْ ذَهَبٍ آيَاتُهُمَا وَحِلْيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَجَنَّتَانِ
مِنْ فِضَّةٍ آيَاتُهُمَا وَحِلْيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا ، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى
رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءَهُ الْكِبْرِيَاءُ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ » .

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي : حدثنا أبو الربيع ، حدثنا جرير بن
عبد الحميد ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن عبد الله بن الحارث ، عن كعب قال :
ما نظر الله إلى الجنة إلا قال : طيبى لأهلك فزادت طيباً على ما كانت ، وما من

(١) الآية ٢٩ : سورة الرعد .

(٢) الآيتان ٢٢ و ٢٣ : سورة القيامة .

يوم كان عيداً في الدنيا إلا يخرجون في مقداره إلى رياض الجنة ، ويبرز لهم الربُّ تبارك وتعالى وينظرون إليه ، وتسقى^(١) عليهم الريح بالطيب والمِسْك فلا يسألون ربهم تبارك وتعالى شيئاً إلا أعطاهم ، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا على ما كانوا عليه من الحسن والجمال سبعين ضعفاً .

وقال عَبْدُ بنُ حُمَيْدٍ أَخْبَرَنِي شَبَابَةُ عَنْ إِسْرَائِيلَ ، حَدَّثَنَا ثُوَيْرُ بْنُ أَبِي فَاخْشَةَ سَمِعْتُ ابْنَ عَمْرِو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى خَدَمِهِ وَتَعِيمِهِ وَسُرُورِهِ مَسِيرَةً أَلْفِ سَنَةٍ ، وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ غَسَدَوَةً وَعَشِيَّةً ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ)^(٢) » رواه الترمذی فی جامعہ عنہ .

وذكر عثمان بن شعيب الدارمي ، عن ابن عمر رضي الله عنهما رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا بَلَغَ مِنْهُمْ النَّعِيمُ كُلٌّ مَبْلَغٍ وَظَنُّوا أَنْ لَا نَعِيمَ أَفْضَلَ مِنْهُ تَجَلَّى لَهُمُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَنَظَرُوا إِلَى وَجْهِ الرَّحْمَنِ فَلَسُّوا كُلَّ نَعِيمٍ عَايَنُوهُ حِينَ نَظَرُوا إِلَى وَجْهِ الرَّحْمَنِ » .

وقال الحسن البصري في قوله تعالى : (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ) قال : حسنتها الله تعالى بالنظر إليه سبحانه ، وحق لها أن تنضروا وتنظر إلى ربها عز وجل .. قال أبو سليمان الداراني : لو لم يكن لأهل

(١) سفت الريح التراب ونحوه : ذرته أو حملته .

(٢) الآيةان ٢٢ ، ٢٣ . سورة القيامة .

الحبة - أو قال المعرفة - إلا هذه الآية : (وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ) لا كَتَفَوْا بِهَا .

وذكر النسائي من حديث الزُّهري ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلنا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « هَلْ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَا الشَّمْسِ فِي يَوْمٍ لَا غَيْمَ فِيهِ وَفِي الْقَمَرِ كَلِيلَةُ الْبَدْرِ لَا غَيْمَ فِيهَا ؟ » قلنا : لا ، قال : « فَإِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ حَتَّى إِنْ أَحَدَكُمْ لَيُحَاضِرُهُ ^(١) مُحَاضِرَةٌ فَيَقُولُ : عَبْدِي هَلْ تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا وَكَذَا ؟ فيقول : ياربُّ أَلَمْ تَغْفِرْ لِي ؟ فيقول : بِمَغْفِرَتِي صِرْتَ إِلَى هَذَا » .

وفي الصحيحين من حديث مالك ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنْ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، فيقولون : تَبَيَّنَكَ رَبُّنَا وَسَعَدَيْكَ وَالتَّخِيرُ فِي يَدَيْكَ فيقول : هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فيقولون : وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ نَعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، فيقول : أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ ؟ فيقولون : يَارَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فيقول : أَحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَدًا » .

وفي الصحيح والسنن والمساند من حديث ثابت البناني ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ نَادَى مُنَادٍ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ

(١) حاضر القوم : جالسهم وحادثهم بما يحضره .

عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يَرِيدُ أَنْ يُنْجِزَ كُفُوهُ ، فيقولون : ما هو أَلَمْ يُبَيِّنْ وَجُوهَنَا وَيُنْقِلْ مَسَازِينَنَا وَيُدْخِلَنَا الْجَنَّةَ وَيُخْرِجَنَا مِنَ النَّارِ ؟ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْظَاهُمْ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ وَلَا أَقَرَّ لَأَعْيُنِهِمْ .

وفي صحيح البخارى من حديث جرير بن عبد الله قال : كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ فَقَالَ : « إِنْ كُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ سَكَتَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُفْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلِ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا » .

وفي الصحيحين من حديث الزُّهْرِيِّ ، عن عطاء بن يزيد الليثي ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّاسَ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « هَلْ تُضَارُّونَ ^(١) فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ؟ » قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : « قَهْلُ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَنَا سَحَابٌ ؟ » قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : « فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ » . وَفِي لَفْظٍ : « فَإِنَّكُمْ لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَيْ رَبِّكُمْ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَيْهِمَا » .

وقال الترمذی : حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مُحَمَّدٍ ، عَنْ الْقَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يَطْلُعُ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَيَقُولُ : لِيَتَّبِعْ كُلُّ إِنْسَانٍ مَا كَانَ يَعْبُدُ ، فَيُمَثَّلُ لِصَاحِبِ الصَّلَيبِ صَلَيبُهُ وَلِصَاحِبِ النَّصَاوِيرِ نَصَاوِيرُهُ ، وَلِصَاحِبِ النَّارِ نَارُهُ »

(١) جاء في القاموس المحيط : لا تضارون في رؤيته : أى لا تضامون تضاماً يدنو بعضكم من بعض فيضايقه . وجاء في لسان العرب : لا يضر بعضكم بعضاً ويفرد برؤيته ، وقال في تفسيرها أيضاً : لا يقع بكم في رؤيته ضر ولا يلحقكم ضيم .

فَتَتَّبِعُونَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ وَيَبْقَى الْمُسْلِمُونَ فَيُطْلَعُ عَلَيْهِمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى قِيَمُوهُ : أَلَا تَتَّبِعُونَ النَّاسَ ؟ فَيَقُولُونَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ نَعُوذُ بِاللَّهِ
مِنْكَ ، اللَّهُ رَبُّنَا هَذَا مَا كَانُوا حَتَّى رَأَى رَبَّنَا ، وَهُوَ يَأْمُرُهُمْ وَيُؤَيِّتُهُمْ .
ثُمَّ يَتَوَارَى ثُمَّ يَطْلَعُ عَلَيْهِمْ فَيَقُولُ : أَلَا تَتَّبِعُونَ النَّاسَ ؟ فَيَقُولُونَ : نَعُوذُ
بِاللَّهِ مِنْكَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ ، اللَّهُ رَبُّنَا ، وَهَذَا مَا كَانُوا حَتَّى رَأَى رَبَّنَا ، وَهُوَ
يَأْمُرُهُمْ وَيُؤَيِّتُهُمْ . قَالُوا : وَهَلْ نَرَاهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي
رُؤْيَا الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ؟ قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : فَإِنَّكُمْ لَا تُضَارُّونَ فِي
رُؤْيَا تِلْكَ السَّاعَةِ . قَالَ : ثُمَّ يَتَوَارَى ثُمَّ يَطْلَعُ فَيُعْرِقُهُمْ نَفْسُهُ ثُمَّ يَقُولُ :
أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّبِعُونِي ، فَيَقُومُ الْمُسْلِمُونَ وَيُوضِعُ الصِّرَاطُ فَيَمُرُّونَ عَلَيْهِ مِثْلَ جِيَادِ
الْخَيْلِ وَالرَّكْبِ ، وَقَوْلُهُمْ عَلَيْهِ : سَلَّمَ سَلَّمَ ، وَيَبْقَى أَهْلُ النَّارِ فَيُطْرَحُ مِنْهُمْ
فِيهَا فَوْجٌ فَيُقَالُ هَلِ امْتَلَأَتْ ؟ فَتَقُولُ : هَلِ مِنْ مَزِيدٍ ؟ ثُمَّ يُطْرَحُ فِيهَا فَوْجٌ
فَيُقَالُ : هَلِ امْتَلَأَتْ ؟ فَتَقُولُ هَلِ مِنْ مَزِيدٍ ؟ حَتَّى إِذَا أَوْعَبُوا^(١) فِيهَا وَضَعَ
الرَّحْمَنُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِيهَا قَدَمَهُ فَأَزْوَى^(٢) بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ وَقَالَتْ :
قَطُّ قَطُّ ، فَإِذَا أَدْخَلَ اللَّهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ أَتَى بِالْمَوْتِ مُلْكِيًا
فَيُوقِفُ عَلَى السُّورِ الَّذِي بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ ، ثُمَّ يُقَالُ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ
فَيُطْلَعُونَ خَائِفِينَ ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا أَهْلَ النَّارِ فَيُطْلَعُونَ مُسْتَبْشِرِينَ يَرْجُونَ
الشَّفَاعَةَ فَيُقَالُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ : هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ هُوَ لَاءُ
وَهُوَ لَاءُ : قَدْ عَرَفْنَاهُ ، هُوَ الْجَمْعُ الَّذِي وَكَلَّ بَنَاءً ، فَيُضْجَعُ فَيَذْبَحُ ذَبْحًا

(١) أَوْعَبُوا فِيهَا : أَدْخَلُوا فِيهَا وَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَارِجًا .

(٢) أَزْوَى بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ : ضَمَّ بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ .

عَلَى السُّورِ . ثُمَّ يُقَالُ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتُ ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ وَلَا مَوْتُ .

قال الترمذی : هذا حديث حسن صحيح وأصله في الصحيحين لكن هذا السياق أجمع وأخصر . وفي لفظ الترمذی : « فَلَوْ أَنَّ أَحَدًا مَاتَ فَرَحًا لَمَاتَ أَهْلُ الْجَنَّةِ ، وَلَوْ أَنَّ أَحَدًا مَاتَ حُزَنًا لَمَاتَ أَهْلُ النَّارِ » .

وفي مسند الحارث بن أبي أسامة من حديث قُرّة ، عن مالك ، عن زياد بن نعد ، حدثنا أبو الزبير قال : سمعت جابر بن عبد الله رضى الله عنهما يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جُمِعَتِ الْأُمَمُ وَدُعِيَ كُلُّ أَنْاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَبِخْتِنَا آخِرَ النَّاسِ قِيْقُولُ قَاتِلٌ مِنَ النَّاسِ : مَنْ هَذِهِ الْأُمَّةُ ؟ قال : فَيُشْرِفُ إِلَيْنَا النَّاسُ فَيَتَمَالُ : هَذِهِ الْأُمَّةُ الْأَمِينَةُ ، هَذِهِ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ، وَهَذَا مُحَمَّدٌ فِي أُمَّتِهِ ، فَيُنَادِي مُنَادٍ إِنَّكُمْ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ ، قال : فَنَأْتِي فَنَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ حَتَّى نَكُونَ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَزَلَةً ، ثُمَّ يُدْعَى النَّاسُ كُلُّ أَنْاسٍ بِإِمَامِهِمْ ، فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيُقَالُ : مَنْ أَنْتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : نَحْنُ الْيَهُودُ ، فيقول : مَنْ نَبِيُّكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : نَبِينَا مُوسَى ، فيقول : مَا كِتَابُكُمْ ؟ فيقولون : كِتَابُنَا التَّوْرَةُ ، فيقول : مَا تَعْبُدُونَ ؟ فيقولون : نَعْبُدُ عَزِيزًا وَنَعْبُدُ اللَّهَ ، فيقول لِلدَّاءِ حَوْلَهُ : اسْكُوبُوا بِهِمْ فِي جَهَنَّمَ . ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى فيقول : مَنْ أَنْتُمْ ؟ فيقولون : نَحْنُ النَّصَارَى ، فيقول : مَنْ نَبِيُّكُمْ ؟ فيقولون : نَبِينَا عِيسَى ، فيقول : مَا كِتَابُكُمْ ؟ فيقولون : كِتَابُنَا الْإِنْجِيلُ ، فيقول : مَا تَعْبُدُونَ ؟ فيقولون : نَعْبُدُ عِيسَى وَأُمَّةً وَاللَّهِ . فيقول لِلدَّاءِ حَوْلَهُ : اسْكُوبُوا بِهِمْ وَلَاءٌ فِي جَهَنَّمَ ، فَيُدْعَى عِيسَى فيقول

لعيسى : يا عيسى (أأنت قلت للناس اتخذوني وأخي إلهين من دون الله^(١))
 فيقول : (سبحانك ما يسكون لي أن أقول ما ليس لي بحق^(٢)) إلى قوله :
 (العزيز الحكيم^(٣)) ثم يدعى كل أناس بآمامهم وما كانوا يعبدون ثم
 يضرخ الصارخ : أيها الناس من كان يعبد إلهاً فليتبّعهُ ، تقدّمهم آلهتهم
 منها الخشب والحجارة ، ومنها الشمس والقمر ، ومنها الدجال ، حتى تبقى
 المسلمون قتيّف عليهم فيقول : من أنتم ؟ فيقولون : نحن المسلمون ، قال : خير
 اسم وخير داعية ، فيقول : من نبيكم ؟ فيقولون : محمد ، فيقول : ما كتابكم ؟
 فيقولون : القرآن ، فيقول : ما تعبدون ؟ فيقولون : نعبد الله وحده لا شريك
 له ، قال : سيذهبكم ذلك إن صدقتم ، قالوا : هذا يومنا الذي وعدنا فيقول :
 أنعرفون الله إذا رأيتموه ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : وكيف تعرفونه
 ولم تروه ؟ فيقولون : نعلم أنه لا عدل له ، قال : فيمتجلى لهم تبارك وتعالى
 فيقولون : أنت ربنا تباركت أسماؤك ، ويخرون له سجداً ، ثم يمضي
 النور بأهله .

وفي مسند الإمام أحمد رضى الله عنه من حديث أبي الزبير قال : سألت
 جابراً عن الورد فأخبرني أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « نجي
 يوم النيامة على كرم^(٤) فوق الناس ، فتدعى الأمم بأوثانها وما كانت
 تعبد ، الأول فالأول ، ثم يأتينا ربنا بعد ذلك فيقول : ماتت ظُرُونُ ؟ فيقولون :
 نذتظر ربنا ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : حتى ننظر إليك ، فيمتجلى لهم
 يضحك فينبعونه » .

(١ و ٢) الآيات ١١٦ - ١١٨ . سورة المائدة .

(٤) الكرم : مكان مرتفع .

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي أن أبا بردة بن أبي موسى الأشعري أتى
عمر بن عبد العزيز فقال : حدثنا أبو موسى الأشعري رضى الله عنه أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَجْمَعُ اللهُ الْأَمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ
فَإِذَا بَدَأَ لَهُ أَنْ يَصْدَعَ بَيْنَ خَلْقِهِ مِثْلَ لِسْكَلٍ قَوْمٍ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ
فَيَتَّبِعُونَهُمْ حَتَّى يَقْتَحِمُوهُمْ ^(١) النَّارَ ، ثُمَّ يَأْتِينَا رَبُّنَا وَنَحْنُ فِي مَكَانٍ فَيَقُولُ :
مَنْ أَنْتُمْ ؟ فَنَقُولُ : نَحْنُ الْأَوْمِنُونَ ، فيقول : مَا تَنْتَظِرُونَ ؟ فَنَقُولُ : نَنْتَظِرُ
رَبَّنَا ، فيقول : مِنْ أَيْنَ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَبُّكُمْ ؟ فَنَقُولُ : حَدَّثَنَا الرَّسُلُ أَوْ
جَاءَنَا السَّكُتُبُ ، فيقول : هَلْ تَعْرِفُونَهُ ؟ فيقولون : نَعْلَمُ أَنَّهُ لَا عَدْلَ ،
فَيَتَجَلَّى لَنَا ضَاحِكًا ، ثُمَّ يَقُولُ : أَبْشِرُوا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْكُمْ أَحَدٌ
إِلَّا وَقَدْ جَعَلْتُ مَسْكَانَهُ فِي النَّارِ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا » فقال عمر لأبي بردة :
أَللهُ ، لقد سمعت أبا موسى يحدث بهذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم ؟ قال : إِي والله الذي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لقد سمعت أبي يذكره عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم غيرَ مرَّةٍ ولا مرَّتَيْنِ ولا ثَلَاثًا ، فقال عمر بن عبد العزيز :
ما سمعت في الإسلام حديثًا هو أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ .

وفي الترمذى من حديث الأوزاعى حدثنى حسان بن عطية ، عن سعيد
ابن المسيب أنه لقي أبا هريرة رضى الله عنه فقال أبو هريرة : أسألك الله تعالى أن
يجمع بينى وبينك في سوق الجنة ، فقال سعيد : أَوْفِيهَا سَوْقٌ ؟ قال : نعم أخبرنى
رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم
فيؤخذ لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون الله تبارك وتعالى ، فيبرز
لهم عرشه ويتبدل لهم في روضة من رياض الجنة ، فتوضع لهم منابر من نُورٍ

(١) يقتحمهم : يرموهم فيها على وجوههم .

ومنابرُ من لؤلؤٍ ومنابرُ من ياقوتٍ ومنابرُ من زبرجَدٍ ومنابرُ من ذهبٍ ومنابرُ من فضةٍ، ويجلس أديانهم وما فيهم ذنوبٌ على كُثبانٍ^(١) المسك والكافور ما يرون أن أهل الكراسي أفضلُ منهم مجلساً .

قال أبو هريرة : قلت : يا رسول الله وهل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « نَعَمْ هَلْ تَمَارُونَ فِي رُؤْيَا الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ؟ » قلنا : لا ، قال : « كَذَلِكَ لَا تَمَارُونَ فِي رُؤْيَا رَبِّكُمْ وَلَا يَبْقَى فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ أَحَدٌ إِلَّا حَاضَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى مُحَاضَرَةً حَتَّى يَقُولَ لِلرَّجُلِ مِنْهُمْ : يَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ أَتَذْكُرُ يَوْمَ كَذَا عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَلِكَ كَرُمُ يَبْعُضُ غَدْرَانِهِ فِي الدُّنْيَا فَيَقُولُ : يَا رَبِّ أَلَمْ تَغْفِرْ لِي ؟ فَيَقُولُ : بَلَى فَلَيْسَ عَمَلِي مَغْفِرَتِي بَلَغَتْ مَنَازِلَتَكَ هَذِهِ^(٢) ، فَبَيْنَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ غَشِيَتْهُمْ سَحَابَةٌ مِنْ قَوْفِهِمْ فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ طَيْبًا لَمْ يَجِدُوا مِثْلَ رِيحِهِ شَيْئًا قط ، ثُمَّ يَقُولُ : قَوْمُوا إِلَيَّ مَا أَعَدَدْتُ لَكُمْ مِنَ الْكَرَامَةِ فَخُذُوا مَا اسْتَهَيْتُمْ ، فَنَأْتِي سُوقًا قَدْ حَقَّتْ بِهِ التَّلَاسِكَةُ ، فِيهِ مَا لَمْ تَنْظُرُ الْعَيُونُ إِلَى مِثْلِهِ وَلَمْ تَسْمَعْ الْأَذَانُ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى الْقُلُوبِ ، فَيُحْتَمَلُ إِلَيْنَا مَا اسْتَهَيْتُمْ لَيْسَ بِبَاعٍ فِيهِ شَيْءٌ وَلَا يُشْتَرَى ، وَفِي ذَلِكَ السُّوقِ يَلْقَى أَهْلُ الْجَنَّةِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَيُتْبَلُّ الرَّجُلُ ذُو الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ فَيَلْقَى مَنْ هُوَ دُونَهُ وَمَا فِيهِمْ ذَنْبٌ فَيَرَوْهُ مَا بَرَى عَلَيْهِ مِنَ الْأَبَاسِ فَا يَنْقُضِي آخِرُ حَدِيثِهِ حَتَّى يَتَمَثَّلَ عَلَيْهِ أَحْسَنُ مِنْهُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَلْبَقِي لِأَحَدٍ أَنْ يَخْزَنَ فِيهَا ، ثُمَّ كَنَصَرِفُ إِلَى مَنَازِلِنَا فَتَتَلَقَانَا أَرْوَاجُنَا فَيَتَمَلَّنَ مَرَحَبًا وَأَهْلًا لَقَدْ جِئْتُ وَإِنْ

(١) جمع كُثيب : تل من الرمل سمى به لأنه انكسب أى انصب في مكان

فاجتمع فيه .

(٢) أنظر صفحة ٤٢٥ .

يَكُ مِنَ الْجَمَالِ وَالطَّيِّبِ أَكْثَرُ مِمَّا فَارَقْتَنَا عَلَيْهِ ، فَيَقُولُ : إِنَّا جَالِسْنَا الْيَوْمَ رَبَّنَا الْجَبَّارَ وَنَحْنُ أَنْ نَنْقَلِبَ بِمِثْلِ مَا أَقْلَبْنَا » :

وقال يعقوب بن سفيان في مسنده : حدثنا ابن المصنف ، حدثنا سويد بن عبد العزيز ، حدثنا عمرو بن خالد ، عن زيد بن علي ، عن أبيه ، عن جده ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَزُورُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الرَّبَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كُلِّ يَوْمٍ جُمُعَةٍ وَذَكَرَ مَا يُعْطَوْنَ » قال : ثم يقول الله تعالى : اكْشِفُوا الْحُجُبَ ، فَيَكْشِفُوا حِجَابًا ثُمَّ حِجَابًا حَتَّى يَتَجَلَّى لَهُمْ عَنْ وَجْهِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا نِعْمَةً قَبْلَ ذَلِكَ ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ^(١) .

وذكري عثمان بن سعيد الدارمي من حديث الحسن رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا أنه قال : « يَأْتِينَا رَبُّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَنَحْنُ عَلَى مَكَانٍ رَفِيعٍ فَيَتَجَلَّى لَنَا ضَاحِكًا » (مرسل صحيح) .

وقال عثمان الدارمي : حدثنا أبو موسى ، حدثنا أبو عوانة ، حدثنا الأجاج حدثنا الضحاك بن مزاحم قال : إن الله يأمر السماء يوم القيامة فتفتش بمن فيها فيحيطون بالأرض ومن فيها ، ثم يأمر السماء الثانية حتى ذكر سبع سموات فيكونون سبعة صفوف قد أساطوا بالناس ، ثم ينزل الملاك الأعلى جلَّ جلاله في بهائه وجماله ومعه ماشاء من الملائكة .

وقال عثمان بن سعيد : حدثنا هشام بن خالد الدمشقي ، وكان ثقة ، حدثنا محمد بن شعيب بن شاويز ، حدثنا عمر بن عبد الله مولى غفوة ، عن أنس بن مالك

(١) الآية ٣٥ . سورة ق .

رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جاءني جبريلُ وفي كَفِّهِ مِرْآةٌ فِيهَا نُكْتَةٌ ^(١) سَوْدَاءٌ ، قُلْتُ : مَا هَذِهِ يَا جَبْرِيلُ ؟ قال : هَذِهِ الْجُمُعَةُ أُرْسِلُ بِهَا إِلَيْكَ رَبُّكَ فَتَكُونُ هُدًى لَكَ وَلَأَمْتِكَ مِنْ بَعْدِكَ ، قُلْتُ : وَمَا لَنَا فِيهَا ؟ قال : لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ كَثِيرٌ أَنْتُمْ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَفِيهَا سَاعَةٌ لَا يُوَفَّقُهَا عَبْدٌ مُؤْمِنٌ يُصَلِّيُ يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا هُوَ لَهُ قَسَمٌ إِلَّا أَنَاهُ وَلَا خَيْرًا لَيْسَ لَهُ بِقَسَمٍ إِلَّا دُخِرَ لَهُ أَفْضَلُ مِنْهُ ، وَلَا يَسْتَعِيدُ بِاللَّهِ تِمَّا هُوَ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ إِلَّا دَفَعَ عَنْهُ أَكْثَرُ مِنْهُ ، قُلْتُ : مَا هَذِهِ النُّكْتَةُ السَّوْدَاءُ ؟ قال : هَذِهِ السَّاعَةُ يَوْمَ تَقُومُ الْقِيَامَةُ وَهُوَ سَيِّدُ الْأَيَّامِ وَنَحْنُ نُسَمِّيهِ عِنْدَنَا يَوْمَ لِلزَّيْدِ ، قُلْتُ : وَلِمَ تُسَمُّونَهُ يَوْمَ الْمَزِيدِ يَا جَبْرِيلُ ؟ قال : لِأَنَّ رَبَّكَ اتَّخَذَ فِي الْجَنَّةِ وَاِدِيًا أَفِيحَ ^(٢) مِنْ مَسَكٍ أبيضٍ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ هَبَطَ الْجَبَّارُ عَنْ عَرْشِهِ إِلَى كُرْسِيِّهِ إِلَى ذَلِكَ الْوَادِي وَقَدْ حَفَّ الْكُرُومِيُّ بِمَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ يَخْلِسُ عَلَيْهَا الصُّدَّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَجِيءُ أَهْلُ الْغُرَفِ حَتَّى يَخْفُوا بِالْكَثِيبِ ، ثُمَّ يَبْدُو لَهُمْ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَيَقُولُ : أَنَا الَّذِي صَدَقْتُكُمْ وَعَدَيْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَأَحْلَلْتُكُمْ دَارَ كَرَامَتِي فَسَلُونِي ، فَيَقُولُونَ بِأَجْمَعِهِمْ : نَسْأَلُكَ الرِّضَا عَدَا ، فَيَشْهَدُ لَهُمْ عَلَى الرِّضَا ثُمَّ يَقُولُ لَهُمْ : سَلُونِي ، فَيَسْأَلُونَهُ حَتَّى يَنْتَهِيَ نَهْمُهُ ^(٣) ، كُلُّ عَبْدٍ مِنْهُمْ ثُمَّ يَقُولُ : سَلُونِي ، فَيَقُولُونَ : حَسْبُنَا رَبُّنَا رَضِينَا ، فَيَرْجِعُ الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ إِلَى

(١) النكته في الشيء كالنقطة : وهي النقطة السوداء في الأبيض وقيل البيضاء .

في الأسود .

(٢) أفحيح : واسع عصب .

(٣) النهمة : الحاجة ، وبلوغ الشهوة في كل شيء .

(٨ م — روحنة المحبين)

عَرْشِهِ فَيُفْتَحُ لَهُمْ بِقَدْرِ إِشْرَاقِهِمْ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. وَيَرْجِعُ أَهْلُ الْغُرَفِ إِلَى غُرَفِهِمْ وَهِيَ غُرْفَةٌ مِنْ لَوْلُؤَةٍ بَيْضَاءَ وَيَأْقُوتَةُ حَمْرَاءَ وَزُمُرْدَةٌ خَضْرَاءَ لَيْسَ فِيهَا قَصَمٌ وَلَا وَصْمٌ^(١) مُطَرَّدَةٌ أَنْهَارُهَا مُتَدَلِّيَةٌ فِيهَا ثَمَارُهَا، فِيهَا أَزْوَاجُهَا وَخَدَمُهَا وَمَسَاكِينُهَا فَلْيَسُوا إِلَى يَوْمِ أَخْرَجَ مِنْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ لِيَزِدَادُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا .

رواه عن أنسٍ جماعةٌ منهم عثمان بن عُمَيْرٍ بن اليقظان^(٢) ومن طريقه رواه الشافعي في مسنده ، وعبد الله بن الإمام أحمد في السنة^(٣) ، ومنهم أبو صالح ، والزيير بن عدي ، وعلى بن الحكم البناني ، وعبد الملك بن عُمَيْرٍ ، ويزيد الرقاشي وعبد الله بن بُرَيْدَةَ ، كلهم عن أنسٍ وصححه جماعة من الحفاظ ، وزاد الشافعي في مسنده في آخره : « وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي اسْتَوَى فِيهِ رَبُّكُمْ عَلَى الْعَرْشِ » وساقه عثمان بن أبي شيبة من طريق ، وقال في بعضها : « ثُمَّ يَتَجَلَّى لَهُمْ رَبُّهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَيَقُولُ : أَنَا الَّذِي صَدَقْتُمْ وَعَدِي وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَهَذَا مَحَلُّ كَرَامَتِي » إلى أن قال : « ثُمَّ يَرْتَفِعُ عَلَى كُرْسِيِّهِ وَيَرْتَفِعُ مَعَهُ النَّبِيُّونَ وَالصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَيَرْجِعُ أَهْلُ الْغُرَفِ إِلَى غُرَفِهِمْ » .

وروى محمد بن الزبير بن عدي ، عن مقاتل بن حيان ، عن أبي الزبير ، عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ

(١) قصمه قصماً : كسره وأبانه ؛ وقيل كسره وإن لم يكن . ووصم الشيء وصماً : صدعه وعابه . والمعنى : ليس فيها كسر ولا عيب .

(٢) كذا . . والصواب : أبو اليقظان كما جاء في تهذيب التهذيب .

(٣) كذا . . ولعل الصواب في المسند .

لِيَحْتَاكِبُونَ إِلَى الْعُلَمَاءِ فِي الْجَنَّةِ كَمَا يَحْتَاكِبُونَ إِلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَذَلِكَ أَنَّهُمْ
يَزُورُونَ رَبَّهُمْ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ فَيَقُولُ لَهُمْ : تَمَنُّوا ، فَيَقُولُونَ : وَمَا نَتَمَنَّى وَقَدْ
أَدْخَلْتَنَا الْجَنَّةَ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا أَعْطَيْتَنَا ، فَيَقَالُ لَهُمْ : تَمَنُّوا ، فَيَكْتَفِتُونَ إِلَى
الْعُلَمَاءِ » وذكر الحديث في قصة الجمعة .

وروى ابن مندّة من حديث الأعمش ، عن أبي وائل ، عن حذيفة رضى
الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قصة الجمعة بطولها وفيها يقول : « سَأَلُونِي
فَيَقُولُونَ : أَرِنَا وَجْهَكَ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَنْظُرُ إِلَيْكَ ، فَيَكْشِفُ اللَّهُ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى تِلْكَ الْحُجُبَ وَيَتَجَلَّى لَهُمْ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ » .

وذكر عثمان الدارمي ، عن محمد بن كعب القرظي ، أنه حدث عمر بن
عبد العزيز قال : إذا فرغ الله من أهل الجنة والنار أقبل في ظلل من النعام
والملائكة فيسلم على أهل الجنة في أول درجة فيردون عليه السلام ، قال القرظي :
وهذا في القرآن (سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ)^(١) فيقول : سلوني ، يفعل بهم
ذلك في درجهم حتى يستوى على عرشه ، ثم تأتيهم الصحف من الله تحمله^(٢)
للملائكة إليهم .

وقال عبد الواحد بن زيد ، عن الحسن : لو علم العابدون أنهم لا يرون
ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدنيا . وقال هشام بن حسان عنه أنه تبارك
وتعالى يعجل لأهل الجنة فإذا رأوه نسوا نعيم الجنة .
أعجب العبر صبر الحبين . قال الشاعر :

(١) الآية ٥٨ . سورة يس .

(٢) كذا . . . ولعل العوَاب : تحملها .

والصبرُ يُحمَدُ في المواطنِ كلها إِلَّا عليك فإنه لا يُحمَدُ^(١)
وقف رجلٌ على الشبلى فقال : أى الصبر أشدُّ على الصابرين ؟ قال : الصبر
في الله ، فقال السائل : لا ، فقال : الصبر لله . قال : لا ، قال : فالصبر مع الله ،
قال : لا ، قال : فما هو ؟ قال : الصبر عن الله ، فصرخ الشبلى صرخةً كادت
روحه تزهق . قال الشاعر :

والصبرُ عنك فذمومٌ عواقبه والصبرُ في سائر الأشياء محمود
الخوف يبعدك عن معصيته ، والرجاء يخرجك إلى طاعته ، والحب يسوقك
إليه شوقاً . لما علم الله سبحانه أن قلوبَ المشتاقين إليه لا تهتد إلا ببقائه ضرب لهم
أجلاً للقاء تسكيناً لقلوبهم ، فقال الله تعالى :

(مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ)^(٢) .

يا من شكى شوقه من طول فرقه إصبر لعلك تلقى من تحب غدا
وسر إليه بنار الشوق مجتهداً عساك تلقى على نار الغرام هدى
الحب الصادق كلما قرب من محبوبه زاد شوقاً إليه .

وأعظم ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام^(٣)
كلما وقع بصرُ الحب على محبوبه أحدثت له رؤيته شوقاً على شوقه :
ما يرجع الطرفُ عنه حين يبصره حتى يعود إليه الطرفُ مشتاقاً
الحب الصادق إذا سافر طرفه في الكون لم يجد له طريقاً إلا على محبوبه ،

(١) تقدم في صفحة ٢٦٦ باختلاف في اللفظ .

(٢) الآية ٥ . سورة النكبات .

(٣) وروى : إذا دنت الديار من الديار .

فإذا انصرف بصره عنه رجع إليه خاسئاً وهو حسير^(١) .

وَيَسْرَحُ طرفي في الأنام وينتني وإنسان عيني بالذموم غريق
فَيَرْجِعُ مردوداً إليك وماله على أحدٍ إلا عليك طريق
أقرُّ شيء لعيون الحب خلوته بسرّه مع محبوبه . حدّثني من رأى شيخنا
في عنقوان أمره ، خرج إلى البرية بكرة فلما أحمر^(٢) تنفّس الصعداء ثم تمثّل
بقول الشاعر :

وأخرجُ من بين البيوت لعلني أحدث عنك القلبَ بالسرّ خاليا^(٣)
الشوقُ يحملُ الحبَّ على العجلة في رضا المحبوب والمبادرة إليها على الفور
ولو كان فيها تلافه . (وما أعجلكَ عن قومِك ياموسى . قالَ لهم أولاءَ هلّى
أترى وعجّلتُ إليك ربّ لترضى)^(٤) قال بعضهم : أراد شوقاً إليك فستره
بلفظ الرضا .

ولو قلت طأ في النارِ أعلمُ أنه رضا لك أو مدني لنا من وصالك
لقدّمت رجلى نحوها فوطئتها هدّى منك لي أو ضلّلت من ضلالك
ليهنك إمساكي بكفى على الحشا ورقراق عيني خشية من زِيالك^(٥) .

(١) خاسئاً : ذليلاً ، وحسير : كليل ، ضعيف ، أعياء النظر والبحث . قال تعالى : (ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حمير) .

(٢) أحمر الرجل : خرج إلى الصحراء .

(٣) تقدم في صفحة ٢٨١ .

(٤) الآيتان ٨٣ و ٨٤ . سورة طه .

(٥) رقرق الماء وغيره : صبه برقة ، وعينه : أجرى دمعها ، والرقراق من الأشياء ما تلالأ ومن الدمع ما ترقرق منه . زِيالك : فرانك ، وزاياله مزايلة وزيالاه : فارقه .

وإن ساءنى أن نلتنى بمساءة . لقد سرّنى أنى خطرتُ ببالك
من علامات المحبة الصادقة أن الحب لا يَتمُّ له سرورٌ إلاَّ بمحبوبه ،
ما دام غائباً عنه فعيشه كله مُنْقَصٌ .

نحن فى أكمل السرور ولكن ليس إلاَّ بكم يَتمُّ السرورُ
عيبُ ما نحن فيه يا أهل ودى أنكم غُيِّبَ ونحن حضورُ
وقال آخر :

من سرّه العيدُ الجديد فقد عَدِمَتْ به السرورا
كان السرور يَتمُّ لى لو كان أحبّابى حضورا
لو قيل للمحبِّ على الدوام : ما تتمنى ؟ لقال : لقاء المحبوب .

ولما نزلنا منزلاً طله الندى أنيقاً وبستاناً من النورِ حالياً^(١)
أجد^(٢) لنا طيبُ المكان وحسنه منى فتمنينا فكنت الأمانيا

وقال الجنيد : سمعت السرى يقول : الشوق أجلُّ مقامٍ العارف إذا تحقّق
فيه ، وإذا تحقّق بالشوق لها عن كل ما يشغله عن يشاق إليه . وقيل : أوحى
الله تعالى إلى داود عليه السلام ، قل لشبان بنى إسرائيل لم تشغلون نفوسكم
بغيرى وأنا مشتاق إليكم ؟ ما هذا الجفاء ؟ ولو يعلم المدبرون عنى كيف انتظارى
لم ورنى بهم ومحبتى لترك معاصيهم لما تواسوا شوقاً إلىّ وانقطعت أوصالهم من
محبتى . هذه إرادتى للمدبرين عنى فكيف إرادتى للمقبلين علىّ ؟ وسئل الجنيد
من أى شيء بكاء الحب إذا لقي المحبوب ؟ فقال : إنما يكون ذلك سروراً به .

(١) حالياً . مزداناً .

(٢) أجد : أحدث .

ووجدنا من شدة الشوق إليه ، قال : ولقد بلغني أن أخوين تانقا قتال أحدهما :
واشوقاه وقال الآخر : وارجداه . وكانت عجوز لها غائب فقدم من السفر
فأظهر أهلها الفرح والسرور به . فجعلت تبكي فليل لها : ما هذا اليكاه ؟ فقالت :
ذكرني قدوم هذا الفتى يوم القدوم على الله .

وقال بعض الحبين : قلوب المشتاقين منورة بنور الله ، فإذا تحرك اشتياقهم
أضاء النور ما بين السماء والأرض ، فيعرضهم الله سبحانه وتعالى على الملائكة
فيقول : هؤلاء المشتاقون إلى أشهدكم أني إليهم أشوق .

فصل

قال ابن أبي الحواري رحمه الله تعالى : سئل أبو سليمان الداراني رحمه الله
وأنا حاضر ما أقرب ما يتقرب به إلى الله عز وجل ؟ فبكي ثم قال : مثلي يسأل
عن هذا ؟ أقرب ما يتقرب به إليه أن يطالع على قلبك وأنت لا تريد من الدنيا
والآخرة إلا هو^(١) . وقال يحيى بن معاذ : النسك هو العناية بالسرائر وإخراج
ما سوى الله من القلب . وقال سهل بن عبد الله : ما من ساعة إلا والله سبحانه
يطلع فيها على قلوب العباد ، فأى قلب رأى فيه غيره سخط عليه إبليس . وقال
سهل بن عبد الله : من نظر إلى الله عز وجل قريبا منه بعد عن قلبه كل شيء
سوى الله ، ومن طلب مرضاته أرضاه الله سبحانه وتعالى ، ومن أحلم قلبه إلى
الله تولى الله جوارحه . وقال سهل أيضا : حرام على قلب أن يشتم راحة اليقين
وفيه سكون إلى غير الله ، وحرام على قلب أن يدخله النور وفيه شيء مما يكره
الله . وسئل بعضهم عن أفضل الأعمال فقال : رعاية السر عن الالتفات إلى شيء

(١) كذا . . وفي حلية الأولياء : والآخرة غيره .

سوى الله عز وجل . وقال مسلم^(١) : تركتهوه وأقبل بعضهم على بعض ، لو أقبلتم عليه لرأيتم العجائب .

فصل

فإن تقاصرت^(٢) همُّك الدنيَّة عن ترك الفواحش محبةً لهذا المحبوب الأعلى ولست هناك فاتركها محبةً للنساء اللاتي وصفهن الله في كتابه ، وبعث رسوله داعياً إلى صالهن في جنة المأوى . وقد تقدّم ذكرُ بعض صفاتهن ولذة صالهن ، فإن تقاصرت همُّك عنهن ولم تكن كفوّاً لخطبتهم ودعتك نفسك إلى إثارة ما هاهنا عليهن فكُن من عقوبته العاجلة والآجلة على حذر . واعلم أن العقوبات تختلف ، فتارةً تُعجل وتارةً تؤخر وتارةً يجمع الله على العاصي بينهما . وأشدُّ العقوبات العقوبة بسلب الإيمان ، ودونها العقوبة بموت القلب ومحو لذة الذكر والقراءة والدُّعاء والنجاة منه ، وربما دبت عقوبة القلب فيه ذيب الظلمة إلى أن يمتليء القلبُ بهما فتعمي البصيرة ، وأهونُ العقوبة ما كان واقعاً بالبدن في الدنيا ، وأهونُ منها ما وقع بالمال ، وربما كانت عقوبة النظر في البصيرة أو في البصر أو فيهما .

قال الفضيل : يقول الله تعالى : ابن آدم إذا كنتُ أقلبُك في نعمتي وأنت تتقلب في معصيتي فاحذر لئلا أصرعك بين معاصيك ، ابن آدم اتقني ونم حيث شئت ، إنك إن ذكرتني ذكرتُك ، وإن نسيتني نسيتُك ، والساعة التي لا تذكرني فيها عابيك لا لك .

(١) كذا . . وفي لسان الميزان : سلم ، وفي حلية الأولياء : سالم وهو ابن ميمون الخواصر الزاهد .

(٢) تقاصرت : تضاء لك وعجزت .

وقال الفضيل أيضاً : ما يؤمنك أن تكون بارزت الله تعالى بعملٍ مقتك عليه فأغلقَ عنك أبوابَ المغفرة وأنت تضحك ؟ وقال علقمة بن مرثد : بينا رجلٌ يطوف بالبيت إذ برق له ساعدُ امرأةٍ فوضع ساعده على ساعدها فالتذ به فلصقت ساعدهما ، فأتى بعض أولئك الشيوخ فقال : ارجع إلى المسكن الذي فعلت هذا فيه فماهد رب البيت أن لا تعود ، ففعل فخلى عنه .

وقال ابن عباس ، وأنس رضي الله عنهم : إن للحسنة نوراً في القلب ، وزيناً في الوجه ، وقوة في البدن ، وسعة في الرزق ، ومحبة في قلوب الخلق . وإن للسينة ظلمة في القلب . وشيناً في الوجه ، وهناً في البدن ، ونقصاً في الرزق ، وبغضة في قلوب الخلق .

وقال الحسن : ماعصى الله عبداً إلا أذاه الله . وقال المعتز بن سليمان : إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعاليه مدلته . وقال الحسن : هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم . وكان شيخ من الأعراب يدور على المجالس ويقول : من سره أن تدوم له العافية فليتنق الله .

وقال أبو سليمان الداراني : من صفا صفا له ، ومن كدر كدر عليه ، ومن أحسن في ليله كفي في نهاره ، ومن أحسن في نهاره كفي في ليله ، ومن ترك لله شهوة من قلبه فالله أكرم أن يعذب بها قلبه . وكتبت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إلى معاوية : أما بعد فإن العامل إذا عمل بمصية الله عاد حامده من الناس ذاماً .

وقال مجارب بن دثار : إن الرجل ليذنب الذنب فيجد له في قلبه وهناً . وقال الحسين بن مطير :

وانفسك أكرم عن أمور كثيرة
فما لك نفسٌ بفسادها تستعيرها .

ولا تقرب الأمر^(١) الحرام فإيما حلاوته تنفى ويبقى مسرورها

وكان سفيان الثوري يتمثل يهذين البيتين :

تنفى اللذائذ من ذاتي^(٢) صفوتها من الحرام ويبقى الإثم والعار
تبقى عواقب سوء في مغبتها لا خير في لذة من بعدها النار

فصل

واعلم أن الجزاء من جنس العمل ، والقلب معلق بالحرام كلما هم أن يفارقه
ويخرج منه عاد إليه ، ولهذا يكون جزاؤه في البرزخ وفي الآخرة هكذا .

وفي بعض طرُق حديث سَمُرَةَ بن جُنْدُب الذي في صحيح البخاري أن
النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيْانِي فَأَخْرَجَانِي فَأَنْطَلَقْتُ
مَعَهُمَا فَإِذَا بَيْتٌ مَبْنِيٌّ عَلَى مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ أَعْلَاهُ ضَيْقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ
يُوقَدُ تَحْتَهُ نَارٌ فِيهِ رَجُلٌ وَنِسَاءٌ عُرَاءٌ فَإِذَا أُوقِدَتِ النَّارُ ارْتَفَعُوا حَتَّى
يَكَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا فَإِذَا أُخِذَتْ رَجَعُوا فِيهَا فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ :
هُمْ الزُّنَاةُ » . فتأمل مطابقة هذا العذاب لحال قلوبهم في الدنيا فإنهم كلما هموا
بالتوبة والإقلاع والخروج من ثغور الشهوة إلى فضاء التوبة أركسوا^(٣) فيه
وعادوا بعد أن كادوا يخرجون .

ولما كان الكفار في سجن الكفر والشرك وضيقه وكانوا كلما هموا

(١) تقدم البيتان في صفحة ٣٣٠ وفيها : ولا تقرب المرعى الحرام الخ .

(٢) تقدم البيتان في صفحتي ٣٣٠ و ٣٧٤ .

(٣) أركسوا فيه : ردوا إليه وأعيدوا إليه ، قال تعالى (كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها) أى عادوا إليها وقلبوا فيها أقبح قلب .

بالخروج منه إلى فضاء الإيمان وسعته وروحه رجعوا على حوافرهم كان عقوبتهم في الآخرة كذلك ، قال الله تعالى : (كَلِمَاتٍ أَرَادُوا أَنْ يَخْرِجُوا مِنْهَا أَعْيِدُوا فِيهَا)^(١) . وقال في موضع آخر : (كَلِمَاتٍ أَرَادُوا أَنْ يَخْرِجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا)^(٢) فالكفر والمعاصي والفسوق كله غموم ، وكلما عزم العبد أن يخرج منه أبت عليه نفسه وشيطانه ومآلغه ، فلا يزال في غم ذلك حتى يموت ، فإن لم يخرج من غم ذلك في الدنيا بقي في غمه في البرزخ وفي القيامة ، وإن خرج من غمه وضيقه هاهنا خرج منه هناك ، فما حبس العبد عن الله في هذه الدار حبسه عنه بعد الموت ، وكان معذباً به هناك كما كان قلبه معذباً به في الدنيا ، فليس المشاق^(٣) والفجرة والظلمة في لذّة في هذه الدار ، وإنما هم يعدّون فيها وفي البرزخ وفي القيامة ، ولكن سكر الشهوة وموت القلب حال بينهم وبين الشعور بالألم ، فإذا حيل بينهم وبين ما يشتهون أحضرت نفوسهم الألم الشديد ، وصار يعمل فيها بعد الموت نظير ما يعمل الدود في لحومهم . فالآلام تأكل أرواحهم غير أنها لا تنفى ، والدود يأكل جسامهم .

قال الإمام أحمد رضي الله عنه : حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم قال : حدثني عبد الصمد بن معقل ، حدثني وهب بن منبه قال : كان حزقيल قائماً فأتاه ملك فذكر حديثاً طويلاً لا وفيه أنه سرّ بقوم أموات فقيل له : ادعهم فدعاهم فأحياهم الله له فقال : سالمهم فيم كنتم ؟ فقالوا : لما فارقنا

(١) الآية ٢٠ . سورة السجدة .

(٢) الآية ٢٢ سورة الحج .

(٣) كذا . . . ولعلها النفساق ، وهي بالصواب أشبه .

الحياةَ لَقِينَا مَلَكًا يَقَالُ لَهُ مِيكَائِيلُ فَقَالَ : هَلُمُّوا أَعْمَالَكُمْ وَخُذُوا أَجُورَكُمْ
فَذَلِكَ سُنَّتُنَا فِيكُمْ وَفِي مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَفِي مَنْ هُوَ كَأَنْ بَعْدَكُمْ ، فَانْظَرُوا فِي
أَعْمَالِنَا فَوَجَدُونَا نَعْبُدُ الْأَوْثَانَ ، فَسَاطَ الدُّودُ عَلَى أَجْسَادِنَا وَجَعَلَتِ الْأَرْوَاحُ
تَأَلَّمُ ، وَنَلَّطَ النِّعَمَ عَلَى أَرْوَاحِنَا وَجَعَلَتِ الْأَجْسَادُ تَأَلَّمُ ، فَلَمْ نَزَلْ كَذَلِكَ نَعَذِّبُ
حَقَّ دَعْوَتِنَا .

الباب السابع والعشرون

قبض ترك محبوبه مراما فبذل له مهلا أو أعاضه الله خبراً منه

عنوانُ هذا الباب وقاعدته أن من ترك لله شيئاً عوضه الله خيراً منه ، كما ترك يوسف الصديق عليه السلام امرأة العزيز لله واختار السجنَ عَلَى الفاحشة فعوضه الله أن مكَّنه في الأرض يتبوا^(١) منها حيث يشاء ، وأتته المرأة صاغرةً سائلةً رغبةً في الوصل الحلال فتزوجها ، فلما دخل بها قال : هذا خير مما كنت تريدن . فتأمل : كيف جزاه الله شبعانه وتعالى عَلَى ضيق السجن أن مكَّنه في الأرض ينزل منها حيث يشاء ، وأذلَّ له العزيزَ وامرأته ، وأقرَّت المرأة والنسوة ببراءته ، وهذه سُنَّتُه تعالى في عباده قديماً وحديثاً إلى يوم القيامة . ولما عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخليلَ التي شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس سخر الله له الرِّيحَ يَسِيرُ عَلَى مَتْنِهَا^(٢) حيث أَرَادَ . ولما ترك المهاجرون ديارَهم لله وأوطأهم التي هي أحبُّ شيء إليهم أعاضهم الله أن فتح عليهم الدنيا وملَّكهم شرقَ الأرض وغربها . ولو اتقى الله السارقُ وترك سَرِقَةَ المالِ المعصومِ لله لآتاه الله مثله حلالاً ، قال الله تعالى : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَنَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)^(٣) فأخبر الله شبعانه وتعالى ، أنه إذا اتقاه بترك أخذ مالا يَحِلُّ له رَزَقَهُ الله من حيث لا يحسب ، وكذلك الزاني

(١) تبوأ منزلاً : نزله واتخذهُ سكناً . وبوأه منزلاً : هيأه ومكن له فيه .

(٢) المتن : الظهر .

(٣) الآيات ٣٠ و ٣١ . سورة الطلاق .

لو ترك ركوب ذلك الفرج حراماً لله لأثابه الله بركوبه أو ركوب ما هو خير منه حلالاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هشيم ، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق ، عن محارب بن دثار ، عن صليّة ، عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « النَّظَرَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ مَسْمُومٌ مَنْ تَرَكَهُ خَوْفَ اللَّهِ أَثَابَهُ اللَّهُ إِيْمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ ^(١) » .

وقال عمر بن شبة : حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ، حدثنا عذبة بن عبد الرحمن ، حدثنا أبو الحسن المدنى ، عن علي رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نَظَرُ الرَّجُلِ فِي نَحْسِ الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ مَسْمُومٌ فَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ السَّهْمِ أَعْقَبَهُ اللَّهُ عِبَادَةً تَسْرُهُ ^(٢) » .

وقال أبو الفرج بن الجوزى رحمه الله تعالى : بلغنى عن بعض الأشراف أنه اجتاز بمقبرة فإذا جارية حسناء عليها ثياب سواد ، فنظر إليها فعلقت بقلبه فكتب إليها :

قد كنت أحسب أن الشمس واحدة

والبدر في منظر الحسن موصوف

حتى رأيْتُك في أثواب ناكلة

سود وصدغك فوق الخلد معطوف

فرحت والقلب منى هائم ديف

والسكبد حرى ودمع العين مذروف

رُدِّي الجوب فففيه الشكرُ واغتنمي
وصل الحب الذي بالحب مشغوف
ورمي بالرقعة إليها ، فلما قرأتها كتبت :

إِن كنت ذا حسبٍ زالكِ وذا نسبٍ
إِن الشريفَ بغضُ الطرفِ معروفُ
إِن الزُّناةُ أناسٌ لا خَلَقَ لهم فاعلم بأنك يومَ الدين موقوفُ
واقطع رَجاكِ لحاكِ الله^(١) من رجلٍ فَإِن قلبي عن الفحشاء مصروفُ
فلما قرأت الرُّقعة زجر نفسه وقال : أليس امرأةٌ تسكون أشجعَ منك ؟ ثم
تاب وابسِ مدرعة^(٢) من الصوف والتجأ إلى الحرم ، فبينما هو في الطواف يوماً
وإذا بتلك الجارية عليها درعٌ من صوف فقالت له : ما أليق هذا بالشريف ،
هل لك في البباح ؟ فقال : قد كنت أروم هذا قبل أن أعرف الله وأحبه ،
والآن قد شغلني حبه عن حبِّ غيره ، فقالت له : أحسنت ، ثم طافت وهي تنشد :
فطفنا فلاحت في الطواف لوائحُ غَنِينَا بها عن كل مرأى ومسمع
وقال الحسن البصري : كانت امرأةٌ بَغِيٌّ قد فاقت أهل عصرها في الحسن
لا تمكِّن من نفسها إلا بمائة دينار ، وإن رجلاً أبصرها فأعجبته . فذهب فعَمِلَ
بيديه وعالج^(٣) فجمع مائة دينار ، فجاء فقال : إنكِ قد أعجبتي فأنطلقت فعمِلت
بيدي وعالجت حتى جمعت مائة دينار فقالت : ادفعيها إلى القَهْرمان^(٤) حتى
يَنقُدها ويزنها ، فلما فعل قالت : ادخل ، وكان لها بيت مُمَجَّدٌ وسريرٌ من

(١) لحاك الله : أى قبحك ولعنك .

(٢) المدرعة : ثوب من الصوف وجبة مشقوفة المقدم .

(٣) عالج الشيء معالجه وعلاجاً : مارسه وزاوله .

(٤) القهرمان : الوكيل الخاص بتدبير شرجها ودخلها .

ذهب فقالت : هلم لك ، فلما جلس معها مجلس الخائن تذكر مقامه بين يدي الله فأخذته رعدةً وطفت شهوته فقال : أتركيني لأخرج ولك المائة دينار ، فقالت : ما بدا لك وقد رأيته كما زعمت فأعجبته فذهبت فعالت وكذحت حتى جمعت مائة دينار فلما قدرت على فعلت الذي فعلت ؟ فقال : ما حملني على ذلك إلا القرقي من الله ، وذكرت مقامى بين يديه ، قالت : إن كنت صادقاً فالى زوج غيرك قال : ذرينى لأخرج قالت : لا إلا أن تجعل لى عهداً أن تزوجنى فقال : لا حتى أخرج ، قالت : عليك عهد الله إن أنا أتيتك أن تزوجنى ، قال : لعل ، فتفتح بثوبه ثم خرج إلى بلده ، وارتحلت المرأة بدنياها نادمة على ما كان نها حتى قدمت بلده ، فسألت عن اسمه ومنزله فدلت عليه ، فقيل له : للمسكة جاءت بنفسها تسأل عنك ، فلما رآها شقيق شهقة فأت ، فأسقط^(١) فى يدها فقالت : أما هذا فقد فاتنى ، أما له من قريب ؟ قيل : بلى أخوه رجل فقير ، فقالت : إني أتزوجك حباً لأخيك ، قال : فتزوجته فولدت له سبعة أبناء .

وقال يحيى بن عامر التميمي : خرج رجل من الحى حاجاً فورد بعض المياه ليلاً ، فإذا هو بامرأة ناشرة شعرها ، فأعرض عنها فقالت له : هلم إلى فلم تعرض عني ؟ فقال : إني أخاف الله رب العالمين ، فتجلببت^(٢) ثم قالت : هبت والله منها ، إن أولى من شركك فى الهية لمن أراد أن يشركك فى المعصية ، ثم ولت فتبعها ، فدخلت بعض خيام الأعراب ، قال : فلما أصبحت أتيت رجلاً من القوم فدأته عنها وقلت : فتاة صفها كذا وكذا فقال : هى

(١) أسقط فى يدها . بصيغة المجهول : تحيرت وتحسرت على ما فاتها وندمت

على ما ضاع منها .

(٢) تجلببت : لبست الجلباب ، والجلباب الفميص والخمار وما يلبس فوق الثياب كالملحفة والملاءة تشتمل بها المرأة .

والله ابنتي ، فقلت : هل أنت مُزَوَّجِي بها ؟ فقال : على الأكفاء فمن أنت ؟
 فقلت : رجلٌ من تيم الله ، قال : كفوا كريم ، فما رمتُ حتى تزوجتها ودخلت
 بها ، ثم قلت : جهزوها إلى قدومي من الحج ، فلما قدمنا حملتها إلى الكوفة ،
 وها هي ذى ولي منها بنون وبنات ، قال : فقلت لها : ويحك ما كان تعرضُكِ
 لي حينئذ ؟ فقلت : يا هذا ليس للنساء خيرٌ من الأزواج ، فلا تعجن من
 امرأة تقول هويت ، فوالله لو كان عند بعض السودان ما تريده من هواها لكان
 هو هواها .

وقال الحسن بن زيد : ولينا بديار مصر رجلٌ فوجد^(١) على بعض عماله
 خبسه وقيدته ، فأشرفت عليه ابنة الوالى فتوَيْتَهُ فكتبته إليه :
 أيها الرامى بعينيه وفى الطرف الختوفُ
 إن تُرِدْ وصلاً فقد أمكك الطيُّ الأوفُ
 فأجابها الفتى :

إن ترَيتى زانىَ العَيْنَيْنِ فالفرجُ عَنيف^(٢)
 ليس إلّا النظرُ الفا ترُ والشعرُ الطريفُ
 فأجابته :

قد أردناك فألقيناك إنساناً عفيفاً
 فتأبَّيت فلا زلتَ لقيدك حاميةً
 فأجابها :

(١) وجد عليه : غضب .

(٢) تقدم البيتان فى صفحة ٣٤٠ .

ما تأييت لاني كنت للظبي عيوقاً^(١)
غير أني خفتُ ربّاً كان بي برّاً لطيفاً

فذاق الشعر وبلغت القصّة الوالى فدعا به فزوجه إياها ودفعها إليه .

وذكر أن رجلاً أحب امرأة وأحبته ، فاجتمعا فراودته المرأة عن نفسه فقال : إن أجلي ليس بيدي ، وأجلك ليس بيدك ، فربما كان الأجل قد دنا فلتقى الله عاصمين ، فقالت : صدقت ، فتابا وحسنت حالهما وتزوجت به .

وذكر بكر بن عبد الله المزني أن قصّاباً واسعَ تجارية لبعض جيرانه ، فأرسلها أهلها إلى حاجة في قرية أخرى ، فتبعها فراودها عن نفسها ، فقالت : لا تفعل : لأننا أشدُّ حبّاً لك مني ، ولست أريد أن أخاف الله ، قال : فأنت تخافينه وأنا لا أخافه ؟ فرجع تائباً ، فأصابه العطش حتى كاد ينقطع عنقه ، فإذا هو برسول لبنى إسرائيل ، فسأله فقال : مالك ؟ قال : العطش ، فقال : تعال حتى ندعو الله حتى تظلمنا سحابة حتى ندخل القرية ، قال : مالي من عمل فأدعوه ، قال : فأما أدعوه وأمن أنت ، فدعا وأمن الرجل ، فأظلتها سحابة حتى انتهيا إلى القرية ، فذهب القصّاب إلى مكانه فرجعت السحابة معه ، فرجع إليه الرسول فقال : زعمت أن ليس لك عمل وأنا الذي دعوت وأنت أمنت ، فظلمتنا سحابة ثم تبعتك ، أتمخّبرني ما أمرُك ، فأخبره ، فقال الرسول : إن التائب إلى الله يمكنه ليس أحد من الناس بمكانه .

وقال يحيى بن أيوب : كان بالمدينة فتى بمحبب عمر بن الخطاب رضي الله عنه شأنه ، فأنصرف ليلة من صلاة العشاء فتعثّلت^(٢) له امرأة بين يديه .

(١) عيوقاً : كارهاً ، وعاف الشيء : تركه وزهد فيه .

(٢) تعثّلت له : عرضت له بنفسمها وظهرت له .

فعرّضت^(١) له بنفسها ففتنَ بها ومضت ، فأتبعها حتى وقف كلّ بابها فأبصر وجلا عن قلبه وحضرته هذه الآية : (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)^(٢) فخر مغشياً عليه ، فنظرت إليه المرأة فإذا هو كالليت ، فلم تزل هي وجارية لها يتعاونان عليه حتى ألقياه على باب داره ، فخرج أبوه فرآه مُلْتَمِئاً على باب الدار لما به فحمله وأدخله فأفاق ، فسأله ما أصابك يا بني ؟ فلم يخبره ، فلم يزل به حتى أخبره ، فلما تلا الآية شهِقَ شهقةً فخرجت نفسه ، فبلغَ عمرَ رضى الله عنه قصته فقال : أَلَا آذَنْتُمُونِي^(٣) بموته ؟ فذهب حتى وقف على قبره فنادى : يَا فُلَانُ (وَلَيْنَ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)^(٤) فسمع صوتاً من داخل القبر : قَدْ أَعْطَانِي رَبِّي يَا عَمْرُ .

وذكر الحسن هذه القصة عن عمر رضى الله عنه على وجه آخر قال : كان شاباً على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ملازماً للمسجد والعبادة ، فهو يَتَمُّ جاريةً فحدث نفسه بها ، ثم إنه تذكر وأبصر فشهِقَ شهقةً ففُشِيَ عليه منها ، فجاء عمُّ له فحمله إلى بيته ، فلما أفاق قال : يا عمّ انطلق إلى عمر فأقرئه مني السلام وقل له : ما جزاء من خاف مقام ربه ؟ فأخبر عمر فأتاه وقد مات فقال : لك جَنَّتَانِ .

وفى جامع الترمذى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كَانَ ذُو الْكِفْلِ^(٥) لَا يَتَوَرَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ ،

(١) عرضت له بنفسها : تصدت له وأغرته بها .

(٢) الآية ٢٠١ سورة الأعراف .

(٣) آذنتموني : أعلمتكموني .

(٤) الآية ٤٦ سورة الرحمن .

(٥) تقدمت هذه القصة في صفحة ٢٢٢ .

فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَأَعْطَاهَا سِتِينَ دِينَارًا عَلَى أَنْ يَطَّأَهَا ، فَلَمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنْ امْرَأَتِهِ أُرْعِدَتْ وَبَسَكَتْ ، فَقَالَ مَا يُبْكِيكِ ؟ أَكْرَهْتُكَ ؟ قَالَتْ : لَا وَلَسَكِنْ هَذَا عَمَلٌ لَمْ أَعْمَلْهُ وَإِنَّمَا سَحَلْتَنِي عَلَيْهِ الْحَاجَةُ ، قَالَ : فَتَفْعَلِينَ هَذَا وَأَنْتِ لَمْ تَفْعَلِيهِ [قَطُّ] ؟ ثُمَّ قَالَ ، اذْهَبِي وَالِدَتَايِرُ لَكَ ، ثُمَّ قَالَ : وَاللَّهِ لَا يَمْنَعِي اللَّهُ ذُو السِّكْفِلِ أَبَدًا ، فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ فَأَصْبَحَ مَكْتُوبًا عَلَى تَابِيهِ : قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لِنَبِيِّ السِّكْفِلِ . قَالَ التِّرْمِذِيُّ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ .

وقال أبو هريرة ، وابن عباس رضى الله عنهما : خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته فقال في خطبته : « وَمَنْ قَدَّرَ عَلَى امْرَأَةٍ أَوْ جَارِيَةٍ حَرَامًا فَتَرَكَهَا خَافَةً مِنَ اللَّهِ أَمِنَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقَزَعِ الْأَكْبَرِ وَحَرَّمَهُ عَلَى النَّارِ وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ » .

وقال مالك بن دينار : جنات النعيم بين الفردوس وبين جنات عدن . فيها جوارٍ خُلِقْنَ مِنْ وَرْدِ الْجَنَّةِ ، يسكنها الذين هموا بالمعاصي فلما ذكروا الله عز وجل راقبوه ، فالتفت رقابهم من خشية الله عز وجل .

قال ميمون بن مهران : الذِّكْرُ ذِكْرَانِ : فَذِكْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِاللِّسَانِ حَسَنٌ ، وَأَفْضَلُ مِنْهُ أَنْ تَذْكُرَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَ مَا تُشْرِفُ عَلَى مَعَاصِيهِ .

وقال قتادة رضى الله عنه : ذُكِّرْنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ : « لَا يَقْدِرُ رَجُلٌ عَلَى حَرَامٍ ثُمَّ يَدْعُهُ لَيْسَ بِهِ إِلَّا خَافَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا أَبْدَلَهُ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ذَلِكَ » .

وقال عبيد بن عمير : صدقُ الإيمانِ وبرُّهُ أَنْ يَخْلُوَ الرَّجُلُ بِالْمَرْأَةِ الْحَسَنَاءِ فَيَدْعُهَا لَا يَدْعُهَا إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ .

وقال أبو عمران الجوني: كان رجلٌ من بني إسرائيل لا يمتنع من شيء، فجمده^(١) أهل بيت من بني إسرائيل فأرسلوا إليه جاريةً منهم تسأله شيئاً فقال: لا أو تمكيني من نفسك، فخرجت فجهدوا جهداً شديداً فرجعت إليه فقالت: أعطنا فقال: لا أو تمكيني من نفسك، فرجعت، فجهدوا جهداً كثيراً فأرسلوها إليه فقال لها ذلك، فقالت: دونك، فلما خلاها جعلت تنفض كما تنفض السعة، قال لها: مالك؟ قالت: إني أخاف الله رب العالمين، هذا شيء لم أصنعه قط، قال: أنت تخافين الله ولم تصنعيه وأفعله؟ أعاهد الله أني لا أرجع إلى شيء مما كنت فيه، فأوحى الله إلى نبي من أنبيائهم أن فلاناً أصبح في كتب أهل الجنة.

وذكر أن شاباً في بني إسرائيل لم يكن فيهم شابٌ أحسن منه كلن يبيع المسكاتيل، فبينما هو ذات يوم يطوف بمسكاته إذ خرجت امرأة من دار ملك من ملوك بني إسرائيل، فلما رأيته رجعت مبادرةً فقالت لابنة الملك: إني رأيت شاباً بالبواب يبيع المسكاتيل لم أر شاباً قط أحسن منه، قالت: أدخله، فخرجت فقالت: أدخل فدخل، فأغلقت الباب دونه، ثم قالت: ادخل فدخل، فأغلقت باباً آخر دونه، ثم استقبلته بنت الملك كاشفةً عن وجهها ونحرها، فقال لها: استتري عافاك الله، فقالت: إنا لم ندعك لهذا، إنما دعوناك الكذا وراودته عن نفسه، فقال لها: اتقي الله، قالت: إنك إن لم تطاوعني على ما أريد أخبرتك أنك إنما دخلت تكابرن^(٢) على نفسي، قال لها: فضعي لي وضوءاً، فقالت: أعلى تنعل؟ يا جارية ضعي له وضوءاً فوق الجوسق^(٣) مكاناً لا يستطيع أن يفر منه، فلما

(١) جهد أهل البيت: أجذبوا، وجهد الميش: ضاق واشتد.

(٢) تكابرن: على نفسي: تراودني عن نفسي.

(٣) الجوسق: القصر أو الحصن.

صار في التجوسق قال : اللهم إني دُعيتُ إلى معصيتك وإني أخشى أن ألتقي نفسي من هذا التجوسق ولا أركب معصيتك، ثم قال : بسم الله وألتي نفسه من أعلاه ، فأهبط الله ملكاً أخذ بضمة^(١) فوق قائماً على رجليه ، فلما صار في الأرض قال اللهم إن شئتَ رزقني رزقاً يغنيني عن بيع هذه المكاتيل ، فأرسل الله عليه رجلاً^(٢) من جرادة من ذهبٍ فأخذ منه حتى ملأ ثوبه ، فلما صار في ثوبه قال : اللهم إن كان هذا رزقاً رزقته من الدنيا فبارك لي فيه ، وإن كان ينقصني مما لي عندك في الآخرة فلا حاجة لي فيه ، فنودي إن هذا الذي أعطيناك جزلاً من خمسة وعشرين جزءاً لصبرك على إلقاتك نفسك ، فقال : اللهم فلا حاجة لي فيما ينقصني مما لي عندك في الآخرة ، فرُجع الجرادة .

وذكر أبو الفرج بن الجوزي عن رجلٍ من بعض المياسير^(٣) قال : بينا أنا يوماً في منزلي إذ دخل عليَّ خادمٌ لي فقال لي : رجلٌ بالباب معه كتابٌ ، فقلت : أدخله أو خذ كتابه ، فأخذ الكتاب منه فإذا فيه :

تجنبك الردى^(٤) ولقيتَ خيراً وسلّمك المليكُ من الغموم
شكونَ بناتٍ أحشائي إليكم وما إن تشكين إلى ظلموم
ومّا لقيتَ الكتابَ إليك فيما يخامرها — فذتكَ — من الموموم
وهنَّ يقلنَ يا ابن الجود إنا برّمنّا من مزاعة النجوم
وعندك لو مننتَ شفاء سقمٍ لأعضاء دمينٍ من الكلوم^(٥)

(١) الضبع : ما بين الإبط إلى الكتف .

(٢) الرجل : طائفة عظيمة من الجرادة .

(٣) جمع ميسور : ذو اليسار والغنى .

(٤) الردى : الهلاك .

(٥) جمع كلم : الجراحة .

قال : فلما قرأت الأبيات قلت : عاشق ، فقلت للخادم : أدخله ، فخرج فلم يره .
فارتبّت في أمره ، فجعل الفكر يتردد في قلبي ، فدعوت جوارى كلهن فجمعتهن
فقلت لهن : ما قصة هذا الكتاب ؟ فخلفن لي وقلن : يا سيدنا ما نعرف لهذا
الكتاب سبباً ، فمن جاءك به ؟ فقلت : قد فاتني وما أردت سؤالكن إلا أني
ظننت له هوًى في بعضكن ، فمن عرفت منكن أنها صاحبتة فعلى له ، فلتذهب
إليه ولتأخذ كتابي إليه ، وكتبت كتاباً أشكره على فعله وأسأله عن حاله ،
ووضعت الكتاب في موضع من الدار ، فكث الكتاب في موضعه حيناً لا يأخذه
أحد ولا أرى الرجل ، فاعتصمت غمّاً شديداً . ثم قلت : لعله بعض فتياننا ، ثم
قلت : إن هذا الفتى قد أخبر عن نفسه بالورع ، وقد قنع من يحبه بالنظر ، فدبرت
عليه فحجبت جوارى عن الخروج ، فإكان إلا يومٌ وبعض الآخر إذ دخل على
الخادم ومعه كتابٌ قال : أرسل به إليك فلان ، وذكر بعض أصدقائي ففضضته
فإذا فيه مكتوب :

ماذا أردت إلى روح معلقة

عند التراقى^(١) وحادي الموت يحذوها

حسنتُ حاديها ظالماً فجدها في السير حتى تولّت عن تراقبها
حجبت من كان تحيا عند رؤيتها روحى ومن كان يشغنى ترائبها
فالنفسُ تبتغى نحو الظلم جاهلةً والقلبُ منى سليم ما يؤاتبها
والله لو قيل لى تأتى بفاحشةٍ وإن عقباك دنيا وما فيها
لقلت لا والذي أخشى عقوبته ولا بأضعافها ما كنتُ آتيا
لولا الحياء لبُحنا بالذى كتبت بنتُ الفؤاد وأبدينا تمنّيهما

(١) جمع ترقوة : عظمة مشرفة بين ثغرة النحر والعاتق . وعند التراقى كنا
عن مشاركة الموت .

قال : فبهت وقلت : لا أدري ما أحتال في أمر هذا الرجل ، وقلت للخادم : لا يأتيك أحدٌ بكتابٍ إلا قبضت عليه حتى تدخله عليّ ، ثم لم أعرف له خبراً بعد ذلك ، فبينما أنا أطوف بالسكبة إذا فتى قد أقبل نحوي وجعل يطوف إلى جنبي ويلاحظني ، وقد صار مثلَ العود ، فلما قضيت طوافي خرجت وأتبعني فقال : يا هذا أتعرفني ؟ قلت : لا أنكرك اسوء ، قال : أنا صاحب الكتابين ، فما تمالك أن قبلت رأسه وبين عينيه وقلت : بأبي أنت وأمي ، والله لقد شغلت قلبي وأطلت غمّي بشدة كتمانك لأمرك ، فهل لك فيما سألت وطلبت ؟ قال : بارك الله لك وأقرّ عينيك ، إنما أتيتك أستحلّك^(١) من نظرة كنت نظرتها على غير حكم الكتاب والسنة ، والهوى دايع إلى كل بلاء ، وأستغفر الله العظيم ، فقلت : يا حبيبي أحب أن تصير معي إلى منزلي فأحسن بك وتجري الحُرمة بيني وبينك ، قال : ليس إلى ذلك سبيل ، فقلت : غفر الله لك ذنبك وقد وهبها لك ومعه مائة دينار ، ولك في كل سنة كذا وكذا ، قال : بارك الله لك فيها ، فلولا عهدٌ عاهدت الله عليها وأشياء أكدها عليّ لم يكن في الدنيا شيء أحب إليّ من هذا الذي تعرّضه عليّ ، ولكن ليس إلى ذلك سبيل والدنيا منقطعة ، فقلت له : فإذا آيت أن تقبل مني ذلك فأخبرني من هي حتى أكرمها لأجلك ما بقيت ، فقال : ما كنت لأذكرها لأحدٍ ، ثم قام وتركني .

وذكر عبد الملك بن قُريّب قال : هوى رجلٌ من النساء جاريةً فاشتدّ حبه لها . فبعث إليها يخطبها . فامتنعت وأجابته إلى غير ذلك ، فأبى وقال : لا إلّا ما أحلّ الله ، ثم إن محبته ألقيت في قلبها فبذلت له ما سأل ، فقال : لا والله لا حاجة لي بمن دعوتها إلى طاعة الله ودعتني إلى معصيته .

وحكى البردّ عن شيخه أبي عثمان المازني أنه قصد بعض أهل الذمة ليقرأ

(١) استحلّه : . سأله أن يحلّه له .

عليه « كتاب سيدي » وبذل له مائة دينار ، فامتنع وردّه ، فقلت له : أتريد هذا القدر مع شدة فافتك ؟ فقال : إن هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة وكذا وكذا آية من كتاب الله ، ولست أرى تمكين هذا الذي^١ منها غيره على القرآن . فاتفق أن خنت جارية بمضرة الوائق بقول العرجي :

أظلمُ إن مصابكم رجلاً . أهدي السلام تحيةً ظلمُ ؟

فاختلف أهل مجلسه في إعراب رجلٍ ، فمنهم من قال : هو نصب وجعله اسم إن ، ومنهم من رفعه على أنه خبرها ، والجارية أصرت على النصب وقالت : لقنني إياه كذلك شيخى أبو عثمان المازني ، فأمر الوائق بإحضاره إلى بين يديه ، قال : قلنا مثلتُ بين يديه قال : ممن الرجل ؟ قلت : من بني مازن ، قال : أي الموازن ؟ أمازن تميم أم مازن قيس أم مازن ربيعة ؟ قلت : من مازن ربيعة ، فكلمني بكلام قومي فقال لي : يا اسمك ؟ وقومي يقبلون الميم باء والباء ميا ، فكرهت أن أواجهه بأقظة مكر فقلت : بكر يا أمير المؤمنين ، فظن لما قصده وأعجب به فقال : ما تقول في قول الشاعر :

أظلمُ إن مصابكم رجلاً . أهدي السلام تحيةً ظلمُ ؟

أترفع رجلاً أم تنصبه ؟ فقلت : الوجهُ النصب يا أمير المؤمنين : فقال : ولم ذلك ؟ فقلت : لأن مصابكم مصدرٌ بمعنى إصابتكم ، فأخذ البيهقي في معارضي ، فقلت : هو بمنزلة قولك : إن ضربك زيداً ظلم ، فرجلاً مفعول مصابكم ومنصوبٌ به ، وابتدأ عليه أن الكلام معلقٌ إلى أن تقول ظلم قتيماً ، فاستحسنه الوائق وقال : هل لك من ولد ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين بُدَيَّة ، قال : فما قالت لك عند مسيرك إلينا ؟ قلت : أنشدت قول الأعشى :

(١) الذي : المعاهد الذي أعطى عهداً يأمن به على ماله وعرضه ودينه ، وهي

ذمية .

أَيَا أَبْنَاءَ لَازِمٍ^(١) عِنْدَنَا فَإِنَّا بِخَيْرٍ إِذَا لَمْ تَرَم
تَرَانَا إِذَا أَضْمَرْتِكَ^(٢) الْبَلَا دُجِبْنِي وَتُعَلِّمْ مَنَا الرَّحِيمُ

قال : فما قلتَ لها ؟ قال : قلت قولَ جرير :

ثَقِيَ بِاللَّهِ أَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَمِنْ عِنْدِ الْخَالِيفَةِ بِالنَّبَاحِ .

فقال : على النَّبَاحِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ أَمَرَ لِي بِأَلْفِ دِينَارٍ ، وَرَدَّنِي إِلَى الْبَصْرَةِ
مُسْكِرًا ، فَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْمَهْدِي : فَلَمَّا عَادَ إِلَى الْبَصْرَةِ قَالَ لِي : كَيْفَ رَأَيْتَ
يَا أبا الْعَبَّاسِ ؟ رَدَدْنَا اللَّهُ مِائَةَ دِينَارٍ فَعَوَّضَنَا اللَّهُ أَلْفًا .

(١) رَامَ مَكَانَهُ : بَرَحَهُ وَفَارَقَهُ .

(٢) أَضْمَرْتَهُ الْبَلَادَ : غَيَّبْتَهُ لَمَّا بَسَفَرَ أَوْ بَمُوتِهِ .

الباب الثامن والعشرون

فيمن آثر عامل العقوبة والادب ، على لذة الوصال الحرام

هذا باب إنما يدخل ، منه رجلان : أحدهما من تمسك من قلبه الإيمان بالآخرة وما أعد الله فيها من الثواب والعقاب لمن عصاه ، فأثر أدنى الفوتين ، واختار أسهل العقوبتين . والثاني رجل غاب عقله على هواه فعلم ما في الفاحشة من الفساد ، وما في العُدول عنها من المصالح ، فأثر الأعلى على الأدنى ، وقد جمع الله سبحانه وتعالى ليوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه بين الأمرين ، فاختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الحرام ، فقالت المرأة : (وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ . قال رب السجن أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين)^(١) فاختار السجن على الفاحشة ، ثم تبرا إلى الله من حوله وقوته ، وأخبر أن ذلك ليس إلا بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه فقال : (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْعَبِيدِ إِلَى نَفْسِهِ وَصَبْرِهِ وَحَالِهِ وَعَفَّتِهِ ، ومتى ركن إلى ذلك تخلت عنه عصمة الله وأحاط به الخذلان . وقد قال الله تعالى لأكرم الخلق عليه وأحبهم إليه : (وَلَوْ لَا أَنْتَ لَبِئْسَ النَّاسُ كَذَّبَتْ ثَكْرُكُنُ الْإِنِيمُ شَيْئًا قَلِيلًا)^(٢) ولهذا كان من دعائه : « يَا مُقَلِّبُ

(١) الآيةان ٣٢ و ٣٣ سورة يوسف .

(٢) الآية ٧٤ سورة الإسراء .

الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قُلُوبِي عَلَى دِينِكَ^(١) ، وكانت أكره يمينه « لَا وَمُقَلَّبِ الْقُلُوبِ^(٢) »
كيف وهو الذى أنزل عليه : (وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)^(٣)
وقد جرت سنة الله تعالى فى خلقه أن من آثر الألم العاجل على الوصال الحرام أعقبه
ذلك فى الدنيا المسرّة التامة ، وإن هلك فالفوز العظيم ، والله تعالى لا يضيع
ما تحمّل عبده لأجله .

وفى بعض الآثار الإلهية يقول الله سبحانه وتعالى : يعينى ما يتحمّل
المتحمّلون من أجل . وكل من خرج عن شىء منه لله حفظه الله عليه أو أعاضه
الله ما هو أجل منه ، ولهذا لما خرج الشهداء عن نفوسهم لله جعلهم الله
أحياء عنده يرزقون ، وعوضهم عن أبدانهم التى بذلوها له أبدان طير خضر
جعل أرواحهم فيها تسرح فى الجنة حيث شاءت . وتأوى إلى قناديل معلّقة
بالعرش^(٤) ، ولما تركوا مساكنهم له عوضهم مساكن طيبة فى جنات عدن
ذلك الفوز العظيم .

وقال وهب بن منبه : كان عابد من عبّاد بنى إسرائيل يتعبّد فى صومعة ،
فجاء رجل من بنى إسرائيل إلى امرأة بنى فبذل لها مالا وقال : لعلك أن
تفتنيه ، فجاءته فى ليلة مطيرة فنادته فأشرف عليها ، فقالت : آوئى إليك ،
فتركها وأقبل على صلاته ، فقالت : يا عبد الله آوئى إليك ، أما ترى الظلمة
والمطر ؟ فلم تزل به حتى آواها ، فاضطجعت قريبا منه فجعلت تريحه محاسنها حتى
دعته نفسه إليها ، فقال : لا والله حتى أنظر كيف صبرك على النار ، فتقدّم إلى

(١) رواه الترمذى فى جامعه .

(٢) رواه البخارى

(٣) الآية ٢٤ . سورة الأنفال .

(٤) ذكره مسلم فى صحيحه .

المصباح فوضع إصبعاً من أصابعه حتى احترقت ، ثم عاد إلى صلاته فدعته نفسه ، إليها ، فعاد المصباح فوضع إصبعه الأخرى حتى احترقت ، فلم يزل تدعوه نفسه وهو يعود إلى المصباح حتى احترقت أصابعه جميعاً وهي تنظر ، فصعقت وماتت .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن خالد ، حدثنا أمية بن شبل ، عن عبد الله بن وهب قال : لا أعلمه إلا ذكره عن أبيه أن عابداً من بني إسرائيل كان في صومعته يتعبد ، فإذا نفر من العزاة قالوا : لو استنزلناه بشيء فذهبوا إلى امرأة بغى فقالوا لها : تعرضي له ، فجاءته في ليلة مظلمة مطيرة فقالت : يا عبد الله آوئني إليك ، وهو قائم يصلي ومصباحه ثاقب^(١) ، فلم يلتفت إليها ، فقالت : يا عبد الله الظلمة والغيب^(٢) ، آوئني إليك ، فلم يزل به حتى أدخلها إليه فاضطجعت وهو قائم يصلي ، فجعلت تتقلب وترى محاسن خلقها حتى دعت نفسه إليها . فقال : لا والله حتى أنظر كيف صبرك على النار ، فدنا إلى المصباح فوضع إصبعاً من أصابعه فيه حتى احترقت ، قال : ثم رجع إلى مُصَلَّاه ، قال : فدعته نفسه أيضاً ، فعاد إلى المصباح فوضع إصبعه أيضاً حتى احترقت أصابعه وهي تنظر إليه فصعقت فماتت . فلما أصبحوا غدواً ينظروا ما صنعت ، فإذا بها ميتة ، فقالوا : يا عدو الله يا مُرَأِي ! وقعت عليها^(٣) ثم قتلها ، قال : فذهبوا به إلى ملكهم فشهدوا عليه ، فأمر بقتله ، فقال : دعوني حتى أصلي ركعتين ، قال : فصلي ثم دعا فقال : أي رب إني أعلم أنك لم تكن لتؤخذني بما لم أفعل ، ولكن أسألك أن لا أكون عاراً على القرى بعدى ، قال : فرد الله نفسها فقالت : أنظروا إلى يده ، ثم عادت ميتة .

(١) ثاقب : مضى .

(٢) الغيب : المطر .

(٣) وقعت عليها : جامعها .

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن منصور ، عن إبراهيم قال : بينما رجل عابد عند امرأة إذ عمد فضرب يده على فخذها ، فأخذ يده فوضعا في النار حتى نشت^(١) .

وقال حصين بن عبد الرحمن : بلغني أن فتى من أهل المدينة كان يشهد الصلوات كلها مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان عمر يتفقده إذا غاب ، فعشقه امرأة من أهل المدينة ، فذكرت ذلك لبعض نسائها ، فقالت : أنا أحتال لك في إدخاله عليك ، فقعدت له في الطريق ، فلما مر بها قالت له : إني امرأة كبيرة السن ولي شاة لا أستطيع أن أحلبها ، فلو دخلت فحلبتها ، وكانوا أرغب شيء في الخير ، فدخل فلم ير شاة ، فقالت : اجلس حتى آتيك بها ، فإذا المرأة قد طاعت عليه ، فلما رأى ذلك عمد إلى محراب في البيت فقعد فيه فأرادته^(٢) عن نفسه فأبى وقال : اتقى الله أيتها المرأة ، فجعلت لا تسكف عنه ولا تلتفت إلى قوله ، فلما أبى عليها صاحبت عليه فجاءوا فقالت : إن هذا دخل على يريدني عن نفسي ، فوثبوا عليه وجعلوا يضربونه وأوثقوه ، فلما صلى عمر الغداة فقهه ، فبينما هو كذلك إذ جاءوا به في وئان ، فلما رآه عمر قال : اللهم لا تمخلف ظني به ، قال : ما لكم ؟ قالوا : استغاثت امرأة بالليل فجئنا فوجدنا هذا الغلام عندها فضربناه وأوثقناه ، فقال عمر رضي الله عنه : اصدقني ، فأخبره بالقصة على وجهها ، فقال له عمر رضي الله عنه : أنمرف العجوز ؟ فقال : نعم إن رأيته عرفت بها ، فأرسل عمر إلى نساء جيرانها وعجائزهن فجاءهن فعرضهن ، فلم يعرفها فيهن ، حتى مرت به العجوز فقال : هذه يا أمير المؤمنين ، فرفع عمر عليها الدرة وقال : أصدقيني ، فقصت عليه القصة كما قصها الفتى . فقال عمر : الحمد لله الذي جعل فينا شبيهة يوسف .

(١) لشت : احترقت : ولش اللحم سمع له صوت على المقل أو في القدر .

(٢) أرادته عن نفسه : راودته عن نفسه .

وقال أبو الزناد : كان راهبٌ يتعبد في صومعته فأشرف^(١) منها ورأى امرأةً ففتن بها ، فأخرج رجله من الصومعة لينزل إليها ، فنزلت عليه الغصمة فقال : رجلٌ خرجت من الصومعة لتعصى اللهَ والله لا تعود معي في صومعتي ، فتركها معلقةً خارج الصومعة يسقط عليها الثلوج والأمطار حتى تناثرت وسقطت ، فشكر الله ذلك من صنعه ، ومدحه في بعض كتبه بذى الرجل .

وقال مصعب بن عثمان : كان سليمان بن يسار من أحسن الناس وجهاً فدخلت عليه امرأةٌ يتيمة ، فسألته نفسه فامتنع عليها ، فقالت : إذن أفضحك ، فخرج هارباً عن منزله وتركها فيه .

وقال جابر بن نوح : كنت بالمدينة جالساً عند رجل في حاجة ، فمر بنا شيخٌ حسن الوجه حسن الثياب ، فقام إليه ذلك الرجل فسلم عليه وقال : يا أبا محمد أسأل الله أن يعظم أجرك ، وأن يربط على قلبك بالصبر ، فقال الشيخ :

وكان يميني في الوغى^(٢) ومساعدى فأصبحتُ قد خافتُ يميني ذرائعها
وقد صيرتُ حيراً من الشكل باهتاً أخا كلف ضاقت على رباها^(٣)
فقال له الرجل : أبشر فإن الصبر موعود المؤمن ، وإنى لأرجو أن لا ينحرمك الله الأجر على مصيبتك ، فقلت له : من هذا الشيخ ؟ فقال : رجلٌ منا من الأنصار ، فقلت : وما قصته ؟ قال : أصيب بابنه وكان به باراً قد كفاه جميع ما يهنيه ، ومنيته تحب ، قلت : وما كانت ؟ قال : أحبته امرأةً فأرسلت إليه تشكوا حبه وتسأله الزيارة ، وكان لها زوج فألحت عليه ، فأفشى ذلك إلى صديقي

(١) أشرف : اطلع .

(٢) الوغى : الجلبة والحرب لما فيها من الصوت والجلبة .

(٣) الكاف : حمرة كدرة تملأ الوجه ، والبهق ، والأمراض التي تحصل على مفتحة

وعسر . والرابع : المنازل والديار والاشياء .

له، فقال له : لو بعثت إليها بعض أهلك فوعظتها وزجرتها رجوت أن تكف عنك، فأمسك ، وأرسلت إليه إما أن تزورنى وإما أن أزورك فأبى ، فلما يئست منه ذهبت إلى امرأة كانت تعمل السحر فجعلت لها الرغائب^(١) في تهينجه، فعملت لها فى ذلك ، فبينما هو ذات ليلة مع أبيه إذ خطر ذكرها بقلبه وهاج منه أمره لم يكن يعرفه واختلط^(٢) ، فقام مسرعاً فصلى واستعاذ والأمر يشتد ، فقال : يا أبة أدركنى بقيد، فقال : يا بنى ما قصتك ؟ فحدثه بالقصة ، فقام وقيده وأدخله بيتاً ، فجعل يضطرب ويخور كما يخور النور ، ثم هدا فإذا هو ميت والدم يسيل من منخره .

فصل

وهذا ليس بمجيب من الرجال ولكنه من النساء أعجب . قال أبو إدريس الأودى : كان رجلان فى بنى إسرائيل عابدان ، وكانت جارية جميلة فأحبها وكنم كل منهما صاحبه، واختبأ كل منهما خلف شجرة ينظر إليها ، كبصر^(٣) كل منهما سره إلى صاحبه ، فاتفقا على أن يراوداها ، فلما قربت منهما قال لها : قد عرفت منزلتنا فى بنى إسرائيل ، وإنك إن لم تواتينا وإلا قلنا إذا أصبحنا : إنا أصبنا معك رجلاً، وإنه أفلتنا، وإنا أخذناك، فقالت : ما كنت لأطيقكما فى معصية الله ، فأخذاها وقالوا : إنا أصبنا معهما رجلاً فأفلتنا ، وأقبل نبى من أنبيائهم فوضعوا له كرسيًا فجلس عليه وقال : أقضى بينكم ؟ فقالوا : نعم اقض بيننا ، ففرق بين الرجلين وقال لأحدهما : خاف أى شجرة رأيتهما ؟ قال : شجرة كذا

(١) الرغائب جمع رغبة : العطاء الكثير .

(٢) اختلط عقله : فسد .

(٣) أطلمه عليه : أظهره عليه .

وكذا ، وقال للآخر ، فقال : شجرة كذا وكذا غير التي ذكر صاحبها ، ونزلت نار من السماء فأحرقتهما وأفلتت المرأة .

وقال عبد الله بن المبارك : عشق هارون الرشيد جارية من جواريه فأرادها فقالت : إن أباك مشى ، فشغف بها وقال فيها :

أرى ماء وبي عطش شديد^(١) ولكن لا سبيل إلى الورود^(٢)
أما يكفينك أنك تملكيني وأن الناس عندي كالعبيد^(٣)
وأنتك لو قطعت يدي ورجلي لقلت من الرضا أحسنت زیدی
فسأل أبا يوسف عن ذلك فقال : أو كلما قالت جارية شيئاً تصدق ؟ قال
ابن المبارك : فلا أدري ممن أعجب ، من هارون الرشيد حيث رغب فيها ، أو منها
حيث رغب عنه ، أو من أبي يوسف حيث سوغ^(٤) له إنسانها .

وقال أبو عثمان التيمي : مر رجل براهبة من أجل النساء فافتتن بها ،
فتلطف في الصمود إليها فراودها عن نفسها فأبت عليه وقالت : لا تغتر بما ترى
وليس وراءه شيء ، فأبى حتى غلبها على نفسها وكان إلى جانبها بحجرة فوضعت
يدها فيها حتى احترقت ، فقال لها بعد أن قضى حاجته منها : مادعاك إلى
ما صنعت ؟ قالت : إنك لما قهرتني على نفسي خفت أن أشاركك في اللذة
فأشاركك في المعصية ففعلت ما رأيت ، فقال الرجل : والله لا أعصى الله أبداً وتاب
بما كان عليه .

وذكر الحسين بن محمد الدامغانى أن بعض الملوك خرج يتصيد وانفرد عن

(١) إلى الورود : إلى بلوغه والدنومنه .

(٢) أنظر صفحة ١٨٧ وفيها نسب هذا البيت إلى ملك مجهول .

(٣) سوغ له : جوزة .

أصحابه ، فر بقرية فرأى امرأة جميلة فراودها عن نفسها ، فقالت : إني غير طاهر فأطهر وآتيك ، فدخلت بيتها وخرجت اليه بكتابٍ فقالت : انظر في هذا حتى آتيك ، فنظر فيه فإذا فيه ما أعدَّ الله للزاني من العقوبة فتركها وذهب ، فلما جاء زوجها أخبرته الخبر ، ففكره أن يقربها مخافة أن يكون الملك فيها حاجةً فاعتزلها ، فاستعدى ^(١) عليه أهلُ الزوجة إلى الملك وقالوا : إن لنا أرضاً في يد الرجل فلا هو يعمُرُها ولا هو يردها علينا وقد عطلها ، فقال الملك : ماتقول ؟ فقال : إني رأيتُ في هذه الأرض أسداً وأنا أتخوف دخولها منه ، ففهم الملك القصة فقال : انعمُ أرضك فإن الأسد لا يدخلها ، ونعم الأرض أرضك .

وكانت بعض النساء المتعبدات وقعت في نفس رجلٍ مؤميرٍ وكانت جميلة وكانت مُتخطَب فتأبى ، فبلغ الرجلَ أنها تريد الحج ، فاشتري ثلثمائة بعيرٍ ونادى : من أراد الحج فليكثر من فلانٍ ، فاكثرت منه المرأة ، فلما كان في بعض الطريق جاءها فقال : إماماً أن تزوجيني نفسك ، وإماماً غير ذلك ، فقالت : ويمحك اتق الله ! فقال : ما هو إلا ماتسمعين ، والله ما أنا بجميلٍ ولا خرجت إلا من أجلك ، فلما خافت على نفسها قالت : ويمحك انظر أبقى في الرجال عينٌ لم تنم ؟ فقال : لا . ناموا كلهم ، قالت : أفنامت عين رب العالمين ؟ ثم شققت شهقةً خرت ميتة ، وخرَّ الرجلُ مَفْشِيّاً عليه ، فلما أفاق قال : ويحي قتلت نفسك ولم أبلغ شهوتي .

وقال وهب بن منبه : كان في بني إسرائيل رجلٌ متعبدٌ شديد الاجتهاد فرأى يوماً امرأةً فوقعت في نفسه بأول نظرة ، فقام مسرعاً حتى لحقها فقال : رويدك ياهذه ، فوقفت وعرفته فقالت : ما حاجتك ؟ قال : أذاتُ زوج أنت ؟

(١) استعداه : استعان به واستنصره :

قالت : نعم فما تريد ؟ قال : لو كان غير هذا المكان لنا رأى ، قالت : على ذلك وما هو ؟ قال : عرض بقلبي من أمرك عارض^(١) ، قالت : وما يمنعك من إيفاده ؟ قال : وتتابعيني على ذلك ؟ قالت : نعم ، فقلت به في موضع فلما رآته يُجِدُّ في الذي سألت قالت : رويدك يامسكين لا يسقط جاهك عنده ، فأنبه لها وذهب عنه ما كان يُجِدُّ فقال : لا حرمك الله ثواب فعلك . ثم تنجى ناحية فقال لنفسه : اختارى إما عمى العين ، وإما الجُبُّ^(٢) ، وإما السياحة مع الوحوش ، فاختارت السياحة مع الوحوش ، فكان كذلك إلى أن مات .

وأحب رجل تجارية من العرب وكانت ذات عقل وأدب ، فما زال يمتثل في أسرها حتى اجتمع معها في ليلة مظلمة شديدة السواد ، فحادثها ساعة ثم دعت نفسه إليها فقيل ياهذه قد طال شوق إليك ، قالت : وأنا كذلك ، فقال : هذا الليل قد ذهب والصبح قد اقترب ، قالت : هكذا تَفْنِي الشهوات وتنقطع اللذات فقال لها : لو دنوت مني . فقالت : هيهات أخاف البعد من الله ، قال : فما الذي دعاك إلى الحضور معي ؟ قالت : شقوتي وبلائي ، قال لها : فتي أراك ؟ قالت : ما أنساك وأما الاجتماع معك فما أراه يكون ، ثم تولت . قال : فاستحييتُ مما سمعت منها ، وأنشد :

توقت عذاباً لا يطاق انتقامه ولم تأت ما تخشى به أن تُعَذِّباً
وقالت مقالاً كدت من شدة الحيا أهِيم على وجهي حياً وتعجباً
ألا أف للحب الذي يورث العمى ويورد ناراً لا تَمَلُّ التلهباً
فأقبل عودى فوق بدنى مفكراً وقد زال عن قلبي العمى فتمسرباً

وقال ابن خلف : أخبرني أبو بكر العامري قال : عشقت عاتكة المريّة

(١) عرض بقلبي عارض : أى خطر لى خاطر .

(٢) الجب : القمطع ، والمجبوب الذى استوصلت مذاكيره .

ابن عم لها ، فأرادها عن نفسها فامتنعت عليه وقالت :

فما طعم ماء من سحابٍ مرويٍّ تحذر من غر طوالِ الذوائب^(١)
 بمنعرج^(٢) أو بطنٍ وادٍ تطلعت عليه رياحُ الصيف من كل جانب
 تفرق ماء المزن^(٣) فيهن والتقت عليهن أنفاس الرِّياض الغرائب
 نفث جريئة الماء القذى عن متونه^(٤) فليس به عيبٌ تراه إشارب
 بأطيب مما يقصر الطرفُ دونه تُقي الله واستحياءُ تلك العواقب

(١) تحذر : تنزل . والذوائب جمع ذؤابة ، والذؤابة من كل شيء أعلاه ،
 وشمر مقدم الرأس .

(٢) منعرج الوردى : منعطفه يمنة ويسرة .

(٣) جمع مزنة : السحاب يحمل الماء .

(٤) القذى ما يقع : بالعين والشراب من تبنة وغيرها . والمائن : الظاهر ، ومن
 الأرض : ما ارتفع وصلب منها .

الباب التاسع والعشرون

في ذم الهوى ، وما في مخالفة من نيل المنى

وقد تقدم ذكر الآيات في ذلك وبعض ماورد في السنة .

الهوى ميل الطبع إلى مايلأئمه ، وهذا الميل خلق في الإنسان لضرورة بقائه فإنه لو لا ميله إلى المطعم والمشرب والمنكح ما أكل ولا شرب ولا نكح ، فالهوى مستحث لها لما يريد ، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذيه ، فلا ينبغي ذم الهوى مطلقاً ، ولا مدحه مطلقاً ، كما أن الغضب لا يذم مطلقاً ولا يُحمد مطلقاً ، وإنما يذم المفرط من النوعين ، وهو ما زاد على جلب المنافع ودفع المضار ، ولما كان الغالب من مطيع هواه وشهوته وغضبه أنه لا يقف فيه على حد المنتفع به أطلق ذم الهوى والشهوة والغضب لعموم غلبة الضرر ، لأنه يتذر من يقصد العدل في ذلك ويقف عنده ، كما أنه يتذر في الأمزجة المزاج المعتدل من كل وجه ، بل لا بد من غلبة أحد الأخلاط^(١) والكيفيات عليه ، فحرص الناصح على تعديل قوى الشهوة والغضب من كل وجه ، وهذا أمر يتعذر وجوده إلا في حق أفراد من العالم ، فلذلك لم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلا ذمته ، وكذلك في السنة لم يبيء إلا مذموماً إلا ما جاء منه مقيداً كقوله صلى الله عليه وسلم : «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِأَجَنَّتْ بِهِ»^(٢). وقد قيل : الهوى كمين لا يؤمن . قال الشعبي : وسمى هوى لأنه يهوى بصاحبه ، ومطلقه يدهو

(١) أخلاط الإنسان : أمزجته الأربعة .

(٢) تقدم تحريجه في صفحة ٢٣ .

إلى اللذة الخاضرة من غير فكر في العاقبة ، ويحث على ذيل الشهوات عاجلاً وإن كانت سبباً لأعظم الآلام عاجلاً وأجلاً ، فللدنيا عاقبة قبل عاقبة الآخرة ، والهوى يُعمى صاحبه من ملاحظتها ، والمرؤءة والدين والعقل ينهى عن لذة تعقب ألكما ، وشهوة تورث ندماً ، فكل منها يقول للنفس إذا أرادت ذلك : لا تفعل ، والطاعة لمن غلب ، ألا ترى أن الطفل يؤثر ما يهوى وإن أداه إلى التلف لضعف ناهى العقل عنده ، ومن لا دين له يؤثر ما يهواه وإن أداه إلى هلاكه في الآخرة لضعف ناهى الدين ، ومن لا مرؤءة له يؤثر ما يهواه وإن قلم^(١) مرؤءته أو عدمها لضعف ناهى المرؤءة ، فأين هذا من قول الشافعي رحمه الله تعالى : لو علمت أن الماء البارد يثلم مرؤءتي لما شربته .

ولما امتنع المكلف الهوى من بين سائر البهائم وكان كل وقت تحدث عليه حوادث تجعل فيه حاكماً : حاكم العقل وحاكم الدين ؛ وأمر أن يرفع حوادث الهوى دائماً إلى هذين الحاكمين وأن ينتقاد لحكمهما ، وينبغي أن يتمرن على دفع الهوى للأمون العواقب ليتمرن بذلك على ترك ما تؤذى عواقبه . وليعلم اللبيب أن مذمى الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذون بها . وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها ، لأنها قد صارت عندهم بمنزلة العيش الذي لا بد لهم منه ، ولهذا ترى مذمناً الخمر والجماع لا يلتذ به عُسْرَ معشار التذاذ من يفعله نادراً في الأحيان ، غير أن العادة مقتضية ذلك فيُلقي نفسه في المهالك لنيل ما تطالبه به العادة ، ولو زال عنه رين^(٢) الهوى لعلم أنه قد شقي من حيث قدر السعادة ، واغتم من حيث ظن الفرح ، وألم من حيث أراد اللذة . فهو كالطائر المخدوع

(١) قلم الجدار وغيره : أحدث فيه شقاً .

(٢) الرين : النطاء والحجاب الكثيف ، والصدأ يعلو الشيء الجلى ، والدنس

وما غطى على القلب من القسوة للذنوب بعد الذنوب .

بحبة القمح ، لا هو نال الحُبَّة ولا هو تخلص مما وقع فيه ، فإن قيل : فكيف يتخلص من هذا مَنْ قد وقع فيه ؟ قيل : يمكنه التخلص بعون الله وتوفيقه له بأمر :
 (أحدها) : عزيمة حرّ يغار لنفسه وعليها

(الثاني) : جرعة صبرٍ يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة .

(الثالث) : قوَّة نفس تشجعه على شرب تلك الجرعة ، والشجاعة كلها صبر شاعة ، وغير عيشٍ أدركه العبد بصبره .

(الرابع) : ملاحظته حسن موقع العاقبة والشفاء بتلك الجرعة .

(الخامس) : ملاحظته الألم الزائد على لذة طاعة هواه .

(السادس) : إيقاؤه على منزلته عند الله تعالى وفي قلوب عباده ، وهو خير وأنفع له من لذة موافقة الهوى .

(السابع) : إثارة لذة العفة وعزتها وحلاوتها على لذة المعصية .

(الثامن) : فرحه بقلبة عدوه وقهره له وردّه خاسئاً بغيظه وغمّه وهمّه حيث لم ينل منه أمنيته ، والله تعالى يحب من عبده أن يراغم^(١) عدوه وبغيظه كما قال الله تعالى في كتابه العزيز : (وَلَا يَطْؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ)^(٢) وقال : (لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ)^(٣) وقال تعالى : (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ

(١) راغم فلافًا : هجره وعاداه .

(٢) الآية ١٢٠ . سورة التوبة .

(٣) الآية الأخيرة من سورة الفتح

مُرَاتِمًا كَثِيرًا وَسَمَةً^(١) أى مكانًا يراغم فيه أعداء الله . وعلامة المحبة الصادقة
مغايلة أعداء المحبوب ومُرَاغِمَتِهِمْ .

(التاسع): التَّفَكُّرُ فى أَنَّهُ لَمْ يَلْمَ للهوى وَإِنَّمَا هُوَ لِأَمْرِ عَظِيمٍ لَا يَنَالُهُ إِلَّا
بِمَعْصِيَتِهِ للهوى كَمَا قِيلَ :

قَدْ هَيَّأْتُكَ لِأَمْرِ لَوْ قَطِنْتَ لَهُ فَارِبًا بِنَفْسِكَ أَنْ تَرَعَى مَعَ الْمُحْتَلِّ^(٢)

(العاشر) : أَنْ لَا يَخْتَارَ لِنَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ الْحَيَوَانُ الْبَهِيمُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُ ،
فَإِنَّ الْحَيَوَانَ يُمَيِّزُ بَطَبْعِهِ بَيْنَ مَوَاقِعَ مَا يَضُرُّهُ وَمَا يَنْفَعُهُ ، فَيُؤَثِّرُ النَّافِعَ عَلَى الضَّارِّ ،
وَالْإِنْسَانُ أُعْطِيَ الْعَقْلَ لِهَذَا الْمَعْنَى ، فَإِذَا لَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَ مَا يَضُرُّهُ وَمَا يَنْفَعُهُ أَوْ
عَرَفَ ذَلِكَ وَآثَرَ مَا يَضُرُّهُ كَانَ حَالُ الْحَيَوَانِ الْبَهِيمِ أَحْسَنَ مِنْهُ ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ
أَنَّ الْبَهِيمَةَ تَصِيبُ مِنْ لَذَّةِ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمُسْكِحِ مَا لَا يَنَالُهُ الْإِنْسَانُ مَعَ عَيْشِهِ
هَنَاءٍ خَالٍ عَنِ الْفَسَادِ وَالْهَمِّ ، وَلِهَذَا تُسَاقُ إِلَى مَنْعَرَجِهَا^(٣) وَهِيَ مِنْهُمْ كَتَّةٌ عَلَى
شَهَوَاتِهَا لِفَقْدَانِ الْعِلْمِ بِالْعَوَاقِبِ ، وَالْآدَمِيُّ لَا يَنَالُهُ مَا يَنَالُهُ الْحَيَوَانُ قُوَّةَ الْفَكْرِ
الشَّاعِلِ ، وَضَعْفِ الْآلَةِ الْمُسْتَعْمَلَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَلَوْ كَانَ نِيلَ الْمَشْتَهَى فَضِيلَةً لَمَا
بُخِشَ مِنْهُ حَقُّ الْآدَمِيِّ الَّذِي هُوَ خَلَاصَةُ الْعَالَمِ ، وَوَفَّرَ مِنْهُ حِظُّ الْبَهَائِمِ ، وَفِي
تَوْفِيرِ حِظِّ الْآدَمِيِّ مِنَ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ عَوَاضٌ عَنْ ذَلِكَ .

(الحادى عشر): أَنْ يَسِيرَ بِقَلْبِهِ فِي عَوَاقِبِ الهوى فَيَتَأَمَّلُ كَمْ أَفَاتَتْ مَعْصِيَتُهُ^(٤)

-
- (١) الآية ١٠٠ سورة النساء . والمراغم : الملجأ والمهرب والحصن ،
(٢) فى لامية المعجم للطبراني : قد رشحوك .
(٣) المنحر : موضع النحر فى الخلق ، والمسكن تذبح فيه الذبائح ، والجنح
مناحر . الحمل : المتروك بلا عناية ولا رعاية .
(٤) ولعل الصواب : كَمْ أَفَاتَتْ طَاعَتَهُ مِنْ فَضِيلَةٍ لِأَنَّ الظاهر أَنَّ الضمير عائد
على الهوى الخ .

من فضيلة ، وكم أوقعت في رذيلة ، وكم أكلت منعت أكلات ، وكم من لذّة
فوتت لذات ، وكم من شهوة كسرت جاهاً ، ونكست رأساً ، وقبّحت ذكراً ،
وأورثت ذماً ، وأعقت ذلاً ، وألزمت عاراً لا يغسله الماء ، غير أن عين صاحب
الهوى عياء .

(الثاني عشر) : أن يتصور العاقل انقضاء غرضه ممن يهواه ثم يتصور حاله
بعد قضاء الوطر ^(١) ومآلاته وما حصل له .

فأفضل الناس من لم يرتكب سبباً حتى يميز لما تنجى عواقبه
(الثالث عشر) : أن يتصور ذلك في حق غيره حق التصوّر ، ثم ينزل
نفسه تلك المنزلة ، لحكم الشيء حكم نظيره .

(الرابع عشر) : أن يتفكر فيما تطالبه به نفسه من ذلك ، ويسأل عنه عقله
ودينّه يُخبرانه بأنه ليس بشيء . قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : إذا
أعجب أحدكم امرأةً فليذكر مَنَاتِنَهَا ، وهذا أحسن من قول أحمد بن الحسين :
لو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يسببه ^(٢) لم يسبه
لأن ابن مسعود رضى الله عنه ذكر الحال الحاضرة للملازمة ، والشاعر حال على
أمر متأخر .

(الخامس عشر) : أن يأنف لنفسه من ذلّ طاعة الهوى ، فإنه ما أطاع
أحدٌ هواه قط إلا وجد في نفسه ذلاً ، ولا يفتّر بصولة ^(٣) أتباع الهوى وكبرهم
فهم أذلّ الناس بواطناً ، قد جمعوا بين فصيلتي الكبر والذلّ .

(السادس عشر) : أن يوازن بين سلامة الدين والعرض والمال والجاه ونيل

(١) الوطر : الحاجة ، أو حاجة لك فيها هم وعناية . والجمع أوطار .

(٢) يسببه : يأسره .

(٣) الصولة : السطوة أو القدرة .

اللذة المطلوبة ، فإنه لا يجد بينهما نسبة التّبتّة ، فليعلم أنه من أسفه الناس ببيعته هذا بهذا .

(السابع عشر) : أن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهر عدوّه ، فإن الشيطان إذا رأى من العبد ضعف عزيمة وهمة وميلا إلى هواه طمع فيه وصرعه وأبلجه بلبجام الهوى وساقه حيث أراد ، ومتى أحس منه بقوة عزمٍ وشرفٍ نفسٍ وعلوِّ همةٍ لم يطمع فيه إلا اختلاساً وسرقة .

(الثامن عشر) : أن يعلم أن الهوى ماخالط شيئاً إلا أفسده ، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء ، وإن وقع في الزهد أخرجه صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة ، وإن وقع في الحكم أخرجه صاحبه إلى الظلم وصدّه عن الحق ، وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجور ، وإن وقع في الولاية والعزل أخرجه صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين حيث يؤلّى بهواه ويعزل بهواه ، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة ، فبا قارن شيئاً إلا أفسده .

(التاسع عشر) : أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخلٌ كلّ ابن آدم إلا من باب هواه ، فإنه يُطِيفُ به من أين يدخل عليه حتى يفسد عليه قلبه وأعماله ، فلا يجد مدخلاً إلا من باب الهوى ، فيبصرى معه سرّيان السم في الأعضاء .

(العشرون) : أن الله سبحانه وتعالى جعل الهوى مضاداً لما أنزله على رسوله ، وجعل اتباعه مقابلاً لمتابعة رسله ، وقسم الناس إلى قسمين : أتباع الوحي ، وأتباع الهوى ، وهذا كثيرٌ في القرآن كقوله تعالى : (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَكْفُرُونَ أَهْوَاءَهُمْ)^(١) .

(١) الآية : ٥٠ سورة القصص .

وقوله تعالى : (وَلَئِنْ أَتَيْتُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكُمْ مِنْ أَلْعَلِّمْ^(١))
ونظائره .

(الحادى والعشرون) : أن الله سبحانه وتعالى شبه أتباع الهوى بأخس
الحيوانات صورة ومعنى ، فشبهم بالكلب تارة كقوله تعالى : (وَلَسَكِنَّهُ
أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَشَبَّهُ لَكُمُ الْكَلْبُ)^(٢) وبالحر تارة كقوله
تعالى : (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ . فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ)^(٣) وقلب صورهم إلى
صورة القردة والخنازير تارة .

(الثانى والعشرون) : أن متبوع الهوى ليس أهلاً أن يطاع ولا يكون
إماماً ولا متبوعاً ، فإن الله سبحانه وتعالى عزله عن الإمامة ونهى عن طاعته ،
أما عزله فإن الله سبحانه وتعالى قال لخليله إبراهيم : (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا
قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)^(٤) أى لا ينال عهدي بالإمامة
ظالماً . وكل من اتبع هواه فهو ظالم كما قال الله تعالى : (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
أَهْوَاءَهُمْ يُغَيِّرُ عِلْمًا)^(٥) وأما النهى عن طاعته فلقوله تعالى : (وَلَا تُطِيعْ مَنْ
أَغْفَلْنَا قُلُوبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)^(٦) .

(الثالث والعشرون) : أن الله سبحانه وتعالى جعل متبوع الهوى بمنزلة

(١) الآية ١٢٠ . سورة البقرة .

(٢) الآية ١٧٦ . سورة الأعراف .

(٣) الآيات ٥٠ و ٥١ . سورة المدثر . والحر المستنفر : الوحشية ،
والفسورة : الأسد .

(٤) الآية ١٢٤ . سورة البقرة .

(٥) الآية ٢٩ . سورة الروم .

(٦) الآية ٢٨ . سورة السكف . وفرطاً : إسرافاً .

عابد الوثن فقال تعالى : (أَرَأَيْتَ بَيْنَ أَتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ)^(١) في موضعين من كتابه ، قال الحسن : هو المنافق لا يهوى شيئاً إلا ركبته ، وقال أيضاً : المنافق عبد هواه لا يهوى شيئاً إلا فعله .

(الرابع والعشرون) : أن الهوى هو حظار^(٢) جهنم المحيط بها حولها ، فمن وقع فيه وقع فيها كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حُفَّتْ جَلَنَةُ الْمَسْكَارَةِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » .

وفي الترمذی من حديث أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه : « لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ أَرْسَلَ إِلَيْهَا جِبْرِيلَ فَقَالَ : انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا ، فَجَاءَ فَانْظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا فَرَجَعَ إِلَيْهِ وَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ مِنْ عِبَادِكَ إِلَّا دَخَلَهَا ، فَأَمَرَهَا فَحُجِبَتْ بِالْمَسْكَارَةِ وَقَالَ : ارْجِعْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَرَجَعَ فَإِذَا هِيَ قَدْ حُجِبَتْ بِالْمَسْكَارَةِ ، فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ ، قَالَ : اذْهَبْ إِلَى النَّارِ فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا ، فَجَاءَ فَانْظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا ، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا ، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ ، فَقَالَ : ارْجِعْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا ، فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُو مِنْهَا أَحَدٌ » قال الترمذی : هذا حديث حسن صحيح .

(الخامس والعشرون) : أنه يُخَافُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهَوَى أَنْ يَنْسَلَخَ مِنْ

(١) الآية ٤٣ . سورة الفرقان والآية ٢٣ . سورة الجاثية بزيادة الفاء بعد

همزة الاستفهام .

(٢) الحظار : كل شيء مبعثر بين شيتين كهائط البستان . وحظار الأرض .

المحاط بها .

الإيمان وهو لا يشمر ، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به »^(١) . وصح عنه أنه قال : « أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى »^(٢) .

(السادس والعشرون) : أن اتباع الهوى من المهلكات . قال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث منجيات وثلاث مهلكات : فإما المنجيات فتقوى الله عز وجل في السر والعلانية ، والقول بالحق في الرضا والسخط ، والقصد في الغنى والفقر . وإما المهلكات فهوى متبع ، وشح مطاع ، وإعجاب المرء بنفسه »^(٣) .

(السابع والعشرون) : أن مخالفة الهوى تورث العبد قوة في بدنه وقابه ولسانه ، قال بعض الساف : الغالب لهواه أشد من الذي يفتح المدينة وحده . وفي الحديث الصحيح المرفوع : « ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »^(٤) وكما تمرن على مخالفة هواه أكتسب قوة إلى قوته .

(الثامن والعشرون) : أن أغزر الناس مروءة أشدهم مخالفة لهواه . قال معاوية : المروءة ترك الشهوات وعصيان الهوى ، فاتباع الهوى يزمن^(٥)

(١) تقدم تخريجه في صفحة ٢٣ .

(٢) تقدم هذا الحديث بسنده في صفحة ٤٠٢ .

(٣) تقدم في صفحة ٤٠٣ معزواً إلى المسند وغيره .

(٤) رواه البخاري ومسلم وأحمد في مسنده .

(٥) يزمن : يذهب ويضمف .

المُرُوءة ، ومخالفته تنعُشها .

(التاسع والعشرون) : أنه ما من يوم إلا والهوى والعقل يعتلجان^(١) في صاحبه ، فأَيُّها قوَى على صاحبه طرده وتحكم وكان الحسَم له . قال أبو الدرداء : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله^(٢) ، فإن كان عمله^(٢) تبعاً لهواه فيومه يوم سوء ، وإن كان هواه تبعاً لعمله^(٢) فيومه يوم صالح .

(الثلاثون) : أن الله سبحانه وتعالى جعل الخطأ واتباع الهوى قرينين ، وجعل الصواب ومخالفة الهوى قرينين ، كما قال بعض السلف : إذا أشكل عليك أمران لا تدري أيها أرشد فخالف أقربهما من هواك ، فإن أقرب ما يكون الخطأ في متابعة الهوى .

(الحادى والثلاثون) : أن الهوى داء ودواؤه مخالفته ، قال بعض العارفين : إن شئت أخبرتك بدائك ، وإن شئت أخبرتك بدوائك ، دأوك هواك ، ودواؤك ترك هواك ومخالفته .

وقال بشر الحافى رحمه الله تعالى : البلاء كله في هواك ، والشفاء كله في مخالفتك إياه .

(الثانى والثلاثون) : أن جهاد الهوى إن لم يكن أعظمَ من جهاد الكفار فليس بدونه ، قال رجلٌ للحسن البصرى رحمه الله تعالى : يا أبا سعيد ، أىّ الجهاد أفضل ؟ قال : جهادك هواك . وسمعت شيخنا يقول : جهاد النفس والهوى أصلُ جهاد الكفار والمنافقين ، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً حتى^(٣) يخرج إليهم .

(١) يعتلجان : يصطرعان .

(٢) كذا . . ولعل الصواب : عقله .

(٣) كذا . . ولعل الصواب : ثم .

(الثالث والثلاثون) : أن الهوى تخليط^(١) ومخالفته حمية^(٢) ، ويخاف على من أفرط في التخليط وجانب الحمية أن يصرعه داؤه . قال عبد الملك بن قريش : مررت بأعرابي به رمك شديد ودموعه تسيل على خديه فقلت : ألا تسمع عينيك ؟ قال : نهاني الطيب عن ذلك ، ولاخير فيمن إذا زجر لا ينزجر ، وإذا أمر لا يأمر ، فقلت ألا تستحي شيئاً ؟ فقال : بلى ولكنى أحسى ، إن أهل النار غلبت شهوتهم حيتهم فهلكوا .

(الرابع والثلاثون) : أن اتباع الهوى يخلق عن العبد أبواب التوفيق ، ويفتح عليه أبواب الخذلان ، فتراه يلجج^(٣) بأن الله لو وفق لكان كذا وكذا ، وقد سد على نفسه طرق التوفيق باتباعه هواه . قال الفضيل ابن عياض : من استحوذ عليه الهوى واتباع الشهوات انقطعت عنه موارد التوفيق .

وقال بعض العلماء : الكفر في أربعة أشياء : في الغضب ، والشهوة والرغبة ، والرغبة ، ثم قال : رأيت منهن اثنتين : رجلاً غضب فقتل أمه ، ورجلاً عشق فتنصر . وكان بعض السلف يطوف بالبيت فنظر إلى امرأة جميلة فمشى إلى جانبها ثم قال :

أهوى هوى الدين واللذات تعجبني

فكيف لي بهوى اللذات والدين

فقلت دع أحدهما تنل الآخر .

(١) التخليط . التخبيط والاضطراب .

(٢) الحمية : الامتناع مما يضر والوقاية منه

(٣) اللجج بالشئ : اللوع به ، وقد لجج به إذا أغرى به فشا به عليه .

(الخامس والثلاثون): أن من نصر هـ راه فسد عليه عقله ورأيه ، لأنه قد خان الله في عقله فأفسده عليه ، وهذا شأنه سبحانه وتعالى في كل من خانته في أمر من الأمور ، فإنه يفسده عليه .

وقال المعتصم يوماً لبعض أصحابه : يا فلان إذا نصر الهوى ذهب الرأي . وسمعت رجلاً يقول لشيخنا : إذا خان الرجل في نقد الدرام سلبه الله معرفة النقد - أو قال نسيه - . فقال الشيخ : هكذا من خان الله تعالى ورسوله في مسائل العلم .

(السادس والثلاثون): أن من فسح لنفسه في اتباع الهوى ضيق عليها في قبره ويوم معاده ، ومن ضيق عليها بمخالفة الهوى وسع عليها في قبره ومعاده ، وقد أشار الله تعالى إلى هذا في قوله تعالى : (وَجَزَأْهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا)^(١) . فلما كان في الصبر الذي هو حبس النفس عن الهوى خشونة وتضييق ، جازاهم على ذلك نعمة الحرير وسعة الجنة . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى في هذه الآية جازاهم بما صبروا عن الشهوات .

(السابع والثلاثون): أن اتباع الهوى يصرع العبد عن النهوض يوم القيامة عن السعي مع الناجين ، كما صرع قلبه في الدنيا عن مراقبتهم . قال محمد بن أبي الورد : إن لله عز وجل يوماً لا ينجو من شره منقاد لهواه ، وإن أبطأ الصرعى نهضة يوم القيامة صريع شهوته ، وإن العقول لما جرت في ميادين الطلب كان أوفرها حظاً من يطالبها بقدر ما يحبه من الصبر . والعقل معدن ، والفكر مَعُول .

(الثامن والثلاثون) : أن اتباع الهوى يحل العزائم ويوهنها ، ومخالفته تشدّها

(١) الآية ١٣ : سورة الدهر .

وتقوَّيها . والعزائم هي مركبُ العبد الذي يسيره إلى الله والدَّار الآخرة ، فتى
تعطلُّ المركوبُ أو شك أن ينقطع المسافر . قيل ليحيى بن مُعاذ : مَنْ أصحُّ الناس
عزماً ؟ قال : الغالبُ لهواه . ودخل خلف بن خايصة كلِّي سليمان بن حبيب بن
المهلب وعنده جاريةٌ يقال لها البدر من أحسن الناس وجهاً ، فقال له سليمان :
كيف ترى هذه الجارية ؟ فقال : أصاح الله الأمير مارأت عيناى أحسنَ منها
قطُّ ، فقال له : خذ بيدها ، فقال : ما كنت لأفجع الأمير بها وقد رأيت شدة
محبته بها ، فقال : ويحك خذها كلِّي شدةً عجبي بها ليعلم هواى أنى له غالب ، وأخذ
بيدها وخرج وهو يقول :

لقد حباني وأعطاني وفضَّلني عن غير مسألةٍ منه سليمانُ
أعطاني البدرَ خَوْدًا^(١) في محاسنها والبدرُ لم يُعطه إنسٌ ولا جانُ
ولست يوماً بناسٍ فضله أبداً حتى يفتينني لحدُّ وأكفانُ

(التاسع والثلاثون) : أن مثلَ راكب الهوى كمثل راكب فرسٍ حديدٍ
صعبٍ جموح لا لجام له فيوشك أن يصرعه فرسه في خلال جريه به أو يسيره به
إلى مهلكٍ . قال بعض العارفين : أسرع المطايا إلى الجنة الزهد في الدنيا ، وأسرعُ
المطايا إلى النار حبُّ الشهوات ، ومن استوى على متن هواه أسرع به إلى وادى
الهلكات . وقال آخر : أشرف العلماء من هرب بدينه من الدنيا ، واستصعب
قياده على الهوى . وقال عطاء : من غلب هواه عقله وجزعه صبره افتضح .

(الأربعون) : أن التوحيد واتباع الهوى متضادان ، فإن الهوى صنمٌ ولكل
عبد صنمٌ في قلبه بحسب هواه . وإنما بعث الله رسلاً بكسر الأصنام وعبادته
وحده لا شريك له ، وليس مرادُ الله سبحانه كسر الأصنام الجسدة وترك

(١) الخود : الشابة الناعمة .

الأضنام التي في القلب ، بل المراد كسرهما من القلب أولاً : قال الحسن بن علي المطوّعي : صنم كل إنسان هواء ، فمن كسره بالخالفة استحق اسم الفتوة . وتأمل قول الخليل صلى الله عليه وسلم لقومه : (مَا هَذِهِ التَّمَائِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ) (١) كيف تجسده مطابقاً للتأويل التي يهواها القلب ويعكف عليها ويعبدّها من دون الله ، قال الله تعالى : (أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا . أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) (٢) .

(الحادى والأربعون) : أن مخالفة الهوى مطردة للداء عن القلب والبدن ، ومتابعته سجيبة لداء القلب والبدن ، فأمرض القلب كلها من متابعة الهوى ، ولو قسمت على أمراض البدن لرأيت غالبها من إيثار الهوى على ما ينبغي تركه .
(الثاني والأربعون) : أن أصل العداوة والشر والحسد الواقع بين الناس من اتباع الهوى ، فمن خالف هواه أراح قلبه وبدنه وجوارحه فاستراح وأراح . قال أبو بكر الوراق : إذا غلب الهوى أظلم القلب ، وإذا أظلم ضائق الصدر ، وإذا ضائق الصدر ساء الخلق ، وإذا ساء الخلق أبغضه الخلق ، وأبغضهم ، فانظر ماذا يتولد من التباغض من الشر والعداوة وترك الحقوق وغيرها .

(الثالث والأربعون) : أن الله سبحانه وتعالى جعل في العبد هوى وعقلاً فأيهما ظهر توأرى الآخر . كما قال أبو علي الثقفى : من غلبه هواه توأرى عنه عقله ، فانظر عاقبة من استترغنه عقله وظهر عليه خلافه . وقال علي بن سهل رحمه الله : العقل والهوى يتنازعان ، فالتوفيق قرين العقل ، والخذلان قرين الهوى ، والنفس واقفة بينهما ، فأيهما غلب كانت النفس معه .

(١) الآية ٥٢ سورة الانبياء .

(٢) الأيتان ٤٣ و ٤٤ . سورة الفرقان

(الرابع والأربعون) : أن الله سبحانه تعالى جعل القلب ملك الجوارح ، ومعدن معرفته ومحبيه وعبوديته ، واهتجته بسلاطين وجيوش وعوالم وعدتين فالحق والزهد والهدى سلطان ، وأعوانه الملايسكة وجيشه الصدور خلاص ومجانبة الهوى ، والباطل سلطان ، وأعوانه الشياطين وجنده وعدته اتباع الهوى ، والنفس واقفة بين الجيشين . ولا يقدم جيش الباطل على القلب إلا من تغرته وناخيته ، فهي تخامر على القلب وتصير مع عدوه غايه فتكون الدائرة عليه ، فهي التي أعطى عدوها عدو من قبلها ، وتفتح له باب المدينة فيدخل ويتملك ويقع الخذلان على القلب .

(الخامس والأربعون) : أن أعدى عدو المؤمن الشرير شيطانه وهواه ، وأصدق صديق له عقله والملك الناصح له ، فإذا اتبع هواه أعطى بيده الهدى واستأسر له وأشتمته به وساء صديقه ووليه ، وهذا هو بعينه هو جهنم البلاء ، ودرك الشقاء ، وشوء القضاء ، وسمامة الأعداء .

(السادس والأربعون) : أن لكل عبد بداية ونهاية ، فمن كانت بدايته اتباع الهوى ، كانت نهايته الدل والضغار والحزمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه ، بل يصير له ذلك في نهايته عذاباً يعذب به في قلبه كما قال القائل :

مأرب كانت في الشباب لاهياً عذاباً فصارت في الشيخ عذاباً

فلو تأمات حال كل ذي حال سيئة زرية لرأيت بدايته الذهاب مع هواه وإيثاره على عقله ، ومن كانت بدايته مخالفة هواه وطاعة داعي ربه كانت نهايته العز والشرف والعلي والجاه عند الله وعند الناس . قال أبو علي الدقاق : من ملك شيوته في حال شبابه أعزه الله تعالى في حال كهولته .

وقيل للمهلب بن أبي صفرة : بم نلت ما نلت ؟ قال : بطاعة الحزم وعصيان الهوى ، فهذا في بداية الدنيا ونهايتها ، وأما الآخرة فقد جعل الله سبحانه الجنة نهاية من خالف هواه ، والنار نهاية من اتبع هواه .

(السابع والأربعون) : أن الهوى رقى في القلب ، وغل في العنق ، وقيد في الرجل ، ومتابعه أشد لكل شيء الملكة ، فمن خالفه عتق من ربه وصار حرًا ، وخلع العنق من عنقه والتقى من رجليه وصار بمنزلة رجل سالم لرجل ، بعد أن كان رجلا فيه شركاء متشاكسون ^(١) .

رب مستور سبته شهوة فتعري ستره فانهتك
صاحب الشهوة عبداً فإذا غلب الشهوة أضحي ملكا
وقال ابن المبارك :

ومن البلاء والبلاء علامة أن لا يرى لك عن هواك نزوع
العبد عبد النفس في شهواتها والحمر يشبع تارة ويجموع

(الثامن والأربعون) : أن مخالفة الهوى تقيم العبد في مقام من لو أقسم على الله لأبره ، فيقضى له من الحوائج أضعاف أضعاف ما فاتته من هواه ، فهو كمن رغب عن بقر فاعطى عيوضها درة . ومتبع الهوى يفوته من مصالحه العاجلة والآجلة والعيش الهنيء مالا نسبة لما ظفر به من هوا البتة ، فتأمل انبساط يد يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام ولسانه وقدمه ونفسه بعد خروجه من السجن لما قبض نفسه عن الحرام .

وقال عبد الرحمن بن مهدي : رأيت سفيان الثوري رحمه الله تعالى في المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : لم يكن إلا أن وضعت في الحدى حتى وقفت

(١) تشاكس القوم : تعاسروا وتحالفوا . والشكس : العسر السوء الخلق قال تعالى (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون) .

بين يدي الله تبارك وتعالى، فحاسبني حساباً يسيراً ثم أمر بي إلى الجنة ، فبينما أنا أدور بين أشجارها وأنهارها لا أسمع حساً ولا حركة إذ سمعت قائلاً يقول :
سفيان بن سعيد . فقلت : سفيان بن سعيد ، فقال : تحفظ أنك آثرت الله عز وجل
على هوالك يوماً ؟ قلت : إى والله ، فأخذنى النثار^(١) من كل جانب .

وقال عبدالرزاق : بعث أبو جعفر الخثعمي حين خرج إلى مكة وقال :
إن رأيت سفيان فاصلموه ، فجاؤوا ونصبوا الخشب ، وطلب رأسه في حجر النضيل
فقال له أصحابه : اتق الله عز وجل ولا تشمت بنا الأعداء ، فتقدم إلى الأستار
ثم أخذها بيده وقال : برئت منه إن دخلها أبو جعفر ، فمات قبل أن يدخل
مكة ، فتأمل عاقبة مخالفة الهوى كيف أقامه في هذا المقام .

(التاسع والأربعون) : أن مخالفة الهوى توجب شرف الدنيا وشرف
الآخرة ، وعز الظاهر وعز الباطن ، ومتابعته تضع العبد في الدنيا والآخرة وتذله في
الظاهر وفي الباطن ، وإذا جمع الله الناس في صعيد واحد نادى مناد : ايعلمن
أهل الجمع من أهل الكرم اليوم ، ألا يقيم المتقون ، فيقومون إلى محل الكرامة ،
وأتباع الهوى ناكروهم وسهم في الموقف في حر الهوى وعرقه وأبيه ، وأولئك
في ظل العرش .

(الخسون) : أنك إذا تأملت السبعة الذين يظلمهم الله عز وجل في ظل
عرشه يوم لا ظل إلا ظله^(٢) ، وجدتهم إنما نالوا ذلك الغل بمخالفة الهوى ، فإن
الإمام المساط القادر لا يتمكن من العدل إلا بمخالفة هواه ، والشاب المؤثر

(١) النثار : ما نثر في حفلات السرور من حلوى ونقود ، وبالضم ما نثر من

الشيء .

(٢) تقدم هذا الحديث في صفحة ٢٢١ وقد أغفل المؤلف هنا ذكر الرجلين

الذين نحابا في الله

لعبادة الله على داعي شيايه لولا مخالفة هواه لم يقدر على ذلك ، والرجل الذي قلبه معلق بالمساجد إنما حمل على ذلك مخالفة الهوى الداعى له إلى أماكن اللذات ، والمتصدق المخرجى لصدقته عن شماله لولا قهره لهواه لم يقدر على ذلك ، والذي دعت المرأة الجميلة الشريفة فخاب الله عز وجل وبخالف هواه ، والذي ذكر الله عز وجل خالياً ففاضت عيناه من خشيته ، إنما أوصله إلى ذلك مخالفة هواه ، فلم يكن لحر الموقف وعرقه وشدة سبيل عيهم يوم القيامة ، وأصحاب الهوى قد بلغ منهم الحر والعرق كل مبلغ وهم ينتظرون بعد هذا دخول سجن الهوى ، فالله سبحانه وتعالى المسؤول أن يعيدنا من أهواء نفوسنا الأمارة بالسوء وأن يعمل هو انا تيمماً لما يحببه ويرضاه ، إنه على كل شيء قدير ، وبالإجابة جدير .

« تم الكتاب والحمد لله »

الفهرست

صفحة

تصدير	
المراجع	
مقدمة المؤلف	٣
الباب الأول : في أسماء الحجة	١٦
الباب الثاني : في اشتقاق هذه الأسماء ومعانيها	١٧
الباب الثالث : في نسبة هذه الأسماء بعضها إلى بعض	٥٤
الباب الرابع : في أن العالم العلوي والسفلي إنما وجد بالحجة ولأجلها	٥٥
الباب الخامس : في أدواعي الحجة ومتاعها	٦٦
الباب السادس : في أحكام النظر وغائله وما يحثي على صاحبه	٩٢
الباب السابع : في ذكر مناظرة بين القلب والعين	١٠٦
الباب الثامن : في ذكر الشبهة التي احتج بها من أباح النظر إلى من لا يصلح له الاستمتاع به وأباح عشقه	١١٢
الباب التاسع : في الجواب عما احتج به هؤلاء الطائفة وما لها وما عليها	١٢١
في هذا الاحتجاج	
الباب العاشر : في ذكر حقيقة العشق وأوطافه وكلام الناس فيه	١٣٧
الباب الحادي عشر : في العشق وهل هو اضطراري خارج عن الاختيار ، أو أمر اختياري واختلاف الناس في ذلك وذكر الصواب فيه	١٤٢
الباب الثاني عشر : في سكرة العشق	١٤٩
الباب الثالث عشر : في أن اللذة تابعة للمحبة في البكال والقصان	١٥٥
الباب الرابع عشر : فيمن مدح العشق وتمناه ، وعبط صاحبه على ما أوتي من مناه	١٦٩
الباب الخامس عشر : فيمن ذم العشق وتبرم به ، وما احتج به كل فريق على مذهب	١٨٢

- ١٩٧ الباب السادس عشر : في الحكم بين الفريقين ، وفصل النزاع بين الطائفتين .
- ٢٠٣ الباب السابع عشر : في استحباب تخيير الصوّار الجميلة للوصال الذي يحبه الله ورسوله .
- ٢١٢ الباب الثامن عشر : في أن دواء المحبين ، في كمال الوصال الذي أباحه رب العالمين .
- ٢٢١ الباب التاسع عشر : في ذكر فضيلة الجمال ، وميل النفوس إليه على كل حال .
- ٢٥٩ الباب العشرون : في علامات المحبة وشواهدا .
- ٢٨٨ الباب الحادى والعشرون : في اقتضاء المحبة أفراد الحبيب بالمحب ، وعدم التشريك بينه وبين غيره فيه .
- ٢٩٥ الباب الثانى والعشرون : في غيره المحبين على أحبابهم .
- ٣١٦ الباب الثالث والعشرون : في عفاف المحبين مع أحبابهم .
- ٣٥٢ الباب الرابع والعشرون : في ارتكاب سبل الحرام ، وما يفضى إليه من المفاسد والآلام .
- ٣٧٧ الباب الخامس والعشرون : في رحمة المحبين ، والشفاعة لهم إلى أحبابهم في الوصال الذي يبيحه الدين .
- ٣٩٤ الباب السادس والعشرون : في ترك المحبين أدنى المحبوبين رغبة في أعلاهما .
- ٤٤٥ الباب السابع والعشرون : فيمن ترك محبوبة حراماً فبذل له حلالاً ، أو أعاضه الله خيراً منه .
- ٤٥٩ الباب الثامن والعشرون : فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام ، على لذة الوصال الحرام .
- ٤٦٩ الباب التاسع والعشرون : في ذم الهوى ، وما في مخالفته من نيل المنى .